د. عمرو شريف



ثمار رحلة عبدالوهاب المسيرى الفكرية

قراءة فى فكره وسيرته

فرست بوك
للنشر والتوزيع

ثمار رحلة

عبد الوهاب المسيرى الفكرية

قراءة فى فكره وسيرته

د. عمرو شريف

أستاذ الجراحة العامة

كلية الطب - جامعة عين شمس

الطبعة الثالثة

1435 هـ 2014 م

البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

شريف، عمرو.

ثمار رحلة عبد الوهاب المسيرى الفكرية: قراءة فى فكرة وسيرته/ عمرو شريف.

ط١. ـ القاهرة: فرست بوك للنشر، ٢٠١٤م.

٣٩٦ص؛ ١٤×٢١سم.

تدمك 978-977-850-920-5

١ ـ الصحفيون المصريون.

٢ ـ المسيرى، عبد الوهاب

أ ـ العنوان. ٩٢٠,٠٧

رقم الإيداع ٣٤٨٧/ ٢٠١٤م

الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 850 - 920 - 5

فهرس

الموضوع	الصفحة

تقديـم

الرحلة والمرتحل

كثيرًا ما سمعنا عن موسوعة الدكتور عبد الوهاب المسيرى (رحمه الله) حول اليهودية والصهيونية، وقد اعتدنا أن نقرأ ما كان يكتب من مقالات وتحليلات فى جريدة الأهرام وغيرها من الصحف والمجلات، هذا بالإضافة إلى كتبه فى السياسة وعلم الاجتماع والأدب. ولم تكن مفاجأة لقرائه أن يحصل د. المسيرى على **جائزة الدولة التقديرية فى الآداب** عام 2005، كما سبق أن حصل على **جائزة «العويس»** العالمية عن مجمل أعماله وأهمها سفره العظيم «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيرى جديد».

قارئى الكريم...

ليلة أن التقيت مع كتاب د. المسيرى **«رحلتى الفكرية فى البذور والجذور والثمر، سيرة غير ذاتية غير موضوعية»**، لم أترك الكتاب من يدى، بل أصبحت أحداث وأفكار الرحلة من الحديث اليومى مع أفراد أسرتى، كما كنت أقرأ على زوارى بعضًا من فقراتها وأناقش معهم أفكارها. وكثيرًا ما أدرت حوارات حول الكتاب مع طلبتى فى كلية الطب، جامعة عين شمس، وقد أبدوا تجاوبًا كبيرًا وتحمسًا لأفكاره، **فأيقنت حاجة الشباب للاطلاع على هذه الرحلة الفكرية من البذور والجذور حتى الثمر.**

منهج كتاب المسيرى

وأتركك مع صاحب الرحلة ليقدم لرحلته بنفسه، فى مقتطفات اخترتها من مقدمة كتابه، حرصت أن تبين المنهج الذى اتبعه فى كتابته لسيرته:

«والصفحات التالية هى قصة حياتى أو رحلتى الفكرية كمثقف عربى مصرى، رحلة ترابطت فيها الأفكار (الثمر) بجذورها (حياتى الثقافية بأسرها) وببذورها (تكوينى فى دمنهور). وهى ليست قصة حياتى الخاصة زوجًا وأبًا وابنًا وصديقًا وعدوًا، فهى ترصد تحولاتى الفردية فى الفكر والمنهج، كما تؤرخ فى الوقت نفسه لجيلى، أو لقطاع منه، فتحولاتى ليست بأى حال منقطعة الصلة بما يحدث حولى، لذلك فهى (سيرة غير ذاتية)».

«كذلك فإن هذه الرحلة الفكرية (سيرة غير موضوعية) أى لا تقف عند الموضوعات بل تلتقى فيها القضايا الفكرية العامة (العام) مع أحداث ووقائع محددة فى حياتى الشخصية (الخاص). لذلك حينما طلبت من الرسام كمال بلاطة أن يرسم لى صورة [بورتريه] بمناسبة وصولى سن الأربعين، قال إن من الأفضل رسم أعمالى، فأخذ بعض مؤلفاتى ورسمها، فكان البورتريه الذى رسمه صورة غير ذاتية غير موضوعية».

وإذ يحمل د. المسيرى هَمَّ المستقبل على كتفيه، فقد ختم تقديمه لرحلته بدعوة وجهها للمفكرين العرب:

«ولتكن هذه السيرة دعوة للمفكرين العرب أن يكتبوا سيرهم غير الذاتية غير الموضوعية التى تحتوى على تلخيص لأفكارهم وبذورها وكيفية تشكلها، ليضعوا خبرتهم تحت تصرف الأجيال الجديدة. ومما يجعل المسألة أكثر إلحاحًا تعاظم الفجوة بين الأجيال، مما يؤدى إلى عدم توارث الحكمة والمعرفة، فأخشى ما أخشاه أن تبدأ الأجيال القادمة من نقطة الصفر».

وكما حرص د. المسيرى على **ألا تبدأ الأجيال القادمة من نقطة الصفر**، فقد التقت مشاعرى معه حول نفس الفكرة، خاصة بعد ما لمسته من حاجة وتجاوب وتعطش من طلبتى، كما لمسه بالتأكيد كل من تعامل مع الشباب ومشاكلهم. لذلك فقد آثرت **أن أُبَسِّط «رحلة المسيرى الفكرية»** لتكون مع عمقها الكبير فى متناول أفهام الشباب وغير المتخصصين، فيتتبعون البذور والجذور ويُطعَمون من الثمر، فى زمن تسود فيه العولمة وما بعد الحداثة وطمس الهُوِيَّة، كما تسود فيه الصراعات المُوَجَّهة بعد ثورات ما عُرف بـ«بالربيع العربى».

النموذج المعرفى فى فكر د. المسيرى

لا نستطيع النفاذ إلى عالم د. المسيرى إلا إذا استوعبنا مفهومه حول **«النموذج المعرفى كأداة للإدراك والتحليل»**. وإذا كنا سنُفَصِّل الحديث فيما بعد عن هذا المفهوم المهم فينبغى أن نشير إليه فى المقدمة، فنقول:

إن الإنسان لا يدرك شيئًا مما حوله بشكل مباشر، وإنما من خلال **«نموذج معرفى»** يتم تكوينه تدريجيًا ـ أحيانًا بشكلٍ واعٍ وغالبًا بشكل غير واعٍ ـ حتى يصبح جزءًا من وجدانه وسليقته وإدراكه. بذلك يصبح النموذج المعرفى هو المنظار **الذى يُنظَر من خلاله إلى الواقع**، أمَّا الإدراك المباشر للواقع بتفاصيله المتناثرة فهو تلقٍ سطحى للأمور (كعدسة الكاميرا) لا يؤدى إلى أى فهم حقيقى.

ولنضرب مثالًا للنموذج المعرفى: إذا نظرنا إلى **«واقع المسلمين»**، فإن من يتخذون **«فكر المؤامرة»** كنموذج معرفى ينظرون من خلاله للواقع، سيفسرون ما نعانى منه بأنه نتيجة تحالف قوى مختلفة آثرت ألا تقوم للمسلمين قائمة. أمَّا من يتمتعون بالقدرة على النقد الذاتى ويعتبرون أن النجاح هو محصلة

مقدمات وأسباب (إن أخذنا بها أصبنا النجاح وإن أهملناها أصابنا الفشل) فهؤلاء ينظرون إلى الواقع من خلال نموذج «الأخذ بالأسباب» ويُحَمِّلون تقصيرنا مسئولية ما نحن فيه إلى حد بعيد.

وكذلك إذا نظرنا إلى «هجمة الجراد الشرسة على البلاد» فى أوائل عام 2005، نجد أن معظم الأصوليين الإسلاميين يتبنون نموذجًا يشير إلى الواقعة باعتبارها «عقوبة من الله ﷻ» كما حدث مع قوم فرعون. أمَّا أحزاب المعارضة فتتبنى نموذج «تقصير الحكومة والجهات المختصة» فى رصد الهجمة والتعامل معها قبل وصول الجراد إلى المناطق السكنية والأراضى الزراعية.

ويضرب د. المسيرى مثالًا طريفًا لدور النموذج المعرفى على المستوى الشخصى، فيروى لنا كيف أن عددًا من السيدات فى الولايات المتحدة أخبرنه (فى مناسبات وظروف مختلفة) أن رائحته جميلة للغاية Dr. Messiri, you smell so nice، وبدأت تساوره الأوهام بأن سحره لا يقاوم، حتى أخبرته زوجة صديقه المؤرخ كافين رايلى أن عطر (أولد سبايس) الذى اشتراه مع زوجها كان هو الوحيد تقريبًا المُتاح فى الستينيات، ولا بد أن آباء هؤلاء النسوة كانوا يستعملونه، ومن ثم فهو يذكرهن بطفولتهن، حينئذ تغيرت تمامًا رؤية د. المسيرى للموقف بعد معرفة السبب (أى معرفة النموذج المعرفى الكامن وراء الموقف): اختفت فورًا صورة دون جوان الخطير وحلت محلها صورة الأب الوقور الحنون. وتبين هذه الحادثة، كيف يصبح واقعنا تفاصيل متناثرة وأوهامًا إن لم نفهم النموذج المعرفى الحاكم وراءه.

وبرغم أن هذه السيرة كُتبت من خلال موضوعات، فقد وجد د. المسيرى من المفيد أن يقدم للقارئ خريطة هيكلية لمراحل حياته الزمنية والمكانية:

1938م الميلاد فى دمنهور (8 من أكتوبر).

1944 الالتحاق بمدرسة دمنهور الابتدائية، ثم مدرسة دمنهور الثانوية. حصلت على التوجيهية، أدبى فلسفة، عام 1955.

1955 الالتحاق بقسم اللغة الإنجليزية، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية.

1959 التخرج من الكلية والتعيين فيها معيدًا فى العام الذى يليه.

1963 السفر إلى الولايات المتحدة للالتحاق بجامعة كولومبيا Columbia فى نيويورك حيث حصلت على الماچستير عام 1964.

1964 الالتحاق بجامعة رتجرز Rutgers فى مدينة نيو برونزويك New Brunswick فى ولاية نيوچرسى حيث حصلت على الدكتوراه عام 1969.

1969 العودة إلى مصر للتدريس فى قسم اللغة الإنجليزية وآدابها فى كلية البنات جامعة عين شمس.

1970 التعيين لفترة قصيرة مستشارًا لوزير الإرشاد (الأستاذ محمد حسنين هيكل).

1972 صدور أول مؤلفاتى الحقيقية. **نهاية التاريخ: مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيونى**.

1975 صدور «**موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية: رؤية نقدية**»، يُشار إليها فى هذه الرحلة بـ موسوعة 1975. ثم العودة إلى الولايات المتحدة لانضم لأسرتى بعد أن ذهبت زوجتى إلى هناك للحصول على الدكتوراه. وقد عملت فى هذه الفترة مستشارًا ثقافيًا للوفد الدائم لجامعة الدول العربية لدى هيئة الأمم المتحدة بنيويورك.

1979 العودة إلى مصر للتدريس فى كلية البنات.

1983 الانتقال إلى الرياض للتدريس فى جامعة الملك سعود.

1989 الانتقال إلى الكويت للتدريس فى جامعة الكويت.

1990 العودة إلى مصر والاستقالة من الجامعة حتى أتفرغ تمامًا لكتابة الموسوعة.

1992 صدور كتاب **إشكالية التحيز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد**.

1996 صدور كتاب **الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ: رؤية حضارية جديدة**.

1999 صدور الموسوعة.

2000	صدور بعض قصص الأطفال.
2001	صدور كتاب العالم من منظور غربى وكتاب رحلتى الفكرية.
2002	صدور بعض أعمالى الأخرى، من أهمها الموسوعة الموجزة وديوان الشعر (أغانى الخبرة والحيرة والبراءة) وبعض الدراسات الأدبية وكتاب العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة وكتاب الحداثة وما بعد الحداثة.
2004	شارك فى تأسيس الحركة المصرية من أجل التغيير (حركة كفاية)، انطلاقًا من إيمانه بألا ينعزل المفكر فى برج عاجى وأن يشارك بفاعلية فى هموم شعبه، ثم تولى منصب المنسق العام للحركة فى يناير 2007. وقد توفى د. عبد الوهاب المسيرى بالقاهرة عام 2008.

ويقسم د. المسيرى رحلته إلى جزأين، يقول عنهما:

«وبرغم ترابط البذور بالجذور بالثمر، وأحداث حياتى بأفكارى الأساسية، فيمكن القول أن الجزء الأول من هذه الرحلة يتناول الكثير من الأحداث التى أدت إلى تكوين الأفكار والنماذج، بينما يشتمل الجزء الثانى فى معظمه على شرح للأفكار والنماذج التى تكونت.

فالجزء الأول يُسمَّى «التكوين»، أى بذور وجذور التكوين الفكرى لصاحب الرحلة، ويتناول:

الفصل الأول: (البذور الأولى)، ويركز على أحداث حياتى فى دمنهور خلال طفولتى وصباى وجزءٍ من شبابى.

الفصل الثانى: (بدايات الهُوِيَّة)، ويتناول تلك الأحداث فى حياتى التى أصبحتُ من خلالها واعيًا بذاتى.

الفصل الثالث: (فى الولايات المتحدة)، ويغطى فترة الشباب المتأخر.

الفصل الرابع: (من بساطة المادية إلى رحابة الإنسانية والإيمان)، ويؤرخ لعملية انتقالى من المادية إلى عالم أرحب.

والجزء الثانى يُسمى «عالم الفكر»، وأشير إليه بـ(الثمر)، ويتناول:

الفصل الأول: (النماذج الإدراكية والتحليلية)، ويبدأ بعرض بعض التحولات المنهجية التى واكبت التحولات الفكرية.

الفصل الثانى: (بعض الثمرات الأولى)، ويتناول كتاباتى الأولى وبعضًا من جوانب حياتى الفكرية.

الفصل الثالث: (الصهيونية)، ويتناول إشكالية الصهيونية وعلاقتى بها، كما يتناول أفكارى حول الصراع العربى الإسرائيلى.

الفصل الرابع: (الموسوعة: تاريخها)، ويتناول قصة تدوين أهم أعمالى على الإطلاق.

الفصل الخامس: (الموسوعة: الموضوعات الأساسية)، ويعرض ملخصًا لأهم أفكار الموسوعة.

الفصل السادس: (فى عالم الأدب والفن)، وأعالج فيه كتاباتى وأفكارى التى ليس لها علاقة مباشرة بالصهيونية، رغم أنها فى معظمها تطبيق لنفس النماذج التحليلية».

تبقى ثلاث نقاط لتوضيح المنهج الذى اخترته لأعرض به «ثمار رحلة المسيرى الفكرية»:

أولًا: إن ما يعرضه علينا د. المسيرى على أنه من البذور (رحلة المجتمع التقليدى فى دمنهور) وكذلك الجذور (حياته الثقافية بأسرها) حتى أثمرت (الأفكار)، **تُعتبر كلها بالنسبة لقارئه من الثمار.**

ألا ترى معى أن فى ظل العولمة وما بعد الحداثة وطمس الهوية، تصبح بذور د. المسيرى المستمدة من المجتمع التقليدى والإحساس بالتاريخ ومن القيم والشعائر الدينية والعُرفية من أشهى الثمار؟

ثانيًا: فى رحلتى خلال بستان المسيرى الفكرى عبر طورىّ التكوين وعالم الفكر، تأملت الأحداث كما تأملت الأفكار لاقتطف من كليهما الثمر. لذا سيكون أسلوب عرضى للرحلة هو **الانتقال من ثمرة إلى ثمرة**، وسيكون ما أقدم لك تارة برواية الكاتب وتارة بروايتى

وتارة بروايته بتصرف، تبعًا لمقتضى الحال وضرورة العرض، كما سأضع لكل ثمرة عنوانًا.

ثالثًا: عرض د. المسيرى الجزء الثانى (عالم الأفكار) فى ستة فصول، وقد اخترت (لسهولة العرض وتيسيره) أن أضم الفصول: الثالث والرابع والخامس، والتى تدور حول الموسوعة وحول الصهيونية، فى فصل واحد. فجاء عرضى لعالم الأفكار فى أربعة فصول بدلًا من ستة.

وأخيرًا ينبغى أن أذكر أن أى محاولة تعجز عن أن تجنى ثمار رحلة المسيرى الفكرية كلها، **وليس ما قطفت لك من الثمر بأشهى مما تركت**، ولكنه جهد المقل فى محاولة للتقريب والتبسيط والتلخيص.

وقد أصدرت الهيئة العامة لقصور الثقافة (التابعة لوزارة الثقافة فى مصر) عام 2008، بعد أن راجعها د. عبد الوهاب المسيرى بنفسه، ثم أصدرت الطبعة الثانية عقب وفاة المفكر الكبير. ولحرصى على أن تظل أفكار د. المسيرى بيننا، نسترشد بها فى الصراعات التى اشتعلت فى عالمنا العربى - خاصة فى مصر - بعد ما أُطلق عليه ثورات الربيع العربى، رأيت أهمية إصدار هذه الطبعة الثالثة المُنقحة من الكتاب.

وأختتم المقدمة بأن أقتبس ما قاله أحد الأساتذة الأمريكيين المناقشين للدكتور المسيرى عن أطروحته للدكتوراه، فأقول: «**إن الحياة بعد اطّلاعى على رحلة المسيرى الفكرية تختلف عن الحياة قبل الاطلاع عليها**».

الجزء الأول : التكوين

الفصل الأول : البذور الأولى

الحياة فى دمنهور

ذلك الزمان الجميل... زمان وَلى

فى هذا الفصل، يصحبنا د. المسيرى فى رحلة تبدأ بمولده عام 1938 ثم نشأته فى بلده دمنهور، تلك المدينة التى كانت تسودها (كباقى مدن مصر الصغيرة وقُراها) مفاهيم التراحم وعادات وتقاليد المجتمع الزراعى، ويعرض علينا صورًا حية من هذه المفاهيم. ويرصد كاتبنا بحسه ودقة ملاحظته كيف أن هذه المفاهيم والقيم قد تبدلت وتغيرت بمرور الزمن... ولا يفوته أن يعرض علينا سلبيات ذلك المجتمع التقليدى.

وسنلاحظ من الخطوة الأولى فى رحلتنا الفكرية مع د. المسيرى كيف أن هذه النشأة قد تركت آثارها العميقة فى شخصيته.

الثمرة الأولى...

أهمية الانشغال بالتاريخ: أنت إنسان بإنسانيتك... لا بماديتك

يبدأ د. المسيرى رحلته بعرض تاريخ بلدته «**دمنهور**»، وكيف أنها من أقدم مدن العالم، فقد كانت عاصمة الوجه البحرى قبل توحيد القطرين. ثم يحدثنا عن تاريخ **عائلة المسيرى** التى تنتمى إلى الأشراف، ويخبرنا أن أول مسيرى مصرى كان عالمًا فقيهًا جاء من المغرب إلى مصر فى القرن السادس عشر. كما يحدثنا عن قبائل المسيرية الموجودة فى السودان، ويرجح أن لقب المسيرى مشتق من «المصرى». وكعادة المصريين حرص والد كاتبنا على أن يحفظ الابن أسماء أجداده، وأن يلم بتاريخ عائلته.

وقد أنبتت هذه البذرة فى نفس د. المسيرى حبًا واعتزازًا بأصله وإحساسًا بالتاريخ، انعكس فى المعمار الداخلى لمنزله (والذى حرص على أن يكون على التراث العربى بناءً وتأثيثًا)، كما ظهر فى تذييل توقيعه فى مقدمة كتبه بكلمتى (دمنهور – القاهرة).

بهذا الاعتزاز بالإسلام وبعروبته ومصريته والاهتمام بتاريخ بلدته ثم القبيلة والعائلة يوجهنا كاتبنا إلى أهمية الانشغال بالتاريخ:

«والانشغال بالتاريخ يعنى ألا ينظر الإنسان إلى واقعه بشكل مباشر، وألَّا يرى اللحظة الراهنة بحُسبانها البداية والنهاية، إنما بحُسبانها نقطة يلتقى فيها الماضى بالمستقبل. وينبغى ألَّا يتصور الإنسان أن الحاضر عالم بسيط يمكن اختزاله فى قانون أو قانونين، وإنما يراه من خلال نماذج وذكريات وتقاليد ورموز، أى أن الإنسان يواجه العالم من خلال إنسانيته لا من خلال ماديته. والإنسان كفرد ليس هو البداية والنهاية، وإنما هو **امتداد للماضى فى الحاضر، ومن ثَمَّ فى المستقبل**. وبطبيعة الحال، لم أكن أدرك كل هذا فى طفولتى وصباى، ولكن الإدراك الواعى ليس هو السبيل الوحيد الذى يتشكل من خلاله وجدان الإنسان!».

الثمرة الثانية...

النضج السياسى: بين جيل الأربعينيات وهذا الجيل

* تعلمنا السياسة مع تعلُم القراءة والكتابة

من الأمور اللافتة للنظر أن جيل المسيرى كان ينضج سياسيًّا بسرعة، مقارنة بأجيال هذه الأيام. فكاتبنا كان يشارك فى إلقاء الحجارة على الجنود الإنجليز وهو ما زال فى السابعة، كما أصدر مجلة مدرسية وعمره لم يتجاوز الحادية عشر، وأشترك فى المظاهرات عندما أُلغيت معاهدة 1936، وشارك فى مقاطعة البضائع الإنجليزية بل وفى حرقها أيضًا. وكان يهتم بالقراءات السياسية والثقافية.

ويخبرنا د. المسيرى أنه تَنَقل من حزب مصر الفتاة إلى الإخوان المسلمين إلى الحزب الوطنى وهيئة التحرير إلى الحزب الشيوعى وهو لم يبلغ الثامنة عشرة من عمره بعد. ويوضح لنا كاتبنا دور «**مقهى المسيرى**» فى نضجه السياسى (شأن المقاهى السياسة وقتها) بأن المرء يُعبر عن رأيه أمام أصدقائه وجيرانه من رواد المقهى فى جو من المودة، دون خوف أو وجل من التجريب والخطأ.

* ما بال أبناء هذا الجيل؟

وحينما أقارن بين الاهتمام بالسياسة الذى كان أبناء جيلى يُبدونه وعدم الاكتراث بالشئون العامة الذى يبديه أبناء هذا الجيل، أتعجب وأتساءل عن السبب فى ذلك: هل هو انتشار التليفزيون وسيطرة وسائل الإعلام، أم غياب الأحزاب السياسية، أم تصاعد معدلات العلمنة (أى البحث عن اللذة والمتعة الشخصيتين) والعولمة (أى الإحساس بعدم الانتماء إلى وطن محدد وتقبل الأشكال شبه الحضارية العامة)؟. ولا يقتصر عدم النضج السياسى على مصر، بل هو ظاهرة عامة منتشرة فى كل أنحاء العالم، وإن

كانت حركة الجماهير فى مصر، بما فى ذلك أطفال المدارس، والعالم العربى بعد انتفاضة الأقصى المباركة، جعلتنى أُعدِّل من رؤيتى بعض الشىء[1].

الثمرة الثالثة...

إيقاع الحياة فى المجتمع التقليدى

كان إيقاع الحياة فى دمنهور هادئًا، مما أتاح لنا دائمًا متسعًا من الوقت. وكان اليوم ينقسم إلى قسمين: الصباح فيه يعمل الناس، ثم بعد الظهر وفيه يتزاورون أو يذهبون إلى المتنزهات أو الحقول المجاورة، ويفصل بين القسمين القيلولة.

ولنقارن هذا بيوم العمل الآن، إذ يذهب العامل إلى محل عمله فى الساعة الثامنة والنصف صباحًا ـ على سبيل المثال ـ ولا يغادره إلا فى الثالثة أو الرابعة. وعادةً ما يستغرق حوالى ساعة ونصف الساعة فى عملية الانتقال. والأطفال غير مستثنون مَن هذه الطاحونة، فهم يستيقظون فى الفجر ليلحقوا بأتوبيس المدرسة ولا يعودون إلى المنزل إلا بعد العصر.

والإيقاع البطىء يعنى أن الأفراد لا يتنقلون كثيرًا، فالأب موجود والأم موجودة والأخوال والأعمام والخالات والعمات موجودون، وإذا احتاجت الأم عون أحد من الكبار، عند غياب الأب، فهناك دائمًا من يحل محله.

* الأجيال بين التقارب والفجوة والصراع

كانت الأجيال فى دمنهور متقاربة فى مفاهيمها. كنا كلنا نسمع الأغانى نفسها تقريبًا، ونلبس الملابس نفسها، ونتحرك فى الحيز نفسه، ونشارك فى

---

(١) لا شك أن د. المسيرى لو امتد به العمر لتعدلت رؤيته للشباب بشكل أكبر، بعد اندلاع ثورات الربيع العربى التى قام فيها الشباب بدور محورى، كما ساهمت فيها حركة كفاية بدور كبير أيضًا.

المناسبات نفسها، إذ كانت هناك مجموعة من القيم الأخلاقية والمعرفية والجمالية نؤمن بها جميعًا، لا فرق فى ذلك بين الغنى والفقير أو بين الكبير والصغير. لم يكن هناك رداء شبابى أو أغانٍ شبابية أو أماكن يرتادها الشباب وحدهم، فكل الأجيال كانت متقاربة. ويقف هذا على طرف النقيض مما يحدث الآن، فالفجوة بين الأجيال آخذة فى الاتساع، والصراع بينها يزداد حدة، ولم تعد أحلام الشباب تشبه أحلام الكبار، ولم تعد الأحزان هى نفس الأحزان.

أما فى الغرب فلم يعد هناك مجرد فجوة بين الأجيال، وإنما تطاحن وحشى وفردية مطلقة، لدرجة أن الشاب الذى يصل إلى سن الثامنة عشرة عليه أن يجد منزلًا مستقلًّا لنفسه، إذ إن عائلته ترفض الاستمرار فى الإنفاق عليه. وعلى الإنسان الذى يصل إلى سن الستين أن يجد ملجأ للعجزة لأن أبناءه لن يسألوا عنه إلا مرة واحدة كل سنة، عادةً فى الكريسماس. وأحيانًا أتساءل: هل سنصل إلى هذه الدرجة من «التقدم» فى يوم من الأيام؟ وحينما أفكر فى الإجابة يصيبنى الهلع. وتعود ظاهرة صراع الأجيال هذه إلى مجموعة من الأسباب، من بينها تآكل الأسرة كمؤسسة اجتماعية، وتراجع الإحساس بالهُوِيَّة القومية المشتركة، وتزايد معدلات الفردية وما يصاحبها من تزايد الحس النفعى.

الثمرة الرابعة...

سلوكيات سائدة: من التدوير (recycling) إلى التبديد

* مجتمع يُقَدِّر نعمة الله

والمجتمع الدمنهورى ـ شأنه شأن المجتمعات التقليدية ـ يرفض التبديد ويُقدِّر «نعمة الله». كنا إذا وجدنا فى الطريق قطعة من الخبز نلتقطها، وبعضنا كان يقبلها ثلاث مرات ثم يضعها إلى جوار الحائط حتى لا يطأها أحد

بقدميه. كان لا يُلقى إلا بأقل القليل فى سلال القمامة، أما بقية الأشياء فكان يتم تدويرها: أوراق الجرائد - غلب الأكل المحفوظ - قشر البطيخ ولبه - بقايا الطعام، كل شىء كان يمكن إعادة توظيفه.

تعلمَت أمى فى أثناء الحرب العالمية الثانية، مع أزمة الكبريت، أن تحتفظ بلمبة (سهَّارى) وكنا حينما نود إشعال (البابور البريموس) نضع قطعة من الكرتون (من علب سجائر تم قصها) فى اللمبة لنشعلها، وقد أعجبتها الفكرة فظلت تمارسها إلى يوم وفاتها فى منتصف السبعينيات وإن كان البوتاجاز قد حل محل البريموس، لم يكن هناك توفير فى العملية وإنما هو الالتزام بالتدوير، فكل شىء نعمة من الله سبحانه وتعالى.

ويبدو أننى ورثت شيئًا من هذا، كاستخدامى للورق الذى سبق استخدامه (الورق الدشت) لأكتب على ظهره، وارتدائى الملابس حتى تَبلى تمامًا. وتشكو زوجتى من أن بعض الفقراء ممن تعطيهم الملابس القديمة يقولون: «بلاش والنبى حاجات البيه»، لأنهم لا ينتفعون بها على الإطلاق، وزوجتى توافقهم بطبيعة الحال، إذ ترى أن ملابسى القديمة تصلح بالكاد لأعمال النظافة.

ومن أكبر مظاهر عدم التبديد ما يُسمَّى «الزيارة». فحينما كان بعض الأقارب يأتون من الريف للإقامة معنا بعض الوقت، أو حينما كان أحد الخُطَّاب يأتى لزيارة عروس المستقبل، فإنهم كانوا يحضرون معهم «الزيارة» التى تتكون أساسًا من مأكولات مثل السمن البلدى والبطاطس والبرتقال وربما دجاجة أو بطة مذبوحة أو حية، وهكذا. فالهدية هنا يمكن الاستفادة منها فورًا، بدلًا من أن تتحول إلى «شىء» يُضاف إلى الأشياء الأخرى التى لا لزوم لها ويكتظ بها المنزل.

*** مع زيادة التقدم يتآكل نموذج التدوير ليحل محلة نموذج التبديد**

إذا نظرنا إلى لعب الأطفال مثلًا، وجدنا أن أبناء جيلنا كانت لديهم خبرات يدوية كثيرة. فكنا نصنع المراكب والطائرات من الورق ونستخدم (غطيان الكازوزة) فى عمل الكراسى وتزيين الملابس. أما اللعب البلاستيكية الجاهزة الحالية فلا تنمى موهبة ولا خبرة بل تمثل عبئًا بيئيًّا كبيرًا عند التخلص منها.

وقد تدهور الأمر تمامًا مع حفيدى، الذى وقع ضحية الجريمة المنظمة التى تُسمَّى أعياد الميلاد (من أهم الطقوس العلمانية فى مجتمعنا). فإذا كان عدد زملائه فى الفصل 25، هذا يعنى أنه سيُحضر 25 لعبة لزملائه، وهم بدورهم يفعلون الشيء نفسه. فيصله فى يوم عيد ميلاده عدد مخيف من اللعب.

وحينما عَقدتُ حفل زفاف ابنى كنت أعرف أنه سيتبقى الكثير من الطعام، فذهبت إلى السيد المدير المسئول فى الفندق وسألته عما سيحدث لبقايا مأدبة العشاء، فأجابنى بعجرفة غير عادية وباللغة الإنجليزية (garbage) أى (قمامة) فقلت له بهدوء شديد أننى ضد التبديد، وأننى سأحضر كراتين وأوانى وحللًا لأخذ ما تبقى لتوزيعه على المحتاجين فى المنطقة التى أسكن فيها، فنظر إلىَّ بامتعاض شديد بحُسبانى شخصًا غير متحضر، ولكننى أصررت على موقفى، فتحول حفل الزفاف من لحظة تبديد وقمع إلى لحظة تدوير ورخاء ومشاركة.

وقد حدث الشيء نفسه حينما دخلت المستشفى لإجراء عملية جراحية فى عمودى الفقرى، فطلبت ألا يُحضر أحد وردًا أو شيكولاته وأن يعطى لأحد المساكين مالًا ويطلب منه أن يدعو لى بالشفاء. وقد امتثل بعض الأصدقاء لطلبى.

ونختم بالمصيبة الكبرى فى عالم التبديد، وهو ما يحدث مع علب

المشروبات الغازية (Cans)، فلم يحدث فى تاريخ أية حضارة أن تكون تكلفة الوعاء الذى نلقيه فى سلة المهملات (العلبة) أعلى من تكلفة المحتوَى الذى نشربه. ذلك بالإضافة للعبء البيئى فى التخلص من هذه العلب.

•

الثمرة الخامسة...

القيم والشعائر الدينية والعُرفية تضبط حركة كل شىء

كانت دمنهور تعيش داخل إطار صارم من القيم والشعائر الدينية والعُرفية التى تضبط حركة كل شىء: منْ يُقبِّل يد منْ؟ منْ يُفسح الطريق لمنْ؟ ما واجبات كبار العائلات؟ وما حقوقهم؟ وما واجبات الأهالى وحقوقهم؟

كان المجتمع (وليس مصمم الأزياء فى باريس) يقرر للأفراد، وخاصةً للنساء، ماذا يلبسون. وحينما اشتد الصراع بين التقاليد والحداثة أصبح غطاء الرأس من أهم رموز الانتماء، لذلك حينما كنت طفلًا فى المدرسة الابتدائية عام 1943 كان عَلَىَّ أن أرتدىَ طربوشًا، وظل الرجال يرتدون الطربوش حتى عام 1952.

كما كان لبس (السيغة) أو المصُوغات (أى الأساور والعقود والقروط والخواتم الذهبية) مسألة جوهرية، لأنها كانت أفضل طريقة للادخار (لا ينافسها سوى المشاركة على البهائم، وهو أن يشترى المرء بقرة أو جاموسة أو نصف بقرة ونصف جاموسة يربيها له أحد الفلاحين نظير اقتسام الأرباح)، فلم يكن أحد يعرف طريقه إلى «البنك»، ولم يكن يثق به، ولذا كانت المرأة تؤمِّن «مستقبلها» عن طريق ما تلبسه من مصُوغات، كما أن زوجها كان يحقق قدرًا من الادخار بنفس الطريقة.

وكانت الصلاة والزكاة جزءًا من الحياة، وليست مجرد «فرائض» يؤديها

الإنسان أو شعائر يقيمها، فالحياة بدون الصلاة والزكاة لا معنى لها. ومثل كثير من أقرانى كنت أُجوِّد قراءة القرآن.

كانت مفاهيم المجتمع التقليدى ترفض «الرغبة فى المتعة» فى حد ذاتها بدون هدف أخلاقى أو عملى. لذا كانت أمى تحب شجرة الخوخ الكبيرة لأنها تعطينا ثمراتها، أما الورد فكان يسبب لها مشكلة، إذ كنا نحاول تزيين المنزل به وكانت لا تمانع، بشرط أن نصنع من بعضه مربى الورد ! وكانت ترى أن ذهابنا إلى السينما مضيعة للوقت.

وكان الطلبة يحترمون أساتذتهم احترامًا جَمًّا، ويخافون من حضرة الناظر (كم كانت فرحتنا عندما يحيينا الأستاذ خارج صفوف الدراسة). وكان نشيد الصباح هو المناسبة اليومية التى يُعبِّر فيها الطلبة عن ولائهم للنظام. وكان هناك ما يسمى بـ«التفتيش» أول أيام الأسبوع، فيقوم الطلبة بفرد أياديهم إلى الأمام، ويمر المشرف ليتأكد من أن أظفارهم قد قُصَّت وأن أحذيتهم لامعة.

* من النقيض إلى النقيض

كان المجتمع يحدد كيف تُقام الأفراح والجنازات؛ ففى أفراح الأثرياء كانت الولائم تُقام للجميع ليأكلوا ويشبعوا، فيما يشبه موائد الرحمن، وتوزع علب الحلوى على الجميع. أمَّا أفراح هذا الزمان فتتطلب استيراد الطعام من الخارج (لحم النعام والغزال والجرجير السويسرى، على سبيل المثال) ليهنأ به الضيوف، ويتم استدعاء قوات الأمن المركزى لتفريق المتظاهرين الفقراء فى الخارج! فالفرح أصبح إحدى اللحظات غير الإنسانية التى يتم فيها استعراض الثروة والتباهى بها وتزداد فيها حدة الصراع الطبقى، بعد أن كان اللحظة الإنسانية التى يتم فيها إسقاط الحدود الاجتماعية مؤقتًا ويتم فيه تقليل حدة الصراع الطبقى ليُعبِّر الجميع عن إنسانيتهم المشتركة.

وتبلغ تكاليف مثل هذه الأفراح ملايين الجنيهات، فى الوقت الذى لا نعرف أن هؤلاء الأثرياء الجدد (القطط السمان) قد تبرع بمثل هذه المبالغ لإنشاء مستشفى أو لدعم إحدى الجامعات ... إلخ. وقد ظهرت أخيرًا ظاهرة «مخرج الأفراح»، وهو شخص مهمته تحويل الفرح (الخاص) إلى ما يشبه الاستعراض العام.

أما أعضاء الطبقة المتوسطة فيكتفون بإحضار فِرَق غناء ورقص، وتشغيل الميكرفونات بصوت عالٍ يصعب معها الحديث مع مَنْ بجوارك، بل ويصعب الاستماع إلى الغناء والموسيقى !.

الثمرة السادسة..

رمضان والعيد بين أمس واليوم

أما الاستعداد لشهر رمضان فكان يسبقه بعدة أسابيع، إذ كنا نشترى الياميش والمكسرات ومستلزمات الخُشاف وقمر الدين.

كانت المدينة تصمت تمامًا انتظارًا لمدفع الإفطار الذى يُدَّوى فى جلال فتنطلق معه صيحات الأطفال المرحة لمدة ثوانٍ، ثم يُخَيِّم الصمت مرة أخرى إذ تبدأ الأسر فى تناول طعام الإفطار، فلم يكن هذا الوحش المخيف «التليفزيون» قد اقتحم حياتنا بعد، ولم تكن الفوازير وما شابه من برامج، قد انتشرت كالبكتيريا، لتحول الشهر الكريم إلى كرنفال واستعراض للرقص والعُرى، بل وتتفنن فى تضييع كل دقيقة من ليل الصائم ونهاره فيما لا ينفع لدين ولا دنيا.

وكان الشهر يتسم بدرجة عالية من التراحم. لم تكن موائد الرحمن قد أصبحت تقليدًا سائدًا بعد، لذا كانت الصدقات توزع على الفقراء بشكل فردى ومباشر، يتبارى فى ذلك الأثرياء مهما كانت طباعهم الشخصية.

كنا فى طفولتنا نحمل الفوانيس ونمر على المنازل نطلب ما يُسمَّى «العادة»، وهى منحة من أصحاب المنازل يعطونها للأطفال الذين «يُغَفِّرون» لهم، أى ينشدون لهم أنشودة قصيرة من كلماتها «لولا فلان ما جينا..يلا الغَفَّار». وقد أخبرنى أحد أصدقائى القاهريين أن أبناء الفقراء وحدهم هم الذين يجمعون «العادة» فى القاهرة. وحينما عدت من الولايات المتحدة عام 1969 علَّمت ابنتى نور بعض هذه الأغانى، وكنا نمر على أعضاء الأسرة «لنغفِّر» لهم، فى محاولة يائسة للحفاظ على التراث.

وكان هناك أيضًا موكب الرؤية، فى اليوم الذى يسبق رمضان، فبعد أن تثبت رؤية الهلال كانت كل حرفة تجهز عربة خاصة بها تسير فى شوارع دمنهور تحمل على ظهرها بعض أفرادها يقومون بتمثيل حرفتهم، فكانت تظهر عربة الحدادين ثم عربة النجارين، وهكذا.

ومع اقتراب العيد كنا نمكث معظم الوقت فى محل الوالد؛ لأن هذا هو موسم البيع الحقيقى (خاصة إذا تزامن مع موسم بيع القطن). وكانت والدتى ترسل الطعام لنا ولعمال المحل، أو نقوم نحن بإعداده فى السوق.

أما فى العيد، فكنا نلبس الملابس الجديدة، وكان الصراع الطبقى يخف إلى حدٍّ كبير، إذ يعم جو من المساواة الجميلة. فكانت عبارة «كل سنة وأنت طيب» هى العبارة التى يجدد الناس من خلالها علاقتهم بمفهوم «الإنسانية المشتركة» وكان جيراننا الأقباط يأتون لتهنئتنا بالعيد، تمامًا مثلما كنا نفعل فى أعيادهم.

الثمرة السابعة...

الإنسانية المشتركة والألعاب الجماعية وحب النكته والثقافة الشفوية

كان الأطفال والصبية يقضون أوقات لهوهم فى ألعاب جماعية، فللبنات ألعاب مثل «الحجلة» و«بِزِلّا بِرِللا بِرِليللا» و «حبة ملح ـ عند الجارة»،

وللأولاد «السبع طوبات»، وحينما كنا نتقدم قليلًا فى السن كنا نلعب السيجة والشطرنج والطاولة والكوتشينة، وبالطبع كرة القدم (الكرة الشراب، كما كانت تسمى).

وغنى عن القول أن كل هذه الألعاب يمكن القيام بها بدون حاجة لشراء أى لعبة أو أداة، بل كانت تعتمد على اللاعبين ومهارتهم وحسب، ولذا كانت تُضيِّق الهوة الاجتماعية بين اللاعبين. كما أنها كلها ألعاب جماعية لا يمكن لفرد أن يلعبها بمفرده (على عكس الألعاب الحديثة غالية الثمن التى يمكن أن يلعب بها المرء بمفرده، إلى أن نصل إلى «القمة» وهو الكمبيوتر الذى يمكن أن نلعب معه الشطرنج وألعاب صراعية عديدة أخرى بمفردنا!).

وكان أولاد التجار والعمال والموظفين يُنفِضون عن أنفسهم انتماءاتهم الطبقية بعد الظهيرة ليشتركوا معًا فى اللعب، وكان يعاد تشكيل هرم السيادة حسب المهارات الشخصية، فبرغم إننى كنت ابن الحاج محمد المسيرى إلا إننى كنت خائبًا، أفشل دائمًا فى أن أُطَيِّر طائرتى الورقية، فقد كانت تهوى بسرعة إلى الأرض دون سبب واضح، لذا كان علىّ أن ألجأ لعمال محل والدى كى يساعدونى فى ذلك.

* حب النكتة

كلنا يعرف كم يحب المصرى القفشة السريعة، ولا شك أن الثقافة الشفوية تُثرى إلى حد كبير من رصيد الفرد وسرعة بديهته، وأنا شخصيًّا عندما تحكم «الأَفْيَة» لا يمكننى مقاومتها.

وأعتقد أن حب النكته مسألة مرتبطة ببنية الإنسان المصرى، فقلبه ينفتح إن اكتشف أن مَن أمامه قادر على إطلاق النكت. ولعل حب المصرى للنكته يعود إلى تجربته التاريخية الطويلة التى جعلته يعيش الكثير من التناقضات

ولحظات الانتصار والانكسار والشعور بالقوة والعجز، الأمر الذى جعله قادرًا على تقبل التناقضات وتجاوزها من خلال النكتة، وإن كان هذا لا ينفى أيضًا مقدرته على التجاوز من خلال الثورة.

* خسائرنا من الثقافة الشفوية

ولا شك أننا كنا نتعلم الكثير فى حياتنا اليومية فى دمنهور دون أن ندرك أهمية ما نتعلمه، لذلك من القضايا الأساسية المطروحة الآن فى عالم التربية: ما مقدار الثقافة والأشكال الحضارية التقليدية الشفوية التى ستختفى حينما يتم تحديث المجتمع ومحو الأمية؟ هل ستكون الخسارة لا تُعوض، أم أن الثمن سيكون معقولًا؟ يرى البعض أن الثمن فى الواقع سيكون فادحًا؛ لأن المواد التى سيقرؤها من تعلموا القراءة والكتابة لن تكون بالضرورة الأعمال الكاملة لإسخيلوس أو الفارابى أو كونفوشيوس! فعدد مجلات الحوادث والجرائم وأخبار النجوم اللامعة لا يُحصى، ومعدل توزيعها يفوق معدل أى جريدة محترمة أو شبه محترمة. هل ثمة طريقة لمحو الأمية والرقى الحضارى المادى مع عدم حرمان الجماهير من الثقافة التقليدية الشفوية التى تتناقلها وتتعلمها دون جهد كبير، باعتبارها جزءًا من خطابها الحضارى وحياتها اليومية؟.

الثمرة الثامنة...

الأسرة والمسئولية الجماعية

* الأسـرة الممتدة والأسـرة النوويـة

من مظاهر الصراع بين الحداثة والتقاليد كان ظهور الأسرة النووية (زوج وزوجة وأولادهم) فى مجتمع الأسرات الممتدة (الجد وأبناؤه وأحفاده يسكنون فى منزل واحد كبير). فكان هناك الموظفون، الذين بدأ عددهم فى التزايد. وكان لكل موظف أسرة مكونة من زوجين وأطفال، ولا نعرف شيئًا

عن أصولهم، ومع هذا تقبَّلهم مجتمع دمنهور. بل كانت بعض الأسر العريقة لا تمانع فى أن تصاهرهم.

كان جدى الحاج أحمد على المسيرى، صاحب الضحكة المجلجلة والهيئة المهيبة، يعيش فى الدور الأرضى فى عمارته الكائنة فى شارع الأنصارى، ويعيش بقية أبنائه الأربعة فى شقق مختلفة فى العمارة نفسها. وكانت أمى أمًّا لأولادها ولأولاد أعمامى ولكل من يأتى فى طريقها، بل وللخادمات اللائى كانت تجلس معهن أحيانًا على الأرض وتأكل بعض الوجبات معهن فى المطبخ. وعلى كلٍّ كانت الخادمة التى تلتحق بمنزلنا لا تتركه إلا عروسة، فهى بمعنى من المعانى ابنة لأمى.

وكان عمل المرأة فى المنزل أمرًا مُعتَرَفًا به اجتماعيًّا، يقدره المجتمع حق التقدير (على عكس ما هو حادث الآن: فلو سألت أمًّا ماذا تعمل، لقالت: «لا شىء»، باعتبار إن «العمل» أصبح هو ما يقوم به المرء فى مجال الحياة العامة ويتقاضى عنه أجرًا، وكلا هذين الشرطين لا ينطبق على الأمومة!).

وقد كانت الخلافات تُسوَّى من خلال الأقارب، وكذلك الزيجات فى معظمها كانت تتم بنفس الطريقة، فالفرد لم يكن يتزوج بفرد آخر (كما هو الحال فى مجتمعنا الحديث)، وإنما كانت العائلة «تصاهر» العائلة الأخرى. فالفرد فى المجتمعات التقليدية ليس وحيدًا، لا فى أفراحه ولا فى أحزانه.

* تربية الشوارع!

فى المنطقة التى نشأت فيها كان كل الأطفال معروفين للجميع، ولذا كان الوقت الذى أقضيه فى الشارع ليس مجرد «صياعة»، وإنما وقت للتنشئة الاجتماعية، على عكس الشارع هذه الأيام. كما كان الصبية الكبار يراقبون الصغار وكأنهم أولياء أمورهم، مما كان يخفف العبء كثيرًا على الوالدين. تخبرنى أمى أننى ضللت طريقى مرة وأنا فى الرابعة، والتقطتنى إحدى الأسر

وأجلسونى لتناول الطعام معهم، لكنى رفضت أن آكل إلا بعد أن يضع جميعهم فُوطًا على صدورهم ـ كما اعتدت فى منزلى ـ لحماية ملابسهم من الأكل المتساقط، ففعلوا ذلك إرضاءً لخاطرى، أى أنهم عدُّوا أنفسهم مثل أسرتى، مسئولين عنى.

أذكر أننى كنت أسير فى إسطنبول عام 1977، وكان هناك طفلٌ فى العاشرة يدخن سيجارة فزجره أحد المارة، أى أنه لعب دور الأب برغم أنه كان لا يعرف الطفل. **إنه الإحساس بالمسئولية الاجتماعية فى المجتمع التقليدى**، وهذا أمر يستحيل أن يحدث فى المجتمعات الحديثة، خاصةً فى المدن الكبيرة.

الثمرة التاسعة...

تراجع دور الطبقة المتوسطة

يُعتبر أبناء الطبقة المتوسطة المتعلمون فى المدن الصغيرة وفى الريف المصرى من أكثر العناصر بحثًا وتساؤلًا وصلابة، وأعتقد أن من أكبر الكوارث التى حاقت بالمجتمع المصرى تآكل الطبقة المتوسطة فى ظل الانفتاح والعولمة، بسبب تضاؤل دخلها بسبب التضخم وزيادة التفاصيل فى حياتها: لقمة العيش ـ تعليم الأولاد ـ الرعاية الصحية... إلخ. وقد أدى هذا إلى تراجُع إسهام أبناء هذه الطبقة فى المجتمع بشكل ملحوظ.

الثمرة العاشرة...

المسلمون والأقباط، الوحدة الوطنية الحقيقية

* روح التسامح: أمة واحدة

وكما كانت روح التسامح سائدة فى العائلة الممتدة، وبين الأصدقاء والجيران، وبين المدرسين وتلاميذهم، وتسيطر أيضًا على جلسات الحوار فى مقهى المسيرى، فقد كانت نفس الروح تظهر فى علاقة المسلمين بالأقباط.

لقد كانت أعز هدية تلقيتها فى طفولتى من صديق قبطى لأخى الأكبر، اعتاد أن يأتى لى بالحلوى والهدايا. وكان ابن قسيس الكنيسة يجلس إلى جوارى فى المدرسة، وكانت تربط التلاميذ جميعًا علاقة محبة ومودة، كما كان للمدرسين المسلمين والأقباط على السواء دور حيوى فى حياة تلاميذهم.

وكانت هناك أسرة قبطية تقطن إلى جوارنا، ولم يكن موقع شقتهم يسمح برؤية النجم لتحديد دخول موعد الإفطار، فكان يُطلب منى أن أقف يوميًا إلى حين ظهور النجم ثم أخبرهم بذلك.

وكنت ألاحظ أصدقاء خالى الأقباط من أعضاء حزب الوفد، وكيف كان الأعضاء يقفون صفًّا واحدًا ضد الإنجليز والملك. باختصار، كانت علاقتنا بإخواننا الأقباط فى هذا المجتمع التقليدى علاقة طيبة ومستقرة، **فهل من وسيلة لدراسة أسباب هذا الوئام الكامل؟ لإعادة إنتاجه فى مجتمعنا المصرى «الحديث» الذى أصيب بعض أفراده بلوثة فى موضوع الدين؟**

*** درس للتحديثيين والأصوليين**

كنت مرة أستمع إلى السيد الضَوّى (منشد السيرة الهلالية الشهير) فى المركز الثقافى البريطانى. ومن المعروف أن السيرة تبدأ بالصلاة على النبى، ولاحظ المنشد وجود عدد كبير من الأجانب غير المسلمين ومن الأخوة الأقباط، فأحس أن عليه أن يُطوِّر افتتاحيته بما يُلائم هذا الوضع دون أن يُلغيها أو يستأصلها (كما يفعل بعض التحديثيين)، ودون أن يصر عليها بحرفيتها (كما يفعل بعض الأصوليين)، فأضاف عبارة **«وكل اللى له نبى يصلى عليه»**. وبذلك أنجز المنشد ما يجده بعضنا صعبًا: الحفاظ على التقاليد والقيم، دينية كانت أم أخلاقية، وتوسيع نطاقها بحيث يمكن لأعضاء الأقليات أن يشعروا أنها لا تستبعدهم، فنحن ـ كما يُعَلمنا الإسلام ـ أمة واحدة.

الثمرة الحادية عشرة...

بين التراحم والتعاقد

* التراحـم والزمـن الجميـل

كانت مدينة دمنهور مدينة تجارية تسود فيها العلاقات التعاقدية التى تسود فى المدن والمجتمعات الحديثة. وتحت هذه القشرة الحديثة كان هناك مجتمع تقليدى؛ جماعة مترابطة متراحمة، العلاقات فيها ليست مبنية على المنفعة واللذة وحسب، بل كانت هناك حسابات أخرى غير مادية وغير أنانية تشكل مكونًا أساسيًا فى هذه العلاقات.

ولأننى انتقلت من مجتمعات أقل تعاقدية إلى مجتمعات أكثر تعاقدية، إلى أن وصلت إلى نيويورك قمة التعاقد، فقد أصبحت مُلاحِظًا قويًا لعلاقات التعاقد والتراحم، وأصبح التناقض بينهما من أهم المفاهيم فى خريطتى الإدراكية للعالم. وأعتقد أن هذا الجانب فى خلفيتى الثقافية هو ما جعلنى لا أنبهر بالمجتمع الأمريكى، فنقطتى المرجعية كانت دائمًا هى المجتمع الزراعى التراحمى.

على سبيل المثال، كنت ألاحظ علاقة والدى بالعمال داخل متجرنا وبكل من يعملون عندنا. كان والدى يُقتِّر ويغدق عليهم حسبما يراه هو مناسبًا. ولكن هذا التفاوت الاقتصادى كانت تقلل من حدته العلاقات التقليدية التراحمية والواجبات الاجتماعية والأخلاقية الملقاة على عاتق والدى بحُسبانه «معلم كبير» وصاحب عمل. فأسلوب حياة العمال وصاحب العمل كان أسلوبًا واحدًا؛ الأعياد هى هى، والأحزان هى هى، واللغة هى هى، وطريقة الطعام هى هى. جميعهم كانوا يحتفلون بمولد النبى ولا يحتفلون بأعياد الميلاد أو رأس السنة، جميعهم كانوا يلبسون بنفس الطريقة (فالملابس

الغربية كانت لا تزال هامشية)، وجميعهم كانوا يُصلّوُن معًا، ويعملون معًا، ويقضون أوقات فراغهم معًا.

وأذكر مرة أن دق جرس باب منزلنا ففتحته، فوجدت فتاة فائقة الحسن ترتدى فستانًا جميلًا للغاية (ولعلها إسقاطات فتى يافع من دمنهور) وتحمل قفصًا للغسيل أو الخبز، وقالت: «هل تريدون شراءه؟» فتطوعت بأن أقول لا؛ لأننى كنت أعرف أن عندنا مثل هذا القفص. لكنى سمعت أمى تزجرنى من الداخل وتأمرنى ألا أتدخل فيما لا يعنينى، وأمرتنى أن أعطيها مبلغًا كبيرًا من المال يفوق بمراحل ثمن القفص. وبعد ذلك، علمت أن الفتاة من «أبناء الناس الطيبين» الذين إما فقدوا عائلهم وإمَّا تدهورت أوضاعهم المالية لسبب أو لآخر. وكانت هذه هى الطريقة المحترمة التى يمكن بها أن تصل إليهم المعونة المالية دون خدش للحياء، أى أن التبادل التعاقدى هنا كان قشرة ظاهرة تغطى التراحم (الكامن)، الهدف منها أن تجعل الصدقة تبدو كما لو كانت عملية بيع وشراء لا أكثر ولا أقل.

وتظهر أسبقية الأخلاقى على الاقتصادى فى طريقة تعامل التجار الواحد مع الآخر. فكلمة الشرف لها وزنها، كان هناك ولا شك تعامل بالشيكات والكمبيالات وإيصالات الأمانة، ولكن «كلمة الشرف» كانت هى المرجعية النهائية. ومع تزايد التعاقد فى بلادنا تراجعت أهميتها.

فى داخل الأسرة الواحدة الممتدة يوجد دائمًا الأغنياء والفقراء، فكان الجميع يعطون للعروس «نقطة»؛ مبلغًا من المال يُدَس فى يد العروس بحيث لا يراه أحد ولا يعرف مقداره (على عكس «النقطة» التى تُعطى «للعالمة» [الراقصة]، فهذه تُعلَن على رءوس الأشهاد!). وفى إطار عملية التبادل الظاهرية هذه يتم إعادة توزيع الثروة، إذ يعطى الأثرياء نقطة تفوق بمراحل تلك التى يعطيها الفقراء لأبناء الأثرياء.

ويظهر التراحم كإطار مرجعى نهائى فى موقف الفقراء من الزكاة، فهم يَعُدُّونها «حقًّا» لهم وليست منحة يقدمها الأثرياء. وهذا الشعور لا يزال سائدًا حتى فى القاهرة، وهذا ما يخفف من حدة الفقر فى هذا البلد.

وكان أستاذ التربية الرياضية فى المدرسة يخبرنا أن قيم المحبة أهم من قيم التعاقد، ولذا حينما كانت إحدى فرق الأقاليم المجاورة لدمنهور تزورنا، كان يطلب منا أن ندعهم يسجلون بعض الأهداف حتى لا يصابوا بالإحباط الكامل.

وحينما كان أحدهم يعطينى هدية كنت آخذها وأشكر صاحبها ولا أفض غلافها، ففضُّ غلاف الهدية وعرضها يعنى تحويلها من قيمة إنسانية (كيف) إلى ثمن محدد (كم)، وبالتالى إخراجها من عالم التراحم إلى عالم التعاقد والتبادل. وقد امتد بى العمر لأرى ملامح «التقدم»، إذ أصبحنا الآن نفض غلاف الهدايا ونعرضها على الملأ، «واللى ما يشترى يتفرج!».

*** وقعنا فى قبضة التعاقد فخسرنا الثراء والدفء والسعادة**

ويروى د. المسيرى قصة امرأة أمريكية أرادت الخروج مساءً فاستدعت أمها لتجلس مع طفلتها، وعندما عادت الابنة فوجئ بها تُخرِج دفتر الشيكات وتعطى لأمها شيكًا بمقدار عشرة دولارات أجرًا لها، ويقول: هنا أدركت معنى هذه الواقعة وفحوى الكثير من المواقف التى مرت بى فى الولايات المتحدة، فالأم بطبيعة الحال ليست فى حاجة إلى عشرة دولارات، ولكن ما تم هو شعائر التعاقد، وهى شعائر لا بد من إقامتها حتى تسود التعاقدية وتتغلغل فى كل العلاقات، ولا يفلت من قبضتها شىء بما فى ذلك علاقة البنت بأمها.

وأخبرنى صديق أمريكى إنه لا يتمتع بالإعفاء الضريبى الخاص بأبنائه

حينما يصلون إلى سن الرشد (18 عامًا فى الولايات المتحدة)، لذا يكون من مصلحته المادية أن ينفصل أولاده عن الأسرة ليقيموا فى منازل خاصة بهم، وفى هذه الحالة يمكنهم هم أيضًا التمتع بالإعفاء الضريبى!

وفى عصر الانفتاح، أذكر أننى كنت أزور ابن خالتى فى دمنهور، وكان محاسب ويجيد الإنجليزية، فأخبرته إنه لو انتقل إلى القاهرة أو حتى الإسكندرية لحقق أرباحًا طائلة فى وظيفته الجديدة، وفوجئت به يرد على: «ومن سيرعى أبوىَّ [مين حياخد باله من أبويا وأمى]». ذُهِلتُ من بساطة الرد وبساطة الالتزام فى مقابل حركية الإنسان الحديث الذى لا يعرف ثوابت ولا قيمًا إلا قيمة الصراع والتراكم المادى.

ولا يمكن القول بأن مجتمعاتنا العربية مجتمعات تراحمية خالصة، فنموذج التعاقد والصراع يزحف وبسرعة نحو مجتمعاتنا، ويسيطر علينا. وإلا فبم نفسر إجابة البعض على التعبير عن الأسف والاعتذار بقولتهم المشهورة: «وآسف دى أصرفها من أى بنك؟». ولتجرب ولتذهب إلى إحدى المناطق السياحية لتعرف أن كل شىء له ثمن محدد (سألت مرة صبيًا عن مكان كنت أبحث عنه، فأخبرنى عنه ثم طلب نصف جنيه، رحمنا الله وإياكم !).

*** ارحمـوا من فى الأرض... يرحمكـم مَن فى السمـاء**

لقد تعلمت من المجتمع التراحمى أهمية الإنسان ككائن حر نبيل وأهمية العواطف وأهمية الإفصاح عنها. فأنت لا يمكن أن ترى الأشياء بوضوح إلا من خلال القلب، فكل الأمور الجوهرية غير مرئية، والأمور الجوهرية هى الأمور الإنسانية وما عدا ذلك فأمور طبيعية مادية.

وقد وَلَّدَ فِىَّ الانتماء للمجتمع التقليدى التراحمى كثيرًا من المشاعر والسمات، فيمكن القول أن ثقتى بنفسى تعود إلى طفولتى وصباى، حيث كنت

أتحرك فى مجتمع أعرف كل من فيه ويعرفوننى ويعرفون أبى وأعمامى وأخوالى. ولعل المجتمع التقليدى التراحمى هو أيضًا الذى وَلَّدَ فِيَّ الحرص على علاقاتى الإنسانية وصداقاتى، فأنا لا أدع الصداقات تضمر بتغير الزمان والمكان.

* إيجابيات التعاقد

ومع هذا لا بد أن ندرك أن لروح التعاقد جوانبها الإيجابية؛ فهى تحدد حقوق الإنسان وواجباته بدقة، وبالتالى تقلل من التوترات بين الأفراد، ولا يمكن لأى مجتمع أن تقوم له قائمة، إن لم يكن هناك احترام للتعاقد وما يتضمنه من حقوق وواجبات. ولكن معظم هذه الإيجابيات تنصرف إلى رقعة الحياة العامة، لأن رقعة الحياة الخاصة بكل ما فيها من تركيبية تتطلب شيئًا أكثر تركيبًا من التعاقد الذى يقوم بتقويض العلاقات الإنسانية الحميمة.

الثمرة الثانية عشرة...

من سلبيات المجتمع التقليدى

لاحظنا أن المجتمع التقليدى تتم فيه عملية الضبط الاجتماعى بشكل مباشر، من خلال الأبوين والأقارب والجيرة، لذلك فهو يدين بالولاء لنفسه ولعلاقات القرابة والجيرة المباشرة. ويقف هذا على النقيض من التعامل مع مؤسسات الدولة والمؤسسات الإعلامية المختلفة التى تطلب الانضباط والولاء لها دون غيرها، وتحاول تنميط الفرد حسب قوالب مُعَدَّة مُسبقًا، فتقضى على فرديته وشخصيته حتى يمكنها توظيفه فى تحقيق أهدافها العملية.

وحتى لا يتصور أحد أن لدىَّ حنينًا رومانسيًّا للماضى (برغم إدراكى لكثير من إيجابياته)، يجب أن أُشير إلى وعيى بالجانب المظلم للمجتمع التقليدى:

*** الفـرد التقلـيدى يرفـض الانضباط والانقياد للقوانين العامـة**

يظل الفرد فى المجتمع التقليدى محصورًا داخل ولاءاته لأسرته أو عشيرته، أما عند تعامله مع المؤسسات العامة يرفض الانصياع للقوانين العامة التى تتجاوز نطاق هذه الولاءات والقيم الأخلاقية التقليدية، ولا يطبق هذه القيم إلا على حياته الخاصة المباشرة. أمَّا رقعة الحياة العامة فهى مباحة، ولا قداسة لها. لذا نجد فى الجامعة ـ على سبيل المثال ـ فتاة محجبة متمسكة بأهداب الفضيلة، مطيعة لوالديها، ولكنها لا تتورع عن الكذب على الأستاذ والغش فى الامتحان؛ لأن الأستاذ والامتحان يقعان خارج نطاق الولاء لمنظومة القيم التقليدية.

ونفس التناقض تجده فى سلوك الناس داخل المسجد وخارجه، فهم فى صلاة الجمعة يفسحون الأماكن لبعضهم ويصطفون صفًا واحدًا مستقيمًا («استقيموا يرحمكم الله») ويخرجون بشكل هادئ من المسجد. ولكن على بُعد خطوات منه تجدهم يتدافعون ويتشاجرون إن كان يقف بائع بطيخ، ولا يحترمون الطابور أو الدور.

إن التناقض بين سلوك الإنسان فى حياته الخاصة وحياته العامة آخذ فى التفاقم فى العالم العربى رغم تصاعد معدلات التحديث والترشيد، بسبب فساد كثير من النخب الحاكمة، فهى تُعطى الإشارة للناس إلى أن رقعة الحياة العامة لا تنطبق عليها أى قيم أخلاقية.

*** المجتمـع التقليدى يَـدُس أنفـه فى كـل شىء**

وإذا كان المجتمع التقليدى يحمى الإنسان من التقاليع وهجمة الحداثة ويساعده على تأكيد هويته فإنه يشكل عبئًا على المرء، خاصةً إن كان يريد التغيير والإبداع، **فالمجتمع التقليدى يحدد كل شىء ويتدخل فى كل شىء.**

وهذا يذكّرنى بطالباتى اللاتى كنت أدرسهن فى كلية البنات، وكنت أعطيهن من المعلومات ما يساعدهن فى اختيارهن أثاث منازلهن بدلًا من أن يشترين أثاثًا بشعًا (ومكلفًا) من بعض محلات الأثاث التى تخصصت فى إفساد الذوق. ففى أحد الأيام جاءتنى إحدى الطالبات فى غاية الحزن، وقالت: «ما الفائدة من كل هذا؟ أمى هى التى ستشترى لى الأثاث حسبما يروق للناس». والطالبة ـ للأسف ـ كانت محقة تمامًا. وحينما اشتريت غرفة مائدة قديمة، وكانت جميلة، صُعِقت إحدى قريباتى وأخبرتنى هامسة أننى لا بد أن أزعم أنها جديدة، وإلا أصبَحَت فضيحة بجلاجل للعائلة بأسرها. فالمهم فى الأثاث أن يكون جديدًا ومكلفًا!.

الثمرة الثالثة عشرة...

خلاصة الثمر: البحث عن الذات

أرجو ألا يُفهم مما سبق أننى أدعو إلى العودة إلى الماضى (فهذا أمرٌ مستحيل)، كما أننى لا أنكر وجود جوانب مظلمة للمجتمع التقليدى (فمثل هذا الإنكار أمر طفولى). ما أود تأكيده هو أن المجتمعات التقليدية كانت تحوى منظومات قيمية وجمالية لم يُؤَد تقويضها وتدميرها إلى مزيد من السعادة. كما أود الإشارة إلى أن الأشكال الحضارية الحديثة (عادةً المستوردة) ليست هى الأشكال الحضارية الوحيدة، بل هناك أشكال أخرى قد تكون أكثر ثراءً وأكثر دفئًا، والأهم من هذا أنها قد تكون أكثر تجذرًا، ولا شك أن ضياع هذه الأشكال يمثل خسارة حقيقية.

إن المشكلة التى تواجهنا هى:

هل يمكن أن ندخل العصر الحديث، وننفض عن أنفسنا رتابة المجتمع

التقليدى واتجاهه نحو تكرار نفسه، دون أن نُضَيِّع العناصر الإيجابية التى يتسم بها هذا المجتمع؟

هل يمكن أن ندخل المستقبل ومعنا ماضينا، نحمله كهوية وذات تحفظ لنا خصوصيتنا وتساعدنا على أن نجد اتجاهنا، لا كعبء يُثقل كاهلنا؟.

* * *

الفصل الثانى : بدايات الهُوِيَّة

الاتجاه إلى عالم الفكر

الطفولة والمدرسة والجامعة

كان المفروض أن يصبح عبد الوهاب تاجرًا كبيرًا كأبيه وجده، لكن المناخ الفكرى السائد فى الطبقة المتوسطة، وتردده على المكتبات العامة، ثم عناية الأساتذة فى المدرسة والجامعة عدلت المسار، وفتحت آفاقه على عالم الفكر الرحب.

الثمرة الرابعة عشرة...

البذور الثقافية

بدأت ملامح انفصال عبد الوهاب المسيرى عن البيئة التجارية لعائلته الممتدة واتجاهه إلى عالم الفكر والثقافة وهو فى الثالثة أو الرابعة من عمره؛ فكان يقلد طبيب العائلة فى هيئته ومشيته، وأعلن أنه قرر أن يصبح

«دكتورًا». وفيما بعد اتجه إلى الاستماع لفيروز بدلًا من أم كلثوم مخالفًا التقاليد البرجوازية والعائلية وقتها.

ويضيف د. المسيرى: من خلال علاقتى بابن ناظر مدرسة الزراعة (أسرة نووية غريبة عن المجتمع الدمنهورى)، لاحظت أنه هو وأسرته أقل ثراءً من الناحية الاقتصادية من أسرتى، إلا أن أسلوب حياتهم أجمل، وكنت أراهم يقرأون الكتب. وحينما أذهب إلى منزلهم كنت ألاحظ أنهم يتحدثون فى أشياء كثيرة متنوعة، وكانت هناك لوحات على الحائط وتحف فى دولاب الفضيات. **وبدأت أدرك أن ما يحدِّد حياة الإنسان ليس بالضرورة العنصر الاقتصادى.**

*** مكـتبة البلديـة**

وذات يوم اكتشفت **مكتبة البلدية** من خلال ابن أحد الموظفين (فأبناء التجار مثلى كانوا لا يذهبون للمكتبات).

وأذكر جيدًا أن أول ما اطلعت عليه كان كتب الأستاذ كامل كيلانى الملونة للأطفال، فغمرنى فرح لم أشعر بمثله من قبل. وقد توسم فىَّ أمين المكتبة شيئًا من الخير، فكان يختار لى الكتب بنفسه، فنصحنى بقراءة كتب التاريخ، بما فيها كتاب عبد الرحمن الرافعى عن تاريخ مصر الحديث، وبعض الكتب سهلة المنال عن الفلسفة والفنون، وبعض الروايات.

لذلك كنت أحرص وأنا أُدرِّس فى الجامعة أن ألقى أول محاضرة فى المكتبة، لأخبر الطالبات بطريقة الاستعارة وتقسيم المكتبة، وأنواع الكتب: موسوعات ومعاجم وكتب إرشادية ومراجع وكتب فن. وكان كثير من الطالبات يعتبرن أن هذه المحاضرة كانت تمثل لحظة فارقة فى حياتهن، تمامًا مثل زيارتى لمكتبة دمنهور.

* المدرسة من النضج الفكرى والتعليم إلى اللا تعليم

كان يمكن لهذه التجارب التى خضتها كطفل أو صبى يافع أن تتحول إلى مجرد تجارب مرحلية، وألا تساعدنى على ولوج عالم الفكر، لو لم ينعم الله علىّ بمدرسين وأساتذة جامعيين، ساعدونى ودفعونى ودعَّموا ثقتى بنفسى وساعدونى على التفكير النقدى.

قضيت مرحلة الدراسة الثانوية فى مدرسة دمنهور الثانوية. وكان بها عدد كبير من المدرسين الشبان الذين استمروا فى دراستهم العليا فى الإسكندرية، بالرغم من أنهم لم يُعيَّنوا فى الجامعة.

كان من أهم أساتذتى الأستاذ روفائيل مدرس التاريخ الذى توسَّم فىَّ خيرًا وأعلن للطلبة أننى عبقرى وأنهم يجب ألا يقارنوا أنفسهم بى، وبدأ يطلب منى أن أكتب «أبحاثًا» خارج المقرر، وكان يقرؤها على الطلبة، الأمر الذى كان يسبب لى حرجًا شديدًا وسعادة بالغة فى الوقت نفسه. لم أكن أفهم سر حماسته لى، فحتى ذلك الوقت (سنة ثالثة ثانوى) كان إحساسى أن ذكائى عادى وربما أقل من العادى، ويشهد بهذا أدائى المدرسى. ومع هذا، قرر الأستاذ روفائيل أن لدىّ شيئًا ما، فوجدتنى مضطرًا ألا أُخَيِّب ظنه وأن أقدح زناد فكرى كى آتى بأشياء «عبقرية» كما هو مُتوقَع منى. وتحسن أدائى الدراسى بعد ذلك بسرعة أذهلتنى أنا شخصيًا.

أما الأستاذ إميل جورج (الدكتور الآن) فكان هو بداية حياتى الفكرية الحقيقية. كان أستاذًا بمعنى الكلمة، درسنا على يديه الفلسفة فى التوجيهية (عام 1954/ 1955) وحبَّب إلينا مادته. كان يعرض لنا أعمق المسائل الفلسفية بطريقة بسيطة، وكان يبث الشك فى نفوسنا ولكنه لم يكن يقذف بنا فى هوة العدمية، ولولاه لضيَّعت من عمرى سنوات وسنوات، أقرأ ما أقرأ وأُراكم المعلومات دون إدراك لأبعادها ومعناها.

كانت تجربتى مع التعليم فى مصر سعيدة للغاية (باستثناء حصص الحساب اللعينة). وإلى جانب الدرس والتحصيل على يد مدرسين يحبون موادهم ويوصلونها بطريقة محببة للطلبة، كانت هناك حصص الألعاب والأشغال والرسم والموسيقى والفلاحة والخط. وبعد ذلك كله كان لدينا وقت فراغ نمرح فيه ونلعب.

والآن أرتجف حين أفكر فيما يحدث لصغارنا فى المدارس ولشبابنا فى الجامعات، الذين يُكَبَّلون بالكتب المعلوماتية الثقيلة (المطبوعة بشكل ردىء)، والذين يقضون كل وقتهم فى دراسة مواد ينسونها بعد مرور شهر، ولا تترك لهم أى مجال للعب أو التنفس، والذين يقابلون فى الفصل مدرسين يحولون الحصة المدرسية إلى دعاية لحشد التلاميذ للدروس الخصوصية. كان التعليم فى مصر مجانيًا وممتعًا، وبالتدريج أصبح غير مجانىّ بسبب الدروس الخصوصية، ثم أصبح لا علاقة له بالتعليم، إذ أصبح التعليم الآن هو اكتساب مقدرة اجتياز الامتحانات.

الثمرة الخامسة عشرة...

الإسكندرية وجامعتها

تخرجت فى مدرسة دمنهور الثانوية عام 1955، وذهبت إلى الإسكندرية أحمل إدراكى المُرَكب وثقتى بنفسى، وفجأة وجدت نفسى فى قلب مدينة مصرية اسمًا، غربية فعلًا. كنت أقطن فى الإبراهيمية التى كانت تعيش فيها جالية يونانية كبيرة، حتى بائع الخضر كان ينادى على بضاعته باللغة اليونانية، وفى بعض المطاعم لم يكن بُد من الحديث باليونانية أو الفرنسية. وإلى جانب ذلك كانت هناك نوادٍ للسينما تعرض علينا أحدث الأفلام الأوروبية، وحفلات موسيقية. جو كوزموبوليتانى (عالمى غير منتمى لأى تشكيل حضارى) لا جذور له، يمكن أن يثرى الإنسان ويمكن أن يبتلعه.

ذهبت إلى قسم اللغة الإنجليزية وآدابها، بكلية الآداب، حيث كان الجميع يتحدثون الإنجليزية، وكان كثير من الطلبة من أصل يونانى أو إيطالى، وحتى المصريين الخُلَّص كانوا أجانب، إذ كانوا لا يعرفون العربية ولا يعرفون إلا أقل القليل عن مصر. حتى جدول المحاضرات كان مكتوبًا باللغة الإنجليزية، ومقَسَّمًا إلى مربعات أفقية ورأسية لم أفهم منها شيئًا، فأصابنى الدوار.

*** التحـدى**

قررت التحرك بسرعة لأكتشف الآليات الجديدة المطلوبة لتحقيق البقاء، وأهمها **إجادة اللغة الإنجليزية**، فحبست نفسى فى غرفة لمدة شهر كامل لا أسمع إلا الإذاعات الناطقة بالإنجليزية ولا أقرأ سوى الجرائد والمجلات الإنجليزية. وعُدت بعد الفصل الدراسى الأول وقد تملكت ناصية اللغة بشكل أدهش أساتذتى. وفى الصيف، أحضرت أرتالًا من الكتب العربية التى تتناول تاريخ الغرب والفكر الغربى والفن الغربى والفلسفة الغربية، كما أحضرت ترجمات لعدد من المسرحيات والروايات، حتى يمكننى **تملك ناصية الخطاب الحضارى الغربى**، وحتى تتعمق معرفتى بالتقاليد الأدبية الغربية مثلما تملكت ناصية اللغة. وفى الفرقة الثانية التحقت بمدرسة إنجليزية لبضعة شهور حتى تصبح الإنجليزية لغة حية بالنسبة لى. وبذلك، أصبحت قادرًا على التحرك فى تلك الأوساط شبه المصرية والتعامل معها بكفاءة غير عادية رغم عدم احترامى لها!

الثمرة السادسة عشرة...

التعليم الجامعى الحقيقى والأستاذ الجامعى القدوة

كان قسم اللغة الإنجليزية فى الإسكندرية تجربة فريدة، فالتدريس فيه كان يأخذ شكل محاضرات حقيقية، لا دروس إملاء. كان الأساتذة يدخلون

ويُلقون محاضراتهم ويفسحون المجال للطلبة كى يطرحوا أسئلتهم. وكانوا يقبلون الرأى الآخر بصدر رحب، بل ويرحبون به.

وكانوا يطلبون منا أن نكتب أبحاثًا حقيقية ونقرأ المراجع ونستشهد بها فى مقالاتنا. وكانت الأسئلة فى الامتحانات تتطلب إجابة يُعمل فيها الإنسان عقله وخياله لا أن يجتر ما قاله الأساتذة من قبل. وكانت إجاباتنا تأخذ شكل مقالات طويلة يعرض فيها الطالب وجهة نظره. لم يكن أساتذتنا فى الإسكندرية يعرفون التهاون فى الدرجات، فالعملية التعليمية بالنسبة لهم كانت شيئًا جادًا ومهمًا. كان عدد الطلبة صغيرًا يتناقص تدريجيًا كل عام حتى يصل إلى عشرة أو أقل فى عام التخرج، بذلك كنا نتعلم المعرفة والسلوك القويم. ولهذا السبب حينما ذهبت إلى جامعة كولومبيا والتحقت بقسم الدراسات العليا، وجدت أن مستواى أعلى من مستوى كثير من الطلبة هناك.

كان الدكتور محمود المنزلاوى يلقى علينا محاضراته فى تاريخ الحضارة فى العالم، فيحدثنا بطلاقة وتلقائية عن كل شىء، ابتداءً من ملاحم هوميروس وانتهاءً بدكتور زيفاجو لباسترناك.

وكان الدكتور محمد مصطفى بدوى يقرأ معنا النصوص الأدبية ويرفض أى تعميمات لا تستند إلى استشهاد من النص، كان ذلك يضايقنى أحيانًا كثيرة، ولكنى تعلمت (أنا الذى أجيد التحليق فى عالم الفكر المجرد) أن أبحث دائمًا عن أرض راسخة، مهما حَلَّقْت. وكان كل من الدكتور المنزلاوى وبدوى يستضيفنى فى منزله ويعطينى الكتب ويعلمنى فن القراءة والحياة.

*** أستاذتى... الدكتورة نور شريف**

أما الدكتورة نور شريف، رئيسة القسم، فهى إنسانة على قدر كبير من الثقافة والحكمة. كانت محاضراتها فى الأدب والشعر متعة حقيقية، إذ كانت

محاضرات حوارية بالفعل، تناقش معنا النصوص الأدبية وتفسرها تفسيرًا واسعًا يتضمن العناصر الجمالية والتاريخية والأخلاقية.

كانت الدكتورة نور على قدر كبير من **الالتزام برسالتها كمعلمة: أن تسهم فى بناء هذا البلد عن طريق تعليم أبنائه. لم تكن تخضع أبدًا للضغوط الخارجية لتحافظ على رسالتها، فعندما أرسلت** رئاسة الجمهورية تسأل عن سبب الرسوب المتكرر لأحد الطلبة الواصلين الوصوليين، كان رد د. نور أن نجاح ورسوب مثل هذا الطالب ليس شأنًا من شئون رئاسة الجمهورية، كان هذا عام 1962، حينما كان الجميع يرتعدون خوفًا من المخابرات. ومرة أراد العميد أن يعرف نتيجة إحدى الطالبات قبل إعلانها، فاستشاطت غضبًا وأعطت النتيجة للفراش ليعلنها، وأخبرت العميد فى الوقت نفسه أن فلانة التى يسأل عنها قد رسبت فى ثلاث مواد.

لاحظت ابنتى نور (التى سميتها باسم أستاذتى) أن أصدقائى من الإسكندرية لهم طابع خاص، فأخبرتها أن هذه هى بصمات د. نور وقسمها. وسألتنى مرة د. نور شريف عن أهم مصادرى الفكرية، فكان ردى ضاحكًا هو: نور شريف. ثم أضفت بشكل جاد: إننى على مستوى من المستويات أعنى ما أقول. ولا يمكن أن أتخيل نفسى دون هذه المرحلة من حياتى التى تعلمنا فيها كيف نفكر وننقد ونكتب.

الثمرة السابعة عشرة...

العالمية فى الفكر تنطلق من المحلية والتراث

ومن أهم أساتذتى فى الإسكندرية الشاعر الإنجليزى البروفسير جون هيث ستبس John Heath Stubbs. أذكر أن فى امتحان أدب القرن السابع عشر كان هناك سؤال عن مصادر **شخصية الشيطان والموت والخطيئة فى**

ملحمة الفردوس المفقود Lost Paradise لجون ميلتون John Milton، لململت أطراف شجاعتى وقارنت بين لندن التى عاش فيها جون ميلتون ودمنهور التى عشت فيها، فبيَّنت أن الشاعر الإنجليزى حين كتب ملحمته كان عصر النهضة قد بدأ بالفعل منذ قرن ونصف القرن، لكننى أشرت إلى أن الرأى السائد (آنذاك) الخاص بأن العصور الوسطى المظلمة اختفت فى اليوم التالى تقريبًا لعصر النهضة هو اختزال مخل للأمور، ولذا مع أن ميلتون كان يعيش حقًّا فى أواخر عصر النهضة فمن المحتمل أن يكون قد احتك بشكل يومى بكثير من الأشكال الحضارية من العصر الوسيط (تلك الأشكال التى استمرت لعدة قرون بعد عصر النهضة)، وأن من ضمن هذه الأشكال مسرحيات الأخلاق التى تحتوى على شخصيات مثل الشيطان والموت والخطيئة. قارنت تلك المسرحيات بمواكب الحرفيين التى كانت تخرج احتفالًا برؤية هلال رمضان والتى شاهدتها فى دمنهور حتى الخمسينيات والتى تعود ولا شك إلى عصور سابقة.

فوجئت بأن البروفسير ستبس قد أعطانى النهاية العظمى، إذ إن ما قلته كان جديدًا تمامًا. وازدادت جرأتى بعد تلك الواقعة، **وتعلمت كيف أستند إلى تجربتى الخاصة ولا أنكرها وإلى تراثى ولا أتنكر له، بل أوظفهما فى عملية الإدراك والتفسير، كما ازددت إيمانًا بمقدرة العقل والخيال على التوليد.**

*** بحوثنا تتنكـر لهويتنا العربية والإسـلامية**

منذ عدة سنوات، كتبت تقريرًا لكلية الآداب بجامعة الملك سعود بينت فيه أن من أكبر آفات البحث العلمى فى العالم العربى انفصاله عن المعجم الحضارى الإسلامى وافتراض أن ثمة معرفة عالمية علينا أن نُحَصِّلها متناسين تراثنا وهويتنا، وأشرت إلى أنه لن يمكننا أن نبدع طالما استنمنا لهذه المقولة، فهى تعنى المحاولة الدائمة «للحاق بالغرب» (فالعالمى فى

منظورنا هو الغربى). وضربت مثلًا بما يدور فى أقسام اللغات الأوروبية فى العالم العربى، وكيف أننا ندرسها من وجهة نظر أصحابها ونستبعد هويتنا الحضارية ومعرفتنا العربية والإسلامية.

وحلًا لهذه المشكلة، اقترحت تشجيع الباحثين على الانطلاق من منظور عربى إسلامى يساعد الباحث على اختيار موضوعات جديدة يترجم إبداعه من خلالها، كما يساعده على أن ينظر إلى الغرب باعتباره تشكيلًا ضمن تشكيلات حضارية أخرى وليس التشكيل الحضارى المطلق، لذا فليس على المرء قبوله (كما يفعل دعاة التغريب) أو رفضه (كما يفعل بعض المتشددين)، وإنما يمكننا أن ندرسه كتجربة حضارية تتسم بما تتسم به الحضارات من سلبيات وإيجابيات.

الثمرة الثامنة عشرة...

تأخر النضج الفكرى فى الشرق

يمكن القول أن شباب الأجيال المعاصرة فى الغرب يصلون إلى سن الإنتاج الفكرى وهم بعد فى العشرينيات، فهم لا يضيعون وقتهم فى المدارس الابتدائية والثانوية، بل يزدادون فيها علمًا ويكتسبون خبرة. كذلك فإن مستوى التعليم الجامعى مرتفع هناك، يسمح بإعداد الطالب للحياة الفكرية المثمرة فى هذه المرحلة. وبعد إتمام المرحلة الجامعية ينتقل المتفوق منهم بسهولة إلى الدراسات العليا، دون تعقيدات لا نهاية لها ودون هموم مالية (فالمنح الدراسية تتكفل بهذا فى كثير من الأحيان). كل هذا يقف على طرف النقيض من الوضع عندنا، إذ علينا أن نكافح ضد نظام تعليمى مُعَوِّق (ازداد سوءًا وشراسة فى الآونة الأخيرة).

إن الدارس فى الغرب لا يحتاج لإعادة صياغة مفاهيمه وأفكاره، فهى

نابعة من التشكيل الحضارى والاجتماعى الغربى (طبيعة مجتمعهم)، ومن ثم يمكن تطبيقها على واقعهم. وفى المقابل على الباحث العربى أن يعيد صياغة مفاهيمه، حتى لا يستمر فى تبنى مفاهيم لا علاقة لها بواقعه الحضارى والاجتماعى، وبالتالى غير قادرة على دراسة هذا الواقع والإسهام فيه.

إن تأخر تكوين المثقف فى العالم العربى يؤثر فى التنمية، يتساقط الكثيرون أثناء العملية التربوية، ومن يخرج منها سليمًا تكون سنوات عطائه محدودة للغاية.

داء التــأمــل

الثمرة التاسعة عشرة...

التأمل: موهبة فطرية

*** حياتنا هى الوقت**

إن أهم العناصر التى ساعدت على اتجاهى لعالم الفكر ما أسميه «داء التأمل» الذى أصبت به فى بدايات الصبا، إذ أدركت أن «حياتنا هى الوقت». وبناءً عليه كنت مثلًا أطلب من إحدى الخدم أن تُحضر لى حذائى (توفيرًا للوقت، وبالتالى «إنقاذًا لحياتى»)، وعندما اكتشَفَت والدتى هذا الأمر أعطتنى علقة ساخنة؛ فأخلاقيات الريف لا تعرف تقسيِّم الناس بشكل حاد إلى أسياد وخدم، وعبثًا حاولت أن أشرح لأمى أن المسألة ليست «عنطزة» أو «منظرة»، وإنما هى إحساس عميق بالوقت!.

وقد أكسبنى هذا الإحساس الحفاظ على كل دقيقة وثانية؛ أحمل فى جيبى دائمًا أوراقًا لأكتب فيها أو كتبًا لأقرأها. وإن وجدت نفسى واقفًا

أصنع الشاى وعلىَّ انتظار الماء حتى يغلى، أؤدى بعض التمرينات الرياضية حتى لا أضيع هذه الدقائق، وكثيرًا ما أضع لنفسى جداول عمل مستحيلة التحقيق.

الثمرة العشرون...

التأمل... الطريق إلى الحقيقة

بعد هذا الإدراك العميق لمفهوم الوقت، بدأت أتأمل كل شىء يحدث لى، وأمارس الحزن والفرح من خلال تأملاتى. أدركت أن الحقيقة «كامنة فى الظواهر التى تمر بنا»، يشعر بها الإنسان من خلال خفقات قلبه ونبضات عروقه، لكى يصل المرء إلى جوهرها وكليتها فلا يمكنه ذلك إلا من خلال الوجدان والقلب، لذلك لا يفوز بها إلا الذين يملكون القدرة على التأمل.

وقد لازمنى داء التأمل طوال حياتى، ولم يولَد الإيمان داخلى إلا من خلال رحلة عقلية طويلة، لذا فإيمانى «إيمان تأملى عقلى»، لم تشارك فيه عناصر روحية، فهو إيمان يستند إلى إحساس بعجز المقولات المادية عن تفسير ظاهرة الإنسان وإلى ضرورة اللجوء إلى مقولات فلسفية أكثر تركيبية.

هذا لا يعنى أننى تحررت تمامًا من التفكير العقلى المجرد، فهذا مُكَوِّن أساسى فى شخصيتى. ذات مرة قابلت إحدى طالباتى الحوامل وسألتها متى سترزق بالمولود، فقالت: «بعد شهرين». وبعد شهرين، قابلتها فى القسم فسألتها هل رُزقت ولدًا أم بنتًا؟، ففوجئت بضحكات الطالبات العالية، فالطالبة الحامل لم تكن قد وَلَدَت بعد! لكننى قمت بعملية حسابية عقلية دون أن أرصد الواقع المباشر. ولعل هذه القدرة على الانفصال المؤقت عن الواقع هى التي مكنتنى من الصمود لكتابة الموسوعة فيما يزيد على ربع قرن.

الثمرة الحادية والعشرون...

الغرق في بحر التأمل.

وللتأمل جانبه المظلم، فهو يفصلنى عن الواقع ويجعلنى أعيش فى عالمى الفكرى والأسطورى الخاص، ويظهر ذلك فى تلك الواقعة: كنت فى الولايات المتحدة عام 1975 أكتب كتابًا باللغة الإنجليزية عن الصهيونية ومستغرَقًا تمامًا فيه، ثم اتصلت بى زوجتى وأخبرتنى أن بعض اللصوص هاجموها واختطفوا حقيبتها وفروا، وأنها ستتأخر حتى تنتهى الشرطة من التحقيق. وبعد ساعة وصلت إلى المنزل ولم أتحرك من مكانى وواصلت الكتابة، فانفجرت باكية فأدركت جرمى، واعتذرت لها عما فعلت.

ولا أدرى هل هذا التأمل المستمر هو المسئول عن أننى كنت فى طفولتى أفقد النقود التى تعطيها لى والدتى لشراء أى شىء. وما زلت أفقد نظارتى فى منزلى وأُكوِّن فِرَقًا للبحث عنها.

الثمرة الثانية والعشرون...

التأمل والترميز والطقوس

منذ طفولتى وصباىّ كانت بعض الأشياء تكتسب قيمة رمزية فى عقلى غير قيمتها الوظيفية. كنت أتصور أن المكرونة هى طعام أهل الجنة، ولذا كنت آكل منها لا بمقدار حاجتى الغذائية المادية، وإنما بمقدار حاجتى النفسية أو العاطفية أو حتى الروحية إن صح القول.

أما الأرز، فكان مرتبطًا فى ذهنى بالطمأنينة وبالعودة إلى دمنهور، ولذا بعد عودتى من رحلاتى المدرسية كنت أطلب من أمى أن تطبخ لى بعض الأرز الذى لم يَعُد طعامًا أملأ به معدتى، وإنما مسألة ذات دلالة رمزية.

وكثيرًا ما تكتسب موضوعات الكتب التى أكتبها بُعدًا رمزيًّا، يجعل منها جزءًا من معركة الإنسان مع كل ما يتهدده. على سبيل المثال، تحولت الموسوعة إلى معركة الإنسان ضد الظلم. وأتصور أن هذا الميل نحو الترميز ساعدنى كثيرًا على الانفصال عن بيئتى المباشرة، إذ خلقت لى الرموز عالمى الخاص.

ومن نتائج التأمل كذلك، تبنى الإنسان **طقوسًا خاصة** يلجأ إليها فى أوقات معينة، كما حدث عند وفاة والدى ووالدتى، كما سأذكر فيما بعد.

ومن أهم الطقوس فى حياتى طقس **«ساعة الصفاء»**، وهو المقدرة على **أن يعيش الإنسان لحظات خارج الزمان، ومن ثم يمكنه أن يستعيد تكامله** وإنسانيته (بعد أن يكون قد فَقَدَ بعضًا منهما فى معترك الحياة وتفاصيلها التى لا تنتهى)، بشرط أن يظل الإنسان واعيًا تمامًا بأن هذه لحظات مؤقتة وحسب ومن ثم فهى ليست هروبًا من الواقع.

وقد تعلمت أنا وزوجتى أن نمارس لحظات الصفاء هذه، مهما كانت الحياة قاسية علينا. ساعتها نطلب من أولادنا أن يتعدوا عنا بعض الوقت، ونجلس وحدنا نحتسى القهوة وأدخن سيجارًا، فتتجدد العلاقة المباشرة بيننا ولا تضيع منا فى الزحام والتفاصيل.

القـارىء الكريم...

ألا ترى معى أن أرقى طقوس الصفاء وأكثرها فاعلية أن يقف الإنسان بين يدى الله ﷻ مُصَلِّيًا أو قارئًا للقرآن.

الثمرة الثالثة والعشرون...

تأملات حول الحب والزواج

إذا كان الحب الرومانسى الحالم يوجد خارج الزمان (خارج المحسوس والمحسوب)، فكيف يمكن لمن يحب بهذه الطريقة اللازمنية أن يتزوج ثم

يترك من يحب ويذهب إلى عمله؟ وكيف ينشغل بالأولاد ومشاكل الحياة؟ كثيرًا ما تلح عليّ هذه الأسئلة.

أُلاحظ أن أبناء هذا الجيل، نظرًا لأنهم يتبنون عن غير وعى هذا الحب اللازمنى (فهذا ما تتحدث عنه الأغانى والأفلام، وما تروِّج له أجهزة الإعلام)، يصبحون غير قادرين على التعايش داخل مؤسسة الزواج، فكل فرد متوجه بشكل حاد نحو السعادة الفردية ونحو اللذة، مما يجعل التعايش مع الآخر داخل إطار واحد (الأسرة بمسئولياتها) مسألة مستحيلة، أو شبه مستحيلة.

*** السعـادة كالعمـل الفنـى... تحتـاج إلـى الإبداع**

من خلال تأملاتى لتجاربى وتجارب الآخرين أصبح عندى رؤية ومفهوم للزواج. أرى أن السعادة لا تهبط هكذا من السماء، وإنما هى مثل العمل الفنى، لا بد أن يكد المرء ويتعب فى صياغته وصنعه. والزواج، مثل العمل الفنى أيضًا، ومثل أى شىء إنسانى مركب، يحتوى على إمكانات سلبية وإيجابية، ولا يمكن فصل بعضها عن بعض. وكثيرًا ما كنت أخبر طالباتى بأن الحب الحقيقى هو أن يَقبل الواحدُ الآخرَ ويعرف أن محاسنه مرتبطة تمام الارتباط بعيوبه. وأرى أن من الضرورى أن يشترك الزوجان فى نقط الانطلاق والمثاليات وسلم الأولويات الأساسية، فالتعارض على هذا المستوى يُوَّلد توترات لا يمكن لمؤسسة الزواج تحملها.

ومن الطريف أننى كنت أتصور أننى تزوجت من د. هدى لأنها مختلفة فى كثير من النواحى عن أمى، ولكننى اكتشفت ـ بعد قدر من التأمل ـ أنها تشبهها فى كثير من النواحى.

كما طوَّرت مفهوم «إعادة الزواج من نفس الزوجة»، إذ تتغير الظروف والأوضاع وتتغير الشخصية والتوقعات، فيُعاد النظر فى العلاقة ويُعاد

تشكيلها بما يتفق مع الرؤية الجديدة. وأزعم أننى تزوجت من زوجتى ثلاث مرات، المرة الأولى التقليدية، والثانية بعد حصولى على الدكتوراه، والثالثة بعد حصولها هى على الدكتوراه. ولعل هذا المفهوم يحل بعض المشكلات التى يقابلها الناس فى زيجاتهم، إذ يتصور كل طرف أن الآخر نمط محدد لا يتغيَّر، ومن ثم فالتوقعات والأحزان والأفراح لا تتغيَّر، وهو تصور غير إنسانى، فثمة قدر من الثبات فى حياة الإنسان ومن ثم فى شخصيته، ولكن ثمة قدرًا من التغيُّر أيضًا، ولا بد أن يأخذ الإنسان هذا فى الحُسبان.

الوعى بالموت والمرض

الثمرة الرابعة والعشرون...

الوعى بالموت

كان للموت مهابته ووقاره فى دمهنور التى نشأت فيها. فالموت، فى المجتمعات التقليدية، شأنه شأن الحياة، أمر مهم وخطير لا يتحمل الدعابة أو الهزل، وفى نفس الوقت كان الناس يقبلونه كأمر طبيعى من أمور الحياة. حينما تمر جنازة كان الجميع يتوقفون عن البيع والشراء ويتسابقون لحمل النعش والقيام بواجب العزاء، وإن مررنا على القبور كنا نقول: «السلام عليكم دارَ قوم مؤمنين، أنتم السابقون ونحن إن شاء الله بكم لاحقون». وكانت زيارة المقابر جزءًا من حياة الناس اليومية، يزورون فى المناسبات والأعياد من مات من أهلهم وأقاربهم، تمامًا مثلما نزور نحن الأحياء.

كانت جدتى نازلى ـ رحمها الله ـ تُعِدُّ نفسها فى السنوات الأخيرة من حياتها لمنزل العودة، فبدأت فى توزيع ما تبقى لها من متعلقات الدنيا. ومرة لمحت فى دولابها الخشبى المتهالك قماش كفنها الأبيض والأخضر. أما أمى فكانت آخر رغباتها ألا تُدفن إلا فى مدافن أهلها.

ويمكن مقابلة ذلك بموقف الأمريكيين من الموت ورفضهم الشديد له وخوفهم العميق منه، ويعتبر هذا علامة على عدم النضج، بل ورفضًا عَميقًا للحياة الإنسانية.

ويبدو أن الموت فى مجتمعنا قد تم استيعابه أخيرًا فى نفس النمط التنافسى الذى تم استيعاب الأفراح فيه. ففى صفحة الوفيات توجد تعازى الأثرياء فى مربعات كبيرة، أما تعازى الناس العاديين فتوجد فى الأعمدة التقليدية، كما يتم تصوير الجنازات بالفيديو بعناية فائقة !.

وكعادتى، فقد اتخذت تجاه الموت موقفًا فلسفيًّا يدفعنى للتأمل، مع الاحتفاظ بمسافة بينى وبين الأحداث. حينما توفى والدى، كنت فى الولايات المتحدة، فذهبت إلى نيويورك وحضرت مسرحية برَخت «الاستثناء والقاعدة» كطقس جنائزى لوالدى، ولكنى لم أبكه إلا بعد زيارتى لقبره فى دمنهور. وعندما ذهبنا لتشييع جنازة والدتى، ظللت صامتًا (مما أثار دهشة من حولى)، ولكنى انفجرت باكيًا عند قبرها ثم لزمنى الصمت وغصت فى التأمل، ثم أحييت المناسبة بأن شربت المشروبات التقليدية التى كانت تحبها (التيليو والحلبة والآنسون ومنقوع ورق الجوافة). ويبدو أن مقدرتى على التجريد كانت وراء الملاحظة الغبية التى قدمتها لصديق ذهبت أعزيه فى وفاة والدته، إذ أخبرته أن أمهاتنا قد بلغن السن التى يتوقع فيها الإنسان موتهن. فنظر إلىَّ بدهشة، فاعتذرت له وقلت: «البقية فى حياتك».

وقد أحسست بالموت إحساسًا جماليًّا حين رأيت لوحة جميلة رسمها فنان صينى لشجرتين من نبات البامبو (البوص) تعلو كلًّا منهما زهرة ملونة جميلة. وقال الفنان فى شرحه للوحة: إن هذا النوع من البامبو يظل ينمو لمدة تسعة وثلاثين عامًا ثم يزهر زهرته فى العام الأربعين ويموت بعدها. فسُحرت بهذه الفكرة وغرقت فى التأمل فيها، وقررت أن أسافر إلى الصين لمشاهدة حقول البامبو هذه حينما تُزهر.

الثمرة الخامسة والعشرون...

إدراك المرض: ليس من سمع كمن رأى، وليس من رأى كمن ذاق

يوم أن انتهيت من الموسوعة، حدث ما زلزل كيانى، إذ مات زوج ابنتى. وقد لاحظت فى ذلك اليوم أننى بدأت أفقد المقدرة على النطق أحيانًا، ثم بدأت أشعر بدوار كلما فكرت أو مارست أى مشاعر إنسانية حادة، وقد سقطت مرتين أو ثلاثًا على الأرض. ويبدو أن مرضى كان فى معظمه نفسيًا، نتيجةً للخبر الذى وصل إلىَّ وأنا مُنهك القوى تمامًا بعد الانتهاء من الموسوعة.

تمرد جهازى العصبى علىّ وأخذ يتصرف بإرادته مستقلًا عنى بعد أن وضعته داخل ثلاجة مدة ربع قرن، إذ قرر أن يستجيب وبحدة لأى شىء دون تدخل واعٍ منى. فكنت حين أود عبور شارع ما يخاف جهازى العصبى، رغم معرفتى الواعية أن العبور لن يسبب لى ضررًا، فكانت قدماى لا تتحركان، وكنت أضحك من توقفى. ومرة قبَّلنى طفل صغير، فتأثر جهازى العصبى كثيرًا وأُصبت بدوار شديد كدت أسقط على أثره. ومرة أخرى رأيت خادمة صغيرة تحمل أثقالًا، فحزنت من أجلها، وأصبت بما يشبه الشلل، وهكذا.

نصحنى أحد أصدقائى بالرضا بحُسبانه مدخلًا للشفاء. وبالفعل، قبلت حالتى وبدأت رحلة الشفاء منذ تلك اللحظة، فخلدت إلى الراحة التامة لأول مرة فى حياتى تقريبًا، وقضيت إجازة شهرين أمام البحر، امتنعت خلالها قدر طاقتى عن التفكير حتى استرددت جزءًا كبيرًا من عافيتى، وأشير لهذه الفترة من حياتي بالزلزال أو الكابوس، وذقت طعم المرض والموت لا كمقولات مجردة وإنما كتجربة عشتها بنفسى.

* علم اليقين، عين اليقين، حق اليقين

يُطلِق السادة الصوفية مصطلح «علم اليقين» على الأمر إذا أحطت به معرفةً (كأن تقرأ عن المرض)، أما إذا شاهدت الأمر فقد صار «عين اليقين» (كأن ترى مريضًا)، فإذا ذقته وعايشته صار «حق اليقين». ويبدو أن الله سبحانه وتعالى بعد أن ترسّخ فىَّ الإحساسُ بالموت، أراد أن يُرسخ فىَّ أيضًا الإحساس بالمرض العضوى.

بعد أن شُفيت تمامًا من الدوار الذى كان يصيبنى، شعرت بألم خفيف فى ظهرى ثم تدهورت الأمور بسرعة خلال يومين أصبحت بعدهما عاجزًا تمامًا عن الحركة. وقد تبين فيما بعد وجود ورم نتيجة مرض يُسمَّى (ميلوما أحادية) Solitary Myeloma، وهو شكل من أشكال السرطان الذى يصيب خلايا البلازما Plasma Cells فى نخاع العظام، وهو سرطان يأكل العظام والأنسجة المحيطة، وقد قام الورم بتهشيم الفقرتين الصدريتين الرابعة والخامسة فى عمودى الفِقَرى فانهارتا منذ مدة طويلة دون أن أشعر وبدأتا تتشكلان مرة أخرى، وبقى الورم هناك سنوات طويلة ولم يهشم غيرهما (كرم الله ولطفه)، ثم بدأ يضغط على الحبل الشوكى إلى أن توقف نصفى السفلى تمامًا.

وأُجريت لى عملية جراحية فى الفقرة الخامسة (تسمَّى لامينكتومى Lamenectomy)، يتم فيها استئصال أجزاء من الفقرة لتخفيف الضغط عن الحبل الشوكى.

بدأت أقرأ عن الميلوما وعن السرطان بشكل عام، فوجدت أن المنهج الذى يتبناه الطب الآن هو التعايش مع السرطان إن لم يمكن القضاء عليه. كما فهمت أنه من المستحسن تأجيل تعاطى الأدوية القوية أو إجراء عملية

زرع النخاع autologous bone marrow transplant. وفى هذه العملية يقومون بأخذ الخلايا الأم أو الخلايا الجذعية stem cells من نخاع عظام المريض نفسه ثم ينظفونها من الخلايا السرطانية، وبعد ذلك يقومون بإعطاء المريض علاجًا كيماثـيًا قويًا يقتل كل ما تبقى من خلايا نخاعه (مما يضعف جهازه المناعى تمامًا)، ثم يقومون بحقن المريض بخلاياه الجذعية، ويتبعون ذلك بإجراء التحاليل ليرصدوا ما إذا كانت الخلايا قد زُرعت أم لا. وبرغم البساطة الظاهرية للعملية فهى مكلفة للغاية.

وحيث إن التدهور فى حالتى الصحية بدأ يوم أن انتهيت من الموسوعة، فقد انتشرت شائعة طريفة فى القاهرة مفادها أن الموساد هى التى تسببت فى إصابتى بالمرض.

الثمرة السادسة والعشرون...

الطب التعاقدى فى الولايات المتحدة: عقدة جوبيتر ود. فرانكشتاين

عندما اشتد علىّ المرض ذهبت إلى الولايات المتحدة لإجراء عملية زرع النخاع، وبدأ علاجى على يد دكتور أليكسنيان Alexenian، وهو من أشهر المتخصصين فى الميلوما فى العالم، وحين قابلته لأول مرة كان لطيفًا للغاية، وسألنى عن الشاعر الإنجليزى المفضل لدى، ثم أخبرنى أنه يمكن إجراء عملية لى لأن عمرى دون الخامسة والستين وعندى من المال ما يغطى التكاليف (أخبرهم المكتب الصحى التابع للأمير عبد العزيز بن فهد إنه سيتكفل بدفع التكاليف). ويمكن القول إن هذه المقابلة نصفها تراحمى والنصف الآخر تعاقدى فما قاله عن تغطية التكاليف لم يكن له أى مبرر، فهو أمر كان معروفًا لدى ولديه. وتم إجراء العملية.

وحين ذهبت لإجراء الفحص السنوى فى العام التالى، وجدت د. أليكسنيان تعاقديًا بشكل رهيب، ينطبق عليه ما يسمى بالـ Jupiter complex أى عقدة

جوبيتر. وجوبيتر هو الاسم اليونانى للإله زيوس، كبير الآلهة. فالطبيب المصاب بهذه العقدة يتصور أنه إله. كنت جالسًا على الكرسى أنا وزوجتى، وحين دخل د.ألكسينيان قمت احترامًا له، لعلمه وسنه، ولكن بدلًا من أن يصافحنى جلس على مكتبه وسألنى لِمَ وقفت؟ فأجبته عن سؤاله، فلم يعلق وقال: إنه تمرين رياضى لا بأس به، ومفيد للعضلات، أى أنه حول تحيتى التراحمية إلى شيء يخصنى وحدى ويعود على بالفائدة العضلية، أى المادية. ثم أخبرنى أننى من خلال عملية نقل النخاع وصلت إلى ما يسمى «الكمون الجزئى»، الأمر الذى يعطينى 4 سنوات من العمر، فابتسمت وقلت لزوجتى ضاحكًا هذا يعنى أننى يجب أن أنتهى من مشروعاتى الفكرية فى ثلاث سنوات ونتنزه سويًا فى السنة الرابعة والأخيرة. ففوجئت بالدكتور ألكسينيان يقول: «أنا لم أقل إنك ستعيش مدة أربع سنوات فقد تموت بعد ستة شهور» فسألته: «هل هذا له علاقة بالميلوما؟»، قال: «لا، لكن يمكن أن تصاب بالأنفلونزا أو أى مرض آخر» فضحكت وقلت له: «عندنا فى القاهرة يمكن أن تقوم عربة ميكروباص أو نص نقل بهذه المهمة فى أقل من 24 ساعة» (أى حاولت أن أخبره بطريقة علمانية أن الأعمار بيد الله).

وقد نبهنى أحد أصدقائى المتخصصين إلى أن د.ألكسينيان يبالغ فى الأمور، إذ أنهم فى بعض المراكز الطبية يفضلون سمعة المركز على صحة المريض، لذلك يقومون بتغطية أنفسهم خوفًا من التقاضى، حتى إن بعض الأطباء يتركون مهنة الطب تمامًا، لتزايد التأمين المطلوب منهم دفعه، بقدر لا يتناسب البتة مع أرباحهم، كما أخذ بعض الأطباء يرفضون علاج أى شخص يعمل فى مجال المحاماة أو أى مريضة متزوجة من محامٍ.

كنت أسمى دكتور ألكسينيان، د.فرانكشتاين (إنسان مُخَلَّق شرس قام بقتل صانعه)، بسبب موقفه التعاقدى المحايد الذى حولنى إلى موضوع ومادة إستعمالية. ولكن ـ والحق يقال ـ إنه غيّر موقفه تمامًا فى المرة التى تليها،

فكان إنسانيًّا تراحميًّا إلى أقصى درجة، فقد قضى معى ساعة كاملة، وذكر لى خطة العلاج وفلسفتها، كما طمأننى إلى أنه يَجِّد جديد كل عام وربما يظهر فى القريب دواء جديد أكثر فاعلية. ثم تحدث معى عن الشِعر مرة أخرى وعن أحوال العالم، فتساقط قناع د. فرانكشتاين وتم تقويض مركب جوبيتر وفاض نهر التراحم الإنسانى ليمحو انطباع التعاقد غير الإنسانى.

الثمرة السابعة والعشرون...

التأمل والمرض: الطب البديل ومعجزات الشفاء

لم أكتف بالطب التقليدى بل لجأت إلى أنواع من الطب البديل؛ كالعلاج بالأعشاب والإبر الصينية، ولا أدرى هل استقرت حالتى بسبب الطب التقليدى أم الطب البديل أم بمزيج منهما. ومما شجعنى على الاستعانة بالطب البديل أن أستاذًا للشعر الإنجليزى (متخصص فى الشِعر الرومانسى مثلى تمامًا) فى جامعة أكسفورد يدعى Michael Gearin Tosh أُصيب بمرض الميلوما وأخبره الأطباء أن أمامه ستة شهور، وأنه لو لجأ للعلاج الكيميائى فسيموت فورًا، فكذب نبأ وفاته، وبدأ رحلة علاج مع أنواع مختلفة من الطب البديل. وبعد مرور عشرة أعوام من نبوءة وفاته كتب كتابًا بعنوان «برهان حى: تمرد طبى A Medical Mutiny: Living Evidence» يسجل فيه تجربته مع الطب العادى والطب البديل!. ومن أطرف ما جاء فى كتابه ما يسمى «التخيل الصينى»، وهو أن يتخيل الإنسان نفسه مع أحد أصدقائه وقد نزلا سويًا فى شرايينه ليحارب الخلايا السرطانية ويبدأ فى ضربها حتى تقع ميتة، فكنت أقوم بهذه التمارين. وعلى أى حال كان الأطباء يخبروننى أن ٪80 من العلاج يتوقف على حالتى النفسية وعلى الإرادة. وقد نَوَّه الأمير تشالز، ولى عهد بريطانيا، فى إحدى أحاديثه باستخدام الطب البديل، فهاجت وماجت المؤسسة الطبية التقليدية ضده!.

ومن أطرف الوقائع الطبية فى حياتى ما حدث لى فى الجامع الأموى فى دمشق. كنت قد قمت بأداء فريضة الحج أنا وزوجتى وقررت أن نذهب إلى سوريا لنزورها لأول مرة فى حياتنا، فاعترضت زوجتى بأننا بعد الحج سنكون مرهقين، لكننى أصررت على موقفى. وحين وصلنا إلى هناك أصبت بالحمى المالطية، وارتفعت درجة حرارتى بشكل ملحوظ، وبدأت زوجتى فى تعنيفى بسبب عنادى الشديد. وفى الجامع الأموى قررت أن أضع حدًا لعملية التعنيف هذه، فالتفت إلى السماء ودعوت الله بصوت عال أن يشفينى فى أسرع وقت، فاستجاب الله دعوتى على الفور، إذ بدأت أتصبب عرقًا بشكل ملحوظ، وانخفضت درجة حرارتى فى اللحظة نفسها. وفى طريق العودة مررنا على مدينة جرش حيث يقام مهرجان فنى كل عام، وتذكرت أن ماجدة الرومى كانت تغنى تلك الليلة، فاقترحت عليهم أن نعرج على المسرح لنسمعها، فرفض الجميع بسبب الإرهاق الذى كان قد ألم بهم، بينما أنا المريض كنت فى غاية اللياقة البدنية، وسبحان مغير الأحوال. إن ما حدث لا يمكن فهمه ولا يمكن تكراره (**وهذه هى بعض صفات المعجزة التى يُطلق عليها اصطلاح «صدفة»**).

الثمرة الثامنة والعشرون...

المرض والنضج الفكرى والنفسى

تعلمت أنا الذى لم أمرض مرة واحدة تقريبًا أثناء كتابة الموسوعة، كما أعددت عشرات المشروعات البحثية فور الانتهاء منها، بل وكنت أتحدث عن السيطرة على الجسد، **تعلمت محدودية الجسد الإنسانى ومحدودية المقدرة الإنسانية.** بدأت أتعاطف مع المعوقين أكثر من ذى قبل (وإن كنت اكتشفت أن الإنسان المُعَوَّق يعوض نقط النقص فيه من خلال كفاءات أخرى يطورها). وتعلمت أنه لا يوجد مرض وإنما يوجد مرضى! أى أنه لا توجد

قوانين عامة للمرض وإنما يوجد أشخاص يصابون بمرض ما ويستجيب كل واحد منهم له بطريقة مختلفة.

وأثناء مرضى غمرنى أصدقائى وتلاميذى بالمحبة؛ فعادنى عشرات منهم ووصل إلىَّ نهر جميل من الأزهار، كان يفيض من غرفتى على بقية المستشفى. وحينما كنت أسير فى شوارع لندن، كان كل الناس يساعدونى، وحينما أركب إحدى وسائل المواصلات العامة يتركون لى مقاعدهم، ففى الشدائد يظهر المعدن الإنسانى الأصيل. وذكرنى ذلك بما كان يحدث للناس فى الولايات المتحدة بعد العواصف الثلجية، كان الجميع يتكاتفون، وإن غرزت سيارة فى الثلج تقف السيارات الأخرى لمساعدتها، وإن غطى الثلج باب منزل يأتى الجيران لإزاحة الثلج، **فيسقط التعاقد تمامًا ويظهر جوهر الإنسان التراحمى**. وهكذا تعلمت، أنا الذى لم أعُدْ أحدًا فى مرضه إلا نادرًا، أهمية أن يقف المرء إلى جوار الآخرين فى لحظات الشدائد.

ورغم فجائية اكتشاف المرض إلا أننى تقبلت هذا الخبر بكثير من الهدوء والرضا، بل أننى حين كنت وزوجتى فى شيكاغو لاستشارة الأطباء نحدد مواعيد الأطباء بما يتفق مع جدولنا «السياحى». فقمنا بزيارة المتاحف والحدائق والمسارح، وقضينا واحدًا من أجمل شهور حياتنا الزوجية.

مع المادية والماركسية

الثمرة التاسعة والعشرون...

* بذور الشـك

حينما كنت فى السنة النهائية فى مدرسة دمنهور الثانوية، وأنا بعدُ فى السادسة عشرة، بدأت بعض الأسئلة الأساسية تهاجمنى وبإلحاح شديد.

وكان من أهمها أسئلة خاصة بأصل الشر فى العالم والحكمة من وجوده، وعن أصل الكون. وكان هذا العام أول عام أدرس فيه مادة الفلسفة، وقد خلبت هذه المادة لبى تمامًا، وساعدتنى على تنويع أسئلتى وتعميقها وصياغتها بطريقة متبلورة.

وأذكر أننى قرأت قصيدة قصيرة أعتقد أنها لكامل الشناوى، تقول:

يا رب فيم خلقتنا وتركتنا ... نَهْب الظلام فلا ضياءَ ولا سنا
وندبُّ فوق الأرض لا ندرى بها ... وندبُّ فوق الأرض لا تدرى بنا
أنا من أنا، أنا من أكون؟ وسيلةٌ ... أم غايةٌ، أنا لست أعرف من أنا
وهمٌ يساور ملحدًا فيَرُوعه ... ويخافه من كان مثلى مؤمنا

والقصيدة ليست من عيون الشعر العربى، ومع هذا تركت فىَّ أثرًا عميقًا. لقد جعلت الإيمان الدينى مسألة جبن وإحجام عن التساؤل، وهذا ما لا يقبله من كان فى سنى وعقلى.

لم يكن أحد فى أسرتى قادرًا على أن يأتى بإجابة شافية لهذه التساؤلات، فمعظمهم كان يصلى ويصوم بحكم العادة والتقاليد، وبالتالى فالتساؤل الفلسفى يقع خارج نطاق تصوراتهم وأفكارهم. أما أقرانى فلم يكونوا فى مستواى الفكرى، ولذا عجزوا هم أيضًا عن محاورتى.

وفى نهاية الأمر ذهبت إلى مدرس اللغة العربية (والدين) أسأله، فاستخدم مفهوم السببية البسيطة؛ هذا العالم المخلوق لا بد أن يكون له خالق، وبذا فالأمور واضحة تمامًا، وهنا سألته ومن خالق الشر؟ كان رده فى غاية البساطة أيضًا، إذ قال إن العقل يعجز عن إدراك مثل هذا، وتركنى وحيدًا مع إجاباته البسيطة السهلة التى لم تشف لى غليلًا، بل قوَّضت من إيمانى. وبدأ التأمل، وانتهى بى الأمر إلى أن أعلنت أننى لن أصلى ولن أصوم إلى أن أجد إجابة عن أسئلتى.

وكان أعضاء أسرتى قد تعودوا منى مثل هذه التحولات (حيث إننى قبل عامين كنت قد انضممت لجمعية الإخوان المسلمين، وكنت أقضى وقتًا طويلًا من الليل فى قراءة القرآن مع أحد الخدم)، شتمنى والدى ولكنه تركنى وشأنى.

ثم اتسعت دائرة الحوار مع بعض المثقفين أثناء وجودى فى الإسكندرية. وكان فى كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية وآدابها مجموعة من الأجانب ممن لا يحجمون عن مناقشة مثل هذه الأمور بحرية بالغة مما أتاح أمامى الفرصة لطرح المزيد من الأسئلة إلى أن أصبح الشك مكونًا أساسيًا فى رؤيتى.

* شـك أم إلحـاد

دارت مناقشة حامية الوطيس بين أعضاء الندوة الشهرية التى أعقدها فى منزلى، ويحضرها من يشاء من الشباب، حول طبيعة ما حدث لى بالضبط، هل كان مجرد شك وبالتالى فهو بداية بحث، أم كان إلحادًا صريحًا؟ لقد رأى بعضهم أننى أصبحت «ملحدًا» بالفعل، وأشار البعض الآخر إلى أن إيمانى ببعض المطلقات الأخلاقية والإنسانية يتنافى تمامًا مع الرؤية المادية الخالصة (التى تشكل جوهر الإلحاد)، وأن هذه المطلقات هى تعبير عن وجود شىء ما وراء العالم المادى، وبالتالى فإن ما حدث هو أن الشك قوَّض الإيمان البسيط. وبدأت رحلة البحث وظلت مستمرة إلى أن بلورت لنفسى رؤية دينية جديدة لا تتسم بالبساطة والسذاجة.

هذا يعنى أننى كنت أدور فى إطار نموذجين: أحدهما نظرى مادى (معاد لفكرة الإنسان والأخلاق والقيم ولأى شكل من أشكال الثبات والإطلاق)، والآخر عملى أخلاقى (يستند إلى إيمان بمنظومة أخلاقية تضرب بجذورها فى عالم ما وراء المادة وتتجاوز عالم المادة) (التجاوز بالمعنى

العام هو «تخطى شيء ما وصولًا إلى ما هو أسمى منه»)، وأعتقد أن هذه الازدواجية هى التى تعمقت بعد ذلك وتبلورت إلى أن كان على أن أحسم الأمر وأصفى الازدواجية وأدخل عالم الإيمان والتركيب والثنائيات المتفاعلة (الله ـ الطبيعة، الروح ـ المادة).

الثمرة الثلاثون...

فراغ لم تملؤه إلا الماركسية

لقد خلق ما اعترانى من شك فراغ فى نفسى، فلم يعد من الممكن قبول الأطر القديمة، وكان لا بد من أن يُملأ هذا الفراغ العقائدى (أو الأيديولوچى). وبما أننى كنت ثائرًا ضد الظلم الاجتماعى، كان من الحتمى تقريبًا أن أتوجه للماركسية، وقد أعطانى صديقى سعيد البسيونى بعض الكتب عن هذه الأيديولوجية، كما كان عند أصدقائى الأجانب كثير من الأدبيات الماركسية، ثم أُفتتحت المكتبات السوفيتية التى كانت تبيع الكتب السوفيتية والماركسية بأسعار رخيصة، فاشترينا الكثير منها، وبدأت أقرأ فيها بنهم.

كان اهتمامى بالماركسية فكريًّا فى بداية الأمر، إلى أن التقى بى أحد أعضاء حدتو (الحزب الشيوعى) وجنّدنى عضوًا فى الحزب عام 1955، وتم تصعيدى فى الحزب نظرًا لمعرفتى باللغة الإنجليزية والمصادر الأُولية للفكر الماركسى. ومن الطريف أننى كنت بموضوعية وأمانة كاملتين أُبيِّن للرفاق فى الحزب أنه يجب ألا أُصَعَّد بسبب خلفيتى البورجوازية ولا بد من اختبارى والتأكد من «نقائى الأيديولوجى»! ومع هذا، استمروا فى تصعيدى، ووجدتنى مسئولًا عن خلية وعضوًا فى لجنة منطقة الرمل. ثم أصبحت مسئولًا حزبيًّا عن مصنع شريبط لتجفيف البصل فى الحضرة بالإسكندرية، وقد نجحت فى تنظيم إضرابًا للعمال.

ولكن ـ والحق يُقال ـ كنت أشعر بأن وجودى بين الرفاق كان نشازًا، إذ إن درجات الفقر بين بعضهم لم تكن تُصدَّق، وكانت تتزايد بسبب الإضراب، فكان كل هذا يصدمنى ويولِّد فىَّ إحساسًا عميقًا بالذنب بسبب مستواى المعيشى.

الثمرة الحادية والثلاثون...

الخروج من دوامات الماركسية

الفضـل يرجـع لسـلوك الرفـاق

بدأت ألاحظ أن السلوك الشخصى للرفاق كان متناقضًا مع أى نوع من المثاليات الدينية أو الإنسانية، وأن كمية النرجسية (الإعجاب بالذات) عند بعضهم كانت ضخمة للغاية. وأنا لا أُمانع فى وجود قدر من النرجسية عند البشر، فهذا أمر بشرى أساسى، خصوصًا بالنسبة للثائر، فالنرجسية آلية نفسية يدافع من خلالها عن نفسه ضد مجتمع يود ابتلاعه، ولكن النرجسية التى لاحظتها عند كثير من الرفاق كانت بالفعل متطرفة. كذلك كانت الحريات الأخلاقية التى كانوا يسمحون لأنفسهم بها كاملة، أى أنهم فى واقع الأمر كانوا شخصيات نيتشوية داروينية، لا علاقة لها بالماركسية ولا بأى منظومة أخلاقية، خاصةً أن ماركسية بعضهم كانت تنبع من حقد طبقى أعمى وليس من إيمان بضرورة إقامة العدل فى الأرض. بل كثيرًا ما كنت أشعر أن بعضهم كان ماركسيًّا بحكم وضعه الطبقى المتدنى وحسب، وأنه لو سنحت الفرصة أمامه للفرار من طبقته والانضمام للطبقات المستغلة الظالمة لفعل دون تردد وطلَّق ماركسيته طلاقًا بائنًا. لكل هذا قدَّمت استقالتى، وطلبت أن أُعَدَّ من أصدقاء الحزب لا من أعضائه.

ومن أطرف القصص التى رواها أحد الرفاق الفلسطينيين السابقين ما

حدث له مع مجموعة من الشيوعيين المتطرفين الغربيين: حضر هؤلاء إلى معسكر تدريب الفدائيين، وعندما بدأ الرصاص ينهال عليهم، بتدبير سابق، تصرفوا مثل كل البشر، فاختبأوا تحت السيارات، ولكن ما فاجأه هو أن كل واحد منهم بدأ يتلو أدعية دينية ويطلب العون من الإله!.

الثمرة الثانية والثلاثون...

الماركسية: بعض ما لها وما عليها

كان لتجربتى «الماركسية» القصيرة جوانبها السلبية والمظلمة دون شك، فاستخدام الصراع الطبقى ووسائل الإنتاج كمعيار نهائى، والبحث الدائب عن العمال والفلاحين بحُسبانهم قوى فاعلة ستغير التاريخ قد جعلا رؤيتى للفكر والأدب رؤية قاصرة إلى أقصى حد، وأعتقد أن هذا قد عاق تطورى الفكرى بعض الوقت.

من حسن حظى أننى لم أحضر الفترة «الأُممية» (التى تضع الولاء للشيوعية فى مختلف الأمم فوق الولاء للوطن) حين كانت صفوف الحزب تزخر بالأجانب وبأعضاء الجماعات اليهودية وبالحماسة للحرب ضد فرانكو فى إسبانيا مع إهمال الجهاد ضد الصهاينة فى فلسطين !، فقد كان هذا الجهاد يُعَدُّ سقوطًا فى قبضة الرجعية العربية (كان حل الصراع العربى الإسرائيلى - فى تصورهم - هو التحالف بين العمال والفلاحين اليهود والعرب ضد الرأسماليين والإقطاعيين العرب واليهود) !.

* رب ضارة نافعة.

كان لتجربتى الماركسية آثار إيجابية كثيرة، فقد أتاحت لى فرصة التعرف على بعض النماذج الإنسانية (النبيلة والنيتشوية) عن قرب (تؤمن الفلسفة

النيتشوية بأن الأخلاق هى سلاح الضعفاء فى مواجهة الأقوياء وأنه لا يمكن حسم أى خلاف إلا بالقوة)، كما أننى استوعبت بعض المقولات الماركسية مثل دور التاريخ واللحظة التاريخية فى تحديد مواقف الأفراد وتوجهاتهم.

وللماركسية نزعتان فكريتان متناقضتان: الأولى هى **النزعة المادية** المتطرفة التى ترى الإنسان باعتباره كائنًا ماديًا وحسب، والثانية هى **النزعة الماركسية الإنسانية**، والتى تذهب إلى أن الإنسان ليس بكائن مادى وحسب، وإنما هو كائن مركب تدخل فى تركيبه عناصر مادية وأخرى غير مادية، ومن ثم فإن هناك قانونًا للإنسان وآخر للأشياء والحيوان. وأعتقد أن هذه النزعة الإنسانية هى التى حمتنى من السقوط فى المفاهيم اللاإنسانية (العدمية والحيادية وانعدام الاتجاه والاحتفال بموت الإنسان).

كما أن الماركسية دعَّمت من بعض الاتجاهات الكامنة داخلى، مثل رفض **الظلم والاستغلال**، وضرورة إقامة العدل فى الأرض، وأهمية أن يتجاوز الإنسان ما هو قائم وألا يذعن له (فالإذعان والقبول بالأمر الواقع هما جوهر الجمود والرجعية).

والأكثر من هذا، **زودتنى الماركسية بنظرة نقدية** أُطل بها على بيئتى البورجوازية فى مصر، ثم فيما بعد على بيئتى الأمريكية فى الولايات المتحدة، فلم أنبهر بها رأيت كما حدث لكثيرين من أعضاء جيلى، ولم أنغمس فى الاستهلاكية والرغبة فى اقتناء السلع والأشياء والمزيد من السلع والأشياء. **فمن خلال الماركسية أمكننى الاحتفاظ بالبُعد النقدى وبمقدرتى على رؤية ما حولى كاملًا بما فيه من إيجابيات وسلبيات، وبالتالى تجاوزه إلى عالم أرحب.**

* * *

الفصل الثالث
فى الولايات المتحدة

إذا كان انتقال د. المسيرى إلى الإسكندرية ليلتحق بجامعتها يمثل بالنسبة له نقلة إلى جو كوزموبوليتانى (عالمى) لا جذور له، يمكن أن يثرى الإنسان ويمكن أن يبتلعه، فلا شك أن سفره للولايات المتحدة الأمريكية كان يمكن أن يعصف به ويتركه أشلاءً، كما حدث للكثيرين.

الثمرة الثالثة والثلاثون...

الصدمة الأولى، مواجهات فكرية

* لا تهتز ثقتك بنفسك

بعد أن تخرجت فى جامعة الإسكندرية، حصلت على بعثة للذهاب إلى إنجلترا. وتصادف أن حضر إلى مصر أستاذ للأدب الرومانتيكى الإنجليزى فى جامعة كمبردج وكان صاحب شهرة عالمية، فقدمت له دراسة طَموحة، تحاول أن تغطى تاريخ الأفكار وعلاقتها بتاريخ الحركات الأدبية. قرأ الأستاذ الدراسة، وعندما ذهبت لمقابلته طلب منى أن «أسرد» له نصوصًا

أدبية، فأجبته، ثم استنكرت أسئلته التى لا تتطلب ذكاءً ولا إعمالًا للعقل وللخيال، فأجاب بأنه لاحَظ أننى أميل للتجريد والتعميم (أى أميل للخروج بقوانين عامة)، وأن نظرتى لنسيج الأعمال الأدبية قاصرة، كان ردى أننى لا أتعامل مع العموميات وحسب، وإنما أتعامل مع العام فى علاقته بالخاص، فقال إنه يجب عدم التعميم على الإطلاق فى الدراسة الأدبية.

لم تكن المناقشة ودية على الإطلاق، ولعله كان يتوقع من طالب دراسات عليا مثلى (من إفريقيا!) أن يذعن تمامًا لآرائه. وقد وقع اختياره على أحد زملائنا وألحقه بجامعة كمبردج، وهناك قام «بتسويته» تمامًا، «وتبطيطه»، إذ طلب منه أن يقرأ فى كل شىء تقريبًا. والشهوة المعلوماتية هذه عندما تنهش إنسانًا تجعله يقرأ كل شىء حتى يعرف كل شىء وينتهى الأمر بالمسكين أنه لا يعرف أى شىء! فالحقيقة غير جمع الحقائق.

بدلًا من إنجلترا، ذهبت إلى الولايات المتحدة للدراسة عام 1963، وفى البداية قضيت شهرًا فى جامعة ييل Yale. عند وصولى عقدوا للطلبة الدارسين امتحانًا «موضوعيًا ذا اختيارات متعددة» multiple choice تكون فيه الإجابة إما بنعم أو لا لتحديد مستواهم الثقافى واللغوى. وكنت أجد أن الإجابة الصحيحة أو الذكية لا هى بنعم ولا بلا، وإنما تقع بينهما، وكانت النتيجة رسوب لا نظير له، لذا قرروا أن أدرس اللغة الإنجليزية لمدة عامين قبل أن ألتحق ببرنامج الدراسات العليا. ونظرًا لثقتى بنفسى أخبرتهم أن الخلل ليس فيّ وإنما فى الامتحان، فهو امتحان سخيف لا يقيس قدرات الطالب الحقيقية وإنما سرعة بديهته واستجابته، وأكدت لهم أن أدائى بعد أن عرفت «الطريقة» أو «الحيلة» سيكون مختلفًا تمامًا، وجربوا معى مرة أخرى، فحصلت على أعلى درجة بين المتقدمين. وكانت هذه من أولى المواجهات بينى وبين الحضارة الأمريكية بسذاجتها وخيلائها.

ثم ذهبت إلى نيويورك والتحقت بجامعة كولومبيا وهى جامعة كبيرة جدًّا، تضم بعض أهم أساتذة الأدب الإنجليزى فى العالم. كنا نهرول من حجرة إلى أخرى ونقرأ بشراهة ونتحدث بسرعة. وكان الطلبة يتحدثون بلغة معقدة للغاية، وكذلك الكتابات النقدية الأمريكية كُتبت بلغة معقدة، كل كاتب له مصطلحاته الخاصة. ظننت لوهلة أننى لا أعرف اللغة الإنجليزية بما فيه الكفاية، إلى أن حضر الأستاذ بازيل ويلى Basil Willey، مؤرخ الأفكار البريطانى الشهير، فأخبرته عن مشكلتى مع لغة زملائى وأساتذتى وعن إحساسى بعجزى وجهلى، فضحك كثيرًا وأخبرنى أنه هو نفسه يجد صعوبة أحيانًا فى فهم الأساتذة الأمريكيين، وطمأننى إلى أن ما أواجهه قد واجهه الكثيرون من قبلى!.

فى بداية الأمر أحسست برهبة موقفى: الطالب العربى الوحيد، يدرس على يد بعض أهم أساتذة الأدب الإنجليزى فى العالم. وحينما أعطونى قوائم النصوص التى يجب أن أقرأها والمراجع التى يجب أن أعود إليها وجدتها طويلة بشكل لا يُصدق. وبمقدرة الدمنهورى على البقاء، استأجرت وزوجتى غرفة فى فندق رخيص قذر، وبرغم أن الفندق كان يبتلع أكثر من نصف مرتبى، فإنه كان يقع بجوار مكتبة جامعة كولومبيا، مما مكننى من التفرغ تمامًا للقراءة والتحصيل. وخرجت من فترة «الحَضانة» هذه وقد تملكت ناصية الخطاب النقدى، واكتشفت أن الآخرين قد اكتفوا بقراءة الملخصات أو ما درسوه فى مرحلة الليسانس، فذاع صيتى لدرجة أننى بدأت إلقاء الدروس الخصوصية على أصدقائى. وفى الامتحان النهائى للماجستير كانت تقديراتى مرتفعة للغاية، حتى إنهم أعادوا تصحيح إجاباتى وتأكدوا أننى أستحق الدرجة التى حصلت عليها.

انتقلت إلى جامعة رتجرز بولاية نيوجيرسى للحصول على الدكتوراه، وحصلت هناك علىٰ وظيفة مساعد باحث، وهى تعادل وظيفة المعيد.

وكان يُترك للمعيدين تحديد الطريقة التى يُدَرِّسون بها المقرر التمهيدى للغة الإنجليزية، فأعلنتُ عن مقرر بعنوان «مفهوم الشر فى الأدب»، ندرس فيه تطور مفهوم الشر فى الأدب الإنجليزى من خلال نصوص أدبية إنجليزية مختلفة، وبذلك نُعرِّف الطالب بتاريخ الأفكار وتاريخ الأخلاق، وفى الوقت نفسه ندربه على كيفية قراءة النصوص. وكانت مفاجأة للجميع أن وافق معظم المعيدين على اقتراحى وتكونت بالفعل «مجموعة الشر» evil group كما كانت تُسمَّى، وتمتع الطلبة بالمقرر أيما تَمَتُّع. وكان هذا إشارة إلى أن ما **يسود من تقاليع ربما لا يكون بالضرورة تعبيرًا عن رغبات الناس وتطلعاتهم الحقيقية**، وهذه حقيقة مهمة لا بد من تذكرها فى عصر الإعلام والموضات المتلاحقة.

وللحصول على الدكتوراه فى الولايات المتحدة ينبغى دراسة خمسة مقررات نمتحن فيها تحريريًا ثم شفويًّا قبل السماح لنا بتسجيل رسالة الدكتوراه. ولتغطية المواد التى اخترتها كان مطلوبًا منى أن أقرأ حوالى خمسمائة صفحة فى اليوم (وهذا هو الجنون بعينه) مما لا يسمح بأى إبداع حقيقى. فطلبت من أستاذى المشرف ألا أدرس أكثر من ثلاثة مقررات فى الفصل الدراسى الواحد، وتمت الموافقة على طلبى من قِبَل لجنة الدراسات العليا (ربما رأفة بهذا الطالب المصرى الجديد الوحيد). وبعد أن حصلت على درجة الامتياز فى كل المواد فى الفصل الدراسى الأول، كنت أذهب إلى من أعرفهم من الأساتذة، وأخبرهم بأنه بات من الواضح للجميع أننى طالب متميّز، وإننى لم أحضر من مصر للتسلية، ثم أُردف قائلًا **إن نظام الدراسات العليا فى الولايات المتحدة يناسب الطالب المتوسط ولا يسمح بأى شكل من أشكال التميُّز**. وكثيرًا ما أقنعت الأساتذة بأن يعطونى تقدير امتياز دون أن أقِّدم ورقة بحث، مقابل كلمة شرف بأننى سأقدِّم البحث فيما بعد، بعد

كتابته فى هدوء وسكينة، وهذا ما كنت أقوم به بالفعل. حاولت أن أطبّق نفس السياسة مع إحدى طالبات الدراسات العليا فى مصر، فما كان منها إلا أن تناست الموضوع تمامًا بعد أن أعطيتها تقديرًا عاليًا!.

بعد الانتهاء من المقررات كان عَلَيَّ اجتياز الامتحان الشفوى الشامل. وجاء الممتحنون الخمسة، يمثل كلٌ منهم تخصصًا من التخصصات الخمسة التى اخترتها. طلب منى أحدهم أن أضع وصفًا لمقرر لدراسة تاريخ النظرية النقدية الأدبية. كنت أعرف أنهم يريدوننى أن أبدأ بأرسطو أو أفلاطون، ولكننى قررت أن أصدمهم فقلت: الجُرجانى، **لأذكرهم بهويتى - دمنهورى مصرى عربى مسلم يطل عليهم كأحد علماء الأنثروبولوجيا ويدرس حضارتهم دون أن يكون جزءًا منها** - فسألونى من عسى أن يكون الجُرجاني؟ فقلت لهم إنه ناقد عربى كلاسيكى مهم، وصاحب نظرية نقدية رائدة. فقالوا: «حسنًا لو كنت فى الولايات المتحدة ماذا كنت ستفعل؟» فتنطعت وقلت: «أنا لا أنوى البقاء فى الولايات المتحدة تحت أية ظروف». قالوا: «فلنفترض ذلك». فابتسمت وقلت: «حسنًا، لو افترضنا ذلك وهو أمر صعب بعض الشيء عَلَيَّ فإننا سنبدأ ولا شك بأرسطو». المهم بعد هذه المعركة الكوميدية المفتعلة الأولية، أصبح الأساتذة الممتحنون طوع يمينى تمامًا، فقد بيّنت لهم حدود معرفتهم وجهلهم تمامًا بخلفيتى الثقافية، وانتهت المعركة بأن أعطونى درجة الامتياز With Distinction، وكانت أول مرة فى تاريخ قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بالجامعة تُمنح هذه الدرجة. ولنقارن هذا بما يمكن أن يحدث لمن يتحدى أساتذته فى إحدى الجامعات المصرية، مصيره هو التحطيم الكامل مدى الحياة بلا هوادة ولا رحمة.

وإذا كانت ثقتى بنفسى قد أنقذتنى من التهلكة عدة مرات، فإننى كنت أرى عدم الثقة وهى تصرع بعض أصدقائى. كان لى فى الولايات

المتحدة صديق ذكى إلى أقصى درجة، ومرة ذهبت لزيارته فوجدته مبتئسًا لأنه عاجز عن كتابة بحث مطلوب منه عن حوارات أفلاطون، فطلبت منه الأوراق التى كتبها فوجدت بحثًا ممتازًا فأخذت منه الأوراق بحجة أننى أريد قراءتها بتمعن فى المنزل، وأرسلتها لأستاذه الذى منحه درجة الامتياز. تَعجَّب صاحبنا مما حدث، فقد كان متخصصًا فى الإقلال من حق نفسه.

*** التاريخ العربى والثقة بالنفس**

والتاريخ العربى ملىء بوقائع تبين مدى أهمية الثقة بالنفس؛ روى المؤرخون العرب أن التتار كانوا يدخلون فى حرب نفسية مع الشعوب التى يغزونها فيقومون ببث جواسيس لهم بين الجماهير لتحطيم روحهم المعنوية عن طريق نشر الإشاعات عن قوة التتار ومدى بطشهم. ولذا حينما كان التتار يدخلون إحدى المدن كان سكانها يفرون، أما من بقى منهم فقد بقى جسدًا دون روح. وقد روى أحد المؤرخين أن جنديًا تتريًا أراد أن يقتل عربيًّا، ولكنه لم يجد سيفًا فطلب من العربى أن ينتظره حتى يحضر السيف ويعود، فظل العربى واقفًا إلى أن جاء الجندى وقام بذبحه.

هذا يقف على النقيض مما فعله قُطز، سلطان مصر فى العهد المملوكى. فقد أرسل له ملك التتار رسالة يطلب منه الاستسلام، ولكنه بدلًا من ذلك قطع رءوس الرُسل وعلقها على بوابات القاهرة، فاستعاد المصريون الثقة فى أنفسهم وهزموا جيوش التتار فى عين جالوت، وأوقفوا هذا الوباء الذى كان يريد تحطيم كل الحضارات الإنسانية.

وفى كتابى عن الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية، أبيِّن كيف أن احتدام الأزمة داخل الكيان الصهيونى وتزايد ثقة الفلسطينيين بأنفسهم

خاصةً بعد انتصـار حـزب الله فى جنـوب لبنـان هو الذى أدى إلى اندلاع انتفاضة الأقصى. هذا لا يعنى أن الثقة بالنفس وحدها هى السبب فى الانتفاضة، ولكنها ضرورية لها. وكما يقولون بالإنجليزية necessary but not sufficient؛ ضرورية ولكنها ليست كافية.

الثمرة الرابعة والثلاثون...

لا تَدَع المعارك الصغيرة تستنزفك وتحيد بك عن الهدف

بعد أن انتهيت من المقررات والامتحان الشفوى الشامل وأثبت جدارتى الأكاديمية، حان وقت كتابة رسالة الدكتوراه. كان قسم الأدب الإنجليزى قد بدأ تجربة جديدة، وهى أن يُعفَى الممتازون من الطلبة من كتابة الرسالة، على أن يكتفوا بثلاث رسائل قصيرة، وقد قبلت أن أخوض هذه التجربة.

ولكن، تضخمت رسالتى الأولى، التى كان من المفروض ألا تتجاوز مائة صفحة، إلى أن وصلت خمسمائة، فأصبح من الحتمى أن أترك النظام الجديد وأتبع النظام القديم. وقد كان هذا لحسن حظى، **فالبيروقراطية الأكاديمية** فى مصر كانت سترفض معادلة درجتى العلمية، وستعلن أننى فشلت فى الحصول على الدكتوراه! (ولا بد أن أشير إلى أن البيروقراطية الأكاديمية فى الولايات المتحدة كانت تسأل المتقدم لشغل وظيفة ما عن تخصصه الدقيق، وحينما كان يذكر أنه كتب ثلاث رسائل قصيرة كان طلبه يُرفض!).

بدأت كتابة رسالتى للدكتوراه يوم 9 يونية عام 1967، وحين أدركت حجم الكارثة «النكسة» التى حاقت بنا قررت قطع بعثتى حتى أعود لمصر لأساهم فى إعادة بناء الوطن الجريح. ثم أعدت التفكير وفضلت أن أقدم رسالتى للدكتوراه على أن أرفض الحصول عليها بعد مناقشتها وإقرارها احتجاجًا على السلوك الأمريكى تجاه مصر وكذلك فى فيتنام. ثم فكرت فى

مصيرى فى مصر بعد العودة، كانوا سيقولون: «لقد فشل، وهو يغطى فشله بمسألة الاحتجاج». وعبثًا كنت سأحاول الدفاع عن نفسى، ثم سأحاول الحصول على الدكتوراه فى مصر، وسأدخل فى متاهات تعطلنى عن مشروعى الفكرى الذى كنت أود التفرغ له. فعدلت عن قرارى الثورى (ولم أندم على ذلك فيما بعد).

لذلك، أنصح أصدقائى وتلاميذى دائمًا أن يبتعدوا عن المعارك الصغيرة التى تُفرَض عليهم، والتى يمكن أن تستنزف الإنسان بل وتقضى عليه. ومصر الآن عامرة بالمعارك الصغيرة فى كل مكان، وقانا الله وإياكم شرها!.

الثمرة الخامسة والثلاثون...

انظر حولك وتفاعل ولا تفقد ذاتك

كان القسم فى جامعة رتجرز صغيرًا إلى حدٍّ كبير، كنت أنظر من حولى وأتفاعل ولا أفقد ذاتى. فلنأخذ على سبيل المثال «طريقة التحية»: نحن فى مصر نصافح النساء والرجال ولكن لا نقبِّل إلا الرجال (على الوجنتين) ممن تربطنا بهم علاقة حميمة للغاية. أما فى الولايات المتحدة، فتعلمنا أن تقبيل الرجال له مغزى جنسى، أما تقبيل النساء على الوجنتين فهو من قبيل التحية (وعدم التقبيل يُعدُّ من سوء الخلق!)، وكان علينا تبنى هذه الطريقة. وحينما حضر أستاذى إلى مصر قبَّل زوجتى وقبَّلت زوجته، ضحكت كل الطالبات فى الكلية، وكان على أن أشرح لهن المضمون الاجتماعى للتحية. وحينما أقابل سيدة ما أتأكد من جنسيتها أولًا ثم أصافحها حسب خطابها الحضارى حتى لا أقع فى خطأ حضارى جسيم.

ولكننى مع هذا **لم أكن متلقيًا سلبيًا لمقاييس المجتمع الأمريكى**. فقد اكتشفت، على سبيل المثال، أن كثيرًا من عبارات التحية التى نستخدمها

بالعربية لها وقع مختلف بالإنجليزية، فمثلًا العبارة التى نقولها بالعامية المصرية «واحشنى I miss you» تحمل إن قلتها لشخص من نفس الجنس فى أمريكا إيحاءات جنسية، فاللغة الإنجليزية لغة تم ترشيدها تمامًا، ومن هنا لا بد للمتحدث أن يكون مقتصرًا للغاية فى التعبير عن عواطفه. لقد وجدت أننى لو استسلمت للغة الإنجليزية لضاعت منى لغة العواطف القوية، ولذا كنت أستخدم العبارة التالية: «كما نقول بالعربية، لقد افتقدتك»، «As we say in Arabic, I miss you»، وبذلك أجعل المرجعية عربية، تسمح بالتعبير عن العواطف. وقد وجد الكثيرون فى قسم اللغة الإنجليزية هذه الصياغة اللفظية ممتازة فكانوا يستخدمونها، برغم أنهم أمريكيون، حتى يتحرروا قليلًا من حدود لغتهم الباردة، وحتى يمكنهم التعبير عن عواطفهم.

الثمرة السادسة والثلاثون...

الحرب ضد المؤسسات: ما ضاع حقٌ وراءه مُطالبٌ

من ينشأ فى مجتمع تقليدى يضيق ذرعًا بالمؤسسات العامة، فالمجتمع التقليدى مكوَّن من شبكة واسعة من العلاقات العائلية وعلاقات الجيرة، ولذا لا يتعامل الإنسان إلا مع من يعرفهم ويعرفونه. أما المؤسسة بالمعنى الحديث، فهى كيان خاضع لقوانينه وإجراءاته الخاصة، وليس له مرجعية إنسانية أو أخلاقية أو دينية، تتحرك كالوحش الكاسر أو كقوة من قوى الطبيعة، تحطم كل ما يأتى فى طريقها، فالمقدرة على الاستمرار والبقاء هى القيمة المطلقة الوحيدة بالنسبة لها والتى تَجُبُّ أى اعتبارات إنسانية وأخلاقية.

وحين تخرجت فى جامعة الإسكندرية، حدث أول صدام حقيقى لى مع المؤسسات العامة: فقد فوجئت أن كل البعثات كانت تُمنح لخريجى

جامعة القاهرة وعين شمس، ونُحرم نحن منها فى الإسكندرية، ذلك لأن بالجامعتين قسمًا متميزًا يُسمى قسم الامتياز، وله أولوية فى البعثات، وليس له نظير فى جامعة الإسكندرية، حتى إن إحدى خريجات جامعة عين شمس حصلت على بعثة جامعة الإسكندرية بالرغم من أن مجموعها الكلى أقل منى بحوالى 20 درجة.

أخبرنى مدير إدارة البعثات أنه لا بد من استخراج حكم من مجلس الدولة، بعد استصدار قرار من المجلس الأعلى للجامعات يبين أن الليسانس العادية من جامعة الإسكندرية تعادل الليسانس الممتازة من جامعتى القاهرة وعين شمس. فقضيت عدة شهور فى الانتقال من الإسكندرية إلى القاهرة لجمع الأوراق اللازمة ثم قدمتها للمجلس الأعلى للجامعات واستصدرت القرار وأخذتُه لمجلس الدولة الذى أصدر حكمًا لصالحى. فأخذت الحكم وذهبت لإدارة البعثات لتنفيذه، ولكنى وجدت مديرًا جديدًا، من البحيرة، أى «بلدياتى»، صديق حميم لعمى، وأعطيته حكم مجلس الدولة، وإذ بى أفاجأ بأنه يرفض تنفيذ الحكم لأنه لا يجب أن يغير الإجراءات، كدت أبكى من فرط الحزن. لم تفتر عزيمتى واستمرت حربى ضد المؤسسات، فقام أصدقاء لى يعملون فى الصحافة بنشر تفاصيل القضية وحكم مجلس الدولة فى الصحف، فوجَدَت وزارة التعليم العالى نفسها موضعًا للتشهير الذى يستند إلى حقائق، عندها اجتمعت اللجنة العليا للبعثات وقررت منحى بعثة خاصة بكلية البنات (كان من المفروض أن تكون مقصورة على الإناث ولكنهم نسوا أن يكتبوا هذا الشرط فى الإعلان).

وكانت لى حربًا ضد الرأسمالية العالمية متمثلة فى شركة أميركان أكسبريس التى قامت بشحن كتبى من الولايات المتحدة إلى مصر بعد انتهاء البعثة. لقد كلفنى الشحن أضعاف ما أخبرنى به موظف الشركة، كما رَفَضَتْ تعويضى

عن تلف أصاب ثلاجتى التى شحنتها بدعوى أن تأمينى يغطى الـ total loss أى الخسارة الكاملة وليس الـ partial loss أى الخسارة الجزئية. استشطت غضبًا وحسبت ما خسرت سواء من جراء شحن وتخزين أمتعتى فى نابولى، وكذلك من جراء العطب الذى أصاب الثلاجة، وأبلغت قسم شرطة سابا باشا عن فقدان أحد الأجهزة الكهربائية الأخرى (وكان ثمنه يعادل تمامًا كل ما خسرت)، وأرسلت صورة من المحضر لشركة أمريكان إكسبريس. وبالفعل بعد شهرين أو ثلاثة وصل إليّ منهم شيك بالمبلغ الذى عوضنى عما فقدت من مال، وهكذا كسبت «حربى الخاصة ضد الرأسمالية العالمية».

وتقوم بلدية مدينة فيش كيل Fish Kill فى ولاية نيويورك بالتحايل لجمع الغرامات عن طريق وضع رادار لقياس سرعة السيارات فى منطقة جبلية منحدرة تقع خارج المدينة. وبما أن التحكم فى السرعة فى مثل هذه المنطقة مسألة صعبة للغاية، فإن الكثيرين يجدون أنفسهم مرتكبين لجريمة مخالفة ويضطر السائق إلى دفع الغرامة، وهذا ما حدث لى عام 1976. قررت أنا الآخر أن أتحايل، وكتبت لهم خطابًا على الورق الرسمى لوفد الجامعة العربية لهيئة الأمم (حيث كنت أعمل مستشارًا ثقافيًا) أخبرهم فيه بأننى لم أذهب ألبتة لمدينة فيش كيل هذه، فكيف يمكن أن أكون قد ارتكبت مخالفة مرورية فيها؟ وختمت الخطاب بقولى أننى قد اضطر لإبلاغ حكومتى، وأن هذا قد يسبب أزمة دبلوماسية بين بلدينا (وهذه طبعًا أكاذيب، فأنا لم أكن دبلوماسيًا، كما أننى لا أعتقد أن واقعة مثل هذه يمكن أن تؤدى إلى أزمة بين مصر والولايات المتحدة أو حتى جمهورية لوكسمبورج!). من الواضح أن مجلس مدينة فيش كيل أصيب بالهلع، إذ وصلنى خطاب طُبع على ورق خاص يعتذرون فيه لما بدر منهم، ولم تحدث الأزمة الدبلوماسية التى هددتهم بها.

ومغامراتى مع شركة مصر للطيران كثيرة. ذات مرة أخبرنا مدير مكتب الشركة فى عمان، وكان فرعونًا صغيرًا، أن الطائرة لن تحضر من القاهرة فى موعدها وأن علينا الانتظار للغد، وأشار بطرف أصابعه إلى كراسى المطار وقال: يمكنكم النوم عليها، فقلت له: إن هناك قوانين عالمية تنظم هذه العملية، وإن عليه أن يحجز لنا فى أحد الفنادق إن كان يريد أن ننتظر طائرة الصباح، فقال إن ثمن التذكرة لا يغطى ثمن الفندق، فأخبرته إن هذه هى مشكلته وليست مشكلتى. ثم طلبت من كل المسافرين أن يوقعوا على عريضة شكوى وأن يكتب كل شخص رقم جواز سفره إلى جوار توقيعه، لأننى سأشكو لهيئة الطيران العالمية المختصة. وبقدرة قادر تحول الفرعون الصغير إلى «مهرج» مذعور وجلس يسترضينى، وأمر للمسافرين بعشاء مجانى، ثم اتصل بالقاهرة فأرسلوا الطائرة!.

إلى الطيور المهاجرة العائدة وإلى الباحثين عن النجاح

الذئاب الثلاثة

الثمرة السابعة والثلاثون...

وضوح الهدف والاندماج فى المجتمع

حينما عدت إلى مصر من الولايات المتحدة عام 1969 بعد حصولى على الدكتوراه، **كنت ممتلئًا ثقة بمقدرة الإنسان على تغيير واقعه وإقامة العدل فى الأرض.** كما كان عندى مشروعى الفكرى الواضح: **أن أصبح ناقدًا أدبيًا يربط الأدب بتاريخ الفكر، وتاريخ الفكر بالتطور الاقتصادى فى المجتمع، ويحاول أن يحل معضلة علاقة البناء التحتى (الاقتصاد) بالبناء الفوقى (الفكر والأيديولوجيا).**

وحين عدت من الولايات المتحدة كنت أصبو لتحقيق متتالية من ثلاثة عناصر: أن أكون ناقدًا أدبيًا، وأستاذًا جامعيًا، وأبًا وزوجًا متميزًا، فإن أخفقت فلأكن أستاذًا جامعيًا وأبًا وزوجًا متميزًا، فإن أخفقت فلأكن أبًا وزوجًا متميزًا. وغنى عن القول أن مسار حياتى كان مختلفًا عن «خطتى» (فلم أصبح ناقدًا أدبيًا ولم أستمر فى التدريس فى الجامعة، ولا أدرى هل كنت أبًا وزوجًا متميزًا أم لا، ولأترك الحكم لأولادى وزوجتى). أى أننى كنت مستعدًا لقبول حدودى الإنسانية واحتمالات الانتصار والانكسار.

وعند عودتى إلى مصر، حاولت قدر استطاعتى أن أندمج فى المجتمع، أى أن أعود له بالمعنى الأخلاقى والحضارى، لا بالمعنى المادى وحسب. فكنت أحاول تحاشى الحديث باللغة الإنجليزية قدر استطاعتى خارج منزلى (أما فى المنزل، فكنا نحاول التحدث بالإنجليزية حتى أحتفظ بلياقتى اللغوية كأستاذ للأدب الإنجليزى). وكنت أدخن البايب، فقررت استبعاده من حياتى، أما السيجار فأنا لا أدخنه إلا نادرًا. وكنت أحب ارتداء الشورت فى الصيف، ولكننى أردت أن أعرف استجابة المجتمع لهذه العادة، فلبست الشورت يومًا وسرت فى السوق، وطلبت من أحد العاملين فى منزلى أن يسير على مقربة منى، ويخبرنى بانطباعات الناس، أى أننى قمت بـ«بدراسة ميدانية على الطبيعة لاستجابة المصريين العاديين للشورت»، كنت أنا فيها الملاحِظ والملاحَظ. ولم تكن الانطباعات إيجابية، ولذا قررت ألا ألبس الشورت إلا فى منزلى.

الثمرة الثامنة والثلاثون ...

ذئب الثروة: لا تجعل المال هدفًا فى حد ذاته

عند عودتى إلى مصر كان التكيف السلوكى من أسهل الأمور، إذ كانت هناك معركة أخرى أهم دارت داخلى، فقد هاجمتنى ثلاثة ذئاب شرسة

(هكذا أسميها) ظلت تنهشنى بعض الوقت: ذئب الثروة وذئب الشهرة والذئب الهجيلى المعلوماتى.

أما الذئب الأول فهو ذئب مادى (خارجى)، وهو ذئب الثروة الذى يعبِّر عن نفسه فى الرغبة العارمة فى أن أكون ثريًا. فقد أتيت من عائلة تجارية، مصدر الشرعية فيها هو الثروة، وإن لم يحققها المرء. انتابته المخاوف واهتزت ثقته بنفسه. ولكن كان من السهل عليّ أن أتغلب على هذا الذئب، وأن أقرر أن مشروعى الفكرى ربما لا يأتى بالثروة ولكنه سيأتى بالحكمة، وأن أسلوب حياتى بما فيه من آفاق ثقافية واسعة وعلاقات إنسانية دافئة أفضل بكثير من حياة التراكم الرأسمالى (ولعل هذا جزء من ميراث أمى ومجتمع دمنهور التراحمى).

ومما ساعدنى على اتخاذ قرارى أننى لاحظت أن أبناء الأسرة حينما كانوا يحضرون إلى منزلنا كانوا يرفضون العودة إلى منازلهم، إذ كانوا يسعدون كثيرًا بأسلوب حياتنا. فقد كنا نأخذهم إلى الحدائق القليلة المتبقية فى القاهرة، كما كنا نزور آثار القاهرة الإسلامية والقبطية والفرعونية، غير الرحلات الشراعية فى النيل. فأسلوب حياتنا كان يشعرهم بالامتلاء، ويشعرنى فى الوقت ذاته بأن ذئب الثروة لا يمكنه أن يمنحنى كل هذه الأشياء.

لقد أصبح هدفى هو أن أحقق ذاتى حسب الشروط التى تمليها رؤيتى لذاتى، وأن أُحَصِّل من المال ما يكفى لأن يحقق لى شيئًا من التحرر من تفاصيل الحياة اليومية ولأن أُموّل حياتى الفكرية وأنجز مشروعى المعرفى. ولذا أردد دائمًا أن المال يشكل عبئًا على البعض، يفنون حياتهم فى جمعه، أما بالنسبة لى فالمال حرية.

وقد نجحت إلى حدٍّ كبير فى توظيف المال بدلًا من أن يوظفنى. فلم

أضطر قط إلى أن أقوم بعمل يتناقض مع مشروعى الفكرى أو يعوقه. وقد نجحت فى أن تكون محاضراتى فى كلية البنات جزءًا من حوارى الفلسفى مع نفسى. ولم أشغل قط أى منصب إدارى من أى نوع طيلة حياتى. وعندما عملت مستشارًا ثقافيًا للوفد الدائم لجامعة الدول العربية لدى هيئة الأمم المتحدة فى نيويورك عرض على أن أعمل فى هيئة الأمم المتحدة براتب ضخم، لكنى آثرت البقاء فى وظيفتى والتضحية بالراتب الضخم لأن الوظيفة الجديدة كانت ستستوعب كل وقتى، كما كانت تتعارض كليةً مع مشروعى الفكرى.

هذا لا يعنى أننى لم أعرف شظف العيش. فحينما ذهبنا إلى الولايات المتحدة عام 1963 اضطررنا إلى أن نعيش أنا وزوجتى فى فندق رخيص قذر. وفى الشتاء اضطررنا إلى شراء معاطف مستعملة، كما كنا نضطر للسير مسافات طويلة فى البرد القارس والثلج، للوصول إلى الأتوبيس. كما اضطرت زوجتى إلى أن تعود من المستشفى إلى المنزل بعد أن وضعت نور بأربعة أيام فى مترو الأنفاق فى نيويورك (وكان طريقة متوحشة للمواصلات فى الستينيات)، كما كانت تحمل ابنتنا فى المواصلات العامة وتذهب بها من نيوجرسى إلى نيويورك للتمتع بالخدمة الطبية المجانية بعد الولادة.

ولم أترفع قط عن القيام بأى عمل، فقد عملت عضوًا فى فرقة مكافحة الحريق بمصنع الكابلات فى نيو برونزويك. وقد استأجرنا المصنع لا لمكافحة الحريق وإنما ليخبر شركة التأمين بذلك، لتخفيض أقساط التأمين. وقد رُقيت إلى أن أصبحت رئيسًا للفرقة، فعينت كل أصدقائى من طلبة الدكتوراه ليعملوا أعضاء فيها. وكان مدير المصنع يتباهى بأن فرقة مكافحة الحريق فى مصنعه تتمتع بأعلى مستوى تعليمى فى العالم، وكان محقًا فى تباهيه هذا.

ومما ساعد على ترويض ذئب الثروة، أن زوجتى لم تراودها أحلام الثروة

ولم تعان من أى نزعات استهلاكية، فهى مصابة بحساسية من نوع فريد، إذ يصفر وجهها وتعطس حينما تمكث مدة طويلة داخل أحد المحلات، وهى حساسية يحسدنى عليها كثير من الأزواج المصريين، واقترح علىَّ أحدهم أن أقرضه الفيروس العظيم الذى يتسبب فى هذه الحساسية المباركة.

وحينما انتهيت من الموسوعة اكتشفت أننى وزوجتى لم نتناقش قط فيما كنت أدفعه من تكاليف، كما أنها وافقت على قرارى بالاستقالة من الجامعة لإتمام الموسوعة بعد مناقشة دامت خمس دقائق، رغم ما كان يعنيه ذلك من أن الأسرة ستصبح دون دخل ثابت. وبعد حرب الخليج، حينما أصبح من حقى العودة لوظيفتى بالكويت ناقشنا الأمر لبضع دقائق أخرى ووجدت أنه لا بد من الاستمرار فى التفرغ لأنهى الموسوعة.

وكنت أموِّل كل أعمالى الفكرية تقريبًا، بينما العائد المالى لمثل هذه الأعمال ضئيل للغاية. وكما قال أحد الناشرين لصديق أفنى عمره فى إعداد موسوعة عن الموسيقى، وهو يعرض عليه ألف جنيه لا أكثر: «لكم المجد ولنا الثروة»!.

الثمرة التاسعة والثلاثون ...

ذئب الشهرة: ويل للمرء الذى يربح كل شىء، ويخسر نفسه.

أما الذئب الثانى، فهو نفسى، وهو ذئب الشهرة الذى يُعبِّر عن نفسه فى الرغبة العارمة فى أن أصبح من المشاهير.

حينما عدت للمرة الأولى من الولايات المتحدة الأمريكية لم أواجه ذئب الشهرة، فقد وجدت نفسى مشهورًا، أكتب فى الأهرام وأتحدث فى الإذاعة والتليفزيون ومسئولًا عن وحدة الفكر الصهيونى فى مركز الدراسات

السياسية والإستراتيجية. وكان كل ما كنت أكتبه يجد طريقه للنشر فى إحدى المجلات، وكلما شُكلت لجنة (مثل لجنة إصلاح تدريس اللغة الإنجليزية، على سبيل المثال، أو حتى إصلاح العالم) كنت أجد نفسى عضوًا فيها. ولذا فذئب الشهرة داخلى كان منتشيًا، يغط فى النوم سكران من النشوة.

وقد استيقظ هذا الذئب وبكل ضراوة عام 1979، حينما عدت للمرة الثانية من الولايات المتحدة. كان جو التطبيع سائدًا فى القاهرة، لذلك لم أسترد مكانى فى مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية. وبدأ بعض المذيعين، ممن كنت ضيفًا دائمًا على برامجهم فى الإذاعة والتليفزيون، يخافون حتى من الحديث معى، بل أننى كنت أجد صعوبة بالغة فى دخول مبنى الأهرام. باختصار شديد، **وجدت نفسى نكرة،** ومن ثم بدأ جوع ذئب الشهرة ونهمه يتزايدان.

ثم دارت المعركة بينى وبين هذا الذئب. فجلست مع نفسى لأكتشف أننى **أحب الشهرة نعم، ولكن رغبتى فى الشهرة نابعة من رغبتى فى حماية نفسى حتى يمكننى الانتهاء من مشروعاتى المعرفية،** فالمشاهير (كما كنت أظن واهمًا آنذاك) لا يُزَج بهم فى السجن ببساطة. كما أن الشهرة ستكون وسيلة ناجعة لإشاعة وتوصيل ما عندى من أفكار أعتقد أن لها قيمة. ولذا إن حاولت أن أشبع ذئب الشهرة داخلى حسب الشروط التى يفرضها العالم الخارجى أكون كمن كسب معركة وخسر الحرب، **وويل للمرء الذى يربح كل شىء ويخسر نفسه.** حينئذ **أخبرت ذئب الشهرة داخلى أننى لا أمانع فى الشهرة حسب شروطى، تمامًا كما أننى أحب الثروة بمقدار ما تخدمنى.** وهكذا صرعت **ذئب الشهرة داخلى،** وقبلت أن أعيش بعيدًا عن الأضواء، خاصةً حين بدأت في كتابة الموسوعة بما كانت تتطلبه من عزلة شبه كاملة أحيانًا.

الذئب الهيجلى المعلوماتى: نظرة واسعة بانورامية، ومدققة فاحصة ميكروسكوبية

بقى بعد ذلك أهم الذئاب وأكثرها خطورة وضراوة، وهو الذئب الهجيلى المعلوماتى، وهو ذئب خاص جدًّا، داخلى لأقصى درجة (وهيجل هو فيلسوف ألمانى فى القرن التاسع عشر، حاول أن يقدم إطارًا فلسفيًّا يستوعب كل المعرفة الإنسانية والتاريخ الإنسانى). ويُعبِّر هذا الذئب عن نفسه فى الرغبة العارمة فى أن أكتب كتابًا نظريًّا يصل إلى أعلى مستويات التعميم والتجريد والشمول (يخرج بنماذج معرفية وقوانين عامة) وفى الوقت نفسه يصل إلى أقصى درجات التخصيص والدقة والتفصيل! وهذه صيغة مستحيلة، فلا يمكن الجمع بين رؤية بانورامية شاملة متسعة فى غاية الاتساع وتفاصيل دقيقة فى غاية الدقة. وقد صرع هذا الذئب مجموعة من أعز أصدقائى أمام ناظرى، مات بعضهم دون أن يقدم أى فكر.

ويبدو أن هذا الذئب الهجيلى المعلوماتى كان يطاردنى منذ طفولتى، فقد أردت أن أقرأ كل ما فى مكتبة البلدية بدمنهور حتى أعرف كل ما خطته يد البشرية!. كما أصبت بصدمة عميقة، حين عرفت أن أحد أساتذتى فى قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب فى جامعة الإسكندرية، لم يكن قد قرأ الأعمال الكاملة لشكسبير!. وحين بدأت كتابة مقدمة رسالتى للماجستير كنت أريد أن أقرأ كل شىء عن الشعر الرومانتيكى الإنجليزى وكذلك الشعر والأدب العربى قديمه وحديثه!

وهذه الإشكالية لا يواجهها متوسطو الذكاء، فبعضهم يحشد المعلومات التى لا يربطها رابط (أسميها «أفكارًا» وليست فكرًا)، ويَخُطون بضعة كتب

(«يرص كلامًا فوق كلام تحت كلام» على رأى صلاح عبد الصبور) تُنشر مع مئات الكتب الأخرى التى تصدر ويقرؤها البعض ثم تموت، وهم يعيشون حياتهم فى سعادة بالغة ورضا تام!.

*** تحققت المعادلة الصعبة**

كان هذا الذئب يهاجمنى من آونة إلى أخرى أثناء كتابتى عن الصهيونية، ويذكرنى بطموحى فى أن أكتب عملًا نظريًا كبيرًا وأترك حقل الصهيونية باعتباره حقلًا تخصصيًا صغيرًا، ولكننى عام 1984 قررت تجاهل الذئب الهيجيلى تمامًا والاستمرار فى الكتابة فى حقل الصهيونية وحسب. والطريف أننى حينما فعلت ذلك تبلورت فكرة النماذج المعرفية، وبدأت أحاول الإجابة من خلالها عن التساؤلات الأيديولوجية والفلسفية التى تطرح نفسها عَلَىَّ أثناء دراستى لليهودية واليهود والصهيونية. أى أننى كتبت دراسة تتسم بقدر معقول من التجريد والشمول (الخروج بنماذج تحليلية وقوانين عامة = نظرة بانورامية) ومن التعيُّن والتخصيص (فهم لليهودية واليهود والصهيونية = نظرة ميكروسكوبية). وهكذا تحقق الحلم الهيجيلى المعلوماتى (أو بعض جوانبه) دون أن ينهشنى الذئب.

***

الفصل الرابع

من ضيق المادية إلى رحابة الإنسانية والإيمان

فصل من أمتع فصول الرحلة، بل أمتعها، وكلها ممتع

يمكن تلخيص «التجربة الوجودية والفكرية» فى حياة د. المسيرى فى ثلاث مراحل:

- هيمنة النموذج المادى الفلسفى (الأفكار المادية) عليه بعض الوقت، بعد أن اجتاحه الشك فى دمنهور.

- ثم إدراكه التدريجى لعدم قدرة هذا النموذج المادى على الإحاطة بالظاهرة الإنسانية المركبة، نظرًا لبساطة هذا النموذج وسذاجته واختزاليته.

- ثم إحساسه المتزايد بضرورة تبنى نماذج تحليلية مركبة متعددة الأبعاد والمستويات، إن أراد المرء أن يرصد إنسانية الإنسان (ليس فقط طبيعته المادية).

الحضارة الغربية الحديثة

الحضارة الغربية الحديثة - فى تصور د. المسيرى - حضارة عقلانية مادية (لا عقلانية وحسب). إنجازاتها الضخمة (التكنولوجيا - العلم - السيطرة على العالم) نتاج رؤيتها المادية التى تطلبت استبعاد كثير من العناصر الأخلاقية والإنسانية (العناصر غير المادية) وذلك لتبسيط الواقع بهدف التحكم فيه (إذ لا يمكن التحكم إلا فيما هو بسيط).

أما إخفاقات الحضارة الغربية الحديثة فلا تقل ضخامة عن إنجازاتها (الأزمة البيئية - الحروب العالمية - فقدان الاتجاه؛ أى أن لا يعرف الإنسان أين هو ذاهب - ظهور العبثية؛ أى أن يتصور الإنسان أن العالم لا معنى له وأن الصدفة العمياء تتحكم فيه - وكذلك تحول الوسائل إلى غايات)، وهذه الإخفاقات أيضًا من نتاج رؤيتها المادية.

وتمثل الحضارة الغربية «نموذجًا ماديًا» ذو جانبين:

جانب فلسفى (الأفكار المادية التى هى نتاج العقل المادى).

وجانب تطبيقى عملى وهو المتمثل فى الحضارة الغربية الحديثة بإيجابياتها وسلبياتها.

«العقل المادى ← الفلسفة المادية ← الحضارة الغربية الحديثة»

وسنقوم فى هذا الفصل بعرض نظرة د. المسيرى للحضارة الغربية الحديثة وموقفه منها تحت خمسة عناوين رئيسية:

- تآكل النموذج المادى فى فكر د. المسيرى لحساب النموذج الإنسانى الإيمانى: ونعرض فيه كيف أكتشف د. المسيرى عجز الفكرالمادى عن الإحاطة بإنسانية الإنسان، وضرورة أن ننظر للإنسان من خلال نموذج يحيط بالثنائية التى تميزه.

- سمات العقل المادى: ويتعرض للجانب الفلسفى للحضارة الغربية.
- طوفان النموذج المادى وسلبياته: ويتعرض للجانب التطبيقى والعملى للحضارة الغربية.
- العلم والتقدم: يوضح كيف أن الحضارة الغربية التى حققت التفوق العلمى لم تحقق التقدم المنشود للبشرية.
- إدراك ثنائية الإنسان ومراحل التحول: كان طبيعيًا أن تفرز النقاط الأربع السابقة إدراكًا لثنائية الإنسان الربانى (جانبه المادى وجانبه الروحى).

تآكل النموذج المادى فى فكر د. المسيرى لحساب النموذج الإنسانى الإيمانى

الثمرة الحادية والأربعون...

أيها الإنسان... من أنت؟

*** من عرف نفسه، عرف ربه**

إن الإنسان هو أكرم المخلوقات فى الكون، مختلف بشكل جوهرى عن بقية الكائنات، حتى وإن شاركها بعض صفاتها، فهو يعيش فى الطبيعة لكنه منفصل عنها. وصفات «الطبيعة»، فى الفكر الغربى، هى ذاتها صفات «المادة»، وكلما وردت كلمة «طبيعة» يجب أن تحل محلها كلمة «مادة» ولهذا نكتبها «الطبيعة / المادة».

ويتسم الوجود بثنائية أساسية، أسميها «الثنائية الفضفاضة»:

فهى ثنائية الخالق (المنزَّه عن الإنسان والطبيعة والتاريخ) والمخلوق (الإنسان والطبيعة).

وهى فضفاضة: إذ إن الإله مفارق للعالم (غير متلبس به أو حال فيه) إلا أنه لم يهجره ولم يتركه وشأنه. وينتج عن هذه الثنائية الأساسية (الخالق والمخلوق) ثنائيات عدة، من أهمها ثنائية الإنسان والطبيعة، وترى هذه الثنائية انفصال الإنسان عن الطبيعة واستحالة تفسيره فى إطارها لأن الإله خلقه وكَرَّمه واستخلفه فى الأرض. لذلك فالإنسان ليس مركزه الكون، وإنما وُضع فى مركزه، وليس مالكًا الطبيعة، بل خليفة فيها من قِبَل خالقها (خليفة من الله وليس خليفة عن الله).

والثنائية غير الإثنينية، ففى الثنائية ثمة عنصران يتفاعلان ويتدافعان وربما يتكاملان. أما فى الإثنينية فهناك عنصران متضادان متعادلان (مثل إله الخير والنور وإله الشر والظلام فى بعض العبادات الوثنية)، ولذا يدخلان فى صراع أزلى أو شبه أزلى.

والثنائية تقف على طرف النقيض من «الواحدية المادية» التى يؤمن بها الفكر المادى، والتى تذهب إلى أن الوجود بأسره (الإنسان والطبيعة) جوهر واحد.

وبدلًا من مفهوم (الإنسان الطبيعى) الذى تنطبق عليه نفس القوانين التى تنطبق على الطبيعة / المادة، طرحتُ فكرة الإنسان الإنسان (أو الإنسان الربانى)؛ كائن لا يعلمه فى كُليته إلا الله، إذ إن هناك جزءًا منه قادر على تجاوز عالم المادة. وهو كائن يعيش داخل جسده المادى، ويتحرك حسب القوانين والدوافع الفيزيائية والبيولوجية والغريزية، ولكن روحه تتجاوز عالم المادة إلى عالم المُثل والثبات والغيب، كائن أقدامه مغروسة فى الوحل وعيونه شاخصة للنجوم، يسقط دائمًا ولكنه قادر على النهوض ثم التجاوز.

ووجود الله هو الضمان الوحيد لوجود هذا الإنسان الإنسان، بجزأيه

المادى وغير المادى، فالله هو الجوهر الذى يتطلع إليه الإنسان ويحقق من خلاله الانطلاق من طينته. ومن ثم بغياب الله يتحول الإنسان إلى مادة طبيعية صماء، خاضعة لقوانين المادة، التى يمكن حصرها ودراستها والتحكم فيها، وكذلك بغياب الله يتحول الإنسان إلى كم مادى يمكن تفسيره فى إطار مجموعة من المعادلات الرياضية الميتة التى يمكن معرفتها والتنبؤ بها (إذا تعرضت لموقف كذا، سيكون سلوكك كذا).

الثمرة الثانية والأربعون...

الطريق إلى العثور على الذات

لم يكن مفهوم «الإنسان الإنسان» غير المادى متبلورًا وواضحًا فى وجدانى وعقلى، ولكنه كان هناك، كامنًا ودفينًا. وقد ساعدت عناصر عديدة هذا النموذج على الظهور:

1- بذور التراحم التى أُلقيت فى تربيتى الفكرية خلال نشأتى فى المجتمع التقليدى فى دمنهور، بالإضافة إلى ثقافتى الإسلامية التى تلقيتها وقتئذ.

2- دراستى للأدب، فالأدب يكاد يكون التخصص الوحيد الذى لا يزال يتعامل مع الإنسان بوصفه كلًّا مركبًا لا يمكن رده إلى عنصر أو عنصرين يُفسَر فى ضوئهما (على عكس الاقتصاد، على سبيل المثال، الذى يدرس الإنسان، فى معظم الأحوال، فى إطار المعطيات الاقتصادية وحسب). وكانت دراستى للأدب الإنجليزى فى فترة شاع خلالها التيار الإنسانى (الهيومانى) الذى يضع الإنسان فى مركز الكون ويؤكد إختلافه الجوهرى عن باقى المخلوقات، كما يؤكد منظوماته الجمالية والأخلاقية (حتى وإن أنكر منظوماته الدينية).

3- حينما قررت الارتباط بالدكتورة هدى، ظهر تناقض بين النموذج المهيمن عليّ (الفكر المادى) وبين العاطفة وما ينبنى عليها من سلوك. ثم اكتشفت أن ماركس عرَّف الزواج بأنه «علاقة اقتصادية مفعمة بالحب»، أى أنه تبنى مقياسين: أحدهما مادى والآخر غير مادى، وقد أرضانى هذا المفهوم كثيرًا، فاستوعبت قرار الزواج من د. هدى داخل منظومتى المادية.

4 - حينما رزقنى الله ابنتى نور، وجدت نفسى أنا العقلانى المادى وجهًا لوجه مع معجزة جعلتنى أغرق فى التأمل، طفلة تولد، وبعد ولادتها بلحظات تنظر بعينيها الواسعتين حولها. ووجدت زوجتى تتحول بين يوم وليلة إلى أم تُطعم الصغيرة بثدييها وترتبط بابنتها ارتباطًا جنونيًّا لم أرَ مثله. زميلتى فى الجامعة التى كنت أذهب معها إلى السينما والرحلات أصبحت أمًّا ودخلت عالمًا جديدًا أقف أنا على أطرافه دَهِشًا، وأحسست بالهجران. ثم فوجئت بأن زوجتى قررت ألا تستمر فى دراستها العليا؛ لأنها لا تريد أن تحرم ابنتها من حق ممارسة كل وظائفها البيولوجية بما يتفق مع إيقاعاتها الجسدية ويريحها عصبيًّا. ساعتها فزعت من نفسى لأننى لم أفكر فى هذا، ولم أفكر إلا فى الأداء والإنجاز المادى فى رقعة الحياة العامة.

وبدأت أتأمل فى هذا الكائن الجديد الذى دخل حياتى: هل يمكن أن يكون كل هذا نتيجة تفاعلات كيمياوية وإنزيمات وغدد وعضلات؟! «هل هذا الكل الإنسانى هو جماع أعضائه المادية وثمرة المصادفة، أم أن هناك شيئًا ما يجاوز السطح المادى؟» هل الإنسان فعلًا جزء من الطبيعة، خاضع لقوانينها وأهوائها، أم أن فيه أسرارًا وأغوارًا؟، لقد أصبحت ظاهرة الإنسان بالنسبة لى ظاهرة غير مادية غير طبيعية، معجزة بكل المعايير المعروفة لدى.

5- ثمة ليلة لن أنساها أبدًا، أسميها «ليلة بكاء الطفلة»، إذ استيقظت ابنتنا نور وهى لم تكمل عامين بعد، وأخذت تبكى بصوت عال، مزيج من الفزع والحزن لم ندرك سببهما، كلما حملتها أمها على كتفها سكتت، ولكن إذا اقتربْتُ منها تصرخ بأعلى صوتها، وظلت أمها معها إلى أن نامت. لقد أدركت ما فى داخلنا من أسرار وأدركت مدى احتياجنا للأم.

6- حينما رزقنا الله ابننا ياسر، تصورت أنا وزوجتى أننا تدربنا على تنشئة الأطفال، وإذا به مختلف تمامًا عن أخته وتطلبت تنشئته مهارات أخرى. فابنتنا نور تحب التجريب ولا تخشاه وتتميز بقدراتها اللغوية. أما ياسر، فهو يكره التجريب، ويعيش فى عالم الأرقام. ونتيجة لهذا الاختلاف، ترسخ اعتقادى بالإنسان المعجزة الذى يجاوز الحتميات الطبيعية (فى هذه الحالة العوامل الوراثية والبيئية التى يتفق فيها ياسر مع نور). كما بدأت أدرك أهمية الأسرة فى عملية التنشئة، وتساءلت، كيف يمكن للموظف «المختص» بتنشئة الأطفال فى المجتمع الشيوعى - مهما بلغ من تخصص - أن يدرك الاحتياجات النفسية للطفل، والتى تختلف من طفل لآخر.

7- اكتشفت إبَّان إقامتى فى الولايات المتحدة أن كل أصدقائى ومن ترتاح إليهم نفسى إما من أصل كاثوليكى أو يهودى، وأنهم من أصول أوروبية لم تسيطر عليهم المادية الأمريكية الصارمة. كما بدأت أُلاحظ أنماط السلوك بين الطلبة، فكنت أقرر أن هذا لا بد أن يكون كاثوليكيًّا أو يهوديًّا أو يكون بروتستانتيًّا. فالكاثوليك أقل فردية من البروتستانت، نتيجة لانتمائهم للكنيسة مما يجعل الفرد يدرك نفسه باعتباره عضوًا فى جماعة، كما أن الرابطة الأسرية بين الكاثوليك لا تزال أكثر قوة من الأسرة البروتستانتية.

8- حينما عدت إلى مصر عام 1969 سكنت فى مصر الجديدة وأحببتها لمعمارها الإسلامى البلجيكى، كما أُعجبت بتداخل المناطق السكنية مع المناطق التجارية، دون أن تقتحم إحداهما الأخرى. وحينما ذهبت إلى المعادى، لم تلق أى صدى فى نفسى بفيلاتها المنعزلة. وبعد أن تأملت قليلاً وجدت أن الذى أسس مصر الجديدة كانوا من البلجيكيين الكاثوليك (والكاثوليكية تؤكد فكرة الجماعة والمجتمع)، أما المعادى فقد أسسها البريطانيون البروتستانت الذين لا يكترثون بالعلاقات الإنسانية كثيرًا.

9- ثم كان لقائى مع سيرة الزعيم المسلم مالكولم إكس الذى كان يعمل قوادًا ومهربًا للمخدرات. وحينما دخل السجن، أقنعه المسلمون السود بالدخول فى الإسلام، وبدأت حياته فى التغير. فبدأ يدرك عالمية الرؤية الإسلامية للإله (ربِ العالمين)، وأنه بعيد كل البعد قريب كل القرب فى آن واحد، كما أدرك الطبيعة الجماعية للإسلام (فى مقابل الفردية الأنانية فى المجتمع الأمريكى). وفى أثناء حجه إلى مكة، اكتشف إمكانية تحقيق المساواة بين البشر، فتجاوز كرهه للبيض، وعاد إلى الولايات المتحدة لينظم حزبًا جديدًا يجمع بين البيض والسود فى رفضهم للمادية، فحصدته الرصاصات الغادرة.

الثمرة الثالثة والأربعون...

الدين كمنظور شامل ينتظم الحياة كلها

خلاصة الأمر أننى اكتشفت الدين كنموذج معرفى متكامل وليس مجرد جزء ليس له أهمية فى حد ذاته، واكتشفت أن المكوّن الدينى ليس مجرد قشرة وإنما هو من جذور الكيان والهُوية. كما بدأت أشعر أن الدين ذو فعالية فى

الواقع المادى الذى نحياه وليس جزءًا مغلقًا من عالم الغيب، وهكذا زاد اتساع الثغرة التى تفصل «الإنسان الإنسان» عن التصور المادى البسيط، وزاد دور الأفكار (عالم الروح) فى تفسير ظاهرة الإنسان، أى أن الدين أصبح تدريجيًّا فى تصورى جزءًا من الكيان الإنسانى وليس منفصلًا عنه.

سمات العقل المادى

من أجل أن نفهم الحضارة الغربية الحديثة، بإيجابياتها وسلبياتها يحلل لنا د. المسيرى سمات العقل المادى، الذى أفرز هذه الحضارة:

الثمرة الرابعة والأربعون...

العقل المادى: عقل محايد

العقل المادى عقل محايد. لا علاقة له بالأخلاق أو بالأسئلة الكلية (الخاصة بالغرض من وجود الإنسان فى الكون)، أو بالمقدس أو بما يتجاوز عالم الحواس الخمس المباشر. وهو موصل جيد لما يدخله من معلومات ومعطيات فيتعامل معها ولا يمكنه أن يتجاوزها. لذا فهو لا يفرز سوى ما يمكن تسميته «منطق الأمر الواقع» أو «أخلاق الصيرورة»، أى أنه لا يعترف بوجود قيم أخلاقية أو إنسانية ثابتة مستقرة، ويرى أن كل شىء - بما فى ذلك القيم - فى حالة تغير وتحول دائمين، ولذا فعلى الإنسان أن يستمد قيمه من واقعه المتغير الذى صار إليه.

والعقل المادى فى الوقت ذاته لا يهتم بالسمات الخاصة للظواهر أو بخصوصيات كل إنسان فرد، فهو يركز على الجوانب العامة، كأنه يتأرجح بعنف بين «العام» المُوغل فى العمومية و«الخاص» الموغل فى الخصوصية

(لسقوطه فى التفاصيل بسبب التصاقه بعالم الحواس). ويمكن تشبيه العقل المادى بأشعة إكس؛ التى يمكنها أن تعطينا صورة للهيكل العظمى للإنسان ولكن لا يمكنها أن تنقل لنا صورة الوجه الإنسانى فى أحزانه وأفراحه. وكذلك يشبه الميكروسكوب الذى يعطينا أدق تفاصيل الخلية دون أن ينقل لنا الصورة الكلية لهذه الخلية. ونخلص من كل هذا إلى أن العقل المادى عقل عنصرى إمبريالى لأنه يُسقط مفهوم الإنسانية المشتركة ولا يجيد إلا اختزال الواقع فى جانبه المادى فقط بهدف الاستفادة منه.

الثمرة الخامسة والأربعون...

العقل المادى: معادٍ للتاريخ،

يقدس الأمر الواقع على حساب الحق التاريخى

لما كان التاريخ بنية غير مادية، تتسم بالتركيب والإبهام، فلا يمكن للعقل المادى أن يتعامل معه بكفاءة (فهو يجيد التعامل مع الأرقام والكم والكثافة والحجم والوزن) خاصة وأن التاريخ من صنع الإنسان الإنسان (بجانبيه المادى والروحانى).

الثمرة السادسة والأربعون...

العقل المادى وإعادة تشكيل الإنسان فى الإطار المادي

عملية تفكيك ثم عملية إعادة تركيب

* التفكيك: رد الإنسان إلى المـادة.

من أهم صفات العقل المادى أنه يرد كل شىء - بما فى ذلك الإنسان - إلى المادة، أى أنه يقوم بهدم الإنسان وتفكيكه إلى عناصر مادية أولية. ويرى

الفكر المادى أن الدماغ يفكر كما تهضم المعدة الطعام وكما تفرز الكبد الصفراء. وهذه الرؤية المادية للإنسان ترده إلى طينته وتنزع عنه القداسة وتفقده مركزيته فى الكون.

ولعل هوبز هو أول مفكر وضع يده على المفاهيم المظلمة فى العقلانية المادية حين أعلن أن حالة الطبيعة (وهى حالة الإنسان بعد إقصاء الإله عن الكون) هى حالة من حرب الجميع ضد الجميع، فالإنسان ذئب لأخيه الإنسان، ويتم التعامل الاجتماعى بين البشر لا بسبب فطرة خَيِّرة فيهم وإنما من فرط خوفهم وبسبب حب البقاء، فيُنَصِّبون الدولة التنين حاكمًا عليهم حتى يمكنهم أن يحققوا قدرًا ولو قليلًا من الطمأنينة. وقد اتفق معه ماكيافللى فى هذا، وأعلن أن الغاية تبرر الوسيلة.

أما إسبينوزا فقد قدم عالمًا آليًا تمامًا، لا تُستثنى من قوانينه الذات الإنسانية. وحول هذا المعنى قال الفلكى لابلاس لنابليون: إن تصوره لبنية الكون لا يحتاج لافتراض وجود إله.

وبَيَّن لوك أن العقل صفحة بيضاء تتراكم عليها المعطيات وأن ليس هناك دور لفطرة خيرة توجهه. وبيَّن الماركيز دى صاد وفرويد أن الإنسان يحوى الذئب داخله (دوافع) وخارجه (سلوك)، وأن ذاته المتحضرة إن هى إلا قشرة واهية تخبئ ظلمة تمور داخل الإنسان ومِن حوله. ويرى دارون ضرورة الصراع من أجل البقاء، وأن البقاء للأقوى. وقد أعلن نيتشه أن الذات الإنسانية بما تفرضه من مُثُل وهمية هى إحدى الحيل التى يحاول بها الضعفاء أن يخنقوا حقوق الأقوياء.

ويرى ماركس أن الذات الإنسانية المستقلة وهم ما بعده وهم، فوراء المُثل والقيم يوجد الصراع الطبقى ووسائل الإنتاج. ويصل هذا الاتجاه إلى

قمته فى فكر ما بعد الحداثة (فوكوه ودريدا)، فلا توجد ذات إنسانية تميز الإنسان بما تحمله من قيم ومُثل عما حوله من الماديات، كما لا توجد غاية للوجود الإنسانى.

التركيب: كائن «منتج» «مستهلك» «مستمتع» فى ظل قوانين السوق،

عن طريق الترشيد البرانى والترشيد الجوانى

إن العمود الفقرى لقوة الولايات المتحدة (قمة المجتمعات المادية) يكمن فى أنها قد نجحت فى ضبط سلوك مواطنيها وتوجيههم نحو هدف واحد: الإنتاج والاستهلاك، ومن أجل أن يتحمل الإنسان هذه الطاحونة أُشبعت كل غرائزة المادية. وأصبح البشر يتبنون هذه المُثُل كهدف نهائى ويسعون من أجل تحقيقها.

وقد تم تحقيق هذا الهدف من خلال آليتين تحققان عملية ضبط كاملة:

الترشيد البرانى (الخارجى): وهو توجيه سلوك الإنسان(من الخارج) نحو الإنتاج والاستهلاك، وذلك من خلال النظم والقوانين.

الترشيد الجوانى (الداخلى): وهو جعل الاستهلاك غاية وحُلم، يسعى الإنسان إلى تحقيقه (إعادة تشكيل من الداخل).

وفى الترشيد البرانى يجتهد العقل المادى فى إتقان توظيف الوسائل للوصول إلى الغايات المادية، دون النظر إلى عواقب هذه الغايات. ألم يفعل ذلك المجتمعان النازى والصهيوني؟! مجتمعان يستخدمان العلم والتكنولوجيا بكفاءة غير عادية فى البطش والقتل للوصول إلى ما لا حق لهم فيه.

ولعل الولايات المتحدة هى البلد الذى تم فيه ترشيد جوانب الحياة بشكل يكاد يكون كاملًا. **فالإعلام الأمريكى ينجح تمامًا فى عزل الإنسان** الأمريكى عن الأحداث العالمية. لا أنسى يوم 6 من يونية سنة 1967 حين نشرت الصحيفة المحلية خبر اندلاع الحرب فى ثلاثة سطور فى الصفحة الثالثة. وفى أثناء انتخابات الرئاسة (عام 2000) لم أسمع تصريحًا واحدًا عن السياسة الخارجية؛ لأن القضية الأساسية التى شغلت الرأى العام الأمريكى آنذاك هى شخصية آل جور، وهل قَبَّل زوجته فى شفتيها أمام مؤتمر الحزب الديمقراطى بحرارة زائدة أم حرارة معقولة؟، وحين كانوا يتطرقون للسياسة كانوا يتحدثون عن تكاليف الرعاية الطبية والضرائب. وينتج عن هذا كله **تبسيط الوجدان السياسى للإنسان الأمريكى وإلغاء قدراته النقدية، بحيث يمكن للسلطة الحاكمة أن تملى عليه ما تريد من أفكار يعتنقها بتلقائية وحرية كاملتين!** (الترشيد الخارجى آلية تُيسر الترشيد الداخلى).

ومن أهم جوانب الترشيد البرانى أنه لا توجد أى ضمانات للعاملين أن يستمروا فى وظائفهم فيعيشوا فى قلق دائم، الأمر الذى يزيد من إنتاجيتهم **(فالإنسان السعيد المتزن مع نفسه تقل إنتاجيته بعض الشىء، إذ يتبنى أهدافًا** إنسانية فى الحياة). وحينما تقرر الشركة تحسين صورتها الإعلامية يأتى أحد المحاسبين ويحدد الميزانية المطلوبة (تبرع لمتحف - لمرضى السرطان - لمكتبة...) ولكن عليه أيضًا أن يحسب العائد الإعلامى للشركة، والأرباح التى تحققها من جَرّاء ذلك والإعفاءات الضريبية... إلخ.

ويُعتبر التليفون المحمول (رمز الوجاهة وأداة الثرثرة فى بلدنا) واحد من أهم آليات الترشيد، إذ إن المؤسسة الأمريكية يمكنها أن تصل إلى كل العاملين فى أى زمان ومكان، مما يعنى مزيدًا من تآكل رقعة الحياة الخاصة لحساب الإنجاز المادى.

وإذا نظرنا إلى صناعة تصميم الأزياء نجد أنها تقوم بضبط سلوك المرأة (ترشيده) فتضع لها الخطوط الأساسية التى تتحرك داخلها (الفستان الطويل الأخضر هو الموضة هذا العام، أما العام الذى يليه فإنه إما يكون كذا أو كذا، «ودوخينى يا لمونة»!) وبذلك يمكن التنبؤ بسلوك المرأة واستيعاب أحلامها داخل خطوط الإنتاج.

وفى الترشيد الجوانى، يصبح الاستهلاك هو حلم الإنسان الذى يوجه من داخله كل جوانب حياته. وبالإضافة إلى هذا الجانب الاقتصادى، فإن للترشيد الجوانى جانبًا آخر، فالولايات المتحدة تضم شعوبًا ذات أصول عرقية ودينية مختلفة، والأفراد فيها لهم ولاءات متعددة وأحلام مختلفة: فردية وعائلية وقبلية وقومية ودينية. كل هذا يجعل من عملية ضبط مثل هذه المجتمعات مسألة صعبة، ويتطلب هذا جمعهم حول حلم الاستهلاك. وتلعب هوليود دورًا أساسيًا فى عملية الترشيد هذه، فهى تعيد تشكيل صورة الإنسان وأحلامه.

وإذا كان الترشيد بنوعيه يهدف إلى إعادة صياغة المجتمع الإنسانى (بل والإنسان نفسه) ليتوافق مع قدرات وغايات العقل المادى، فإن «العولمة» هى الترشيد المادى على مستوى العالم، بحيث يصبح سوقًا ضخمة، ويصبح البشر فى كل الدول كائنات ذات بعد مادى فقط (إنتاج واستهلاك واستمتاع).

ويمكن القول بأن النموذج الكامن وراء معظم الأيديولوجيات العلمانية الشاملة (النازية - الماركسية - الليبرالية - الصهيونية) هو ما يسمى «التطور أحادى الخط» Unilinear، أى الإيمان بأن التقدم المادى للمجتمعات والظواهر البشرية هو التطور الوحيد ذو البال. وتتصاعد عمليات الترشيد المادى إلى أن يتحقق حلم اليوتوبيا التكنولوجية، حين تتم برمجة كل شىء، والتحكم فى كل شىء، وضمن ذلك الإنسان، ظاهره وباطنه. وعمليات

الترشيد تأخذ شكل مراحل تمر بها كل المجتمعات البشرية (ومن هنا ولع الفكر الغربى بتقسيم التاريخ إلى مراحل محددة).

*** الإنسان من الرؤية الآلية إلى الرؤية العضوية إلى اللاشىء**

شهد القرن التاسع عشر انتقالًا تدريجيًا من الرؤية الآلية للإنسان إلى الرؤية العضوية. فإذا كان نيوتن قد جعل من الكون ساعة والإله هو صانع الساعات الماهر (الرؤية الآلية)، فإن عالم داروين العضوى يختفى منه «الإله» تمامًا، فأصول الإنسان - حسب تصوره - تعود لأسلاف القردة العليا ومن قبلها الزواحف. ثم يؤكد فرويد أن غابة القردة تقع داخل الإنسان على شكل «لا وعى» مظلم وغرائز متفجرة. وقد أجرى العالم الروسى بافلوف تجاربه على الكلاب، ثم طبق نتائجها على الإنسان، إذ كان يفترض أنه لا توجد فروق جوهرية بين كليهما. وأخيرًا يأتى فوكوياما (فيلسوف ما بعد الحداثة) ليزيد الطينة بله، إذ يقارن الإنسانية ببعض الأشكال التى خُطت على الرمال، ثم تمحوها الأمواج! (فأصبحنا لا شىء).

وهكذا يتم تفكيك الإنسان تمامًا (رده إلى ماديته)، ثم إعادة تركيبه كمنتج ومستهلك ومستمتع خالى من المنظور الإنسانى، ويكون ذلك بإعطائه الرؤية الآلية تارة ثم الرؤية العضوية تارة أخرى وأخيرًا يتحقق منظور ما بعد الحداثة فى أن الإنسان لن يعبد شيئًا ولا حتى نفسه، وأنه سينزع القداسة عن كل شىء، حتى عن نفسه.

*** النتائج: تمخض الجبل فولد فأرًا.**

أدت عملية إعادة تشكيل الإنسان وتصاعد معدلات الترشيد فى المجتمع إلى اختفاء التميز الفردى واختفاء القيم الثقافية والروحية والعقل النقدى، حتى أصبح الإنسان كائنًا ذا بعد واحد يرتبط وجوده بالاستمتاع والاستهلاك والسلع (فهو إنسان حيوانىّ متسلع متشيئ)، عقله ينشغل

بالوصف والرصد وإدراك الآليات، عاجز تمامًا عن إدراك الأغراض النهائية للوجود. وفى النهاية تمت الهيمنة الكاملة على الإنسان حتى وُصفت الحضارة الحديثة بأنها «القفص الحديدى».

وحينما سُئل فاكيلاف هافل (رئيس جمهورية التشيك السابق) عن الأسباب التى أدت إلى هذا الوضع، أجاب قائلًا: «هذا الوضع له علاقة بأننا نعيش فى أول حضارة ملحدة فى التاريخ البشرى. فلم يعد الناس يحترمون ما يُدعى القيم الميتافيزيقية العليا، والتى تمثل شيئًا أعلى مرتبة من ماديتهم، شيئًا مفعمًا بالأسرار. هذه القيم الأساسية كانت تمثل دعامة للناس، وأفقًا لهم، ولكنها فُقدت الآن. وتكمن المفارقة فى أنه حينما أعلنت الإنسانية أنها الحاكم الأعلى للعالم، فى اللحظة نفسها، بدأ العالم يفقد بعده الإنسانى».

طوفان النموذج المادى وسلبياته
(الحضارة الغربية الحديثة)
(العقلانية المادية والاستنارة المظلمة)

يخبرنا د. المسيرى أن الفرق شاسع بين ما يبشر به النموذج المادى الفلسفى (مثالياته التى كان يؤمن بها) وبين الواقع الغربى كما عاشه ورصده (سلبياته).

وفى الثمرات القادمة نعرض لسلبيات النموذج المادى:

الثمرة السابعة والأربعون...

كيف أدركتُ ظُلمة الاستنارة

حينما بدأت التدريس فى مصر عام 1969، ألقيت محاضرة عن الحضارة الغربية المستنيرة، نوهت فيها بمناقبها الكثيرة بما فى ذلك عقلانيتها. ولكنى

فى المحاضرة التالية كنت أُدَرِّس الشعر الإنجليزى الحديث، وكان موضوعها قصيدة ت. س. إليوت: «الأرض الخراب Land Waste The»، فتحدثت عن أزمة الإنسان الحديث وتفتته واغترابه عن ذاته وعن الطبيعة. وبينما كنت ألقى محاضرتى، أحسست بسخفى الشديد: كيف يمكن أن أُبَشر بالحضارة الغربية باعتبارها حضارة الاستنارة من الساعة التاسعة حتى الساعة التاسعة وخمس وخمسين دقيقة، ثم أُبيّن لنفس الطالبات أنها فى واقع الأمر حضارة الأرض الخراب من الساعة العاشرة حتى الساعة العاشرة وخمس وخمسين دقيقة؟ كان لا بد أن أجد تفسيرًا لهذا التناقض. ومن الطريف أننى كنت أكتب قصائد عن سلبيات الحضارة المادية، مثل غربة الإنسان وخيانة القيم... إلخ، وهى موضوعات ليس لها علاقة بتجربتى الشخصية وتتنافى مع رؤيتى الخاصة، ما أشبه ذلك بالمراهق الذى يكتب شعرًا عاطفيًا عن هجر الحبيب وهو لم يذق الحب بعد.

وكنت مرة أجلس مع ابنى، وهو بعد طفل، نشاهد التليفزيون، وسمع من المذيع أن الغرب قد راكم من الأسلحة النووية ما يكفى لتدمير العالم أكثر من مائة مرة، ففوجئت به يضحك ملء شدقيه ويخبرنى بشىء بدهى فاتنى، وهو أنه بعد تدمير العالم مرة واحدة، لا يمكن تدميره مرة ثانية، ساعتها ضحكت أنا الآخر، وتدعمت شكوكى حول العقلانية العجيبة للعالم الغربى «المتقدم».

وفى لقائى مع كبار الكُتَّاب الأمريكيين، كنت أحدثهم بحماسة شديدة عن الإنسانية (الهيومانية) humanism والاستنارة والعقل والعقلانية الغربية، فكنت أفاجأ بأنهم يتحدثون عن اللاعقل واللاوعى والمخدرات والعبث والأساطير والفن البدائى والذوبان فى الكون. كما لاحظت تزايد إشاراتهم السلبية إلى مفهوم إنسانية الغرب وإشاراتهم الساخرة إلى فكر

حركة الاستنارة، فاكتشفت ساعتها أننى ملكيًا أكثر من الملك. فالحضارة الغربية التى عرفناها ونشأنا على الإعجاب بها، بعقلانيتها وإنسانيتها، كانت تعالج سكرات الموت بعد أن سدد نيتشه إليها ضربته الأولى (من المؤلم حقًا أن بعض دعاة الاستنارة والتغريب فى مصر يترجمون أعمال نيتشه وغيره ويعرضونها بحُسبانها جزءًا من عملية «التنوير»!).

ومما ساعد على تعميق شكوكى بخصوص النموذج المادى الغربى، دراستى للحركة الرومانتيكية، فهى فى جوهرها كانت ثورة على الفكر العقلانى المادى الآلى الذى ساد فى أوروبا فى القرن الثامن عشر. فهذا الفكر لا يرى الإنسان بحُسبانه كائنًا حضاريًا مركبًا له قلب وعقل، وحواس ووجدان، وإحساس بذاته وبالآخر، فرد واحد لكنه يكتسب إنسانيته من جماعته وحضارته، يعيش فى المقدس وغير المقدس. وإنما يراه بحُسبانه كائنًا طبيعيًا يعيش بمفرده، له حاجات مادية وخاضع لقوانين معروفة مُسبقًا. لقد أدرك الشعراء الرومانسيون وحشية هذه الرؤية، لذا كانت الحركة الرومانتيكية محاولة لرد الاعتبار لتركيبية الإنسان أمام اختزالية العقلانية المادية الآلية.

* العقلانية المادية: الاستنارة المظلمة

هكذا اكتشفت بالتدريج أن العقلانية الغربية يتخفى وراءها نموذج مادى يساوى بين الإنسان والطبيعة المادية، ويعتبر أن مهمة العقل الإنسانى الوحيدة أن يرصد الطبيعة ويعرف مسارها وقوانينها ليطبقها على الإنسان، ومن هنا سميتها «العقلانية المادية» (التى تُسمَّى عادةً الاستنارة)، وهى تتباهى بمقدرة العقل (المادى) على التجريب ولكنه تجريب منفصل عن القيم الإنسانية والأخلاقية، ثم يتلقف نتائج تجريبه دون تساؤل عن المعنى والغاية.

وأعتقد أن هيمنة العقل المادى فى الغرب هى المسئولة عن الكره العميق الذى يشعر به الكثيرون تجاه العرب، وعن عدم فهم قضية حق العودة للفلسطينيين وأهمية القدس. فاللاجئون الفلسطينيون يعيشون فى وضع مادى مزرٍ ومع هذا يرفض غالبيتهم التعويضات السخية التى يمكن أن تُدفع لهم، وهم لا يزالون يتذكرون بيوتهم فى حيفا ويافا ويحتفظون بمفاتيحها، وهم مستمرون فى مقاومة العدو عبر ما يزيد عن مائة عام، ويصرون على أن مدينة القدس هى عاصمة دولتهم. كل هذا، من منظور العقلانية المادية، يبدو أمرًا متخلفًا لاعقلانيًّا يثير الغيظ والحنق، إذ كيف يمكن لهؤلاء الفقراء أن يتمسكوا بتراثهم ومقدساتهم برغم كل الإغراءات المادية؟ ما الذى حدث لعقولهم؟!.

الثمرة الثامنة والأربعون...

ليس هناك تميّز فردى إنسانى. وإنما نمطية مذهلة

كنت أتصور، شأنى شأن الكثيرين، أن الحضارة الغربية هى حضارة تُميز كل إنسان عمن سواه، وتحترم تفرده «حضارة الفردية»، وأن حضارتنا هى الحضارة الشرقية الجَمعيّة. هكذا تعلمنا، وهكذا أدركنا الحياة.

ولكننى حينما ذهبت إلى هناك، لاحظت أن ثمة «نمطية مذهلة» فى أشكال الحياة وفى الأنماط الإنسانية. وقد زادت النمطية بعد ظهور علوم متخصصة فى التحكم فى السلوك الإنسانى، تخصصت فى توجيه حياة الإنسان وضبطها وفقًا لخطة محددة (نوم - إفطار - عمل) بحيث أصبح كل شىء مجهز مسبقًا، حتى الإجازات والأفراح بل والمآتم.

وفى حفلات الكوكتيل، كنت ألاحظ حرص العاملين على أن يثبتوا لرؤسائهم أن حياتهم العائلية مستقرة ولن تعيق مسيرة الإنتاج والعمل،

أى أن الحياة الخاصة تُوظَف فى خدمة الحياة العامة، ولذا كانت زوجات المرءوسين يحرصن على الحديث مع الرئيس أو زوجته ليبرهِنَّ على أن كل شىء تمام التمام!.

وقد حدث العكس تمامًا حينما عدت من الولايات المتحدة عام 1969، إذ دعوت أنا وزوجتى عضوات هيئة التدريس فى كلية البنات وأزواجهن لطعام العشاء فى منزلى، ففوجئت بأنهن جميعًا تقريبًا حضرن مستقلات. وحينما تأملت الواقعة أدركت أن حياتهن الخاصة لها حرمتها وخصوصيتها وفرديتها وأنه لا يجوز بأى حال جرها جرًّا للحياة العامة.

كنت أقابل الكثيرين من الأمريكيين الذين يغيرون ملبسهم ومأكلهم وسلوكهم حسب ما يمليه الإعلام والكتالوجات، فأدركت أن ما يسود فى الولايات المتحدة ليس الفردية وإنما البراجماتية. والإنسان البراجماتى لا يكترث بالثوابت ولا يهتم بالقيم مثل الكرامة والشهامة، فهو إنسان مرن إلى أقصى حد، وعملى بشكل متطرف، يقبل أى شىء طالما إنه ينجح، ولذا ينتهى به الأمر إلى أن ذاته الجوانية تضمر، ويأخذ فى التكيف مع ما حوله ويستجيب بشكل مباشر لما يأتيه من إشارات ونداءات وإعلانات وبيانات سياسية، فيعيد صياغة نفسه بسهولة وسرعة حسب آخر الصيحات.

ويتنافى هذا مع ما تعلمناه من أن الإنسان الغربى إنسان فاوستى مسيطر (يعتز بفرديته إلى أقصى درجة)، يقف وحيدًا فى الكون، عالمه الداخلى من صنعه، وهو يحاول فى الوقت نفسه أن يملى إرادته على العالم الخارجى من حوله. لم أجد شيئًا من هـذا (إلا فى الأعمال الأدبية والسينمائية). لقد أصابت الإنسان الغربى «عقدة عدم الثقة بالنفس» فأخذ يستمد صورته لنفسه من الإعلام الذى كان آخذًا فى التوحش والتغول.

الثمرة التاسعة والأربعون...

القلق والتآكل الكامل للأسرة

لا مكان للطمأنينة والاتزان فى قلب الإنسان

كانت معظم المجتمعات الإنسانية فى الماضى تحاول **«إدخال الطمأنينة»** على قلب الإنسان، بحيث يحتفظ بتوازنه مع نفسه ومع الطبيعة. ولعل الأسرة هى أهم المؤسسات التى طورها الإنسان ليُدخل الطمأنينة على قلبه. أما المجتمعات الحديثة (خصوصًا المجتمع الأمريكى) فقد **جعلت الإنتاجية والحركية هدفها**. ويبدو أن الفرد المطمئن المتوازن مع نفسه يقف على طرف النقيض من الفرد المنتج الحركى (فالقلق، يولد نزعة إمبريالية فى الإنسان تجعله يود غزو العالم والهيمنة عليه ليثبت لنفسه تفوقه فيحقق شيئًا من الاتزان والطمأنينة).

إن المجتمع الأمريكى هو **مجتمع القلق**، يتحدث عن الاعتماد على النفس ويقذف بأطفاله فى سوق العمالة فى مرحلة مبكرة للغاية. وفى سن الثامنة عشرة لا بد من أن يترك الفرد أسرته ليعيش بمفرده وليكمل تعليمه. لقد جعل التآكل الكامل للأسرة الفرد يعيش منعزلًا ولا يشعر بأى اطمئنان، بل يُترك وحيدًا أمام آلاف الاختيارات والإعلانات، حتى يلتهمه الإعلام الكفء التهامًا، لا يجد أى مرجعية تكون موضع ثقته ومصدر شرعيته وتضفى معنى على وجوده وتساعده على اتخاذ القرار. لقد **فقد الإنسان «المرفأ فى عالم بلا قلب»** كما يقول عالم الاجتماع الأمريكى كريستوفر لاش فى وصفه لتآكل نظام الأسرة.

قمت بعقد مقارنة بين الأنماط الأمريكية والأنماط المصرية التى عرفتها فى مصر، فوجدت أن **عالم الإنسان المصرى أكثر امتلاءً وأكثر صلابة**، فهو

قادر على الحب وعلى الكره، وعلى التعاون والتآمر، وعلى أن يسترجع ذكرياته وأن يتحمس لوطنه وذاته. وهو لا يصدق كل ما يُقال له بسرعة، بل تجده يستمع إلى الإذاعات الأجنبية ليتحقق من صدق ما سمع فى إذاعة مصر. أما الإنسان الأمريكى، فهو مؤمن تمامًا بكل ما يُقال له، وما يُقال له هو كبسولات إعلامية تزيده تبعية خارجية وهشاشة داخلية.

الثمرة الخمسون ...

اجتماع النقيضين، الذاتية المتطرفة مع الذوبان فى الكل

حينما درست الأدب الأمريكى لاحظت ظاهرة غريبة: أن كلاً من «الذاتية المتطرفة» (شعورى بذاتى ورغبتى فى تحقيقها) و«ذوبان الذات فى الكل» (الطبيعة - الكون - الولايات المتحدة الأمريكية) يتعايشان جنبًا إلى جنب، برغم تناقضهما، وبدأت أُلاحظ أن المجتمع الحديث الذى يزعم أنه يدافع عن الفردية يقوم فى واقع الأمر بهدمها وتذويبها، وباقتحام عالم الإنسان الجوانى.

وأضرب مثلًا بتقاليع موضة الملابس نصف السنوية (شتاءً وصيفًا)، وكيف أن من يقرر أن يرتدى رداء حسب «آخر موضة» هو إنسان متمركز حول ذاته يود إظهارها وتحقيقها بكل قوة، ولكن المفارقة أنه حين يفعل ذلك يكون قد تخلى عن فرديته تمامًا! لأن عليه أن ينفذ أوامر مصمم الأزياء بحذافيرها لأن «الموضة كده السنة دى».

ويمكن وصف المجتمعات الغربية المتقدمة بأنها مجتمعات يسود فيها نوع من «غياب الحرية فى إطار ديمقراطى سلس معقول smooth unfreedom democratic reasonable» كما يقول المفكر هربرت ماركوز، أى أنها مجتمعات شمولية نجحت فى أن تجعل الجماهير تتبنى الرؤية السائدة فى

المجتمع، وتسلك حسبها دون قمع بوليسى، بحيث يقتنع الإنسان أن الهدف من الحياة هو زيادة الإنتاج والاستهلاك والاستمتاع.

الثمرة الحادية والخمسون...

النموذج المادى ومستنقع النسبية المطلقة

* النسبية المعـرفية والأخلاقية

أصبح الإنسان بلا مرجعية، شخص غير قادر على الحكم

من السمات الأساسية فى الحضارة الغربية الحديثة (بل أهم سلبياتها) «النسبية المعرفية والأخلاقية» التى كان من المفروض أن «تحرر الإنسان» «وتفسح له المجال لتأكيد فرديته، لكنها أدت إلى العكس. فالنسبية تنزع القداسة عن العالم (الإنسان والطبيعة) وتجعل كل الأمور متساوية، ومن هنا فالظلم مثل العدل، والثورة ضد الظلم لا تختلف عن الاستسلام له. فيصبح من العسير للغاية، بل من المستحيل، على الإنسان الفرد أن يتخذ أى قرارات بشأن أى شىء، ويصبح من السهل اتخاذ القرارات بالنيابة عنه والهيمنة عليه سياسيًا. **فالنسبية قوضت الإنسان من الداخل وجعلت منه شخصية هشة غير قادرة على اتخاذ أى قرار وإن كانت، فى الوقت ذاته، قادرة على إقناعه بأى شىء، وكل شىء.**

وبدلًا من أن تجعل النسبية من الإنسان شخصية ثورية تفعل ما تريد، جعلته شخصية محافظة رجعية قادرة على التكيف مع الأعم والأغلب، وهذا الأعم والأغلب تحدده صفوة من الشخصيات النيتشوية القوية المسيطرة من الاقتصاديين والسياسيين والإعلاميين، لذلك فإن تآكل المعايير الأخلاقية والاجتماعية السائدة فى المجتمعات يترك الإنسان بلا معيارية (أى بلا مقاييس يحتكم إليها).

ويمكن تشبيه ما يحدث للإنسان الغربى الحديث فى عالم النسبية بما كان يحدث لى حينما أذهب لسوبر ماركت، حجمه فى حجم مدينة دمنهور، لشراء مستلزمات المنزل. فإذا كانت قائمة المشتريات تحوى، مثلًا، نوعًا معينًا من الحبوب Cereal، أفاجأ أنه قد انقسم إلى عدة أنواع: مُحَلًّى بعسل النحل أو مضاف له فيتامين... وهذه مقسمة بدورها إلى صنف عادى، وصنف متميز محبب للأطفال، ولكن هذا الأخير قد ينقسم إلى عدة أقسام: على شكل حروف أبجدية أو على شكل ديناصورات... أمام هذه الاختيارات الكثيرة، كنت أقع فى حيرة شديدة، فأجد نفسى مضطرًا للاستماع لصوت ما داخلى (هو عادةً صوت آخر إعلان سمعته) أو أختار أى شىء بشكل عشوائى أو أهاتف زوجتى لتصدر لى الأوامر وتعفينى من مسئولية الاختيار.

وقد بيَّن الطب النفسى أن كثرة الاختيارات قد تؤدى إلى مشكلات نفسية. فحينما يواجَه الإنسان بمثل هذا الموقف، عليه أن يحدد بدقة ما يريد وأن يختار بين سلع الفرق بينها طفيف، وهذا يتطلب جهدًا نفسيًّا كبيرًا، يشكل ضغطًا حقيقيًّا على الإنسان لا قِبَل لكثير من البشر به.

ومن القصص الكوميدية التى تبين مدى تقويض النسبية للإنسان الغربى قصتى مع «ميس إيزو Eizo». كنا نتجاذب أطراف الحديث عن أشكال القهر فى العالم، فقالت الآنسة إيزو إنها تشعر بالاضطهاد لأنها لا يمكن أن تصبح بابا Pope (أى رئيسًا) للكنيسة الكاثوليكية فى الفاتيكان لأنها أنثى، فقلت (مازحًا بطبيعة الحال) أنا الآخر أشعر بنفس الإحساس بالاضطهاد لأننى لا يمكن أن أُعيَّن بابا للكنيسة الكاثوليكية لأننى مسلم. وبدلًا من أن يضحك الحاضرون، التزموا الصمت، وإذا بالآنسة إيزو تُعبِّر عن تعاطفها معى، ولم أدر ماذا أفعل. ولحسن حظى، تركت الآنسة إيزو المكان، فتشجع بقية الحاضرين وتساءلوا: «ألم تزد الآنسة إيزو عن حدها

قليلًا؟» أى أنهم حتى أمام موقف فى غاية الوضوح لا يتحمل أى إبهام، لم تواتهم الشجاعة الكافية ليعبِّروا عن رأيهم.

كنت مرة أجلس أمام التليفزيون البريطانى أشاهد برنامجًا حواريًّا. كان يجلس على المنصة رجل وزوجته وأطفالهما، مع إضافة بسيطة للغاية وهو عشيق الرجل (نعم عشيقه لا عشيقته) الذى يعيش معهم تحت سقف نفس المنزل، بموافقة الزوجة والأطفال. وقد واجه الجمهور إشكالية حقيقية، فمن ناحية توجد الموافقة (وهى الشرط الأساسى والوحيد لأى علاقة جنسية فى العالم الغربى)، ومن ناحية أخرى يوجد الشذوذ الذى يسم هذا الوضع، **ولكن لا توجد أرضية غير مادية (دينية أو أخلاقية أو إنسانية) يؤمن بها الجميع ويمكن الاحتكام إليها**. وكلما كان أحد الحاضرين يحتج على شىء، كان الزوج يرد بكل ثقة، بأن زوجته وأولاده موافقون وسعداء، وأى تدخل فى شئونهم سيكون إهدار لحريتهم وحقهم فى الاختيار، وعلى المعترض أن يتحلى بسعة الأفق broad-mindedness (وغنى عن القول أن سعة الأفق هذه تفتح الباب على مصراعيه لتقبل كل شىء أو أى شىء، فمن يُحب أن يوصف بأنه غليظ الطبع ضيق الأفق؟!). ظل النقاش دائرًا دون مَخرج، إلى أن اكتشف أحد الحاضرين أن الأطفال ليسوا فى سن يسمح لهم بالاختيار، وبالتالى فإحضار الأب لعشيقه ليعيش مع أسرته فيه تدمير لحقهم فى الاختيار حين يبلغوا سن الرشد. وتنفس الجمهور الصعداء، إذ وجدوا أرضية فلسفية مشتركة تستند إلى حرية الاختيار، ولكنها فى الوقت نفسه تعطيهم الحق فى الهجوم على الشذوذ، فشنوا هجومهم بشجاعة بالغة، ولزم الرجل وعشيقه الصمت.

ومن القصص الحزِينة التى توضح **خطورة التنكر للطبيعة البشرية كأرضية صلبة يمكن الاحتكام إليها** قصة طالبتى التى فوجِئتُ بأن درجاتها

بدأت تنخفض بسرعة، وعندما سألتها عن السبب قالت إن زوجها يحضر عشيقته معه إلى المنزل، وينامان معًا فى غرفة نومها، فتضطر هى إلى النوم على الأريكة فى الصالة. ولكنها بدلًا من أن تعبِّر عن أى مشاعر إنسانية فطرية (كالغيرة)، أخبرتنى بموضوعية شديدة أن «الأريكة فى الصالة غير مريحة، ولذا فهى لا تستطيع النوم». أخبرتها بأن عليها إذن أن تشترى أريكة جديدة مريحة، فنظرت إلىَّ وقد أدركت أننى عرفت ما لا تريد البوح به.

بل إن القانون الأمريكى نفسه، بتقبله المفاهيم النسبية، يجعل إصدار الأحكام أمرًا فى غاية الصعوبة. أخبرتنى إحدى الزميلات أنها قررت أن تجلس على حِجْر صديقها أثناء قيادته للسيارة. فأوقفهما ضابط الشرطة، الذى تَبَرم من منظرهما، ولكن القانون لا يخول له أن يُجَرِّم مثل هذا الفعل، فأصدر للسائق تذكرة مخالفة مرورية، على اعتبار أن زميلتى كانت تحجب عنه الرؤية!.

*** غياب المفاهيم الإنسانية الفطرية عن السعادة يؤدى إلى البؤس**

لقد أدى الغلو فى النسبية إلى أن يصبح الكثير من المفاهيم الإنسانية الفطرية الأساسية، مثل الإحساس بالسعادة أو البؤس، محل تساؤل بسبب اختفاء المعايير وفقدان المقدرة على الحكم.

نشرت مجلة تايم أخيرًا مقالة بعنوان «صحيح الجسم، وثرى، وغير سعيد»، ورد فيه أن أكثر الأوربيين ثراءً وتقدمًا هم الألمان وهم كذلك أكثرهم بؤسًا وتشاؤمًا، وأن أكثرهم فقرًا الأيرلنديين والبرتغاليين. وهم أكثرهم رضًا. وتضيف المقالة أن مقاييس التقدم الإنسانى التى اعتمدتها هيئة الأمم المتحدة غير كافية، فقد اعتبرت الدخل والتعليم ومتوسط العمر هى المقاييس الأساسية. ويقول الكاتب: حسب هذا المعيار، فإن أمة من المصابين بالأمراض النفسية، حصل كل أفرادها على شهادة دكتوراه ومتوسط أعمارهم

90 عامًا، ستحصل على الدرجات النهائية. لأن المرض النفسى ليس جزءًا من المعايير. وانتهت المقالة بأن وصفت الإنسان الغربى بأنه «**خفاش يطير، ولكن بتوتر، ولا يعرف إلى أين**».

وإذا تأملنا نمط حياة الإنسان فى هذه **المجتمعات «الثرية البائسة»** وجدنا: بيت يبعد عن محل عمله - علاقات أسرية مفتتة - علاقة واهية بمحيطه الإنسانى - إيقاع حياة رهيب لا يترك مجالًا لأى شىء إنسانى - ساعات عمل قاسية - نسبة طلاق عالية - برامج تليفزيونية باهتة، كل هذا يؤدى إلى الإحساس القاسى بالوحدة. وللاستدلال على **بنية البؤس العميقة التى تخبئها قشرة السعادة السطحية**، تأمل: عدد الساعات التى يقضيها المواطن الأمريكى مع أطفاله وتلك التى يقضيها مع المعالج النفسى الذى أصبح جزءًا روتينيًا من الحياة اليومية فى الولايات المتحدة (35٪ من شباب الدولة التى يُقال عنها متقدمة مصابون بأمراض نفسية). وكذلك الاستخدام المذهل للحبوب المهدئة والمنومة وأدوية الاكتئاب النفسى وانتشار المخدرات. كل هذا من أجل أن يستعيد الإنسان الأمريكى بعض التوازن الذى فقده؛ فلا يمكن تخيل سعادة دون توازن. هذا فى مجتمع جعل تحقيق السعادة الأرضية هدفه الأساسى والوحيد ويُفترض أنه نجح فى تحقيق أهدافه.

ومما يجعل هذا البلاء غائب عن كثيرين، أن كلمات نحتاجها لوصف واقع هذه المجتمعات مثل «ضياع» و «اغتراب» «والطبيعة البشرية» تقع خارج قاموس أنصار النسبية المطلقة، فهى كلمات وثيقة الصلة بعالم الروح والمعنويات!.

*** ازدواج الشخصية، وتبنى أكثر من نموذج.**

هناك شكل من أشكال **«النسبية الأخلاقية»** بدأ يظهر فى الغرب والشرق، وهو أن يتبنى الإنسان أكثر من نموذج. فعلى سبيل المثال يتغنى **المجتمع**

الأمريكى بأغانٍ يدور معظمها حول الحب الرومانسى، ولكن هذا المجتمع نفسه لا يكف عن الحديث عن الصراع من أجل البقاء كقيمة أساسية. وبالمثل يتنازع الآباء اتجاهان متناقضان فى تنشئة أطفالهم: هل يحافظون على براءة أطفالهم ورومانسيتهم، أم يعلمونهم فنون الصراع من أجل البقاء فى عالم السوق والتعاقد؟ إن حافظوا على براءتهم أفقدوهم جزءًا كبيرًا من مقدرتهم على الصراع، وإن فعلوا العكس، أفقدوهم جزءًا كبيرًا من براءتهم.

ويحسم بعض الأمريكيين (وكثير من البشر) هذه القضية بتبنى نموذجين: أحدهما للحياة الخاصة والآخر للحياة العامة. لذا يمكن أن تجد أستاذًا للفلسفة يدعو للإباحية فى فلسفته، ولكنه فى حياته الخاصة يتمسك بأهداب الفضيلة التى ليس لها أى أساس فى رؤيته الفلسفية. ومرة كنت أحاور واحدًا من هؤلاء، فقال: أنا أومن بالنسبية المعرفية ومع ذلك لا يمكن القول بأننى منحل أخلاقيًا؟ فأجبته من غيظى قائلًا: «إذن ستذهب أنت إلى الجنة أما أفكارك فستذهب للجحيم».

مستنقع النسبية المطلقة أصاب الفنون بالعفن

لقد أثّرت النسبية فى كثير من مجالات الحياة، خصوصًا الفنون. فبدأت فى ستينيات القرن العشرين «عملية تحرير الفن» من القيود والحدود الأخلاقية والجمالية، حتى أصبحت تحررًا من أى قيود أو معايير، كما تزايدت معدلات الإباحية والعنف.

فى منتصف الستينيات كان الفنان آندى وورهول يُوَقِّع على علب القمامة وعلب الحساء القديمة فتتحول بقدرة قادر إلى أعمال فنية تُباع بآلاف الدولارات. وكان له فيلم يُسمَّى «النوم»، يستغرق عرضه ثلاث ساعات، عبارة عن شخص نائم يتحرك كل ربع ساعة أو عشر دقائق! كما رأيت

مسرحية بعنوان «**أخت فيديل كاسترو**»، وكانت مليئة بالإشارات الجنسية الطفولية مع عرض الأعضاء التناسلية، **ولا تهدف إلى نقل أى رسالة، فهدفها الأساسى هو أن تصدم الجمهور**، ولسبب لا أعرفه، كان الذكور يلعبون دور الإناث، وكانت الإناث يلعبن دور الذكور، ويتم كل هذا باسم الإبداع والنسبية والحرية. وما حيرنى كثيرًا هو أن جمهور المتفرجين عبَّر عن إعجابه الشديد بهذه المسرحية، تمامًا مثلما عَبَّر عن إعجابه بفيلم «النوم»!.

ظل هذا التيار يتطور إلى أن عبَّر عن نفسه فى الآونة الأخيرة فى أعمال ثلاثة فنانين دفعوا بالنسبية إلى أقصى مداها، إذ أصبحت تعنى **التحرر من الحدود الإنسانية ذاتها**: أولهم آندريه سيرانو وتعود شهرته إلى «لوحة» بعنوان «فلتتبول على المسيح Piss Christ»، حيث وضع الفنان صورة المسيح على الصليب فى البول. وثانيهم هو روبرت مابلثورب، وهو مصور فوتوغرافى تخصص فى تصوير نفسه فى أوضاع جنسية شاذة تتسم بالعنف. وثالثهم وأشهرهم هو جويل بيتر ويتكين وهو مصور فوتوغرافى يستخدم أجساد الموتى فى أعماله الفنية. ومن موضوعات ويتكين الأثيرة تصوير الموتى بعد أن يرتدوا بعض الملابس، وصورة رجل يضع مسمارًا فى قضيبه (فهذه هى الطريقة الوحيدة التى يتواصل بها مع الآخرين كما يخبرنا الفنان)، وتُباع النسخة من صوره بـ 35 ألف دولار. وحياة ويتكين لا تقل وحشية أو نسبية، فهو يعيش مع زوجته وعشيقتها وينامون فى نفس الفراش، كما يعترف أنه يمارس الجنس أحيانًا مع موضوعاته، أى جثث الموتى!.

ويبلغ انحراف هذا الاتجاه الفنى أقصاه ليصل إلى ما يسمى «سنف موفيز snuff movies» ولا أعرف ترجمة لهذه العبارة، وهى أفلام يختلط فيها العنف والجنس بطريقة متطرفة، وكثيرًا ما تنتهى بقتل بطلة الفيلم وهى فى حالة نشوة جنسية. ومثل هذا المنظر يتكرر فى الأفلام الإباحية «العادية»، ولكن فى

السنف موفيز يتم الذبح بالفعل. وكان يتم الإعلان عن الفيلم بعبارة «صُوِّر فى أمريكا اللاتينية، حيث العمالة رخيصة»، وكل لبيب متوحش بالإشارة يفهم. وقد بينت جريدة وول ستريت جورنال أن ما يحدث هو نتيجة طبيعية للموقف النسبى المتسيب من الفن والجنس ونتيجة إنكار الحدود باسم الحرية المطلقة والإبداع غير المتناهى!.

مستنقع النسبية المطلقة أصاب السياسة بالعفن كذلك

صاحب انتشار النسبية المطلقة ما يُسمَّى بـ«الخطاب السياسى الصحيح» politically correct وهو خطاب متعجرف، **يطالب المرء بألا يقول شيئًا قد يسىء لأحد أعضاء الأقليات**. وكل البشر – حسب تصور هذا الخطاب – أعضاء أقليات: البدينون – طوال القامة – السود – اليهود – المعوقون. كما **يعدد هذا الخطاب الأشياء الصحيحة والمواقف الواجب تبنيها**، ومن ضمنها: الاهتمام بالبيئة – الاهتمام بكل الأقليات – قبول الشذوذ الجنسى بحُسبانه شكلًا طبيعيًا من أشكال التعبير عن الهُوية. وبعض هذه الأفكار خيِّر ولا شك ولكن البعض الآخر يعبر عن رؤية مغالية فى النسبية.

ويُدعى إلى هذا الخطاب النسبى بطريقة متعصبة إرهابية، وقد انتشر **فى الجامعات الأمريكية**، وأصبح شيئًا مخيفًا يهدد الجميع. فعلى سبيل المثال، قامت أستاذة علم اجتماع فى جامعة كاليفورنيا – بدلًا من أن تعطى الطالبات محاضرات فى مادة تخصصها – بتدريبهن على الاستمناء (حتى يمكنهن الاستغناء تمامًا عن الرجال)، فاحتج أحد أولياء الأمور، فاتُهم بأنه ضيق الأُفق غير قادر على تقبل الجديد. فاضطر إلى اللجوء إلى القضاء، شاكيًا من أنه يُضيِّع ماله بحسبانه من دافعى الضرائب، إذ لا يمكن لصاحبنا أن يشكو إلا على هذا الأساس، فالقانون الأمريكى قد فشل تمامًا فى تحديد موقف محدد من الإباحية أو العيب.

وهناك الجانب الكوميدى لما يسمى بالخطاب السياسى الصحيح. فمثلًا يجب ألا يقول الإنسان المتحضر: «رجل الثلج snow-man» بل عليه أن يقول «الشخص الثلجى snow-person» حتى لا تتضمن عبارته تمييزًا للذكور على حساب الإناث!.

الثمرة الثانية والخمسون...

البحث عن اليقين العلمى الموضوعى الكامل حتى فى الأمور الإنسانية

لقد صاحَب النسبية المطلقة شىء مناقض لها تمامًا، وهو الرغبة الصارمة فى أن يصل المرء إلى اليقين العلمى الموضوعى الكامل بخصوص كل شىء، بما فى ذلك الأمور الإنسانية. **فما لا يمكن تعريفه بوضوح والتعبير عنه بدقه يتم تهميشه واستبعاده**؛ كالتعبير عن العواطف والقيم الإنسانية.

وقد **تم ترشيد اللغة الإنجليزية** بحيث أصبحت لغة دقيقة ومنطقية وصلبة للغاية ليس فيها مجال للأسرار أو المناطق الرمادية. أذكر مرة أن جاءتنى إحدى صديقات زوجتى وكانت على وشك الطلاق من زوجها، وعرضت ظروفها بطريقة لا تبين هل هى إنسان يتعذب، أم إنسان يشعر بالسعادة التى تأتى من التحرر من عبء يثقل كاهله، فكان من الصعب علىَّ إعطاؤها النصح والمشورة.

وفى حفل زفاف بالولايات المتحدة، التقيت بفتاة بلغ بها البحث عن اليقين العلمى الموضوعى مبلغًا كبيرًا، ودار بيننا حوار حاولت فيه أن أبيِّن لها **أن التواصل الإنسانى لا يتطلب دقة فى الحديث تحول لغة الحوار الإنسانى إلى معادلات رياضية. فالحوار يستند إلى مجموعة من التعميمات المشتركة التى لا يبوح بها أحد** برغم وجودها، ولكن الفتاة أصرت على أن كل شىء يجب أن يتم تقريره بوضوح. وفى اليوم التالى، استوقفتنى نفس الفتاة فى الطريق

وسألتنى عن الوقت قائلة: «هل تعرف الوقت؟» فأجبتها: «نعم أعرف الوقت»، وهممت بالانصراف ثم استدرت وقلت ضاحكًا: «إن الدقة البالغة فى التعبير تؤدى إلى مثل هذا الموقف فى الأمور الإنسانية، فقد سألتينى عما إذا كنت أعرف الوقت أم لا، فكانت إجابتى على قدر سؤالك. بل إن إجابة أكثر من هذه تُعَدُّ تطفلًا، لذا كان ينبغى عليكِ أن تقولى إن كنت تعرف الوقت، فهل يمكن أن تخبرنى به؟ «وضحكنا ثم افترقنا».

الثمرة الثالثة والخمسون...

البحث عن ميتافيزيقا دون أعباء أخلاقية

ثمة ظاهرة غريبة انتشرت فى الولايات المتحدة؛ وهى زيادة قارئى الطالع والكف (كان آل ريجان لهم قارئة الطالع الخاصة بهم فى البيت الأبيض). كما ظهرت العبادات القديمة الجديدة (مثل عبادة الشمس أو الإيمان بالقدرات الخارقة للهرم وعبادة جايا؛ أى كوكب الأرض) والإيمان بالأطباق الطائرة. ويرجع ذلك إلى أنه رغم تزايد معدلات النسبية وتفشى أخلاقيات السوق **فإن الإنسان يظل بحاجة لإشباع الجانب الإنسانى فيه**. لذلك فلا مفر من الإيمان بما أسميه **«ميتافيزيقا دون أخلاق»**، فهذا يعطيه الشعور الميتافيزيقى الذى يبحث عنه، ولكنه فى الوقت ذاته لا يُحَمِّله أى أعباء أخلاقية، مثل الكسب الحلال وأن تحب لأخيك ما تحب لنفسك.

الثمرة الرابعة والخمسون...

وهم الإحساس بالذنب

ثمة مقولة واهمة تعلمناها عن الحضارة الغربية، أنها حضارة «الإحساس (الجوانى والفردى) بالذنب guilt»، أما حضارتنا فهى حضارة الإحساس

(البرانى والجماعى) «بالخجل أو العار shame». **يريدون أن يشعروننا أن الإنسان الغربى ينضبط من داخله، ولذا فهو أكثر تحضرًا،** أما الذى يتم ردعه اجتماعيًّا من الخارج بشكل دائم، فهو إنسان غير متحضر.

ولكن أسطورة إحساس الفرد بالذنب هذه تبخرت بغتة عام 1977 حين انقطع التيار الكهربائى عن نيويورك بضع ساعات، وبدأ الناس يتحركون كالقطيع ويقومون بنهب كل ما تقع عليه أيديهم دون سبب واضح، بل اشتركت بعض السيدات من الطبقات الثرية البيضاء فى كرنفال السرقة. أخبرت أصدقائى الأمريكان ساعتها أننى شاهدت الليلة السابقة تَبَخُّر إحدى الأساطير الحاكمة والمقولات المرجعية فى حياتنا جميعًا، وعلينا ألا نتحدث عن «الضبط الفردى الجوانى» وإنما عن «الضبط العلمى وربما البوليسى الكهربائى».

الثمرة الخامسة والخمسون...

النموذج المادى يفرز الإمبريالية

* حضارة دفعنا تكاليفها

مثل أى مفكر منبهر بالنموذج الحضارى الغربى الحديث، كنت أَفصل الحضارة الغربية والاستنارة الغربية عن بعض الظواهر السلبية المصاحبة لها، مثل الإمبريالية والنازية والصهيونية والعنصرية. ثم بدأت أرى أن هذه الظواهر جزء لصيق ببنية النموذج الحضارى الغربى الحديث.

لقد بدأت أرى **علاقة العقلانية الغربية بالإمبريالية.** تلك الأيديولوجية التى كانت تعوق التحديث فى بلادنا، وتتعاون مع النظم الفاسدة، وتقوم باستغلال خيرات آسيا وإفريقيا ونهب العالم، تساندها فى ذلك القوة العسكرية والمفاهيم العنصرية مثل «مسئولية الرجل الأبيض تجاه العالم الثالث»، وهى أيديولوجية أبعد ما تكون عن العقلانية (كُشف أخيرًا أن

الجنرال مونتجمرى، «بطل» العلمين، وضع مخططًا لاستعباد إفريقيا وأهلها وتحويلها إلى مصدر للمواد الخام).

وفى تطور أخير، أدرَكَت الإمبريالية التقليدية أن تكلفة المواجهة العسكرية مع شعوب العالم الثالث أصبحت باهظة، كما أن الدخول فى حروب عسكرية «عالمية» يؤدى إلى استنزاف طاقة الدول الكبرى الغربية. ثم وَجَدَت الحل فى أن تقذف بالدول النامية إلى حروب صغيرة تحقق من خلالها أرباحًا عالية من بيع السلاح للطرفين المتنازعين (لا تزال تجارة السلاح أهم تجارة فى عصرنا الحديث، لا تفوقها حتى تجارة المخدرات).

وفى قراءتى لتاريخنا مع الغرب رأيت أنه يأخذ شكل المواجهة العسكرية منذ البداية: ثورة الحرية والإخاء والمساواة ترسل لنا بحملة نابليون التى تحمل المدافع - إحباط محاولة محمد على التحديثية حين تكأكأت عليه كل أوروبا بما فى ذلك حليفته فرنسا - جيوش بريطانيا الديمقراطية تغزو مصر وتهزم أحمد عرابى (ممثل الشعب المصرى) لتناصر الخديوى توفيق (ممثل الاستبداد). وتستمر الحلقة دون توقف حتى يومنا هذا، كما حدث فى تجربة جمال عبد الناصر الوحدوية والتنموية.

اقرأ معى كلام المستشار المالى البريطانى الموجه لطلعت حرب حين أخبره برغبته فى إنشاء بنك مصر: «أستطيع أن أمنع قيام هذا البنك، ولكنى سأوافق على إنشائه لأعطيكم درسًا عمليًا فى الفشل... وكل ما أنصحك به هو أن تشرك معك بعض الأجانب حتى تعطى للمصريين شعورًا بالثقة فى هذا البنك.

*** حضارة حفرت قبرًا يكفى لدفن العالم**

وأقتبس كلمات روچيه جارودى حين يقول:

«كان نمو الغرب وليد نهب ثروات العالم الثالث ونقلها إلى أوروبا وإلى أمريكا الشمالية، ومن ثم فإن الغرب هو الذى جعل ما نسميه العالم الثالث

متخلفًا، وقد حدث ذلك خلال مراحل عدة: إبادة هنود أمريكا بدءًا من القرن السادس عشر - نخاسة العبيد السود التى أصبحت ضرورية لتوفير اليد العاملة - «السيطرة الاستعمارية» على إفريقيا وعلى القسم الأكبر من آسيا لتأمين المواد الخام والاستثمارات ذات الريع الأعظم فى الصناعة وفى التجارة، عن طريق فرض السعر الأدنى على اليد العاملة، والأسعار الأعلى للمنتجات المستوردة فرضًا بالقوة...». «ثم تحول استغلال العالم الثالث إلى شكل جديد بنشأة الشركات المتعددة الجنسيات وتوسعها».

وقد أوجز جارودى إنجاز الحضارة الإمبريالية الغربية فى صورة مجازية رائعة حين وصفها بأنها **«حفرت قبرًا يكفى لدفن العالم»**.

بالإضافة إلى كل هذا لا بد أن نشير إلى عمليات نهب آثار إفريقيا وآسيا، وأخيرًا متاحف العراق، وكيف تغص متاحف البلاد الغربية وميادينها بآثار هذه الحضارات.

بساطة شديدة، أدركتُ أن **«التقدم الغربى» هو ثمرة نهب العالم الثالث، وأن الحداثة الغربية لا يمكن فصلها عن عملية النهبْ هذه**، وأن نهضة الغرب تمت على حساب العالم بأسره. لذلك لم أعد أتحدث عن **«التراكم الرأسمالى»** وإنما عن **«التراكم الإمبريالى»**.

دائمًا أسأل المستعمرين والصهاينة الذى يتحدثون عن تخلف الشرق ويؤكدون أن هذا التخلف هو أحد مبررات الاستعمار وليس نتيجة له: هل لو تقدم الشرق سيفرح الغرب والصهاينة بذلك، أم أن تقدم الشرق سيصيبهم بالهم والغم؟ ألا يعنى تقدم الشرق انكماش رقعة السوق بالنسبة للغرب، وعمالة غير رخيصة، ومواد خام مرتفعة الثمن، ودولة صهيونية محاصَرَة لا تؤدى أى خدمة للغرب؟.

الثمرة السادسة والخمسون...

النموذج المادى يفرز العنصرية والصهيونية

يلاحظ أى عربى مقيم فى الغرب تعاطفه الكامل مع ضحايا النازية من اليهود، ويصاحبه فى الوقت ذاته إنكار كامل للجرم الصهيونى الغربى ضد الفلسطينيين. كما لاحظت أن الغرب فى موقفه من إسرائيل يتبنى خطابًا عقائديًّا؛ فهو يُظهر تفهمًا عميقًا لرغبة اليهود فى العودة «لأرض أجدادهم «أرض الميعاد (بعد غياب دام بضعة آلاف من السنين)، ولكن الغرب نفسه يأخذ موقفًا واقعيًا عمليًّا من الفلسطينيين ولا يتفهم لمَ يصرون على العودة، ويعرض عليهم بضعة ملايين من الدولارات للتخلِّى عن أوطانهم. فالحق ليس فوق القوة، بل إن دارون ونيتشه فوق الجميع.

إن العقل الغربى يُعجَب أيما إعجاب بالصهاينة بسبب بطشهم وقوتهم ومقدرتهم على حل كل الأمور بطريقة عملية جراحية باترة مباشرة. كما يرى هذا العقل أن الصهيونية جزء أصيل وجوهرى داخل التشكيل الحضارى الغربى الحديث، ولذا فهو يعطيها حقوقًا مطلقة ويطلب منا أن نعترف بإسرائيل، لا بسبب الإبادة النازية، ولا بسبب ما تعرض له اليهود من المظالم، وإنما بسبب موازين القوى التى لا تعرف الله أو الإنسان ولا تعترف بهما، فالمعيار الوحيد هو القوة لا الحق أو العقل.

والعنصرية الغربية ليست موجهة ضد العرب وشعوب العالم الثالث وحدهم، وإنما تمتد لتشمل كثيرًا من الأقليات فى الولايات المتحدة، وبخاصة الأمريكيين السود الأفارقة. كان صيف عام 1964 حارًا رطبًا بشكل لا يُطاق ورفضت الحكومة أن ترسل جامعى القمامة والمبيدات الحشرية إلى حى هارلم الذى يقطنه السود، توفيرًا لبضعة آلاف من الدولارات. فحدث الانفجار ونزل الفقراء السود إلى الشوارع يطلبون الحد الأدنى اللازم للحفاظ على

إنسانيتهم، حينئذ شاهدنا فى التليفزيون السيارات وهى تجمع القمامة استجابةً للضغط الشعبى، ثم عمال المبيدات وهم يرشونها، عرفت حينذاك أن نظام القمع الأمريكى أبله وغير عقلانى بالمرة. وقد أخبرنى أصدقائى السود كيف أن الشرطة الأمريكية تسمح لتجار المخدرات ببيع سمومهم فى حرية بالغة داخل أحياء السود حتى تضمن تخديرهم وتحقيق الأمن الاجتماعى!.

أما العنصرية ضد العرب المقيمين داخل الولايات المتحدة فقد مرت بمراحل مختلفة. عندما وصلتُ إلى أمريكا عام 1963، لم يكن هناك استخفاف بالعرب، بل يمكن القول إنه **كان هناك خوف منهم**، ففى أوائل الستينيات كان هناك مشروع قومى عربى، وكان هناك رفض لفكرة الأحلاف العسكرية ورفض لإسرائيل ومقاطعة لها، وكانت هناك حركة الحياد الإيجابى، وكان هناك جمال عبد الناصر. ولكن مع هزيمة عام 1967 بدأ **الكُره يحل محل الخوف**، وبدأت العنصرية الشرسة تظهر ضد العرب، ففى حضارة داروِن ونيتشه لا يوجد مجال للمهزومين. ولذا حينما عدت للولايات المتحدة عام 1975، وبالرغم من انتصار أكتوبر، كان الأمر جد مختلف. بدأت الصورة النمطية للعربى تُظهره زير نساء **وثريًا ينفق أمواله فيما لا يفيد، خبيثًا** لا يمكن الوثوق به، إلى آخر هذه الصفات العنصرية. ثم تبدل الحال تمامًا بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر وسقوط العدو الشيوعى الأحمر، فقد تم استبداله بالعدو الإسلامى الأخضر الذى يتبنى الإرهاب.

الثمرة السابعة والخمسون...

النموذج المادى يفرز الاستهلاكية والإمبريالية النفسية

*** هل جربت أن تنتحر وأنت تشعر بالسعادة؟ لعبة المصباح والفراشة**

لقد قررت الرأسمالية توسيع رقعة السوق لمنتجاتها، لا عن طريق الانتشار الأفقى فى الخارج بتكلفته العسكرية الباهظة (الغزو الخارجى =

الإمبريالية العسكرية) وإنما عن طريق الانتشار الرأسى داخل النفس البشرية ذاتها (الغزو الداخلى = الإمبريالية النفسية)، وذلك بأن تُلقى فى روع الفرد أن ما تعرضه فى السوق من السلع لا يحقق «منفعته» وحسب بل و«سعادته» (أى لذته) أيضًا، فيتوحد الفرد تمامًا بالسلعة ويصبح إنسانًا متسلعًا ذا بعد واحد غارقًا تمامًا فى السلعة والمادة واللذة، وفى حالة غيبوبة إنسانية كاملة.

وتتعامل الإمبريالية النفسية مع الإنسان باعتباره حيوانًا اقتصاديًا جسمانيًا لا يبحث إلا عن منفعته (الاقتصادية) ولذته (الجسدية)، فلا يهدف فى حياته إلا إلى تحقيق المنفعة واللذة، ويرى أن خلاصه يكمن فى ذلك. وإذا كانت «الحاجة أم الاختراع» فى الماضى، ففى إطار الإمبريالية النفسية يصبح «الاختراع هو أبو الحاجة»، ولا بد أن تظهر سلعة جديدة كل يوم. ومن هنا يدخل الإنسان دائرة الإنتاج الآخذة فى الاتساع إلى ما لا نهاية.

وقد نجحت هذه الإمبريالية فى تجنيد كل الطاقات فى مختلف وسائل الإعلام وخاصة قطاع الأفلام الذى يُرَوِّج صورة الإنسان الذى يعيش فى اللحظة الآنية، يساعده قطاع الأزياء الذى يُغيِّر «أذواق» الإناث والذكور والأطفال كل عام مرتين. ومن أهم القطاعات الأخرى، ولعلها أهمها قاطبة، قطاع الإعلانات التجارية التى لا يكف التليفزيون عن بثها.

وكلما نظرت حولك فى الولايات المتحدة، وجدت كلمة «سيل sale» أى «تخفيض» أو «أوكازيون» تطاردك أينما ذهبت فى المحلات والشوارع والجرائد والمكتبات ومنزلك، تحاول أن تقنعك بأن أمامك فرصة ذهبية لأن «تخرب بيت» صاحب المحل المسكين، المضطر إلى تصفية بضاعته.

حدث لى موقف مع شركات الطيران. كنت أرتاح كثيرًا للسفر بالدرجة السياحية إلى أن رأيت إعلانًا لإحدى شركات الطيران يتحدث عن مدى

اتساع كراسى الدرجة الأولى، ويُظهر صورة راكب ممدد على كرسيه الوثير، مقارنةً براكب الدرجة السياحية، الذى يتقلب من الألم فى كرسيه ويلكزه جاره عن غير قصد. منذ تلك اللحظة أصبح السفر بالدرجة السياحية مسألة مؤلمة بالنسبة لى. هذا هو حالى أنا المدرك لما حولى، الواعى به تمام الوعى، فما بالك بالمواطن الأمريكى التلقائى الطيب؟.

*** ليست الشطارة أن تبيع للإنسان ما يحتاجه، بل أن تبيع له ما لا يحتاجه!**

يرسم صديقى **كافين رايلى** صورة واقعية ومثيرة لهذه الهجمة الإمبريالية النفسية على الإنسان الفرد فى كتابه «**الغرب والعالم**»:

«إن قدرة العلاقات العامة والإعلان على التلاعب بالآراء والتأثير فى قرار الإنسان مع التظاهر بتوسيع فرصة الاختيار أمامه هى قدرة هائلة (أى خداع وأى سرقة). ولنتأمل هذا المثل: أرادت شركة الدخان الأمريكية زيادة مبيعاتها عن طريق حث النساء على الجهر بالتدخين، فقامت بناءً على مشورة محلل نفسانى بالإعداد لموكب تسير فيه المدخنات فى عيد الفصح فى شوارع نيويورك عام 1929، وأرسلت سكرتيرته تلغرافات لثلاثين من الفتيات من عِلْية القوم فى المدينة، وهذا نصه:

(من أجل المساواة بين الجنسين، قررت مع غيرى من الشابات أن نوقد مشعلًا آخر للحرية، بتدخين السجائر فى أثناء مسيرتنا بالشارع الخامس يوم عيد الفصح).

وقد أثار الحدث ضجة قومية فى أرجاء البلاد واستجابت النساء ودخَّنَّ جهارًا، وأثبتت الشركة أن العادات القديمة المتأصلة يمكن القضاء عليها عن طريق إصدار نداء مثير، تنشره شبكة من وسائل الإعلام.

ولما كان المطلوب هو تدخين نوع معين من السجائر، وهو «لكى سترايك» ذو الغلاف الأخضر، كان لا بد من إشعال «الثورة الخضراء»! فقام مشجع مجهول بإرسال مبلغ 25000 دولار لأهم منظم للحفلات الراقصة فى المجتمع الراقى لينظم حفلًا أخضر. وأقام أحد منتجى الحرير مأدبة لمحررى الموضة، كانت قائمة الطعام فيها خضراء وكل الطعام أخضر، وقام أحد علماء النفس فحدثهم عن تأثير اللون الأخضر. ثم حاضرهم رئيس قسم الفن بكلية هنتر للفنون عن «اللون الأخضر» فى «أعمال مشاهير الفنانين».

وبشرت الصحف «بخريف أخضر» و«شتاء أخضر» ليكون اللون الأخضر هو سيد الألوان. فى الملابس وفى الإكسسوارات وحتى ديكورات المنازل والأثاث. وتم إغراء رئيس حفلة الموضة الخضراء بالسفر إلى فرنسا ليضمن تعاون صناعة الموضة الفرنسية والحكومة الفرنسية.

ولما اشتدت الحملة ركب سائر المنتجين الموجة، فأعلن أحدهم عن طلاء أظافر جديد أخضر زمردى، وأدخل آخر الجوارب الخضراء. وأخيرًا انضم المنافسون إلى الحملة، فعرضت سجائر «كامل Camel» فتاة ترتدى زيًا أخضر مقلمًا بالأحمر، وهى نفس ألوان علبة سجائر لكى سترايك. وهكذا اعترف المنافسون ذاتهم بأن لكى سترايك هى قمة الموضة».

إن الإعلانات - كما نعلم كلنا - كذب فى كذب، ومع ذلك نتأثر بها ويتحدد سلوكنا من خلالها. ولكن ماذا أفعل لو كنت فقيرًا (وقد مَلَكَت السيارة التى فى الإعلان عقلى وقلبى)؟ لا داعى للقلق فصديقك ذو الابتسامة العريضة فى بنك نيويورك المسئول عن القروض سيساعدك، كل ما عليك أن تفعله هو أن توقع على ورقة بيضاء صغيرة فتحصل على مفتاح السيارة والسعادة. وإن دققت النظر فى هذه الورقة البيضاء الصغيرة

اكتشفت أن عليك أن ترهن منزلك وأولادك وزوجتك وذاتك وعرضك وسيارتك فى مقابل هذا! كما أن سعر الفائدة ليس 4٪ كما تقول اللافتة العريضة؛ لأنه بالحساب المركب يصل إلى أضعاف أضعاف ذلك. فإن انتهيت من طوفان السيارات اكتسحك طوفان السلع الأخرى... معجون أسنان، صابون للأطباق، أنواع جذابة من المكرونة والعطور والمياه الغازية والملابس الداخلية والأحذية والشيكولاته والمنشطات الحيوية والمهدئات وأدوات التجميل والتخسيس والأهداب والنهود الصناعية.

كل هذا الركام يمكن أن يزول لو توقف الإنسان للحظة واحدة ليتساءل عن جدوى كل هذا، ولكنه بالطبع لا يفعل لأنه إنسان ناجح، يتعامل مع الواقع (كما أخبره الإعلان)، فالامبريالية النفسية لا تغزو الإنسان من الخارج وحسب، بل تغزوه وتقمع إنسانيته من الداخل.

*** السوبرمان والمرأة اللعوب**

يتمثل الغزو الداخلى للإنسان فى مجالات عديدة، أهمها الجنس. فصورة الإنسان الآن فى الولايات المتحدة خليط من الإنسان الاقتصادى والجسمانى، ولذا نجد أن الإعلانات التليفزيونية - سواء فى الولايات المتحدة أو فى مصر - توظف الجنس بلا حياء فى بيع السلع. انظر إلى هذا الإعلان: تسير السيارة ثم تخرج منها فتاة نصف عارية رائعة الحسن وتطلب منك ألا تتردد فى شرائها: السيارة/ الفتاة، وقد أصبحت إعلانات بنتون وكالفين كلاين من أهم الرموز الجنسية فى المجتمع الأمريكى. ولو وجد أصحاب هذه الإعلانات أن بعض أسفار الإنجيل قد تساعدهم بشكل أكبر على البيع لما ترددوا فى التخلى عن توظيف الجنس ولوظفوا الإنجيل بدلًا من ذلك.

وقد نجم عن هذا انتشار **الإباحية**، وهى إباحية علمية من نوع جديد، تعتبر أن الجنس طاقة محايدة يمكن استخدامها فى التحكم فى الإنسان. انظر مثلًا إلى كريم الشعر هذا، إن سحره لا يقاوم، إن استخدمته وقعت كل الفاتنات فى شباكك. وأنت يا سيدتى إذا شربت هذا الدواء، فإنكِ ستتمتعين بجاذبية جنسية بعد شربه. وأنت أيها العجوز الكركوب لم لا ترتدى باروكة أو تصبغ شعرك أو تفرد جلدك أو تقصر بنطلونك أو تطوله، اختر ما تشاء من السلع وكله فى سبيل الحيوية والبعث الجنسى، ولكنه بعث جنسى لا علاقة له بالحياة أو الحب أو الزواج أو الطلاق أو حتى إبليس، **فهو بعث جنسى يدور فى فراغ لا نهائى هدفه الاستهلاك.**

*** حضارة السهل: بلاش عقد Take it easy**

إن الإمبريالية النفسية هى حضارة السهل، بدلًا من المركب والجميل. وتحت شعار «فلتكن بسيطًا» أو «لتكن طبيعيًّا» (يقابلها فى حضارتنا الآن حضارة «بلاش عُقد») يتم إنتاج مجموعة من السلع البسيطة (مثل الهامبورجر والديسكو والبنطلون الجينز). وقد أُطلق على هذا النمط الإنتاجى/ الاستهلاكى البسيط الذى أفرزته الإمبريالية النفسية اصطلاح **«ضد الحضارة anti-culture»**، فهو يهدد كل الأشكال الحضارية وكل الخصوصيات، بما فى ذلك الحضارة والخصوصية الأمريكية التى أنتجته (فالحضارة الأمريكية تعرف تقاليد حضارية محلية ثرية مختلفة تبعًا لاختلاف الهجرات: حضارة الكريول فى لويزيانا - حضارة الساحل الشرقى - حضارة الوسط الغربى الأمريكى... إلخ). إن هذه السلع النمطية **تحول الإنسان الفرد إلى كائن نمطى بلا أبعاد** وتفقده خصوصيته وتراثه، بحيث يمكن توجيهه بسهولة كما يمكن التنبؤ بسلوكه واحتياجاته، ولذا فهى حضارة معادية للحضارة وللإنسان.

الثمرة الثامنة والخمسون...

النموذج المادى يفرز الديمقراطية ثم يفسدها...

* الديمقراطية كما ينبغى أن تكون

إن الديمقراطية نظام سياسى يوفر فرصة المشاركة لكل أعضاء المجتمع الذين لهم حق التصويت فى اتخاذ القرارات التى تؤثر فى حياتهم الفردية والجماعية على السواء. وتستمد الحكومة شرعيتها من إرادة غالبية أعضاء المجتمع.

ومن الشروط التى ينبغى توافرها فى الديمقراطية الحقيقية؛ الانتخابات الحرة وسرية التصويت. وتقوم الديمقراطية على المنافسة الحرة بين المرشحين، وعلى توازن المصالح بين الجماعات المتعارضة. وتكفل الديمقراطية المساواة أمام القانون، وحرية الكلمة والتعبير والنشر والاجتماع.

* عوائق التطبيق الديمقراطى السليم:

نبهتنى تجربتى إلى أن نموذج الديمقراطية الذى يُطبق بالفعل فى الولايات المتحدة يختلف بشكل جوهرى عن المثل الأعلى المطروح، وذلك للمعوقات الآتية:

1- مواطن طيب ساذج: ينتخب المواطن الأمريكى أعضاء الكونجرس ومجلس الشيوخ ورئيس الجمهورية التى تريد أن تحكم العالم، ولكن هذا المواطن الطيب الساذج لا يعرف شيئًا عن علاقة الاقتصاد بالسياسة وعن آليات الاستغلال الاقتصادى. فالحزبان الرئيسيان (الديمقراطى والجمهورى) لا يقدمان له برامج توعيه سياسية أو اقتصادية، ويكتفيان بتقديم برامج متناثرة لا يربط أجزاءها رابط، حتى تُرضى معظم الأذواق، وتركز على تطلعات المواطن الأمريكى

المادية والاقتصادية والجسمانية. ويتولى الأعلام الترفيه عنه وتفريغه من الداخل، وحصره فى عالم الحواس والسلع والمادة والأشياء.

2- **مواطن يجهل التاريخ والجغرافيا**: عندما كانت تُجرى لى عملية زرع النخاع فى الولايات المتحدة، حدثت المواجهة النووية الخطيرة بين الهند وباكستان، فسألت كبيرة الممرضات (وهى فى منزلة الطبيب وتتلقى تعليمًا جامعيًا متميزًا) عن رأيها فى هذه المواجهة؛ ففوجئت بأنها لا تعرف شيئًا عنها، وبررت ذلك بقولها إن الهند وباكستان بعيدتان عن الولايات المتحدة!.

كما أخبرنى أحد الصحفيين الذين ذهبوا إلى العراق أن الجنود الأمريكيين لا يعرفون أين هم، ويسألون أين القاهرة؟! وبعضهم كان يتعجب من عدم وجود محلات ماكدونالدز ولا بنات (فتيات) يمكنهم اصطحابهن. وكثير من أعضاء الكونجرس يخلطون بين العراق وإيران Iran وIraq بسبب تقارب الهجاء والنطق بين الكلمتين بالإنجليزية، وبسبب جهلهم الشديد بالجغرافيا والتاريخ.

3- **مواطن يصدق الأكاذيب**: فى حرب العراق دفعت حكومات بريطانيا وأسبانيا والولايات المتحدة بقواتها إلى هناك للبحث عن أسلحة الدمار الشامل استنادًا إلى معلومات مختلقة أقنعت بها مواطنيها، ظهر بعد ذلك كذبها.

4- **ديمقراطية الأثرياء**: تتكلف المعركة الانتخابية فى الدول الغربية مئات الملايين من الدولارات. ولذا فالمرشح الثرى يمكنه أن يقوم بحملة انتخابية مستمرة وفعالة، أما المرشح الذى لا يدبر مثل هذه الاعتمادات فمصيره التهميش الإعلامى. لذلك فإن أصحاب المصالح وكبار الرأسماليين وجماعات الضغط يمكنهم أن يؤثروا فى نتائج الانتخابات لا بسبب برامجهم السياسية وإنما بسبب ثرواتهم.

5- **ديمقراطية عد الأصابع (ديمقراطية لا تحكمها قيم):**

لعل من أهم العوائق التى تواجهها الديمقراطية فى التطبيق هى مشكلة المرجعية النهائية، فقد وجدت أن 51٪ من الأصوات هو الذى يقرر القانون والحقيقة والقيمة، أى أن عدد الأصابع المرفوعة هو المرجعية النهائية، فهى ديمقراطية بلا مرجعية فلسفية أو أخلاقية أو معرفية، ويمكن تسميتها «الديمقراطية المنفصلة عن القيمة value-free democracy.» (تمامًا كما يتحدثون عن العلم المنفصل عن القيمة، وحرية التعبير المطلقة المنفصلة عن القيمة، فكل الأمور نسبية، أليس كذلك؟!).

لقد وصل هتلر إلى الحكم من خلال القنوات الشرعية الديمقراطية، بعد أن حاز على رضا وإعجاب وحماس الشعب الألمانى الذى وافق على تصفية الأقليات العرقية والدينية غير المرغوب فيها (مثل الغجر، والمعوقين، واليهود) باعتبارها عناصر بشرية تستهلك ولا تُنتج. كما وافقت الشعوب الغربية بحماس بالغ على إرسال جيوشها إلى آسيا وأفريقيا، فأبادت وسَخَّرت ونهبت. تمامًا كما توافق الأغلبية الساحقة من أعضاء التجمع الصهيونى على عمليات البطش والذبح، التى تقوم بها القوات الإسرائيلية. وتشبه ديمقراطية عد الأصابع عصابات المافيا، حيث يتم كل شىء من خلال إجراءات ديمقراطية دقيقة لا غبار عليها، ولكن مرجعيتها النهائية هى الحق الذى تعطيه هذه العصابة لنفسها فى سلب الآخرين حقوقهم وتقويض إنسانيتهم.

وفى إطار الديمقراطية المنفصلة عن القيمة، رشحت إحدى نجوم البورنو (الأفلام الإباحية) نفسها لعضوية البرلمان الإيطالى. وكان برنامجها الانتخابى يتلخص فى خلع ملابسها قطعة قطعة أمام السادة الناخبين. ويبدو أن هذا البرنامج الانتخابى له فعالية فائقة فى بلد يتمتع سكانه بدفء المشاعر مثل إيطاليا، إذ نجحت السيدة الفاضلة نجمة البورنو فى الانتخابات!.

*** نحو ديمقراطية حقيقية:**

من أجل تحقيق ديمقراطية حقيقية وتلافى السلبيات التى تهمشها، يجب:

1- أن نعيد تعريف الديمقراطية، وبدلًا من القول بأن الديمقراطية هى صوت واحد لكل مواطن «one man, one vote»، يجب أن نُعَرِّفها **بأنها نظام سياسى يعطى صوتًا واحدًا لكل مواطن شريطة توفير المعلومات الكاملة له.**

2- **أن تدار المعركة الانتخابية بطريقة ديمقراطية حقيقية،** بحيث تُتاح مساحة زمنية متساوية فى وسائل الإعلام لكل من المرشحين. ويجب أن يوضع سقفًا عامًا حقيقيًّا لما يمكن للمرشح الواحد أن ينفقه، سواء فى شراء الإعلانات فى التليفزيون أو استئجار مستشارين لإدارة حملته الانتخابية.

3- زيادة فاعلية وقوة **مؤسسات المجتمع المدنى** والنقابات وكل المؤسسات والتنظيمات غير الحكومية (التى تخشاها الدولة المركزية)، والتى تعبر عن مصالح وطموحات الجماعات المختلفة فى الوطن الواحد.

4- التأكيد على أن **الديمقراطية ليست رأى الأغلبية وحسب،** إذ يجب أن يكون هناك ضوابط لحفظ الحقوق المدنية والدينية والثقافية **لأعضاء الجماعات** العرقية والدينية المختلفة.

5- اتخاذ الخطوات اللازمة حتى لا تتحول **المؤسسة العسكرية** إلى جماعة ضغط خفية تتحكم فى سياسات الدولة بل وفى كل شىء.

6- وضع الضوابط الكفيلة بكبح جماح **الرأسمالية المتوحشة** والشركات الضخمة لتحقيق المصالح الاجتماعية الإنسانية لكل أعضاء المجتمع.

7- والأهم من هذا كله، أن نؤكد على أن مرجعية النظم الديمقراطية يجب أن تكون القيم الإنسانية العامة غير الخاضعة للتصويت وعد الأصابع، والمتمثلة فى الإعلان الدولى لحقوق الإنسان، وفى ميثاق هيئة الأمم المتحدة، والمواثيق الدولية المختلفة مثل اتفاقية جنيف. كما يجب عدم التدخل فى شئون الدول الأخرى إلا من خلال قرارات من الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة (وليس مجلس الأمن الذى تسيطر عليه الولايات المتحدة بحق الفيتو).

إن الانتقادات السابقة والمقترحات المطروحة لا تعنى رفض الديمقراطية، فهناك من المفاهيم الهامة ما رسخته بالفعل، ولا بد من الاستفادة منها ومحاولة تطبيقها، مثل تعدد الأحزاب والفصل بين السلطات الثلاثة (التشريعية والتنفيذية والقضائية) ومساءلة السلطة التنفيذية على يد السلطة التشريعية.

الثمرة التاسعة والخمسون...

النموذج المادى يفرز السُعار الجنسى...

*** خدعـــونا**

كانت إحدى الصور التقليدية الشائعة فى عقولنا أن الجنس طاقة مادية، إن فُرِّغت يصبح الفرد عاديًا وطبيعيًا وسويًا، أما إن كُبتت فإنها تصبح قوة مدمرة. لذا كان من المفهوم أن ينشغل الشرقيون بالجنس، فهم مكبوتون قُمعت رغباتهم الجنسية فى طفولتهم ومراهقتهم، مما أدَّى إلى تشوههم النفسى الكامل، وتحولوا إلى مراهقين أزليين. كما تعلمنا أيضًا أن الأمور مختلفة تمامًا فى الغرب، فهم يتصرفون بشكل طبيعى ويُصَرِّفون الطاقة الجنسية بلا قمع ولا كبت.

ولكن حينما وصلت إلى الولايات المتحدة وجدت أن التصور البسيط الذى آمنت به لا يُفسِّر الأمور، إذ لاحظت **إقبال الأمريكيين النهم وانشغالهم المتطرف (وأحيانًا المَرَضى) بالجنس**، إلى درجة انتشار حوادث الاغتصاب بالرغم من أن مجال الإشباع الجنسى متاح أمامهم بشكل ديمقراطى مذهل (وهو ماسميته فيما بعد «**ديمقراطية اللذة**»). الأمر الذى كان يحيرنى كثيرًا فى بادئ الأمر.

وتساءلت: كيف يمكن أن ننظر إلى هذا الهوس الجنسى بحُسبانه تعبيرًا طبيعيًّا عن رغبة جنسية طبيعية؟ بل إن بعض الناس منهم يُمارس رغباته الجنسية كإنسان مدمن، **لا للخمر وإنما للجنس sexaholic** على وزن alcoholic فيمارسه بشراهة ولكن دون متعة حقيقية، ومن المعروف أن بعض مدمنى الجنس يودون التوقف ولكنهم لا يملكون من أمرهم شيئًا، شأنهم فى هذا شأن مدمن الخمر الذى يمقت ما يتعاطاه ولا يملك منه فكاكًا.

*** ليتهم اعتبرونا حيوانات**

ولتفسير هذا التناقض بدأت أتأمل وأتساءل: لعل الارتواء الجنسى عند الإنسان مرتبط بعناصر مادية وأيضًا غير مادية (بخلاف الحيوان)، ولعل **هذه العناصر غير المادية ليست مجرد قشرة وإنما من صميم الإشباع الجنسى عند الإنسان**. ولعل الجوع الذى أشاهده فى الولايات المتحدة والذى ليس له أى تفسير مباشر يعود إلى «رؤيتهم» المادية، فهم **ينظرون للجنس كما لو كان شيئًا طبيعيًّا ماديًّا**؛ مسألة غدد وعضلات وحسب، لا تختلف عن أى عملية بيولوجية أخرى مثل تناول الطعام.

ولعل هذه **المحاولة لتطبيع الجنس** تفسر رغبتهم العارمة فى **ممارسته فى العلن**، بلا أى إحساس بالحرج أو الخصوصية أو الفردية، ورغبتهم فى أن

يصبح الجنس جزءًا من الحياة العامة، وقد يُفسِّر هذا إصرار الشذاذ جنسيًا على علنية ممارساتهم وضرورة تطبيعها وتقنينها. وقد تُفسِّر هذه العلنية المرض الغريب الذى يسَّمى «الخوف من الحميمية intimacy of fear»، فحينما يعتاد البعض ممارسة الجنس فى إطار غير رومانسى وعلنى (كأن يضاجع رفيقته على عجل فى فندق بجوار محل عمله فى أثناء الساعة المخصصة للغداء أو فى المقعد الخلفى للسيارة أو فى حديقة) تصبح هذه الظروف شرطًا لأدائه الجنسى، ويفاجأ هذا الشخص بأنه غير قادر على الأداء داخل المنزل مع زوجته تحت ظروف رومانسية مريحة لأنه لا يستجيب جنسيًا إلا تحت ظروف تدعو للسرعة والتوتر وفى رقعة الحياة العامة!.

إن الصورة «المثالية» التى تُعبر عن نظرة الغرب للجنس هى صورة چيمس بوند حين يحضر ليقبض على إحدى الجميلات، فيكتشف أنه وصل قبل موعده فيقرر أن يضاجعها لتزجية وقت الفراغ، وفى أثناء ذلك ينظر إلى ساعته ويكتشف أن الوقت قد حان، فيأخذ الكلبشات من جيبه ويضعها على يديها ويرحل بها. إن الأفلام ووسائل الإعلام الأمريكية تصور الإنسان كما لو كان إنسانًا جسمانيًا، يعيش فى جسده (المادى) وحسب، تمامًا مثلما يصوره دعاة السوق الحرة إنسانًا اقتصاديًا تحركه الدوافع الاقتصادية (المادية) وحسب.

*** الجنس كما نفهمه وكما يفهمونه**

لم يدرك كثير من الأمريكيين أن الجنس مسألة إنسانية مركبة، خاصة وأنها مرتبطة برؤية الإنسان للكون وهويته الفردية. وعدم إدراكهم لهذه الحقيقة البسيطة العميقة، هو أحد أسباب عدم الارتواء الجنسى، فهم يمارسون الجنس فى إطار مادى نتيجة لتبسيط الإنسان واختزال دوافعه، ويترك ذلك كيانهم الإنسانى بلا إشباع. أو لعلهم أدركوا إنسانية الجنس على المستوى

الفردى، لكن مؤسسات الإعلام التى تبحث عن الربح تشيع صورة الجنس السهل المباشر، الذى لا تسبقه مقدمات، ولا توجد بعده أى توابع: أطفال وعلاقات اجتماعية وتغير فى الرؤية.

لا شك أن هناك علاقة بين إنسانية الإنسان وبين تصاعد رغبته الجنسية. فكلما ضَمُر شعوره بإنسانيته، ازداد السُعار الجنسى كمحاولة لتعويض الإنسان عن اختفاء عالم الأحلام، إذ إن عالم الجنس هو البديل المادى والمباشر للمدينة الفاضلة. وكلما ازداد العالم نسبية وتوارى المطلق، ازداد السُعار الجنسى أيضًا، إذ إن الجنس يزود الإنسان بمركز ومطلق مؤقتين فى عالمه النسبى الذى لا مركز له ولا مطلقات فيه. إنه ميتافيزيقا من لا ميتافيزيقا له، أو ميتافيزيقا من لا يود أن يحمل أى أعباء إنسانية أو أخلاقية.

وقد وجدت أيضًا أن عدم إحساس الأمريكى بالطمأنينة يجعله يحاول دائمًا أن يصل إلى بعض اليقين، ويحاول أن يأتنس بالغير كى يتغلب على اغترابه وأن يحقق ذاته. ولكنه فى الوقت نفسه يخاف من الارتباط الدائم بالآخر، ففيه نوع من الثبات وهذا أخشى ما يخشاه، لذلك وجد ضالته فى الجنس العابر، فمن خلاله يمكنه أن يصل إلى اليقين والائتناس المؤقتين (فالعلاقة الجنسية علاقة أكيدة يمكنه أن يدركها بحواسه الخمس فتُدخل شيئًا من الطمأنينة إلى قلبه) ولكنها لا تضطره فى الوقت نفسه للارتباط بالآخر.

*** الجنس بين التدوير والتبديد**

ويرتبط الجنس فى الولايات المتحدة بالسُعار الاستهلاكى. فالأمريكى الذى يعيش فى حضارة الفوارغ disposables وحضارة التغليف packaging لا يعرف فكرة التدوير Recycling. لذلك فهو لا يعرف كيفية الحفاظ على

العلاقات الإنسانية بدلًا من تبديدها، ولا يعرف كيفية استثمار طاقته الجنسية بطريقة رشيدة من منظور إنساني. ولذا نجد الأمريكي غير راض عما في يده، دائم البحث عن الجديد وعن آخر التقاليع، يغيِّر مسكنه وجيرانه وأصدقاءه مرة كل خمسة أعوام، ويستمع كل شهر (وربما كل أسبوع) إلى أغنية جديدة، ويحاول أن يُغيِّر سيارته كلما سنحت له الفرصة، وهو يُغيِّر رفيقته مثلما يغيِّر كل شيء آخر (وهي أيضًا تفعل الشيء نفسه) حتى يبدأ من جديد. ولعل انتماء الأمريكي إلى مجتمع استيطاني يعمق من هذا الاتجاه، فالمجتمعات الاستيطانية تنكر التاريخ، وكما بدأ المجتمع من نقطة الصفر اللا تاريخية، يحاول الفرد أن يفعل الشيء نفسه.

*** وداعًا للأسرة**

كل هذا يفصل الجنس عن مضمونه الاجتماعي والإنساني المركب ليصبح ترجمة عملية لمبدأ السعادة واللذة. إن هذا الإنسان ينعزل عن تراثه وماضيه، بل وعن وجوده الإنساني المركب، فيعيش في الجسد يبحث عن المتعة المباشرة التي لا علاقة لها بالخير أو بالشر. وبالنسبة لمثل هذا الإنسان المتمركز حول لذته تصبح الأسرة أمرًا غير مهم بل تصبح عبئًا. فكلما فتحت التليفزيون الأمريكي تجد امرأة نصف عارية تبيع لك شيئًا ما. وهذا يُصَعِّد من توقعات الرجل الأمريكي بالنسبة للجنس، فيطلب إلى زوجته أن تكون إحدى ملكات الإغراء (ويحاول هو جاهدًا أن يصبح أحد ملوك الإغراء) مما يصيبه بالإحباط وعدم الاطمئنان هو وزوجته، وتساهم شركات التجميل في تصعيد هذا الجانب، فتزيد من توقعات الذكور الجنسية مما يضطر الإناث لاستهلاك المزيد من مستحضرات التجميل.

هذا إلى جانب أن الباحث عن اللذة هو إنسان فرد مكتفٍ بذاته، لا

يطيق أى حدود أو قيود أو مسئولية، فهو يود تحقيق رغباته فى التو (الآن وهنا)، خاصةً وأن هذا الفرد يعيش فى مجتمع نفعى مادى، لا يعرف المثاليات التى تساعده على تجاوز ذاته الضيقة. وفى تصورى أنه لا يمكن إرجاء إشباع الرغبات إلا من خلال الإيمان بمَثَل أعلى يتجاوز حدود الفرد وحيزه (كالوعد بالجنة أو الدفاع عن الوطن).

إن مثل هذا الفرد المكتفى بذاته لا يمكنه أن يقبل مؤسسة الأسرة، فهى تُلقى على كاهله (كأب وكأم) مسئوليات اجتماعية شتى، ولذا تضمُر مؤسسة الأسرة تمامًا. ولهذا يزداد العزوف عن الإنجاب والزواج مع ازدياد الإحساس بأن الأسرة عبء لا يُطاق وأن مسئولية تنشئة الأطفال تفوق طاقة البشر.

*** الشذوذ: الطامة الكبرى:**

لعل هذا البحث عن اللذة الجنسية الخالصة هو الذى يفسر انتشار الشذوذ الجنسى فى المجتمعات الرأسمالية الغربية. تبعًا لإحصاء عام 1972 يوجد فى الولايات المتحدة ما يزيد على أربعة ملايين من الشواذ، وتوجد لهم بعض الكنائس التى يديرها وعاظ شاذون جنسيًا مثل كنيسة لوس أنجلوس، كما أنشئ معبد يهودى ومدرسة تلمودية لتخريج الشواذ.

وأعتقد أن الشذوذ هو النتيجة المنطقية لمبدأ اللذة النفعى، فالإنسان الشاذ يمكنه أن ينشئ علاقة مع شخص آخر من جنسه ليتغلب على اغترابه بشكل مؤقت دون أن يدخل فى علاقات ذات آثار اجتماعية تضطره للدخول فى علاقة حقيقية مع الآخرين (كالزواج).

وحينما كنت فى نيويورك لاحظت أن الشاذات من النساء أصبح لهن

وجود وظهور ملحوظ، وهذا «التطور» أو «التقدم» يعود لحركة تحرير المرأة (التى أسميها حركة التمركز حول الأنثى) التى ينادى بعض زعمائها بأن المرأة الشاذة جنسيًا والتى استغنت كلية عن الرجال هى أكثر النساء تحررًا، وهى المرأة التى حققت المساواة البيولوجية الكاملة مع الرجال، وحققت بذلك الاكتفاء الذاتى!.

ويبدو أن مع الإغراق فى المادية أصبح الفرد غير قادر على الاستجابة التلقائية للدوافع الغريزية العادية، ولذا فهو يحتاج إلى مؤثرات عنيفة وأحيانًا شاذة حتى يمكنه الاستجابة. وقد يفسر هذا تصاعد معدلات العنف فى الحياة وفى الأفلام، كما يفسر أيضًا ارتباط الجنس بالعنف.

*** الثورة الجنسية والتحرر الجنسى:**

حاولت حركة الهيبى أن تجعل الثورة على المجتمع وعلى إنسانيته ثورة جنسية، وذلك بأن تجعل التحرر الحقيقى تحررًا جنسيًا كاملًا. ولكن المفارقة الكبرى هى أن تَحَقُّقَ هذه الرؤية يعنى أن الإنسان يصبح مسلوب الإرادة لا حول له ولا قوة، يسير حسبما توجهه غرائزه.

وتعد مسرحية «هير Hair» (أى شَعْر) الغنائية، التى شاهدتها فى نيويورك فى منتصف الستينيات، علامة أساسية فى تاريخ الثورة الجنسية، فهى تحتفى بانتصار إله الجنس وهيمنته الكاملة على الإنسان، إذ يصبح هو المحرك الأساسى للفرد فيفقد حريته ومقدرته على الاختيار.

ويُعتبر مايكل جاكسون (الذى لا هو بالذكر ولا هو بالأنثى) ممثل النسبية الكاملة، وعدم الانتماء لأى شىء؛ التجسيد الحق للتفكيكية (رد الإنسان لماديته).

يمكننا ما سبق من أن نفهم الحديث المتكرر والممل عن الجندر gender، أي النوع، (وليس الجنس «sex») بحُسبان أن الفروق الجسدية والتشريحية بين الرجال والنساء ليست أساسية، وأن **دور كل منهما (كذكر أو أنثى) ليس مسألة مرتبطة من قريب أو بعيد بالخصائص الجسدية**، وإنما هي مسألة اختيار شخصى. فأنت تستطيع أن تتصرف فى المجتمع كذكر أو كأنثى تبعًا لاختيارك، بغض النظر عن جنسك، وهذه مفارقة تستحق التسجيل: **فى الحضارة التى يصل فيها الاهتمام بالجنس والتركيز على الأعضاء التناسلية حد الهوس، ثمة محاولة إلى تحييده تمامًا و «إلغائه».**

ولعل تحرر الجنس من الإطار الاجتماعى وتحييده وتطبيعه يتضح فى ظهور «**أشكال بديلة من الأسرة**» (حاول مؤتمر السكان فى القاهرة إسباغ الشرعية عليها) مثل أسرة تتكون من رجلين أو امرأتين ويحق لهما الآن تبنى الأطفال، بل «إنجابهما» عن طريق عمليات التلقيح الصناعى. ولعل هذه التطورات تؤدى ببعض المنادين بمثل هذه الحرية إلى التريث قليلًا فى دعوتهم إلى الحرية، بل عليهم أن ينظروا إلى التطورات اللاحقة التى بدأت تظهر فى مجتمعاتنا بالفعل (انظر إلى التليفزيون المصرى وإعلاناته الراقصة التى لا تنتهى، وتوظيف الجنس فى بيع كل شىء ابتداءً من كريمات الجلد وانتهاءً بالمبيدات الحشرية. وانظر إلى الفيديو كليبس ومحطاتها المليون التى تعمل 48 ساعة كل يوم حتى **يترسخ فى أذهان الجميع أن الجسد هو المرجعية النهائية وهو الذى يسبغ معنى على حياتنا!**).

ويرى البعض أن «**الإباحية**» قضية فكرية إبداعية، وبالتالى لا يمكن إخضاعها لأى رقابة، ويمكن قبول هذا المنطق لو توافر فى كاتب الأدب الإباحى وكذلك مخرجه السينمائى شرطان: ألا يحقق ربحًا ماليًا من أدبه،

وأن يثبت لنا هذا الكاتب أنه يمارس فى حياته الخاصة فعليا ما يدعو إليه نظريًّا، لنتأكد من إيمانه بما يقول. ولا أعرف أديبًا إباحيًّا واحدًا يتوافر فيه هذان الشرطان. بل أننى قرأت عن منتجة أمريكية تخصصت فى إنتاج المسلسلات التليفزيونية التى تتميز بوجود شخصيات مساحقة فيها، وهذه السيدة لا تؤمن شخصيًّا بالشذوذ ولا تمارسه فى حياتها، ولكنها وجدت هذا طريقًا سهلًا للربح!.

ويمكن تلخيص الثورة الجنسية بأن الرغبات الجنسية قد انفلتت من عقالها، وبدلًا من أن تحرر الإنسان حيدته ثم استعبدته. فانتشرت الإباحية وتم «تطبيعها» بشكل لم يعرفه المجتمع الأمريكى من قبل. فكأن الهدف من الإباحية لم يكن إرضاء الشهوات وإنما اختزال الإنسان إلى جسد، فالتعرية تبدأ بالجسد وتنتهى بتعرية الإنسان من تركيبيته وإنسانيته. لكل هذا يُنظر للجنس بطريقة محايدة للغاية وكأنه نشاط بيولوجى منفصل عن القيمة، لذلك يُشار الآن إلى البغاء بحُسبانه نشاطًا اقتصاديًّا محايدًا، مجرد عمل عضلى لا يختلف عن غيره من الأعمال، ولذا تُسمَّى البغى الآن فى بعض الأوساط «عاملة جنس sex worker».

كنت أحاول أن أشرح هذه القضية لبعض الفقهاء ممن كانوا يتحدثون عن «الزنا» فى الغرب، وكأن الغرب لا يزال يدور داخل إطار الحلال والحرام. فكنت أقول لهم: فى مجتمعاتنا إن اجتمع رجل وامرأة كان الشيطان ثالثهما. المشكلة فى الغرب أن الشيطان لا يحضر ما لأن المسألة أصبحت طبيعية ومحايدة بدون أى إحساس بالذنب إلى درجة أنها أصبحت قضية إجرائية محضة: أين؟ متى؟ إلخ. وكنت أخبرهم أننى أرحب بحضور الشيطان فهو على الأقل يذكرنا بالله، تمامًا كما يذكرنا الشر بالخير، والحرام بالحلال.

الثمرة الستون...

مثقفونا ومستنقع النسبية المطلقة

بدأت النسبية تستشرى فى بلادنا، حتى إن الكثيرين من المثقفين اليساريين اكتسحتهم النسبية فتخلو عن عقيدتهم الثورية التى كانت تستند إلى معايير ثابتة، وأصبحوا من دعاة الأمر الواقع والتطبيع الحضارى وقبول ما هو قائم. ولكن، وهذا هو الغريب، يوجد فريق آخر لا يزال متمسكًا بقيم الإيمان بالقومية المستقلة وضرورة مقاومة إسرائيل، ومع هذا تجده ينطلق من الإيمان بنسبية كل الأشياء!.

وقد حضرت ندوة عُقدت ضد التطبيع مع إسرائيل حضرها ممثلو الأحزاب المصرية، وقدم فيها اليساريون بحثًا عن الهُوية المصرية. قالوا إنها كانت فرعونية ثم قبطية ثم عربية! وقولهم هذا يؤكد التغير المستمر بما يتطلبه ذلك من إيمان بالنسبية، بل وتنتهى الهوية بشىء عام لا لون ولا طعم ولا رائحة له أطلقوا عليه اسم «هوية مصرية حديثة». أشرت فى مداخلتى إلى أنه مع هذه التغيرات المذهلة لِمَ لا نتصور تحول هذه الهوية إلى هوية شرق أوسطية، كما ينادى الصهاينة! أليست كلّ الأمور نسبية؟ فاستشاط كاتب البحث غضبًا، وهاج وماج.

الثمرة الحادية والستون...

موقف الفكر الدينى والوطنى من النموذج المادى

يمارس العقل العربى الإسلامى رفضًا للعقلانية المادية المظلمة، أساس الحضارة الغربية الحديثة، باعتبارها لا تعنى تبنى العلم والتكنولوجيا وحسب، وإنما تعنى العلم والتكنولوجيا المنفصلين عن القيم والغايات الإنسانية.

ويرجع فشل الحداثة عندنا - حتى الآن - إلى هذا الرفض، فالإنسان العربى، مسلمًا كان أم مسيحيًا، يملك منظومة من القيم التى تجعله إنسانًا متعدد الأبعاد، له ذات حقيقية، يدرك الواقع من خلال منظور يتعامل مع صفات المادة (مثل الطول والعرض والسرعة والكثافة والعمق)، لكنه فى نفس الوقت لا يستبعد الصفات الروحية، ومن هنا فهو لا يسقط فى الأُحادية المادية التى تَرُد العالم بأسره إلى المستوى المادى فقط. إن معرفتنا بما حدث فى الغرب وبالثمن الفادح الذى يُدفع إن سقطنا فى هذه الاستنارة المظلمة يقلل من تكالبنا عليها بعض الشىء.

إن نظرة تاريخية تضيف إلى أسباب تخوفنا؛ فإن أول آلة معاصرة واجهتنا كانت هى المدفع الذى حمله الجندى الفرنسى ودك به جدران المجتمع التقليدى الشرقى، لا ليجلب النور والاستنارة وإنما لينهب الوطن. كذلك إذا نظرنا إلى محاولات على مبارك باشا لإعادة تخطيط القاهرة، نجد أن الجماهير لم تعارض فى تغيير أماكن المساجد والأضرحة، بل وهدم بعضها إن تطلب الأمر، إذ أحست أن هذا المصرى لا يريد أن يصيب منظومتها القيمية بسوء. أما بعد وصول القوات الإنجليزية إلى مصر عام 1882م لم يتمكن أحد من تحريك أى مسجد أو ضريح بسبب توجس الناس خيفة من الحكومة التى وقعت فى يد المستعمر.

الثمرة الثانية والستون...

العولمة = ما بعد الحداثة = النظام العالمى الجديد

* عالم بلا أساس ولا مركز، عالم سائل لا قوام له

لقد استمرت النسبية فى الاتساع حتى قوضت كل شىء، وقوضت الإحساس بأى قيم أو مركز، بل قوضت الإحساس بالوجود الحقيقى

للعالم. لقد اكتسحت السيولة والنسبية كل شيء فى طريقها، ولم يعد هناك أى أساس لأى شيء.

لقد دخل العالم فى مرحلة «ما بعد الحداثة» التى وُصِفَت بأنها تحطم كل اليقينيات والمسلمات، حتى سُمِّيت «ضد الأساس antifoundationalism»، لأنها تتعامل مع عالم بلا أساس ولا مركز ولا معيار يُحتكم إليه، عالم سائل لا قوام له. ومن ثم يمكن القول بأن ما بعد الحداثة هى أيديولوجية النظام العالمى الجديد، باعتبار أن ما بعد الحداثة تُنكر أى معيارية وأى قيم مطلقة يمكن الاهابة بها. إنها تُنكر وجود مركز أو إطار عام للعالم؛ فهى ترفض أن تعطى للتاريخ أى معنى أو أن تُعطى للإنسان أى قيمة أو مركزية، وتُسقط كل الأيديولوجيات (عصر ما بعد الأيديولوجيات)، وتنكر التاريخ (عصر نهاية التاريخ)، وتنكر الإنسان (عصر ما بعد الإنسان).

ولتوضيح هذه الفكرة ذكرت فى إحدى محاضراتى عن «ما بعد الحداثة» هذه النكتة المصرية الصميمة: «أراد أحد القضاة أن يوقظ ضمير الحشاش الذى مثل أمامه فى المحكمة عدة مرات وسأله: لماذا بالله عليك تدخن الحشيش دائمًا؟ فقال المتهم: حتى أنسى يا حضرة القاضى. فسأله: تنسى ماذا؟ فأجاب: والله مانا فاكر».

إن ما بعد الحداثة تُعبر عن روح رأسمالية عصر الشركات عابرة القارات ومتعددة الجنسيات، حيث قام رأس المال بإلغاء كل الخصوصيات (لا مانع من أن تتعاون دولتان اقتصاديًا بالرغم من أن بينهما اختلافات سياسية وعقائدية عميقة). كما حلت القيمة التبادلية العامة محل القيمة الأصلية للأشياء (يمكن أن يُباع حذاء بألفى جنيه لأنه ماركة عالمية مشهورة بينما ثمنه الحقيقى لا يساوى عُشر هذا المبلغ). هذه هى العولمة، التى يسميها البعض الآن العولمة الرأسمالية أو حتى العولمة المتوحشة.

نحن نذهب إلى أن العالم صار **يحكمه إيقاع ثلاثى**: المصنع (حيث يُنتج الإنسان) - والسوق (حيث يشترى ويبيع) - وأماكن الترفيه (حيث يُفرغ ما فيه من طاقة وعُقد وأبعاد)، أى إنه إيقاع يستوعب كلًا من الإنسان الاقتصادى والإنسان الجسمانى ويُشبع جميع رغباته البسيطة الطبيعية أحادية البُعد التى لا علاقة لها بأى تركيب إنسانى.

ويمكن القول بأن **«النظام العالمى الجديد» هو «عولمة» الإمبريالية النفسية** (تعميمها لتشمل العالم أجمع)، وكذلك **تعميم مفهوم الإنسان الاقتصادى / الجسمانى** الذى لا يكترث بالوطن أو بالكرامة، ولا يهمه سوى البيع والشراء والمنفعة واللذة.

وهذا السُعار الاستهلاكى ليس مسألة انحطاط خلقى وسلوك فردى واختيار حر، وإنما هو **وضع اجتماعى شامل** يهيمن على الإنسان من الخارج (ترشيد برانى) ويتبناه المرء دون أن يشعر (ترشيد جوانى). وإن نجح المرء فى مقاومة هذا الغزو فإن أفراد أسرته قد لا يكونون فى مثل صموده، ولن يستطيع أن يفلت من الضغوط الاجتماعية إلا بفعل عنيف؛ كأن يتحول إلى هيبى زاهد فى الدنيا، فالهيبى يجسد رفض المواطن العادى لهذا النظام العالمى الجديد.

الثمرة الثالثة والستون...

الحلم بحداثة جديدة

إن المطلوب هو حداثة جديدة:

«تتبنى العلم والتكنولوجيا ولا تضرب بالقيم الإنسانية عرض الحائط»

«تنمى وجودنا المادى ولا تنكر الأبعاد الروحية لهذا الوجود»

«تحيى العقل ولا تميت القلب»

«تعيش الحاضر دون أن تنكر التراث»

وهى مسألة ولا شك صعبة، ولكنها ليست مستحيلة.

ومن أجل التقدم نحو هذه الحداثة البديلة ينبغى:

1- فصل الحداثة البديلة عن الاستهلاكية وعن مفهوم التقدم المادى، وربطها بمفهوم الطبيعة الإنسانية والإنسانية المشتركة، بحيث يمكننا أن نحدد هدفًا للحداثة غير الإنتاج والاستهلاك.

2- توسيع مفهوم التقدم بحيث يضم المادى والملموس وكذلك المعنوى والروحى.

3- أن نعيد تحديد معدلات الاستهلاك فى إطار احتياجات البشر المادية والمعنوية، وليس مجرد زيادة الاستهلاكية.

وبهذه الطريقة قد يمكننا أن نحقق مشروع الحداثة البديل وأن نحقق التقدم دون أن نفقد اتزاننا ودون أن ندمر الكون.

العلم والتقدم

الثمرة الرابعة والستون...

ادَّعوا أن العلم هو التقدم

كنت فى بدايات شبابى أتحدث مع أحد العالِمين بشئون الزراعة، فأخبرنى إنه لو تم إدخال ميكنة الزراعة فى مصر لحدثت كارثة، إذ إن البطالة ستتفشى بين الملايين. كان كلامه مفاجأة كاملة لى لأن الصحف والمجلات

كانت لا تكف فى ذلك الوقت عن الحديث عن الميكنة بحُسبانها الحل لكل المشكلات.

وحدث أن سألت روبرت أوبنهايمر Robert Oppenheimer، مكتشف القنبلة الذرية: ماذا كان شعورك بعد اكتشافك أن مشروعك قد «نجح» وأن موعد إجراء أول تفجير قد أصبح وشيكًا؟ أجاب باقتضاب شديد: «لقد تقيأت»، أى أنه أدرك مدى وحشية النموذج العلمى الموجِه لسلوكه فى أثناء عمله على القنبلة الذرية، وأدرك أنه نموذج منفصل عن الإنسان وقيمه وغاياته (حتى إنه قضى بقية حياته يحارب ضد استخدام القنبلة الذرية). وقد ذكَّرتنى إجابته بما كتبه الفليسوف الفرنسى فرانسوا رابليه: «إذا لم يقترن العلم بالضمير أدى إلى خراب النفس»، كما ذكَّرنى ذلك بخطيب جامع الحبشى فى دمنهور الذى كان فى نهاية خطبة الجمعة يستعيذ بالله من عِلْم لا ينفع. وقد دعمت إجابة أوبنهايمر من إحساسى بالاختلاف بين الإنسانى والمادى، وبقصور العلم الطبيعى عن الإحاطة بالمفاهيم الإنسانية والجمالية، وبخطورة انفصال التجريب العلمى عن الأهداف والأغراض الإنسانية، وبضرورة النظر إلى الإنسان باعتباره الغاية النهائية وليس وسيلة من الوسائل.

الثمرة الخامسة والستون...

انتقال العلم من اليقين إلى الشك

قاد الإيمان من الشك إلى اليقين

بعد وصولى إلى الولايات المتحدة بدأ ينتابنى شك عميق فى بعض المقولات التى أصبحت مفاهيم مطلقة فى الغرب مثل الإيمان بالعلم والتقدم والتكنولوجيا.

لقد ظهر الفكر المادى فى القرن الثامن عشر وتلقى دفعة قوية من الاكتشافات «العلمية» فى القرن التاسع عشر. ويستند هذا الفكر المادى إلى مفاهيم «فيزياء نيوتن» التى ترى أن العالم يتركب فيزيائيًا من الذرات والجزيئات التى تحكمها قوانين نيوتن الثلاثة للحركة، ومن ثم سيطرت الرؤية المادية التى تقول بوجود قوانين فيزيائية تحكم عالم الظواهر، وهذه القوانين تُستنبط من التجربة والملاحظة.

لذلك صار العالم - بما فيه الإنسان - واقع فى قبضة قانون السببية البسيطة الذى يتسم بالحتمية الميكانيكية (أى أن السبب «أ» يؤدى بالضرورة إلى النتيجة «ب» بكل بساطة، مثلما تؤدى الحرارة إلى تمدد الحديد). ويتميز هذا العالم بوجود المكان والزمان المطلقين وبإمكانية الملاحظة التجريبية والموضوعية الدقيقة للواقع، وبالتالى لا مكان للحديث عن تأملات خارج معامل البحث ونتائج التجريب.

ومنذ نهاية القرن التاسع عشر تتابع ظهور الميكروفيزياء (فيزياء الكون ومبدأ اللا تحدد للفيزيائى الدنماركى هيزنبرج ونظرية النسبية)، وقد أدت هذه المفاهيم إلى إضعاف مفاهيم فيزياء نيوتن الصلبة. انظر إلى هذه المفاهيم الجديدة:

1- إذا كان لدينا جسيمان فى مكان واحد، ورغبنا فى أن نتتبع مسار أحدهما اختلط علينا الأمر بينهما، ولم يعد بمقدورنا تمييز أحدهما عن الآخر. ويسمى ذلك فى الميكروفيزياء «مبدأ الاشتباه» أو «عدم التفريق بين الجسيمات الفردية المفحوصة».

2- نَشَرت مجلة تايم أخيرًا نتائج تجربة «علمية» تبين أن جزيئات الضوء (الفوتونات) حينما يخضعها الإنسان لتجربة ما، فإنها تعى ما يحدث وتُغيِّر سلوكها. وهذا مفهوم جديد كل الجدة، إذ كانت هذه إحدى

المشكلات التى تواجهها العلوم الإنسانية. فالإنسان حينما يكون واعيًا أنه موضوع للتجربة، يغيِّر سلوكه، فهل ستواجه العلوم الطبيعية المشكلة نفسها؟!

3- تتصرف وحدات الضوء (الفوتونات) فى بعض التجارب باعتبارها جسيمات، وفى تجارب أخرى تتصرف باعتبارها موجات! (قال أحد علماء الفيزياء متهكمًا: فى يوم السبت والاثنين والأربعاء نُعَرِّف الضوء بأنه جسيمات، ثم يصبح موجات بقية أيام الأسبوع)، ويُسمَّى هذا «**مبدأ الازدواجية**»، ولا يمكن لتجربة واحدة أن تبين أن الفوتونات ذرات وموجات فى آنٍ واحد، فكل تجربة تكشف إحدى الطبيعتين، إما ذرات وإما موجات (وقد حصل أينشتاين على جائزة نوبل لوصفه مبدأ الازدواجية هذا، وليس لتوصله لنظرية النسبية).

4- **نسفت النظرية النسبية الحدود الفاصلة بين التجربة وبين الشخص القائم بها (المراقِب)**، واعتبرته جزءًا من التجربة وليس ملاحظًا لها، ذلك لأن حركته أو سكونه يغيِّر فى نتائج القياس (كانت نتائج القياس فى الفيزياء الكلاسيكية مستقلة عن حالة المراقب). لذلك لم يعد من الممكن أن تحتفظ الفيزياء بموضوعيتها، أى **لم يعد الإنسان يرى الطبيعة على حقيقتها، وإنما يرى الطبيعة من وجهة نظره** وبناء على ظروفه وظروف التجربة.

5- بعد أن كان منطق العِلم (فى فيزياء نيوتن) لا يحتوى إلا على احتمالين فحسب؛ بمعنى أن تكون القضايا إما صادقة وإما كاذبة، أصبح من الممكن الآن وجود احتمالات عدة، فتكون القضايا إما صادقة، وإما كاذبة، وإما غير محددة وهو ما يُعرف بمبدأ «**اللاتحدد Uncertainity**». بل إن الواقع الفيزيائى أصبح يقبل تفسيرين ممكنين

فى وقت واحد، كل منهما يعادل الآخر فى صحته، ويبدو أن مثل هذا المنطق هو الصورة النهائية للميكروفيزياء حتى هذه اللحظة.

مما سبق يتضح أن سؤالنا: ما المادة؟ لا يمكن الإجابة عنه بالتجارب الفيزيائية وحدها، وإنما يحتاج إلى تحليل فلسفى للفيزياء. بذلك أدركت أن كثيرًا مما يسمَّى «القوانين العلمية» هى فى واقع الأمر مقولات فلسفية يؤمن بها العالِم قبل إجراء التجربة. فعلى سبيل المثال إن قال أحد العلماء إن العالم «خُلق مصادفة» فإنه يؤكد «إيمانه» بتلك الحقيقة كما يؤكد إخفاقه فى التوصل إلى فهم حقيقة أصل الكون. وحين يتحدث عالم آخر عن «المادة ذاتية الخلق والتحريك» فهو هنا يتحدث عن شىء لا يفهم كَنهه. وفى كلتا الحالتين، فإن العالِمين قد انطلقا من مقولات فلسفية غيبية تسبق عملية التجريب ذاتها.

الثمرة السادسة والستون...

كلما ازددنا معرفة ازددنا جهلا

أخبرنى أحد أصدقائى من علماء الفيزياء أن الوصول إلى نظرية عامة (theory unification grand) تجمع قوانين الكون كلها يتطلب استيعاب كل ما توافر لدينا من معلومات، وقد أصبح هذا أمرًا مستحيلًا فى الوقت الحاضر. فالمعرفة الإنسانية التى تجمعت منذ بداية التاريخ حتى عام 1750، قد تضاعفت من عام 1750 - 1900، ثم تضاعفت مرة أخرى فى الفترة من 1900 - 1950، ثم أصبحت تتضاعف كل عشر سنوات ابتداءً من 1950 - 1990، والآن تتضاعف كل خمس سنوات. وإن أمكننا وضع كل المعرفة الإنسانية على جهاز كومبيوتر ضخم، ستظل هناك مشكلة استنباط النظرية العامة من هذه المعلومات. وأخبرنى عالِم آخر أن هناك إشكاليات فى العلم نعرف أنه يمكن حلها «نظريًّا»، ولكن يتطَلب ذلك أن يعمل الجيل الحالى من

آلات الكومبيوتر والجيل الذى يليه لفترة قد تستغرق كل ما تبقى من عمر الإنسان على وجه الأرض.

ونظرًا لعجز الإنسان عن الوصول إلى هذه «النظرية العامة»، فإن البديل يكمن فى تكوين **«منظور عام»** يصل إليه الإنسان من خلال التأمل والتفكر، منظور يعينه على فهم الكون والغاية من الوجود ليحيا الإنسان ويتصرف فى ضوء هذا الفهم.

لقد اتسع عالمنا على مستوى الماكرو (الأجرام - النجوم - الكون) وعلى مستوى المايكرو (الذرة - الجزيء... إلخ)، فاتسع نطاق المعرفة بشكل غير مسبوق. فإذا أضفنا إلى هذا مسألة التخصص الدقيق، فإننا تدريجيًّا نواجه العالِم المتخصص الذى يعرف الكثير عن تخصصه الضيق ويجهل الكثير عن أى شَىء آخر.

*** مشكلة عدم التحكم: انطلق المارد من القمقم**

لقد أصبح عدم التحكم فى الوجود سمة أساسية فى عصرنا، وكلما زادت ميكنة العالم والسيطرة عليه علميًّا، قلت إمكانية التحكم فيه. تنبأ أحد «العلماء» المتفائلين فى القرن التاسع عشر بأن الإنسان فى خلال ثلاثين عامًا سيعرف كل شىء، وستتم له السيطرة على الطبيعة وبالتالى لا لزوم للأخلاق أو الدين أو الإله. ولكن بعد مائة عام من التجارب العلمية، وجد الإنسان أنه **كلما اكتشف وسيطر على شىء ظهرت له آلاف الأشياء الجديدة التى لا يعرفها ولا يمكنه السيطرة عليها**، أى أنه كلما ازداد معرفة ازداد جهلًا، وفى ذلك قالوا إن العلم يزيد بمتوالية عددية فيتزايد الجهل بمتوالية هندسية!

مثال ذلك الموقف تجربتنا مع الذرة، التى حطمناها لنؤسس الفردوس الأرضى، وانتهى بنا الأمر إلى أننا نمسك بكرة اللهب؛ أى الأسلحة النووية

التى يمكنها تدمير العالم عشرات المرات والعادم النووى الذى لا نعرف كيف نتخلص منه. انظر كذلك إلى الأغذية التى تحتوى على مكونات مُهندَسة أو مُعَدَّلة وراثيًا تضعف جهاز المناعة ويطلقون عليها «أغذية فرانكنشتاين»، لقد طُرد أحد العلماء الإنجليز لأنه راح يؤكد هذه المقولة. وهذا لا يختلف كثيرًا عما حدث لأحد أصدقائى العلماء فى الولايات المتحدة، إذ اكتشف أن أفران الميكروويف تسبب أضرارًا جسيمة للإنسان، وقبل أن يتوصل للنتائج النهائية سُحبت منه ميزانية البحث بحجة توفير الاعتمادات. ونفس القول ينطبق على شاشات الكومبيوتر والتليفونات المحمولة التى لا نعرف حتى الآن أثرها على عيون الإنسان وجسده ودماغه.

وقد طرح أحد العلماء البيولوجيين عدة أسئلة عن أمور بسيطة، ولكنها تبين محدودية المعرفة الإنسانية: لماذا ينفرد البشر بين كل الفقاريات الثديية باستخدام الأطراف اليمنى غالبًا دون اليسرى؟ لماذا تتغيَّر حالة نباتات الظل المنزلية بتغيُّر أمزجة أصحابها ونفسياتهم؟ ولماذا تطير أسراب الطيور على شكل الرقم 8؟ كيف تنجح حيوانات صغيرة كثيرة (أسماك وطيور) فى الارتحال عبر آلاف الأميال دون خرائط ولا بوصلات نحو مكان هجرتها وتكاثرها، جيلًا بعد جيل، فتصل إلى نفس المكان، برغم أنها لم تكن قد ذهبت إليه من قبل؟. إن الإجابة عن هذه الأسئلة تعتمد أساسًا على الاعتراف بأن عالمنا يحتوى على الآلاف من العناصر والقوانين المجهولة التى لم تخطر على بال عالِم فى يوم من الأيام.

*** تجارب الهندسة الوراثية وخطورة اللعب بالنار**

يقف كثير من العلماء الذين حققوا اكتشافات فى حقل الهندسة الوراثية الآن ضد إجراء التجارب فى هذا المجال خوفًا من عواقبها الوخيمة، وذلك بعد انفصال النزعة التجريبية عن النزعة العقلية والأخلاقية والإنسانية،

فأصبح التجريب غاية فى حد ذاته، بغض النظر عن نتائجه التى قد تودى بالإنسان!.

كانت الأخطاء فى التجارب العلمية فى الماضى تحدث داخل دورة الطبيعة ولا تتحدى قوانينها، ولهذا كانت دورة الطبيعة قادرة على معالجة مثل هذا الخلل. بل قد يستمر التلوث الإشعاعى لآلاف السنين، لكنه يظل داخل دورة الطبيعة التى تُصلحه. أما تجارب الهندسة الوراثية فتختلف عن التهجين القديم فى أنها تتجاهل تمامًا حدود البيولوجيا، فالعلماء يقومون بإضافة جينات من الفيروسات أو البكتريا أو الحيوانات إلى الشفرة الجينية لأنواع النباتات التقليدية، و قد تأتى هذه التجارب بمخلوقات لا يمكن لدورة الطبيعة أن تتعامل معها؛ فهى مخلوقات تقع خارج نطاق حلقة التطور الطبيعية. كذلك ظهرت أخيرًا مشكلة «التلوث الجينى genetic pollution»؛ كانتقال الجينات التى تم إدخالها على أحد النباتات (بقصد جعلها أكثر إنتاجية وأكثر مقاومة للمناخ) إلى نبات آخر (أعشاب ضارة على سبيل المثال) مما يجعل القضاء عليها صعبًا أو مستحيلًا.

* بروميثيوس وفاوستوس وفرانكشتاين وأخيرًا دكتور جيكل ومستر هايد

تعرضت فى أعمالى الأدبية لتورط الإنسان الغربى فى التجريب المتحرر من القيمة والغاية من خلال بعض الأساطير الأساسية التى هيمنت على وجدانه. وأولى هذه الأساطير أسطورة بروميثيوس الذى سرق النار من الآلهة وأعطاها للإنسان (بهدف الاستنارة بطبيعة الحال، وهذه هى الأسطورة العلمانية الكبرى)، ثم بدأت النار تحرق أصابعه وتساهم فى هلاكه وتصفيته (ثقب الأوزون والتلوث وتآكل الأسرة واجتثاث أشجار الغابات المطيرة الاستوائية وازدياد غاز ثانى أكسيد الكربون). ثم تلتها أسطورة

فاوستوس الذى باع روحه للشيطان فى سبيل المعرفة الكاملة التى تُمَكِّنه من التحكم فى الواقع والزمان. ومع بداية القرن الثامن عشر ظهرت أسطورة فرانكشتاين، هذا الكائن القبيح الذى خلقه عالم «مستنير» يؤمن بالعلم وبقدراته ليسخره فى خدمته، ولكن المخلوق يقتل خالقه بعد قليل وينطلق حرًا ليعيث فى الأرض فسادًا وفى الناس قتلًا. ثم ظهرت بعد ذلك أساطير مثل دكتور چيكل ومستر هايد وغيرها، والتى تشير إلى خوف الإنسان على ذاته الإنسانية (دكتور چيكل) من عقله المادى المجرد (مستر هايد). الذى يتحرك فى إطار القوانين العلمية والمعادلات الرياضية اللاإنسانية. تشير تلك الأساطير مجتمعة إلى أن ثمرة العلم المجرد من الإنسانية هى إبادة الإنسان.

الثمرة السابعة والستون...

افتحوا ملفات ثمن التقدم، قارنوا عائد التقدم بتكاليفه الباهظة

إن جوهر الحضارة الغربية هو الإيمان بمفهوم «التقدم» السريع والدائم بأى ثمن، إلى أن أصبح التقدم العلمى هدفًا فى حد ذاته. ولكن يبدو أن مشكلة البيئة فى المجتمعات الصناعية قد بدأت فى التفاقم، ولأول مرة بدأ المفكرون، بل المواطنون العاديون، يتحدثون عن «تكاليف» التقدم.

إن التقدم، كما علمونا، هو تطبيق النموذج الغربى فى التنمية والاستهلاك، وهو نموذج مبنى على غزو الطبيعة والسطو عليها (20٪ من سكان العالم من أهل الغرب يستهلكون 80٪ من مصادرها الطبيعية). والآن، ماذا لو «تقدمت» الصين والهند (وهذا ما يحدث الآن فعلًا) حسب المقولات الغربية؟ ألا يعنى هذا بليون سيارة جديدة تسير فى الطرقات تحرق الأوكسچين ويخرج عادمها ليتلوث جو الكرة الأرضية، خاصةً إذا ما «تقدمت» البرازيل هى الأخرى وبدأت فى اجتثاث الغابات المطيرة الاستوائية (لتؤسس المصانع والطرقات

وتحقق «التقدم المنشود» على الطريقة الغربية، فهذا حقها القومى)، إنها بذلك تكون قد اجتثت مصدر ثلث الأوكسچين فى العالم.

تستند فكرة التقدم الغربية إلى لا محدودية الموارد الطبيعية، بالرغم من أن الممارسة أثبتت عكس ذلك! فهناك معادن آخذة فى الاختفاء، وهناك أنواع من الحيوانات والنباتات تنقرض سنويًا، وهناك مشكلة النفايات الآخذة فى التزايد بشكل مخيف (يقال إن فى غضون عدة أعوام - لو استمر التقدم على معدله - فإننا سنحتاج إلى ستة كواكب فى حجم الكرة الأرضية كمصدر للمواد الخام وكوكبين آخرين للتخلص من نفايات الاستهلاك الوحشى المرتبط بالتقدم). وبطبيعة الحال، هناك النفايات النووية، التى لم نعرف طريقة أكيدة للتخلص منها بعد. ومن المفارقات الساخرة أن الثورة العلمية التى نجحت فى تطوير السلاح بشكل غير مسبوق فى تاريخ البشرية، فشلت حتى الآن فى حربها ضد الأنفلونزا. إن التقدم الذى كان من المفروض أن يحقق سعادة الإنسان الأرضية أصبح يهدد وجوده على هذا الكوكب.

ولننظر إلى جانب آخر، هل جهاز الإنسان العصبى قادر على استيعاب كل هذه الأحاسيس والأفكار والمعلومات وأخبار المجازر والكوارث التى تُرسَل له يوميًا من بيئته المحلية والعالمية؟. وهل من قبيل المصادفة أن الجلطة الدماغية على مستوى العالم أجمع آخذة فى التزايد فى السنوات الأخيرة؟.

وأتساءل؛ هل مجرد «إنتاج» سلعة ما هو «تقدم»، أم إن التقدم والتخلف يقاسان بمقاييس تقع خارج نطاق الأشياء والكم؟. وإذا كان الحديث عن تلوث البيئة (الطبيعة الخارجية) أصبح أمرًا شائعًا فى الغرب، فإن الحديث عن تلوث الإنسان (الطبيعة البشرية) سيصبح أمرًا مطروحًا عما قريب لا محالة. إن المجتمعات الاستهلاكية تظن أنها قادرة على إشباع جميع رغبات الإنسان، متجاهلة ازدواجيته ومُسقطة احتياجاته الروحية من الحُسبان، مما يسبب

البؤس للبشر. لذا أطالب الآن بفتح ملفات «ثمن التقدم» ومقارنة عائد التقدم بتكاليفه، وأن ننظر للتقدم المادى فى إطار ما يُحدِث من «تخلف إنسانى».

كل هذا جعلنى أتحفظ بخصوص مقولات أصبحت مطلقة بالنسبة للبعض، مثل التقدم التكنولوجى والتجريب العلمى. وهذا لا يعنى أننى أرفض المعرفة العلمية رفضًا كاملًا (كما يفعل بعض غلاة السلفيين) ولا أننى أقبلها قبولًا كاملًا بحُسبانها المعرفة الوحيدة الممكنة (كما يفعل بعض غلاة العلمانيين). كل ما فى الأمر أن قبولى لها أصبح مشروطًا وغير مطلق.

إدراك ثنائية الإنسان ومراحل التحول

الثمرة الثامنة والستون...

جعلوا الروحانية وسيلة إلى المادية:

فرعـون يتخفـى فى زى آمـون

لاحظت أن بعض الكتابات الأدبية والفلسفية الغربية (وخصوصًا تلك التى توصف بأنها «صوفية») لا تفرق بين «الروحى» و«المادى». فالروحى يصير ماديًّا، والمادى يصير روحيًّا.وقد لاحظت هذا التداخل فى الكنيسة الموحدانية، لدرجة أن شعائر الصلاة فى هذه الكنيسة تتغيَّر من يوم ليوم حسب هوى أعضاء الكنيسة ورغباتهم، حتى إن فى أحد الاحتفالات قامت إحدى راقصات الستريبتيز striptease بالتعبير عن مشاعرها «الدينية والروحية»، عن طريق خلع ملابسها قطعة قطعة فى الكنيسة، ولم يعترض راعى الكنيسة على ما حدث واكتفى بالقول إنها طريقة غير تقليدية للتعبير عن الإيمان الدينى!. ومن الشائع فى الولايات المتحدة أن يقول أحدهم إن زيارته للمتحف أو للمطعم أو حضورة لعرض مسرحى أو غنائى (بل وتجربته الجنسية) كانت تجربة «روحية».

وتعود بدايات هذه الملاحظة إلى طفولتى؛ إذ لاحظت العلاقة الحميمة بين والدى التاجر الكبير وشيخه، شيخ الطريقة الحصافية فى دمنهور. كان والدى (الشخصية الفاوستية الجبارة المؤمن بالتراكم الرأسمالى، والذى كان يقضى معظم وقته فى البيع والشراء وإبرام الصفقات) يتجاوز العقلية التعاقدية ويتحول إلى حمل وديع فى حضرة شيخه، وينفق عليه وعلى حاشيته بسخاء، ويقيم الولائم احتفالاً بمقدمه.

ولذا بدأت أتساءل:

هل ثنائية الروح والمادة، والمقدس وغير المقدس، عند هؤلاء، ثنائية زائفة؟

هل يستخدمون كلمتى «مادة» و «روح»، دون تمييز بينهما، وأن عالمهم مكون من جوهر واحد؛ يسميه البعض «الإله» أو «الروح» ويسميه البعض الآخر «الطبيعة» أو «المادة» أو حتى «الذات»؟

ومن ثم فالاختلاف بين الفريق المادى والفريق الروحى عند هؤلاء ليس اختلافًا حقيقيًا وإنما اختلاف فى التسمية وحسب.

هل يعتبرون أن الإله قد حل فى الطبيعة (الميتافيزيقا الحلولية) وأصبح جزءًا لا يتجزأ منها؟

وهل هذه الميتافيزيقا الحلولية هى ميتافيزيقا من لاميتافيزيقا له، أى **ميتافيزيقا مادية بلا أعباء أخلاقية؟!.**

لقد بدأت أفهم تلك «الروحانية المادية» التى يمثلها المتصوف المادى الذى يحمل ذاتًا فاوستية تبتلع الدنيا، إنه ليس متصوفًا بمعنى الزهد وإنما بمعنى إنه يجب أن يصل إلى جوهر الأشياء ليهيمن عليها؛ **«إنه فرعون يتخفى فى زى آمون».**

ففى هـذا الفكر تتحـد الروح بالمـادة والمقـدَّس بغير المقـدس، بحيـث لا يوجد فارق بين الإنسان المركب والطبيعة البسيطة! . إنه نفس الفكر الكامن وراء الرأسمالية الاستهلاكية والإمبريالية، وكذلك وراء كل الفلسفات الفاشية المادية التى تعلن أن الفردوس هنا (اليوتوبيا التكنولوجية)، وبذلك تعلن انتصار المادة وإلغاء استقلال الإنسان عن النظام الطبيعى المادى.

وعندما أدركت ذلك، تخليت عن نظرتى للعالم باعتباره وجودًا واحديًّا ماديًّا بسيطًا يقوم فقط على العلاقات الاقتصادية. وهكذا انتقلت من سذاجة المادية واختزاليتها إلى إدراك تركيبية الظاهرة الإنسانية.

وعندما تأملت تحول المفكر الفرنسى روجيه (رجاء) جارودى إلى الإسلام وجدته موقف منطقى للغاية ومتسق مع فكره، فهو يبحث عن نظام يؤكد مقدرة الإنسان على تجاوز عالم المادة وسوق السلع، وقد وجد ضالته فى التوحيد الإسلامى (بدلًا من واحدية السوق)، وهذا هو نفس مدخلى إلى عالم الإيمان الرحب.

الثمرة التاسعة والستون...

المرحلة الأولى: الإله الخفى

حاولت أن أمسك العصا من الوسط

لم يتم الانتقال من ضيق المادية إلى رحابة الإنسانية بسهولة، كما لم أدرك بسهولة أن هناك قانونين: أحدهما للإنسان والآخر للمادة، وليس قانونًا ماديًّا واحدًا يسرى على كليهما. لقد كان الانتقال عملية طويلة شاقة استمرت أكثر من ربع قرن. فالفلسفة المادية فلسفة مريحة تختزل الواقع وتختزل الوجود الإنسانى فى قوانين المادة، لذا فهى قادرة على تزويد الإنسان بأجوبة واقعية وسريعة ومريحة.

ورغم إحساسى بقصور هذه الفلسفة المادية، فقد حاولت لبعض الوقت أن أمكث داخل حدودها، فتغيير الرؤية ليس مسألة سهلة أو هينة. **لذا حاولت أن أنقذ إنسانية الإنسان من السقوط فى حمأة الطبيعة / المادة، على أن أبقى داخل حدود المادة، وياله من مفارقة!**

ويبدو أن هذه ظاهرة متكررة فى تاريخ الفكر الإنسانى، وقد أسميتها «**ظاهرة الإله الخفى**». وأعنى بها أن الإنسان قد يؤمن بشكلٍ واعٍ بنموذج مادى، ويظن أنه قد تشربه تمامًا حتى أصبح جزءًا لا يتجزأ من رؤيته ووجوده، ولكن هذا الإنسان الطبيعى/ المادى - فى ظروف معينة - تُفصح أقواله وأفعاله عن وجود شىء ما فى أعماق أعماقه يتناقض مع الإطار المادى الواحدى الذى تبناه، وعندئذ يبدأ فى البحث عن المقدس داخل عالم الطبيعة / المادة (ذلك العالم الذى لا قداسة له ولا حرمات). وهذه محاولة للحفاظ على استقلالية الإنسان عن الطبيعة وعلى قداسته وحريته دون التخلى عن الإطار المادى.

الثمرة السبعون...

المرحلة الثانية: العنصر الكونى

رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة

بدأت البحث عن مفاهيم ثابتة فى عالم المادة تؤكد استقلال الإنسان وحريته وقداسته، وتحتفظ به فى الوقت نفسه داخل الإطار المادى. ولعدم تقبلى مفهوم «العنصر الربانى» فى الإنسان آنذاك، كنت أتحدث عن «**العنصر الكونى**» الذى كنت أُعَرِّفه بأنه «العنصر الثابت نوعًا» فى الإنسان والطبيعة. واعتبرت أن العناصر الكونية هى **مفاهيم معنوية استقرت عبر التاريخ وتوجد داخل عالم المادة**. ومن أمثلة العنصر الكونى:

1- لاحظت أن الإنسان باسم «التقدم» بدأ يستهلك موارده الطبيعية بسرعة فائقة وغير رشيدة، مما يؤدى بنا إلى التهلكة: بيئة ملوثة، عالم نتنافس فيه على المواد الخام، كون أقرع لا خضرة فيه، أنهار تحمل الأحماض القاتلة بدلًا من المياه الصافية، هواء يحمل كميات محترمة من أول أوكسيد الكربون. وحينما تقرأ جريدتك اليومية فى الصباح، فلتتذكر أيها الإنسان الاستهلاكى الأشجار التى قطعتها الفأس الصناعية العلمية لتزودك بكَم هائلٍ من الأخبار، أنت فى غنى عنها، فقد سمعتها فى النشرة الإخبارَية! إن التقدم العلمى سيؤدى إلى ورطة كونية، ولا يمكن إنقاذنا من هذا المصير إلا بتبنى مفاهيم استقرت عبر التاريخ تؤكد أهمية الاتزان والتفاهم مع الطبيعة.

2- امتد هذا الاستنزاف إلى داخل الإنسان نفسه، فبدأ يفقد ذاته ويعيش فى غيبوبة كاملة من المخدرات والشذوذ الجنسى، وشرع فى إجراء تجارب تؤدى حتمًا إلى خلق أمساخ من البشر. ولا يمكن انقاذ الإنسان إلا من خلال مفاهيم ترسخت عبر التاريخ بأن الإنسان الواعى خير من الإنسان الذى يفقد رشده، وأن العلاقة الجنسية المثلى هى العلاقة بين الرجل والمرأة وليست بين فردين من نفس الجنس.

3- يُعتبر اهتمامى بالتاريخ مثالًا لمفهوم العنصر الكونى، فالتاريخ من صنع الإنسان وليس من صنع الطبيعة/ المادة. وقد ترجم هذا الاهتمام نفسه إلى ضرورة تأكيد الهوية القومية. وللتعبير عن هذه الهوية بدأت فى تغيير بعض معالم حياتى، فكنت - على سبيل المثال - أرتدى جلبابًا ريفيًا فى الحفلات التى تُقام لتوديعى فى الولايات المتحدة حين حصلت على الدكتوراه، إعلانًا عن أن عودتى ليست مجرد عودة جسدية وإنما عودة روحية.

4- ولعل عدائى للصهيونية ينبع من نفس المصدر، فهى أيديولوجية تنكر التاريخ وبالتالى تعادى الإنسان والقيم، ولذا تبنيت القضية الفلسطينية التى تحولت إلى القضية المحورية فى حياتى، **فهى قضية ذات مضمون أخلاقى واضح لا يمكن التفاوض بشأنها** (عنصرًا كونيًا)، ولا يمكن للإنسان أن يرفضها إلا من منظور دارويني مادى شرس (البقاء للأقوى).

الثمرة الحادية والسبعون...

المرحلة الثالثة: التساؤلات والحيرة ثم الهداية

أحوم حول فطرة الله التى فطر الناس عليها: المرجعية والمعيارية

حينما عدت من الولايات المتحدة إلى مجتمع الانفتاح فى مصر عام 1979، أخذت الأسئلة بخصوص النموذج المادى والنسبية المطلقة تهاجمنى بلا هوادة. لقد وجدت أن داخل إطار هذا النموذج تكون كل الأمور مادية ومن ثم متساوية، وأن آراء أى إنسان - مهما بلغت من ذاتية أو موضوعية ومهما بلغت من خساسة أو نبل - تُعتبر صحيحة، **فالإنسان مرجعية ذاته**، يرى ما يرى. فهو قد يقرر أن قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق أمر غير مشروع يوم السبت، أما يوم الثلاثاء فقد يرى غير ذلك، وهو فى كلتا الحالتين على حق وعلى صواب! ومن ثم لا يمكن رفض النازية والصهيونية والإمبريالية بحُسبانها خطأً أو أمرًا يتنافى مع الأخلاق. المشكلة أنه حينما يسقط كل شىء فى قبضة الصيرورة (الإقرار بالأمر الواقع) يصبح كل شىء مباحًا.

ثم **عصفت بيّ التساؤلات والحيرة**: أليس الإنسان الطبيعي/ المادى، الذى يتبع دوافعه الاقتصادية وغرائزه الجنسية، أقرب إلى الحالة البشرية منا نحن الذين لا نزال نعيش داخل إطار الحضارة الشرقية والمجتمع والأسرة؟،

على أى أساس يمكن أن نحكم على الأشياء؟ كيف نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر؟ هل هناك معروف وهل هناك منكر؟

وكنت أُلاحظ أن بعض الناس أشرار دونما سبب، الشر فيهم عميق متأصل، كما كنت ألاحظ أن معظم البشر برغم ما فيهم من شرور يحوون قدرًا كبيرًا من الخير. وقد طرح ذلك سؤالًا عليَّ: كيف نفسر هذا الخير؟ هل الإنسان الطبيعى/ المادى قادر على إتيان أفعال الخير؟ لمَ أفعل الخير وأتحاشى الشر؟ هل هذا هو أثر البيئة فيَّ وحسب؛ عملية تربية اجتماعية لا أكثر ولا أقل؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلِم أتمسك إذن بالأخلاق؟ لِم لا أعلن نفسى إلهًا. إنسان نيتشه الكامل الذى يشكل عالمه الأخلاقى الخاص به ولا يحكم على نفسه وعلى الآخرين إلا بمعاييره هو؟.

ولاحقتنى الأسئلة تطاردنى وتنهكنى وكادت تقضى عليّ، خاصةً حينما آتى بفعل فاضل، يكلفنى الكثير. أمر مُرهِق حقًّا أن يفكر المرء بتوتر فى كل موقف يواجهه، ويوازن الأمور ويحكم عليها فى ضوء نموذجين متناقضين: أحدهما مادى والآخر إنسانى، ثم يقرر ودون سبب واضح، أن يختار الثانى دون الأول. وقد استمر بحثى المحموم لمدة ربع قرن قبل أن أصل إلى ما وصلت إليه من اقتناعات إيمانية.

لقد تنبهت إلى خطورة المادية والنسبية واستحالة أن يعيش الإنسان فى عالمه المادى المتحرك دون مركز ودون قيم ودون مرجعية. وأدركت إنه لا يمكن «الحكم» على شىء ولا يمكن التمييز بين الخير والشر مع غياب المعيارية، فإصدار حكم على شىء ما يتطلب وجود أرضية فلسفية وأخلاقية تحوى بعض المُسَلَّمات والبديهيات المتجاوزة لقوانين المادة والحركة، تجعل بوسعنا الحكم والتمييز.

آلام الانتقال

شاركنى الشعراء حيرتى

كانت المحاضرات التى ألقيها على الطالبات فى كلية البنات فى جوهرها حوارًا مع ذاتى بصوت عال، ومحاولة للوصول إلى أجوبة عن الأسئلة التى تلاحقنى. وقد قمت بتدريس الشعر الرومانتيكى والفيكتورى، وهما يناقشان نفس المشكلات الفلسفية التى واجهتها ويحاولان الإجابة عن نفس الأسئلة التى طرحتها.

ومن الشعر الرومانتيكى أذكر قصيدة «الملاح القديم» لكوليردج، وهى قصة ملاح يتسم بسذاجة وسطحية الماديين ونفعيتهم، فيصرع طائر القطرس الأبيض رمز الجماعة الإنسانية والمحبة، بل رمز الإله، فيواجه عالمًا ماديًّا تعاقديًّا بلا إله، لا رحمة فيه ولا محبة. فتصبح الحياة خرابًا ويبابًا وتتوقف سفينته عن الإبحار، بل تتعفن المياه نفسها. وبالتدريج يكتشف الملاح أن عالم المادة وحسابات المكسب والخسارة لا تنفع كثيرًا فى عالم الإنسان، عندها يتحول عالمه من مادة محضة إلى عالم تسرى فيه الروح والقداسة، فيدرك جمال أصغر المخلوقات البحرية وأكثرها قبحًا ويباركها، ويفقد الرغبة فى السيطرة والتحكم. عندها تذهب اللعنة وتحل البركة؛ لأنه أثبت مقدرته على الحب وعلى الإحساس بالجمال وعلى الانطلاق من عالم المادة. ويعود الملاح للجماعة الإنسانية بعد طول غربة وعزلة وانفصال. هذه القصيدة تركت فيَّ أثرًا عميقًا وجعلتنى أبحث عن غير المنظور.

ومن قصائد وليام وردزورث تعجبنى قصيدته المعنونة «لندن عام 1802»، التى يهاجم فيها الشاعر القيم النفعية التى سادت فى وطنه. فالبورجوازية الشرهة التى ركَّزت كل اهتمامها على الإنتاج وعلى البيع

والشراء أحلت الكم محل الكيف حتى أصبح أكثر الناس ثراءً هو أفضلهم، مما أدى إلى التلوث المادى والمعنوى. وفى قصيدته «ما أكثر ما تستغرقنا الدنيا» يقول وردزورث إنه يفضل أن يكون وثنيًا بدائيًا، حواسه متيقظة، عن أن يقف إنسانًا بليدًا؛ بلا إحساس ولا خيال ولا عاطفة، إنسان المجتمع الصناعى البورجوازى. إن البحر بالنسبة للوثنى لم يكن مجرد مسطح شاسع من المياه، وإنما كان مكانًا يزخر بالآلهة وأنصاف الآلهة مثل بروتيوس، رجل البحر العجوز فى الأساطير الإغريقية، الذى اعتاد أن يرعى قطعانه ظهرًا بالقرب من الشاطئ، ومثل ترايتون، إله البحر، الذى كان يُصوَّر حاملًا صدفة يستخدمها كبوق يُطلق منه أصوات جميلة مخيفة تثير البحر أحيانًا، وتجعله هادئًا أحيانًا أخرى.

وتزداد الأزمة اتساعًا فى الشعر الفيكتورى. فشعر ألفريد لورد تنيسون Alfred Lord Tennyson يتناول وبشكل واضح نفس القضايا التى واجهتنى كمثقف يبحث عن مركز فى العالم. ويجب ألا ننسى أن تنيسون كان يعيش فى عصر داروِن الذى حاول أن يربط بين الإنسان والطبيعة، والذى حاول أن يبيِّن أن حياة الإنسان لا تختلف كثيرًا عن حياة الحيوان. ولذا يتساءل تنيسون عما إذا كان الإنسان «الذى يكلله الجلال وينشد المزامير تحت السماوات الممطرة» يمكن أن يتحول إلى مجرد مادة وكأنه «رمال فى الصحراء تذروها الرياح»؟ إن التساؤل هنا ديني/ إنسانى فى الوقت نفسه، فوجود الغيب مرتبط بوجود الإنسان، فهل الإنسان مجرد جسد ورغبات كَمِّية محدودة، أم أنه كلٌّ مركّب يعلو على المادة البسيطة؟ هل الإنسان مجرد عنصر من العناصر الطبيعية الأخرى، أم إنه سيد الكون وأشرف المخلوقات؟ وعلى المستوى الأخلاقى يكون التساؤل: هل هناك مجال للقيم الأخلاقية والروحية بالمعنى العام، أم أنه يجب على الإنسان أن يخضع لقانون العرض والطلب؟.

حرية الإرادة: قبس من نور الألوهية

حينما دَرَّست مادة الحضارة، ركزت على مفكرى القرن التاسع عشر فى إنجلترا، وكانوا كلهم يواجهون نفس المشكلات التى واجهها الشعراء الرومانتيكيون والفيكتوريون: كيف يمكن أن نعيش فى عالم مادى تمامًا بلا مرجعية غير مادية؟.

كانت كتابات جون ستيورات ميل John Stuart Mill - الأخيرة بالذات - تستهوينى، فقناعات فيلسوف النفعية والليبرالية أخذت تهتز بشدة فى أواخر حياته، وكان يردد:

«خير لى أن أكون سقراطًا ساخطًا من أن أكون خنزيرًا راضيًا».

فكنت أسأل بدورى: إن الخنزير الذى يعيش فى عالم الحواس والمادة لا تهاجمه أى شكوك أو تساؤلات ولا يسأل عن أى أخلاقيات أو مطلقات، فماذا عن سقراط؟ لماذا هو ساخط؟ ولماذا نفضله على الخنزير الراضى؟.

ويجيب الفيلسوف «إن الخنزير خنزير لأنه أصبح كذلك دون اختيار، أما سقراط فقد شاء ألا يكون خنزيرًا. «حرية الإرادة» إذًا هى المدخل لعملية التفضيل».

فأسأل نفسى: وإذا كانت الأمور مادية محضة، فما مصدر حرية الإرادة هذه؟. إنها النور الذى يضعه الإله فينا ويعبر به عن نفسه.

الثمرة الثالثة والسبعون...

المرحلة الرابعة والأخيرة: كتاب الفردوس الأرضى

الإشـراق المـادى والإشـراق الروحـى

وفى النهاية كتبتُ كتاب الفردوس الأرضى (الذى بدأته عام 1971

وانتهيت منه عام 1979) ناقشت فيه كل تساؤلاتى، فهاجمت منطق التقدم المادى الدائم وتسليع الإنسان. ولكن الأهم من هذا، أن الكتاب مليء بالإشارات ذات النكهة الدينية، فعلى سبيل المثال حينما كتبت عن الهيبى اختتمت المقال بهذه العبارة: «حقًّا إن الصمت هو قدس الأقداس للمنتشى الذى يفقد عقله، أما آدم فقد كان عليه أن يتعلم الأسماء كلها كى يصبح إنسانًا سويًّا تخر له الملائكة ساجدين».

وتناولت فى الكتاب لحظة الإشراق والكشف المادية الكبرى فى حياة نورمان بودورتز (المفكر الصهيونى اليهودى) كما يصفها هو: «لا شك أنه من الأفضل أن أكون ثريًا على أن أكون فقيرًا، من الأفضل أن تعطى أوامر من أن تتلقاها، من الأفضل أن تكون معروفًا على أن تكون مغمورًا». وهكذا يسيطر الخطاب الإمبريالى تمامًا وتتعالى الصلوات لربة النجاح. وعندما يصبح مقالًا كتبه موضوعًا حادًا للنقاش يثير الأمر الغبطة فى قلبه، لا لأن المقال جيد (يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر) أو لأنه حقق ربحًا (تجارة يصيبها أو امرأة ينكحها)، وإنما لأن المقال جعل منه موضوعًا للحديث، وهذا هو المهم، أن يظل هو السلعة الرابحة والشيء المطلوب. لقد أصبح هو نفسه «الإنسان السلعة» ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وبذلك يجسد بودورتز الحضارة الأمريكية، فهو يؤمن بأن النجاح (الخارجى) هو مقياس القدرات الداخلية. وبذلك تكون الإمبريالية النفسية الأمريكية قد قضت قضاءً مبرمًا على الإنسان الأمريكى وحولته إلى شيء يُقاس.

ويبقى السؤال فى نهاية الأمر: ما النجاح الذى عنه تبحث؟ ما الآلام والآمال؟ هجرة لله ولرسوله أم هجرة تجارية للحصول على الأشياء ومزيد من الأشياء؟. سؤال إن لم يسأله الإنسان كان كالحيوان الأعجم الذى لا روح

له، أو يكون مثل بودورتز الذى تعبَّد فى محراب ربة النجاح المادى والأشياء والنقود والشهرة، أو كالجبل الأصم الذى لا يستطيع أن يحمل الرسالة التى عرضها الله عليه وفَضَّل أن يقف وسط الطبيعة مساويًا لها، ليس فيه ما يميزه عنها.

وفى مقابل هذا، طرحت فى الكتاب سيرة **الزعيم المسلم الأسود مالكولم إكس**، وبدأت حديثى عنه بهذه العبارة: «حينما تغمض عينيك فإنك تبصر؛ لأن الإنسان له بصر وبصيرة، عين حسية (مادية) ترى الأشياء وأخرى (روحية) تخترق السطح لتصل إلى البنية الكامنة وطبيعة الوجود (ثنائية المادة والروح التى تميز حياة الإنسان الإنسان). ونتعلم من مالكولم إكس أن على الإنسان أن يحلم دائمًا بعالم من البراءة الأولى وبذا يحتفظ بقدر من النقاء الروحى، والإسلام بالنسبة لمالكولم هو حلم البراءة هذا، فقد زوده بإطار مثالى حرره من مفاهيم وأخلاقيات مجتمعه العرقية (على عكس بودورتز الذى كان يتعبَّد فى محراب ربة النجاح المادية الأمريكية). لقد أدرك مالكولم أنه عندما صار طائرًا مفترسًا لم يكن ذلك بسبب شرٍّ كامنٍ فيه وإنما بسبب وجوده فى عالم الرجل الأبيض المادى المبنى على التنافس الذى يلتهم فيه الإنسان أخاه الإنسان. لقد رفض بيع روحه لشيطان العنصرية والمادية.

إن تلك السيرة الذاتية هى حقًّا ترتيلة تمجيد لروح الإنسان، القادرة على التحمل، بل على الانتصار.

*** التاريخ والفردوس فى القلب:**

أختتم كتاب الفردوس الأرضى بكلمة بعنوان «التاريخ والفردوس فى القلب»:

«فى المرة الأولى، ذهبت إلى الولايات المتحدة مع زوجتى. وحينما عدنا عام 1969 مع ابنتنا، كانت أمى تنتظرنى فى الميناء وكان معها إخوتى وأخوات

زوجتى وأبناء عمومتى. أما أبى فكان غائبًا لأن الله كان قد توفاه، فزرت قبره فى دمنهور وقرأت على روحه الفاتحة، عل الله يسكنه فسيح جناته».

«وفى المرة الثانية، ذهبت بمفردى وعند عودتى كانت زوجتى وطفلانا وأخواتها ينتظروننى فى المطار، وليلتها عدنا للمنزل وشربنا الشاى ولم أنم. وكانت هذه إحدى المرات النادرة فى حياتى التى سمعت فيها صوت المؤذن عند الفجر».

كنت ساعتها أُوَدِّع الشك، «فالتاريخ والفردوس فى القلب» غير التاريخ المادى وغير الفردوس الأرضى، فهما متجاوزان لعالم المادة. وتصور هذه الكلمة الختامية عالم التراحم وعالم الموت المفعم بالمعنى (فى مقابل عالم التعاقد واللامعنى). وتنتهى الكلمة بسماعى صوت المؤذن عند الفجر. **أسمع صوته ولكنى لا أقيم الصلاة**، فلم يكن قد حان وقتها بعد بالنسبة لى، ولم أكن قد انتقلت بعد من ضيق المادية إلى رحابة الإنسانية والإيمان. كنت أقف على العتبات أتأمل وأتفكر بلا توقف ولا هوادة.

* حىَّ على الصلاة

مع آذان المؤذن، **كان على أن أنتظر بضع سنوات أخرى قبل أن أقيم الصلاة**، وحينما فعلت، كنت أفعل ذلك فى بداية الأمر لأعطى ابنى حرية الاختيار بين الشك والإيمان (فقد قرأت أن الشاعر وليام بتلر ييتس William Butler Yeats كان ساخطًا على أبيه الملحد لأنه حرمه من المقدرة على الإيمان وجعله بديلًا غير مطروح. لذلك حينما بدأ يشعر بالحاجة إلى الإيمان بشىء يتجاوز عالم المادة، وهو شعور إنسانى فطرى، غرق فى الغيبيات مثل تحضير الأرواح، وانتهى به الأمر إلى أن أسس عالمًا أسطوريًّا كاملًا يشبه الدين فى كثير من الوجوه). كنا نؤدى صلاة الجمعة معًا، ولكن فى جامع أثرى فندرس

المسجد وقيمته المعمارية والحضارية بعد الصلاة، ونأخذ معنا كتبًا إرشادية، وكأننى كنت أريد أن أكون مصليًا وسائحًا فى الوقت ذاته. إلى أن أقمت الصلاة فى أوائل الثمانينيات خالصةً لوجه الله، وأصبح اهتمامى المعمارى جزءًا من إيمانى وليس مسوغًا له.

حصاد الرحلة

الثمرة الرابعة والسبعون...

الإيمان والإنسان

لعل العنصر الحاسم فى انتقالى من عالم المادية الضيق إلى عالم أكثر رحابة، هو «تبلور النموذج الإيمانى الكامن فى وجدانى منذ الصغر وتحوله إلى النموذج الحاكم». يذهب هذا النموذج إلى أن:

الإنسان كائن حر يصنع التاريخ

جزء من الطبيعة ومستقل عنها ولا يمكن أن يُردَّ إليها

كائن له منتاجاته الحضارية التى تمنحه خصوصيته القومية والإنسانية

إنه الإنسان الإنسان (عكس الإنسان الطبيعي/ المادى)

بذلت محاولات شتى لإبقاء هذا النموذج داخل إطار مادى، فكان مفهومى عن الإله الخفى والعنصر الكونى من محاولاتى ألا «أسقط» فى الميتافيزيقا. ولكن ما حدث هو العكس تمامًا، إذ فتح مفهوم العنصر الكونى فى الإنسان (المفاهيم والقيم اللامادية الثابتة) الباب على مصراعيه للميتافيزيقا (الإيمان بوجود شيء فى عالم الطبيعة ولكنه لا يُردُّ بأكمله إليها).

وبذا أصبح عالمنا يحتوى على المحدود (المادى) واللامحدود (الذى لا يمكننا الإحاطة به حتى ونحن ندرك مظاهره). وإذا كان اكتشافى للشر فى النفس الإنسانية ومحاولة تفسيره قد قادنى بعيدا عن الإيمان، فإن اكتشافى للخير فى النفس الإنسانية عاد بى إلى عالم الإنسانية والإيمان.

لاحظت من حولى ثنائيات تحتاج لتفسير. ثنائية المادة واللامادة، الطبيعة وما هو ليس بطبيعة، الإنسانى وغير الإنسانى. ولتفسير هذه الثنائيات كان لا بد من الإقرار بثنائية أساسية تفرزها: ثنائية عالم الصيرورة (الأمر الواقع) ونقطة ما تقع خارجه (نقطة ثابتة منزهة متجاوزة) هى نفسها ضمان ثبات الإنسان وانفصاله عن الطبيعة، هذه النقطة هى الإله. فكأنه لا يمكن تفسير ظاهرة الإنسان المستقل عن الطبيعة إلا بوجود الخالق ﷻ، المفارق للطبيعة/ المادة. لهذا أرى أنه حينما أعلن نيتشه موت الإله فإنه كان يعلن - فى واقع الأمر - موت الإنسان، فإذا مات الإله - على حد قوله - كان على الإنسان أن يعيش فى عالم مادى طبيعى، شىء مصمت، ويتحول هو نفسه إلى كائن طبيعى مادى يقف «شيئًا» بين الأشياء، أى أنه هو الآخر يموت، وهذا ما عبَّرت عنه الآية الكريمة بقولها: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر:19].

*** المعراج: عرج بى الإنسان/الإنسان إلى الله**

وهكذا، بدلًا من الوصول إلى الإنسان من خلال الله (أن أعرف سمات الإنسان الإنسان من خلال الكتب السماوية)، وصلت إلى الله من خلال الإنسان، ولا يزال هذا هو أساس إيمانى الدينى، وهو ما أسميه «الإنسانية الإسلامية» التى تنطلق من رفض الواحدية المادية وتصر على ثنائية الإنسان والطبيعة/ المادة، وتصعد منها إلى ثنائية الخالق والمخلوق. ولم يحدث التحول الكامل من الرؤية المادية الواحدية إلى هذه الثنائية إلا فى أوائل الثمانينيات، أى

أن عملية مقاومة الإيمان من جانبي دامت ما يزيد على ربع قرن. وبالتدريج تحول الإيمان إلى رؤية شاملة للكون، وإطار للإجابة عن كل التساؤلات.

*** أيها الإنسان... من أنت؟.**

وصفت الإنسان في الموسوعة بالكلمات التالية:

أولا: إن إنسانية الإنسان تعبِّر عن نفسها من خلال مظاهر عديدة من بينها النشاط الحضاري (الاجتماع الإنساني - الحس الخلقي - الحس الجمالي - الحس الديني).

ثانيًا: الإنسان كائن عاقل قادر على استخدام عقله، وقادر على تطوير منظومات أخلاقية غير نابعة من البرنامج الطبيعي/ المادي الذي يحكم جسده واحتياجاته المادية وغرائزه، وهو قادر على الالتزام بها وقادر أيضًا على خرقها، لذلك فهو الكائن الوحيد الذي لا يستجيب مباشرةً للمثيرات وإنما يستجيب لإدراكه لهذه المثيرات وما يُسقطه عليها من رموز وذكريات.

ثالثًا: الإنسان كائن صاحب إرادة حرة برغم الحدود الطبيعية والتاريخية التي تَحُدُّه. وهو كائن واع بذاته وبالكون، قادر على تجاوز ذاته الطبيعية/ المادية وعالم الطبيعة/ المادة.

رابعًا: الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتميَّز كل فرد فيه بخصوصيات لا يمكن محوها أو تجاهلها. فالأفراد ليسوا نسخًا متطابقة يمكن صبها في قوالب جاهزة وإخضاعها جميعًا لنفس القوالب التفسيرية، فهو ظاهرة متعددة الأبعاد ومركبة غاية التركيب ولا يمكن اختزاله إلى بُعد واحد من أبعاده أو إلى وظيفة واحدة من وظائفه البيولوجية أو حتى إلى كل هذه الوظائف.

خامسًا: الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يطرح تساؤلات عما يُسمَّى «العلل الأولى» (من أين جئنا؟ وأين سينتهى بنا المطاف؟ وما الهدف من وجودنا؟). وهو لا يكتفى أبدًا بما هو كائن ولا يرضى بسطح الأشياء؛ فهو دائب النظر والتدبر والبحث، يغوص وراء الظواهر ليصل للمعانى الكلية الكامنة وراءها. وهذه كلها تساؤلات تجد أصلها فى البنية النفسية والعقلية للكائن البشرى (النزعة الربانية).

سادسًا: لا تُوجَد أعضاء تشريحية أو غدد أو أحماض أمينية تشكل الأساس المادى لهذا الجانب الروحى أو الربانى فى وجود الإنسان وسلوكه، لهذا فهو يشكل ثغرة كبرى فى البناء الطبيعي/ المادى. وهو ليس جزءًا لا يتجزأ من الطبيعة وإنما هو جزء يتجزأ منها، يوجد فيها ويعيش عليها ويتصل بها ولكنه ينفصل عنها. قد يقترب منها ويشاركها بعض السمات، ولكنه لا يُردُّ فى كليته إليها بأى حال، فهو دائمًا قادر على تجاوزها، وهو لهذا مركز الكون وسيد المخلوقات. وهو، لهذا كله، لا يمكن رصده من خلال النماذج المُستمَدة من العلوم الطبيعية.

سابعًا: أصبح الإنسان فى منظومتى كائنًا يعيش فى عالم الطبيعة/ المادة ولكنه يحوى داخله عناصر غير طبيعية، أى متجاوزة للطبيعة، يتسم بثنائية الروح والمادة، ومن ثم فإنه تتنازعه نزعتان: نزعة للعودة إلى الطبيعة/ المادية (أسميها النزعة الجنينية)، وأخرى للإحساس بالاستقلال عنها وتجاوزها (أسميها النزعة الربانية).

ثامنًا: إذا كان الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على تجاوز ذاته الطبيعية، فهو أيضًا الكائن الوحيد القادر على الارتداد عنها. ولذا نجد أن الخير والشر ظاهرتان إنسانيتان لا علاقة لهما بعالم الحيوان.

الثمرة الخامسة والسبعون...

ثم الإسلام

تنوع مصادر تجربتى الدينية

هذه هى رحلة الانتقال فى الزمان والمكان والفكر ثم العودة إلى الجذور، رحلة طويلة وشاقة، نتيجة تأمل طويل فى الذات الإنسانية وفى الكون، واقتناع بفشل النموذج المادى فى تفسير ظاهرة الإنسان، وإدراك لأهمية البعد الدينى فى حياة الإنسان.

كان هناك وقبل كل شىء المخزون الضخم داخلى من التراث الدينى الإسلامى وتجربتى مع المجتمع التقليدى فى دمنهور فى طفولتى وصباى. ففى سن الثالثة عشرة، كنت قد قرأت القرآن عدة مرات وعرفت الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة، وكنت كذلك قد قرأت كتاب فقه السنة للشيخ سيد سابق، ولذا كنت أعرف الفروق الدقيقة بين المذاهب الأربعة فى كثير من الأمور. وكنت أعرف كذلك الكثير من قصص السيرة والخلفاء والصحابة، كما كان لى معرفة بتاريخ المسلمين.

وقد عدت لقراءة القرآن مرة أخرى، والكتب التى تتناول التراث الإسلامى، بما فى ذلك الفلسفة الإسلامية. وكان هناك بعض المفكرين الإسلاميين مثل مالك بن نبى وسيد حسين نصر وفضل عبد الرحمن الذين قرأت كتاباتهم وساعدتنى على فهم الإسلام بطريقة جديدة تجيب عن كثير من تساؤلاتى. وقد تراسلت بعض الوقت مع الأستاذ سعيد رمضان (رحمه الله) الذى كان كريمًا معى فكان يرد على رسائلى.

وقد ساعدتنى دراستى للأدب، خاصة الأدب الرومانتيكى، وكذلك اللاهوت المسيحى على تعميق إحساسى الدينى وإحساسى بتركيبية الوضع

الإنسانى. ولا أنسى كلمات القديس أوغسطين St. Augustine: «أنت لن تحب الرذيلة بسبب الرجل، ولن تكره الرجل بسبب الرذيلة، بل فلتحب الرجل ولتكره الرذيلة». وهى لا تختلف كثيرًا عن قول علىّ بن أبى طالب: «لا يُعرف الحق بالرجال، وإنما يُعرف الرجال بالحق». كما أننى أعجب كثيرًا بالموسيقى الكنسية ومعمار الكاتدرائيات الكاثوليكية، وأحرص على زيارتها والتأمل فيها بحُسبانها تعبيرًا متميزًا عن تجربة دينية عميقة.

وقد تعرفت إلى الحاخام يوسف بيخر Youssef Becher فى أثناء إقامتى فى الولايات المتحدة، وهو حاخام أرثوذكسى أمريكى من أصل شرق أوروبى، وكان يُكرس جل وقته للحرب ضد الصهيونية بحُسبانه يهوديًا مؤمنًا وبحُسبانها حركة كفر وهرطقة. وقد أهديته كتابى أرض الوعد: «إلى يوسف بيخر، محب صهيون». وأميِّز فى الكتاب بين الحب الدينى لصهيون، وهى رغبة روحية لتجاوز العالم المادى (وأنا كمسلم ليس عندى أى مشكلة مع مثل هذا التطلع الدينى) وبين الشهوة الاستيطانية، أى الرغبة الصهيونية فى الاستيلاء المادى على فلسطين من جهة أخرى، تلك الرغبة التى ما زلت أقف ضدها بكل ما أوتيت من قوة، انطلاقًا من أنها قمة الرفض للظلم والتفاوت بين البشر.

لعلك لمست من هذه التفاصيل تنوع مصادر تجربتى الدينية. فبرغم أننى تبنيت الإسلام فى نهاية الأمر، رؤية للحياة وأيديولوجية ومرشدًا للسلوك، فإن المسار الذى قادنى إليه كان متنوعًا ومركبًا ومختلفًا عن المسار العادى. ولا شك فى أن هذا قد ترك أثره على رؤيتى الدينية وعلى سلوكى تجاه الآخرين ممن هم ليسوا من أبناء ملتى واعتقادى.

*** كيف نتعامل مع الآخر؟**

إن الرقعة المشتركة بين الأديان، فى المجال الأخلاقى، واسعة. لذا أرى أنه يجب التوصل إلى «عقد اجتماعى» يستند إلى هذه الرقعة المشتركة، على

أن تُناقش الخلافات العقائدية فى أقسام العقائد ومدارس اللاهوت. (وهى خلافات حقيقية، عادةً لا يفهمها البشر العاديون برغم معاركهم الدائمة بشأنها!) والنقاش هناك سيكون نقاشًا علميًّا هادئًا، ولن يتحول إلى مذابح لا عقلانية، لا تفيد أحدًا سوى أعداء الله والإنسان والأخلاق. مما يستحق الذكر أن هذه هى الطريقة المصرية فى التعامل مع الدين، فحتى عهد قريب كانت تسود المجتمع معايير أخلاقية عامة بخصوص العيب والمباح، والحشمة والتبرج، والأصول وما هو خارج عنها، معايير يتقبلها الجميع، ويسلكون فى إطارها، دون أن يتحدث أحد قط فى العقائد.

* لماذا الإسـلام؟.

بقيت مدة من الوقت مؤمنًا بالله وبالإسلام، ولكن إيمانى بالإسلام لم يكن له أى أساس فكرى وفلسفى واضح فى ذهنى (وأنا لا أقبل شيئًا إلا إذا كان له أساس فلسفى). وقد حيرنى هذا السؤال بعض الوقت، لِمَ الإسلام وليس أى دين آخر؟ وحيث إننى أحب أن أكون أمينًا - قدر طاقتى - فى الأمور الفكرية، فقد كنت أذكر لأصدقائى أنه لا يوجد سبب واضح، ثم أدركت الإجابة:

أولا: عندما تبلورت قضية «وحدة الوجود» فى ذهنى، وضرورة وجود مسافة بين الخالق والمخلوق، وجدت أن الإسلام هو أكثر العقائد ابتعادًا عن فكرة توحد الخالق بمخلوقاته (وحدة الوجود)، أى أن التوحيد فى إطار الإسلام - فى تصورى - هو أكثر أشكال التوحيد رقيًا وتساميًا.

ثانيًا: أدركت ما أسميه «النسبية الإسلامية» وهى الإيمان بأن الله وحده هو الثابت الذى لا يتحوَّل وما عدا ذلك فمتغيِّر، وهو وحده الذى يحيط بكل شىء ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:

58] و﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف:67]. أما نحن البشر فلا نعرف إلا جزءًا من الحقيقة، مما يسمح بتعدد الرؤى. **والنسبية الإسلامية التى أدعو إليها لا تؤدى إلى العدمية** (كعدمية النسبية المادية المطلقة)، فهى **نسبية لا تمتد إلى المرجعية النهائية**، ومن ثم لا تؤدى إلى تعددية مفرطة فى المعانى والمرجعيات، بحيث يصبح العالم بلا معنى وبلا مركز.

ثالثًا: من المفاهيم المركزية فى تصورى، أن الله ﷻ ليس إله العرب أو المسلمين أو قوم أو عِرْق دون الأقوام والأعراق الأخرى، بل هو رب العالمين أجمعين، يشملهم جميعًا بعدله ورحمته، وبذلك **يصبح الإسلام من أكثر العقائد تسامحًا وقبولًا للآخر**، برغم أنه يحدد الحدود ويضع الفواصل.

ويمكننى القول: إن إيمانى أساسًا **إيمان عقلانى** (بل يمكن أن يوصف بأنه جاف)، فأنا لا أشعر بأى شىء يشبه شعور المتصوفين، ولا أنفعل دينيًا إلا نادرًا. ومن تلك اللحظات النادرة التى انفعلت فيها، زيارتى للكعبة لأول مرة، كنت أسمع عن بعض المسلمين ممن يشفهم الوجد ويقعون فى غرام الكعبة، ولا يشفيهم من وجدهم هذا إلا أن يقوموا بزيارتها مرةً أخرى، وأعترف بأننى مارست شيئًا من هذا القبيل بعد زيارتى للكعبة. ومع هذا تظل تجربتى الدينية عقلانية فى جوهرها.

* * *

الجزء الثانى: عالم الفكر

الفصل الأول: المنهج الفكرى وأدواته

يخبرنا د. المسيرى أن عملية الانتقال من ضيق المادية إلى رحابة الإنسانية والإيمان لم تكن مسألة هينة أو يسيرة.

ولعلك قد أدركت أن الركيزة المحورية فى فكر د. المسيرى هى إيمانه بأن الإنسان ظاهرة مركبة لا يمكن أن تُردَّ إلى ما دونها: (الطبيعة/ المادة). لذا فدراسة الإنسان تحتاج لـ«النماذج مركبة» تحوى قدرًا من الثنائية؛ أى تضع فى اعتبارها روحانية الإنسان (النفخة الإلهية) كما تضع فى اعتبارها ماديته (خلقه من طين). أما النماذج التى نحتاجها لدراسة الطبيعة فهى «نماذج مادية بسيطة»، قوانينها الرياضية الآلية تتسم بقدر من الثبات، لذا يمكن التنبؤ بنتائجها والتحكم فيها إلى حدٍّ بعيد.

وقد صاحب ظهور هذه الرؤية الدينية فى فكر د. المسيرى تَغَيُّر فى منهجه الفكرى وأدواته، فتبنى ثلاثة مفاهيم منهجية أساسية مترابطة متداخلة تُعبِّر

عن تحوله من النموذج المادى البسيط إلى النموذج المركب الذى يفصل بين الإنسان وبين الطبيعة/ المادة. هذه المفاهيم هى:

1- الانتقال من الموضوعاتية الفوتوغرافية المتلقية إلى الموضوعية الاجتهادية.

2- رفض العقل السلبى وتبنى رؤية توليدية للعقل.

3- رفض الرصد المباشر للواقع، مع إدراك أن الإنسان يدرك الواقع المحيط من خلال (الخريطة الإدراكية). وكذلك تبنى مفهوم «النموذج المعرفى كأداة تحليلية» (نموذج تحليلى) عند دراسة وتحليل هذا الواقع. وسنعرض فى هذا الفصل لأهم نموذجين معرفيين فى فكر د. المسيرى وهما الحلولية والعلمانية الشاملة.

ويعتبر تأصيل هذه المفاهيم الثلاثة مع تطبيقها فى إخراج سفره العظيم (موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيرى جديد) هو العطاء الأكبر للدكتور عبد الوهاب المسيرى للفكر الإنسانى.

أولًا: من الموضوعاتية المتلقية إلى الموضوعية الاجتهادية

الثمرة السادسة والسبعون...

كن موضوعيًا، ولكن أى موضوعية يقصدون؟

* الموضوعية الفوتوغرافية المتلقية

تُعتبر «الموضوعية الفوتوغرافية» نموذجًا معرفيًّا يتبنى أن المعرفة تتكون من التقاط وجمع أكبر قدر ممكن من تفاصيل الواقع (المادى) بصورة فوتوغرافية، وإدراجها فى محتوى البحث أو الدراسة. نتيجة لذلك فإن الناس جميعًا يدركون الأمر بنفس الطريقة لو تهيأت لهم نفس الظروف لإدراكه، أى إن تهيأت الظروف كان الإدراك واحدًا، ويُسمىَ ذلك «إدراكًا موضوعيًّا».

ويُسمَى هذا النمط من التفكير «التفكير المضمونى»؛ فهو يركز على المضامين المباشرة للمعلومات والنصوص التى يتلقاها الدارس دون تحليل أو تمحيص، ودون ربط بين المعلومات المختلفة وتجريد نمط متكرر منها، ودون وضعها فى سياقها الاجتماعى أو التاريخى.

والعقل ـ حسب هذا النموذج ـ مُستقبِل سلبى بسيط مثل الكاميرا، يحاول أن يحيط بالواقع كله وأن ينقل تفاصيله بحذافيرها، أى أنه آلة غير قادرة على الحذف والتهميش والاختيار والتضخيم والتحريف. وهذا التصور يلغى فعالية العقل وإبداعه، ويلغى الذاكرة التاريخية (الخبرات السابقة للبشرية وللباحث) كما يلغى مفاهيم المدرِك الأخلاقية وتحيزاته وأوهامه وآماله وآلامه وأحلامه والتى تؤثر بالضرورة فى عملية الإدراك.

* كن موضوعيًّا ولا تكن موضوعاتيًّا

كن واقعيًّا ولا تكن وقائعيًّا

غُص وراء الفكر ولا تقف عند الأفكار

إن التعامل مع المعلومات بأسلوب التلقى الفوتوغرافى ليس «موضوعيًّا» وإنما «موضوعاتيًّا»؛ بمعنى أن الدارس يكتفى برصد الموضوعات والتفاصيل وتسجيلها دون أن يربط بينها، ودون أن يبين ما هو المركزى منها ويستحق الإبقاء وما هو الهامشى ويستحق الاستبعاد، كما لا يبين ما هو المُعبِّر عن النمط الكلى فنستنبط منه قاعدة أو قانون، وما هو مجرد واقعة غير مُمَثِّلة للنمط الكلى.

وهناك فرق بين «الواقعية» و«الوقائعية»، فالواقعية هى أن تصل إلى جوهر الواقع (الماضى والحاضر والمستقبل)، عن طريق الربط بين الوقائع

المختلفة وترتيبها وتجريد (استنباط) معنى عام منها يتجاوز النظر إلى كل معلومة على حدة. أما **الوقائعية**، فهى مرتبطة بالحاضر وحسب، وهى عملية رصد مباشرة للوقائع الحالية، تُهمل ما هو كامن. لذا نجد أن الانهزاميين من دعاة التطبيع مع إسرائيل والعولمة والرضوخ للأمر الواقع يدَّعون دائمًا أنهم من «الواقعيين»، وهم فى حقيقة الأمر وقائعيون يُسقطون الأبعاد التاريخية والقدرات الكامنة التى يفجرها إدراك الإنسان إنه صاحب حق. أما الواقعيون الحقيقيون؛ فهم المجاهدون فى جنوبى لبنان والمنتفضون فى فلسطين الذين تجاوزوا الظاهر المحيط وتمسكوا بالحق وتحركوا فى إطاره، فأوقعوا الهزيمة بالعدو وأصبح النصر أمرًا واقعًا!.

ومن ثم فهناك فرق بين «الفكر» و«الأفكار». **فالأفكار**؛ هى أن يرصد الإنسان الفكرة تلو الأخرى ويسجلها دون أن يحاول أن يرى العلاقة بينها. أما **الفكر** فهو أن يقوم المرء بالربط بين الأفكار المختلفة ثم يقوم بإعادة تركيبها داخل منظومة محددة تتسم بقدر من التجريد والاتساق الداخليين ويُسمَّى هذا النمط من التفكير بـ **«التفكير البنيوى»**.

*** الحقائق والحقيقة والحق**

ومن ذلك كله، ينبغى أن نفرق بين الحقائق والحقيقة. **فالحقائق** هى معطيات مادية متناثرة لا يربطها رابط، أما **الحقيقة** فللعقل الإنسانى فيها دور كبير، إذ يقوم بالربط بين الحقائق ثم تجريد نموذج منها. أما **الحق** فهو ذروة السنام، إنه الأمر كما خلقه الله ﷻ أو كما نزل به الوحى، دون أن تشكله رؤية المدرِك بما له من تحيزات وأوهام وآمال وآلام.

*** الموضوعية المتلقية من خلال نكتة وجريمة**

من أطرف النكت عن الموضوعية الفوتوغرافية، التى تلغى دور العقل تمامًا، تلك التى حكاها لى د. أسامة الباز: سار شحاذ فى المدينة يعلن أنه

سيتزوج ابنة السلطان، وحينما تمادى فى ادعائه أمسكه أحدهم من قفاه، وقال: «لِمَ تُرَوِّج هذه الأكاذيب أيها الشحاذ؟»، فقال: «فى واقع الأمر، المسألة شبه منتهية، فأنا موافق على هذا الزواج، كما وافق كل من أبى وأمى عليه، ولم يبق سوى موافقة ابنة السلطان وأبيها وأمها». كنت أسأل طالباتى، لِمَ نضحك لهذه القصة مع أن الشحاذ صادق فيما يقول؟! ومن خلال الحوار نصل إلى أن الشحاذ، من ناحية الموضوعية المتلقية، لِمَ يكذب، فهو وأبواه يمثلون 50 ٪ من العناصر الموضوعية المُكَوِّنة للظاهرة، ولكن الأمر يختلف تمامًا إن أخذنا فى الحُسبان مدى قيمة وفاعلية كل عنصر فى القضية.

وأذكر مثلًا آخر: دخل مخبران غرفة وقعت فيها جريمة، وألقيا نظرة عليها. وبعد قليل دَوَّن أحدهما المعلومات التالية: جثة قتيل - مسدس أُستخدم لِتَوه - محفظة فارغة - زر أخضر، واستخلص من هذه المعلومات أن هناك جريمة قتل أُستخدم فيها مسدس بهدف السرقة، وأن القاتل كان يرتدى قميصًا أخضر. أما المخبر الثانى، فقد استمر فى عملية الرصد الموضوعى، وأخذ يُدَوِّن: كرسيان - قُطر المائدة - لوحة - لون السقف - لون السيراميك - ارتفاع الحائط... إلخ. والحقائق التى أوردها المخبر الثانى صحيحة لا مراء فيها، لكنه لم يستخدم عقله فى عملية الربط والتجريد التى تؤدى إلى اختيار بعض العناصر واستبعاد البعض الآخر، ومن ثم تاه المخبر فى خضم المعلومات الدقيقة الكثيرة غير المترابطة التى ليس لها أى قيمة تفسيرية. كما تُبين القصة أن تزايد المعلومات لا يؤدى بالضرورة إلى زيادة المعرفة والحكمة!.

*** المعلوماتية: البحث والتأليف بأسلوب الموضوعية الفوتوغرافية**

ويرتبط تمام الارتباط بالموضوعية المتلقية الفوتوغرافية مفهوم «المعلوماتية»؛ أى تصور أن المعرفة هى حشو المعلومات ومراكمتها، باعتبار

أن المعلومة مهمة فى حد ذاتها لا بسبب علاقتها بالموضوع الكلى. ومن ثم يصبح «التأليف» هو أن يحشد المؤلف أكبر قدر من المعلومات بغض النظر عن عدم ترابطها وعدم وجود بؤرة مركزية لها (فكرة رئيسية تدور حولها المعلومات). ويظن الباحث أنه كلما زادت المعلومات زادت درجة الاقتراب من الواقع، وتكون النتيجة أن يحشد الباحث معظم المعلومات والمراجع دون ربط أو تجريد (دون استخلاص قواعد عامة). وهذا المنهج السطحى لا يُفرِّق بين جمع مادة البحث وعملية البحث الحقيقية للخروج بنتائج، ومثال ذلك «البحث الموضوعاتى» محاولة إحصاء عدد القطط فى زنزبار مثلًا ! فهو جهد لا طائل من ورائه، والبحث الحقيقى ليس إحصاء عدد القطط، وإنما تصنيفها داخل أُطر محددة.

أذكر مرة أن طلب منى أستاذى البروفسير فيليبس أن أكتب بحثًا عن كتاب الشعر لأرسطو، ففعلت وقرأته فى المحاضرة، وكان تعليق البروفسير طريفًا وحكيمًا للغاية؛ إذ قال ساخرًا: «مستر المسيرى كلنا نعرف أنك ذكى للغاية، بل نعرف أنك تفوق أرسطو علمًا، لكن فلتحاول أن تفهم قبل أن تُصدر أحكامك». وهذه بالمناسبة حقيقة ! فأى طالب فى أى جامعة فى العالم «يعرف» قدر ما عرفه أرسطو عشرات المرات من ناحية المعلومات، أما من ناحية المقدرة على التحليل والرؤية النقدية التى تصل إلى جوهر الأمور، فالأمر جدٌّ مختلف. لقد كان بحثى ماركسيًّا ملتهبًا، قمت فيه بدمغ الفيلسوف اليونانى «لسكوته عن الظلم المحيط به ولانحيازه للأسياد ضد العبيد» دون أن أضع فى الاعتبار ظروف العصر. ولم يكن نقد البروفسير فيليبس لى درسًا فى التواضع وحسب، وإنما كان درسًا فى ضرورة أن يسبق الحكم الأخلاقى (أو الطبقى أو السياسى) عملية فهم وتدبر. وهذا ما أطالب به فى الوقت الحالى عند دراسة علاقتنا بالصهيونية وإسرائيل، بل مع كل الظواهر؛ أن نبتعد عن الشجب والشتم دون أساس من دراسة عميقة.

* صــراع الموســوعة مع الموضـوعاتية المتلقية

علّق أحد أساتذة اللغة العبرية على «الموسوعة» بقوله: «إن المسيرى جمع من المعلومات قدر استطاعته، ومن ثم لا يمكنه أن يأتى بعد ذلك بجديد». وهذا يتعارض تمامًا مع إسهامى الأساسى فى الموسوعة؛ وهو أننى توصلت إلى نموذج معرفى، يُيسِّر تحليل الظاهرة الصهيونية وفهمها.

فعلى سبيل المثال؛ عُقد المؤتمر الصهيونى الأول فى بال عام 1897، هذه المعلومة توجد فى كل الموسوعات، ومن ثم فأستاذ العبرية لم يرى سوى أننى نقلتها إلى الموسوعة، ولم يضع يده على الإشكاليات التى تثيرها الموسوعة حول هذه المعلومة؛ مثل لمَ عُقد هذا المؤتمر فى ذلك التاريخ ولم يُعقد قبل أو بعد ذلك؟ ولمَ عُقد فى بَال (حيث توجد جماعة يهودية صغيرة) ولم يُعقد فى ميونيخ التى كانت توجد بها واحدة من أكبر الجماعات اليهودية فى العالم الغربى؟، لقد كان الرجل يبحث عن المعلومة ولم ير الإطار التحليلى.

وقد واجهتنى مشكلة الموضوعاتية المتلقية بحدة فى محاولتى تعريف الصهيونية. فالصهيونية كما وردت فى الكتب والقواميس الغربية هى «حركة تحرير الشعب اليهودى» أو «عودة اليهود لوطنهم القومى أو أرض أجدادهم أو الأرض التى وعدهم الإله إياها»، وهنا تساءلت: «هل تتطلب الموضوعية منى نقل هذا التعريف بحذافيره، رغم أنه يتضمن مفاهيم كثيرة لا يمكن قبولها؟، وإن رفضت هذا التعريف، هل يتعارض هذا مع الموضوعية ويَسِمُنى بالذاتية؟».

وقد استشرى داء الموضوعاتية المتلقية والمعلوماتية إلى درجة كبيرة، حتى إن أحد مراكز البحوث طلب منى أن أكتب دراسة فى موضوع يهود العالم، واشترط الاقتصار على ذكر المعلومات بلا تحليل! وهو أمر مستحيل،

فكتبت مقالًا كان مظهره معلوماتيًا واضحًا (جداول - إحصائيات... إلخ)، أما مخبره فكان تحليليًا، ومن ثم وجد طريقه إلى النشر بسهولة.

* الموضوعاتية المتلقية والإعلام المُوَجَّه

يمثل الكثير مما يعرضه علينا الإعلام الغربى حقائق جزئية للغاية، يُطلَق عليها «أكاذيب حقيقية True lies»، أى كلمة حق يُراد بها باطل. فقد يعرض الإعلام حقائق ووقائع لا مراء فيها، ومع هذا يتم توظيفها بطريقة لا تتفق والحقيقة الكلية، ومن ثم فهى «أكاذيب». فهل الموضوعية تعنى أن نُورِد الأخبار كما هى، رغم إدراكنا أنه قد تم انتقاؤها بعناية لإخفاء عشرات الأخبار الأخرى أو تهميشها؟؛ انظر إلى العمليات الاستشهادية التى يقوم بها الفلسطينيون، فهى إرهاب عندما يُسقط الإعلام أسبابها ويُسقط ما يفعله الصهاينة بالفلسطينيين.

وقد تفنَّنت محطة الـCNN فى تفتيت القضايا وتحويلها إلى وقائع ومعلومات متناثرة، حتى إن نشرة الأخبار تحوَّلت إلى نوع من أنواع التسلية، إذ تعطيك المعلومات فور حدوثها، ولكنها معلومات تُعرض منفصلة عن قضاياها الأم، ومن ثم لا دلالة لها. ومما زاد الأمر سوءًا أن الإعلام العربى سقط فى الموضوعاتية المتلقية، إذ اكتفى بنقل المفاهيم الغربية بلا وعى أو إدراك.

* الإنسان الموضوعى والإنسان الموضوعاتى

يمكن تلخيص المفاهيم السابقة من خلال المقارنة بين:

الإنسان الموضوعى	الإنسان الموضوعاتى
صاحب موضوعية اجتهادية	صاحب موضوعية متلقية
باحث عن الفكر	باحث عن الأفكار
يغوص وراء الحقيقة	يقف عند الحقائق

باحث بالأسلوب التحليلى	باحث بالأسلوب المعلوماتى
صاحب تفكير بنيوى	صاحب تفكير مضمونى
واقعى	وقائعى

الثمرة السابعة والسبعون...

الموضوعاتية المتلقية والتعليم الجامعى

ينظر د. المسيرى إلى هموم الجامعة وأمراضها من خلال مفهوم «النموذج المعرفى»، فيجد أن «الموضوعاتية الفوتوغرافية المتلقية» تقف وراء معظم هذه المشاكل، حتى إنه يُرجع عشرة أمراض جامعية إلى هذا المفهوم. بينما ينظر آخرون إلى كل مشكلة منها باعتبارها مرضًا قائمًا بذاته:

أولًا: تتضح سيطرة النموذج المعلوماتى على الجامعة فى ظاهرة الإملاء التى أصبحت الأسلوب الأساسى فى التعليم الجامعى، ينتظرها الطلبة ويقدمها الأساتذة وتصبح بمثابة الاتفاق الصامت بينهم. وإذا حاول أحد الأساتذة إلقاء محاضرة حقيقية تتطلب الحوار وإعمال العقل وجد نفسه يسبح ضد التيار.

ثانيًا: يلى الإملاء طبع المذكرات وبيعها للطلبة بسعر معقول أو مغالٍ فيه حسب درجة طمع الأستاذ، ومن هنا نشأت مشكلة الكتاب الجامعى.

ثالثًا: نصل إلى الهوة مع «الدروس الخصوصية»، وفيها تنحصر العملية التعليمية فى تدريب الطلبة على طريقة اجتياز الامتحانات. كنت فى أواخر أيامي فى الجامعة إن بدأت فى التأمل الفلسفى فى أحد النصوص أو أثرت قضية فكرية تسألنى الطالبات: «هل هذا ضمن

المقرر؟ هل هذا سيأتى فى الامتحان؟». وهكذا تنتصر الحقائق الصماء التى لا معنى لها، وتضيع الحقيقة ويذوى المعنى.

رابعًا: كذلك فإن فلسفة الامتحانات تنبع من نفس النموذج المعلوماتى، إذ يصبح هَم الطلبة أن يحفظوا عن ظهر قلب ما لقنهم إياه الأستاذ ليجتروه فى الامتحان. فى إحدى السنوات، أخبرت الطالبات أننى لا أمانع فى أن يرجعوا إلى الكتب فى الامتحان لمراجعة بعض النصوص الشعرية، فالمطلوب هو أن يُعملن عقولهن ويقمن بمقارنة نصين أو ثلاثة ثم يكتبن مقالًا نقديًا مقارنًا، لكن السيدة رئيسة اللجنة عَدَّت هذا نوعًا من الغش، وعبثًا حاولت أن أبين لها أن القضية ليست «تذكر النص» وإنما التعامل معه تحليلًا ونقدًا من وجهة نظر الطالب، ولكن هيهات، فالأستاذة المذكورة كانت مسجونة فى رؤيتها المعلوماتية الموضوعاتية الضيقة، ولعلها لم تسمع تعليق الشيخ محمد عبده حين قيل له إن فلانًا قد حفظ صحيح البخارى، فقال: «لقد أضيفت إلى البخارى نسخة جديدة!».

خامسًا: يتصور البعض أن موضوع الرسالة أو البحث يجب ألا يكون قد سبق الكتابة فيه، ذلك لأن جميع الباحثين (الموضوعاتيين) سيستخرجون من المراجع نفس المعلومات، بغض النظر عن خبرتهم وتجاربهم ورؤيتهم. أما أن يكون موضوع الرسالة قضية خاصة يشعر بها الباحث وتولد أسئلة محددة يطرحها على نفسه وعلى غيره ويحاول الإجابة عنها من خلال فهمه وخبرته فهذا أمر غير وارد. لذلك أصبح من المعتاد أن يُقال لطالب تقدم بموضوع رسالته: «لقد كُتب فى هذا الموضوع من قبل»، وكأن وجهة نظر الدارس مسألة عديمة الأهمية. ويساهم فى هذا التدهور تأثر الباحثين فى

العلوم الإنسانية بالعلوم الطبيعية التجريبية التى تتميز غالبًا برؤية واحدية.

سادسًا: إن الكثير من الأبحاث الجامعية الآن ليست «بحوثًا» على الإطلاق، فمعظمها عبارة عن المادة البحثية الأولية بعد تصنيفها سطحيًا، لذا حل التوثيق (الموضوعاتية المتلقية) محل التفكير والتحليل والتفكيك والتركيب (الموضوعية التحليلية الإبداعية). ومن ثم ظهر «داء النصوصية»، وهو أن يكتفى الباحث بحشد أقوال الآخرين، الواحد تلو الآخر، تأييدًا لكلامه. وقد أخبرنى أحد كبار الأساتذة الموضوعاتيين بنظريته فى مسألة البحث العلمى هذه، فهو يرى أن كل أستاذ جامعى يمتلك قطعة واحدة من العجين لا أكثر ولا أقل (مجموعة من المعلومات المتوافرة لديه) ليقوم بتشكيلها حسب الطلب، فهى تارة مقال (مربع)، وتارة أخرى بحث فى مؤتمر (مستدير)، وتارة ثالثة حديث إذاعى (كالإصبع)، ولا أدرى ما حجم هذه العجينة الآن بعد الإنترنت وثورة المعلومات!.

كنت ذات مرة أناقش رسالة موضوعها (العنصرية الصهيونية). لم تزد الرسالة عن إثبات أن الصهيونية حركة عنصرية! وقد تم ذلك من خلال مئات الاقتباسات. وبدأت مناقشتى بأن أخبرت الباحثة بأنها لم تأت بجديد على الإطلاق، إذ إنها لو سألت عربجيًا فى ميدان التحرير عن الصهيونية، لقال: «الصهيونية عنصرية يا ست هانم، عنصرية طبعًا». وأخبرتها أنه كان عليها أن تتعامل مع السمات الخاصة للعنصرية الصهيونية؛ جذورها - مسارها - مستقبلها، أى شىء إلا أن تثبت ما هو واضح وما هو معروف.

سابعًا: و يتضح نفس النموذج المعلوماتى فى مناقشة الرسائل، إذ تتحول المناقشة إلى مناسبة لاستعراض المعلومات. فيسأل الأساتذة

المتحنون الطالب لِمَ لَمْ يأت بكذا، ولِمَ لَمْ يذكر كذا، وأنه كان بإمكانه أن يطنب فى الحديث فى هذه النقطة أو تلك.

ثامنًا: وقد وصل مرض الموضوعية المتلقية إلى المعايير التى يُرقَّى بحَسَبِها الأساتذة. فلجان الترقية أصبحت تركز على عدد مراجع البحث وتاريخ نشرها، وتتجاوز عن وجهة نظر الباحث التحليلية. كما أصبحت الكتب التى يبدعها الباحثون لا تُقبَل فى لجان الترقية! ويبدو أن سمعة الكتب قد انهارت بعد أن تحولت إلى «مذكرات» تحتوى على مجموعة من المعلومات العامة المنقولة من مراجع أجنبية أو عربية، وإذا عدنا إلى الخمسينيات نجد أن أستاذ الجامعة المساعد كان لا يتقدم للترقية لوظيفة أستاذ إلا بعد أن ينتهى من تأليف كتاب، يُضَمِنَه جماع فكره ورؤيته.

ومن الأوهام الأخرى المسيطرة على لجنة الترقية «وهم التنويع»، أى أن يكتب المتقدم للترقية فى عدة موضوعات، لا موضوع واحد، بالرغم من أن التعدد والتنوع يمكن أن يكونا مؤشرًا على انعدام وجهة النظر والمقدرة على حشد المعلومات. ومع ذلك أصبح على الأستاذ/ البقال تنويع دراساته (أو بضائعه) بشكل يُرضى لجنة الترقية بمعاييرها المعلوماتية.

وقد استشرى المرض المعلوماتى حتى أصبح على المتقدم للترقية فى الوقت الحاضر أن يختار موضوعًا بالقرعة! نعم بالقرعة، ليكتب عنه فى غضون مدة قصيرة، دون أى اهتمام بميوله الفكرية أو القضايا والإشكاليات التى يواجهها. فالمهم هو اختبار مقدرته على حشد المعلومات بسرعة وإثبات أن أحدًا لم يساعده.

تاسعًا: وحينما يقرر أحد الأساتذة الكتابة عن موضوع ما، فإنه يخفيه عن زملائه بدلًا من مناقشتهم فيه، ذلك لأن البحث ـ حسب تصور

هؤلاء - يتكون من حشد المعلومات عن موضوع ما، وبالتالى يمكن أن «يلطشه» أحدهم ويسرع بالكتابة (أى حشد المعلومات) عنه قبل غيره.

عاشرًا: وتندرج تحت نفس المرض (الموضوعية المتلقية)، بالإضافة إلى مرض آخر وهو الروتين، محاولتى أن أُحَوِّل نفسى من أستاذ أدب إنجليزى إلى أستاذ علم اجتماع (لأن التناقض بين تخصصى الأكاديمى واهتماماتى الفكرية كان آخذًا فى الاتساع)، وخاصة أن لوائح الجامعات المصرية تسمح بذلك، شريطة أن يكون للأستاذ المتقدم عدد من المؤلفات فى التخصص الجديد. كنت أتصور أن مؤلفاتى فى الصهيونية تندرج تحت هذا التصنيف، بل كان كتابى «الأيديولوچيا الصهيونية: دراسة حالة فى علم اجتماع المعرفة» يُدرَّس فى مقررات علم الاجتماع فى بعض الجامعات العربية، وزيادة فى الاحتياط وتخطيًا للروتين سجلت لدرجة الماجيستير فى قسم الاجتماع فى الجامعة الأمريكية. ولكن قابلت أحد أعضاء لجنة الترقية لدرجة أستاذ فى علم الاجتماع فأخبرنى بأن الأمر الذى أحاول إنجازه مستحيل؛ لأن هذا يعنى أننى أبدأ من القمة وهذا ما لا تسمح به البيروقراطية فى مصر، بلد الأهرامات القديمة والراسخة. فتوقفت عن محاولتى المحكوم عليها سلفًا بالفشل، وقررت أن أحسم التناقض بالاستقالة تمامًا من الجامعة حينما حان الوقت.

قارن ذلك بما حدث مع صديقى كافين رايلى الذى لم يحصل على درجة الدكتوراة بسبب ما أصابه من إنهاك فى أثناء تأليف كتابه الغرب والعالم. ولكن أحد أساتذته فى جامعة رتجرز سمع بالكتاب، فاستدعاه وطلب منه

تقديم الفصل الأول والثانى من كتابه كرسالة للدكتوراة وحصل بناء عليهما على الدرجة !.

الثمرة الثامنة والسبعون...

الموضوعية الاجتهادية: التحليلية: الإبداعية: الخَلَّاقة

إن **جوهر عملية البحث والإبداع** - فى تصورى وتصور الكثيرين غيرى - هو:

1- أن يكتشف الإنسان علاقة بين ظاهرتين لم يكتشفها أحد من قبل.

2- ثم يربط بين الظاهرتين ويستنتج نمطًا عامًا (قاعدة) يمكن تطبيقه على المواقف المشابهة.

3- أن يرى الواقع من جديد فى ضوء هذه العلاقة الجديدة.

ولذا أسمى هذا النوع من التفكير «**الموضوعية الاجتهادية**» (فى مقابل الموضوعاتية المتلقية أو الفوتوغرافية)، وتعنى ألا ينقل الإنسان الواقع بحذافيره كأنه ببغاء أو آلة تصوير بلهاء، وإنما **يُعمل عقله وخياله فيربط بين التفاصيل ويجرد (يستخلص) منها أنماطًا متكررة تساعده على فهم الواقع بطريقة أعمق وأشمل**.

يجب أن نعترف أن الرصد المباشر للظواهر والذى تتسم به **الموضوعاتية الفوتوغرافية المتلقية يتميز بالابتعاد التام عن الذاتية**. وفى المقابل فإن الترتيب والربط بين العناصر الذى تتميز به **الموضوعية الاجتهادية يدخل** فيه عنصر الاختيار الذى يرتبط «**بذات**» الباحث التاريخية والفردية، لذلك لا بد أن نحدد **أولويات** ما نرصده من المعلومات؛ أيها جوهرى يستحق الإبقاء وأيها فرعى يستحق الاستبعاد من وجهة نظرنا نحن بينما يقوم باحث آخر يتعامل مع نفس القضية باستبعاد معلومات يراها الباحث الأول أولا بالإبقاء، إذ لا

توجد وجهة نظر مطلقة فى العلوم الإنسانية، ولعل وجود هذه الأولويات من أهم ما يميز العلوم الإنسانية عن العلوم الطبيعية.

*** البحث والتأليف فى ضوء الموضوعية الاجتهادية**

ينبغى أن ينطلق المؤلف فى بحثه من إشكالية / تساؤل محدد، وإلا وجد نفسه يحشد المعلومات حشدًا دون منطق داخلى واضح. وفى أثناء الكتابة، تتوافر لدى الباحث مجموعة من المعلومات، بعضها مهم للغاية فى حد ذاته، لكنها قد تقع خارج سياق البحث وتشتت القارئ عن متابعة الأطروحة الأساسية، ولذلك يجب على الباحث استبعادها، وهذا أمر مهم وصعب للغاية، **فالمهم هو اختيار المعلومة المناسبة ووضعها فى الإطار الكلى لا مجرد ذكرها.** وددائمًا أنصح طالباتى **بالابتعاد عن منهج السرد التاريخى**، إذ يصبح هَم الباحث هو حشد المعلومات المرتبة تاريخيًا، وبدلًا من ذلك أوصيهن أن **يكون البحث من خلال موضوعات وإشكاليات** (مثل هذه الرحلة).

كذلك يتناول كتاب **الغرب والعالم** (الذى كتبه كافين رايلى) تاريخ الحضارة من خلال موضوعات وإشكاليات ومن خلال رؤية مُرَكَّبة؛ لا تَرُد التاريخ والإنسان إلى عالم المادة والطبيعة، ولا تُعطى أى مركزية للحضارة الغربية، وإنما تقدم رؤية عالمية حقة يتنقل صاحبها بسهولة ويسر من المدينة إلى القرية ومن الحاضر إلى المستقبل ومن عالم الآلة إلى عالم الفن.

وكان تجاوز الموضوعاتية المتلقية والرصد المباشر هو ديدنى فى دراساتى وأبحاثى. مثال ذلك **تحليلى لواقعة تشييد متحف الهولوكوست** (المحرقة) فى الولايات المتحدة: عند إنشاء المتحف قال البعض إن هذا تعبير عن قوة النفوذ الصهيونى، ولكن مع قليل من البحث والتمحيص، اكتشفت أن الدولة الصهيونية لم تكن سعيدة تمامًا بهذا المتحف، فهى تَعُدُّ نفسها مركز اليهود واليهودية، وقد أسسوا نصب ياد فاشيم فى إسرائيل ليكون رمزًا

للهولوكوست ومزارًا مقدسًا يتعبد فيه «اليهود»، فإذا بنى يهود الولايات المتحدة متحفًا للمحرقة كان هذا توزيع للقداسة وتنافس مع أرض الميعاد، ومن هنا كان اعتراض بعض الإسرائيليين الفاهمين على إقامة هذا المتحف. ومثل هذا التركيب (تعارُض الظاهر مع الباطن) لا يمكن للموضوعاتية المتلقية اكتشافه، فهى تكتفى بالتلقى وبالرصد السطحى السريع.

* النـقـد الأدبـى فى ضوء الموضـوعية الاجتهادية

فى محاولتى ترسيخ مفهوم الموضوعية الاجتهادية فى وجدان الطلبة والطالبات، كنت أخبرهم أن النص الأدبى لا ينطق بشىء بمفرده، كما أن الناقد لا يمكنه أن ينطق بشىء دون نص. لذا فالعملية النقدية فى جوهرها هى عملية «استنطاق»؛ فالناقد يقول ما يقول من خلال النص، ومن ثم فالنص يكشف عن سره بمقدار فهم الناقد، وبذلك يصبح البحث عن المعنى «الوحيد» للنص بحث عقيم.

كنت أدرس الأدب الرومانتيكى الإنجليزى فى جامعة كولومبيا مع أحد كبار الأساتذة، وذات يوم سأل سؤالًا طريفًا إذ قال: ماذا كان الشعراء الإنجليز سيفعلون بلا جبال؟ (إذ إن الجبال مُكوِّن أساسى فى الشعر الرومانتيكى الإنجليزى)، فكان معظم الطلبة يجيبون بأنه من المستحيل تخيل الشعر الرومانسى الإنجليزى بدون جبال، أما أنا فقلت إن الجبال ليست لها أهمية فى حد ذاتها، فالشعر الرومانتيكى لا يتناول الطبيعة فى حد ذاتها، وإنما باعتبار أنها مادة خام يشكلها عقل الإنسان حسب رؤيته. لذا لو لم يكن فى إنجلترا جبال، لاخترع الشعراء الإنجليز جبالًا أو شيئًا يشبه الجبال كبديل لها، ما أشبه ذلك المعنى بقول الشاعر نزار قبانى:

الحبُ فى الأرض بعضٌ من تخيلنا   لـو لم نجـده عليهـا لاخترعنـاه

ولا أظن أن نزارًا قد سمع الحوار ونقل عنى الفكرة ! ولكنها ظاهرة التأثير والتأثر التى سنعرض لها فيما بعد.

وكان هذا الأستاذ نفسه مغرمًا بقصيدة «قوبلاى خان» للشاعر كوليردج، وهى قصيدة عن سلطان شرقى شيد قبة تنبجس فيها نافورة. وكان الأستاذ يرى أن كل قصائد كوليردج هى تنويعات على هذه القصيدة، لذا كان يبحث دائمًا عن النوافير فى قصائد كوليردج، فذكرت له أن جوهر النافورة هو الاندفاع إلى أعلى، فهى حركة من الأرض إلى السماء، وهذا ما يجب أن نبحث عنه، لذا فالأشجار الباسقة التى تعانق السحاب أو الطيور التى تنطلق من الأرض إلى الأفق كلها تنويعات على النافورة. هنا اضطر الأستاذ للاعتراف بمقدرتى على التجريد والتحليل وتجاوز السطح المباشر.

ثانيًا: العقل التوليدى، ورفض العقل السلبى

الثمرة التاسعة والسبعون...

العقل التوليدى فطرة فى النفس الإنسانية

حجبها رُكام الموضوعاتية المتلقية

ارتبط رفضى للموضوعاتية الفوتوغرافية بالنظر إلى العقل باعتباره «كيانًا توليديًا وليس مجرد وعاءً ماديًّا متلقيًا للمعلومات». وفكرة العقل التوليدى فكرة أساسية فى المنظومة الإسلامية، فالإنسان يولد على الفطرة، أى عنده استعداد داخلى لفعل الخير كما أن عنده استعداد داخلى لفعل الشر، عليه أن يختار بينها، ويصف الله ﷻ هذه الفطرة بقوله ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: 10].

ويرى الفيلسوف الألمانى إيمانويل كانط أن العقل ليس مجرد صفحة بيضاء تنطبع عليها المعطيات المادية، إنما هو كيان زُوِّدَ بمفاهيم قَـبْلية سبقت التجربة الحسية، وهى مفاهيم يؤمن العقل بصدقها أو كذبها بمعزل عن التجربة. ومن أمثلة المعرفة القبلية؛ مقدرة الطفل على أن يُولِّد كلمات جديدة من خلال القياس؛ فيقول «حَجَرات» (بدلًا من «أحجار» التى يقولها الكبار) قياسًا على صيغة الجمع لكلمات أخرى تعلمها (مثل أكلات)، بالرغم من أنه لم يتعلم قواعد القياس من أحد. هذه المفاهيم الفطرية القَبلية تجعل العقل قادرًا على إعادة صياغة الواقع وترتيبه، بدلًا من تلقيه بشكل ببغائى.

ولكى أوضح لطلبتى وطالباتى مقدرة العقل التوليدى على الإبداع، كنت أقول لهم (مازحًا) إنهم لو قرءوا أعمال أرسطو بعناية للاحظوا مدى تأثره بأفكارى. كنت بهذه الطريقة أحاول أن أبين لهم أننى الأستاذ المصرى العربى المسلم من دمنهور يمكن أن أصل إلى أفكار ربما لا تقل فى عظمتها أو روعتها عن أفكار أرسطو. وهى مبالغة الهدف منها تنبيههم ليتعرفوا على إمكاناتهم الداخلية، ولا يخافوا من الإبداع.

وبطبيعة الحال لم أكن ألجأ فى محاضراتى إلى الإملاء مطلقًا، وكنت أخبر الطالبات أن ما أقوله اليوم قد يختلف عما قلته بالأمس، فأنا أتغيَّر وعقلى يُولِّد دائمًا الجديد من الأفكار تبعًا لتنوع تجاربى الحياتية والوجودية. كما كانت محاضراتى تأخذ شكل أسئلة لتوليد الإجابات داخل الطلبة ليكتشفوا إمكاناتهم (هذه الطريقة ممكنة مع أعداد معقولة من الطلبة، أما مع الجيوش الجرارة فليس هناك بديل للمحاضرات الإملائية والمذكرات الجامعية، التى تتبعها مفاوضات قبل الامتحانات بين الأستاذ والطلبة لحذف بعض الأبواب حتى ينكمش المقرر).

الثمرة الثمانون...

العقل التوليدى يحل إشكالية التأثير والتأثر

تُرجع ظاهرة «التأثير والتأثر» مَواطن الشبه فى إنتاج أديب وآخر إلى انتقال صورة أو عبارة أو كلمة أو كلمتين من خلال قراءة أحدهما لأعمال الآخر. ونحن لا ننكر إمكانية حدوث هذا النوع من التأثير والتأثر، لكن إذا نظرنا عبر منظور «مقدرة العقل التوليدية» لأدركنا وجود عوامل أخرى تؤدى إلى اهتداء المفكرين لأفكار متشابهة؛ مثل إنسانيتهما المشتركة، وتماثل العقول الإنسانية، وانتشار مناخ ثقافى معيَّن يؤدى إلى نفس النتائج فى مجتمعات مختلفة.

الثمرة الحادية والثمانون...

جمال حمدان، عبقرى فذ صاحب عقل توليدى

أكـاديمى أفلت من قبضة الموضوعاتية المتلقية

لقد فقدت كلمة «أكاديمى» معناها؛ إذ أصبحت تشير إلى أى شخص محدود الإبداع عديم الخيال، يُلحق ببحثه قائمة طويلة من المراجع، ويشرح أطروحته بطريقة مملة، يُحدث أصواتًا معرفية ولا يُبدى رأيًا (أسمع ضجيجًا ولا أرى طحنًا).

وإذا أخذنا كتاب جمال حمدان «اليهود أنثروبولوجيًا» كمثال، وجدنا أنه ليس دراسة أكاديمية بالمعنى السلبى، وإنما دراسة عميقة كتبها عبقرى مصرى فلتة، لا يكتب البتة إلا انطلاقًا من لحظة معاناة ذات طابع تاريخى، ويهدف دائمًا إلى الوصول إلى الحقيقة.

لذا فكل كتب جمال حمدان تحاول الإجابة عن سؤال ما، وتصب كل

الأسئلة فى مشروع فكرى واحد، محوره مصر. لذلك فجمال حمدان «صاحب موقف وصاحب فكر» وليس ناقلًا للأفكار. فصاحب الفكر هو إنسان يمتلك منظومة فكرية تتسم أجزاؤها بالترابط والاتساق الداخلى (فهى تُعبِّر عن قلقه وآماله)، ويكمن وراءها نموذج معرفى واحد (رؤية محددة للكون). أما ناقل الأفكار، فهو إنسان ينقل بأمانة وحياد شديدين أفكارًا متناثرة لا يربطها رابط، وتنتمى كل فكرة منها إلى منظومة فكرية مستقلة، وهذه الموضوعاتية المتلقية فى واقع الأمر تعبير عن مـوت القلب والعقل والضمير والهوية.

* جمال حمدان وأنا: التأثير والتأثر

كلما تأملت فى علاقتى بجمال حمدان هالنى حجم **تأثرى بطريقة تفكيره**. لقد طالعت فى كتاباته الكثير من المعلومات والوقائع، فأخذت منها ما أخذت، واستبعدت ما استبعدت، ثم تبدلت المعلومات وتحورت، ولكن بقى ما هو أهم.

لقد تعلمت من جمال حمدان الكثير، تعلمت من فكره ورؤيته ومنهجه. من الواضح أننى تعلمت منه **رفض الواحدية المادية العلمية ورفض التعصب للمناهج المباشرة، كما تعلمت إعادة الاعتبار للخيال والمجاز والحدس فى عملية التفكير العلمى**. وتعلمت منه كذلك الخروج بالظواهر اليهودية والصهيونية من دائرة التوراة والتلمود والدراسات اليهودية وإدخالها فى نطاق العلم الإنسانى العام. ولكن أهم ما تعلمته منه هو **طريقة التفكير والنظر وكيفية التأمل فى المعلومات وتفسيرها**. لقد تعلمت من جمال حمدان **كيف تُكتشف الأنماط داخل ركام التفاصيل المتغيرة، وكيف نُجَرِّد الحقيقة من الحقائق. ولا أدرى هل تعلمت منه أيضًا شيئًا من الصلابة والقدرة على المقاومة؟.**

ثالثًا: رفض الرصد المباشر للواقع

الخريطة الإدراكية والنموذج المعرفى

القارىء الكريم ...

قطعنا مع د. المسيرى فى هذا الفصل شوطًا ممتعًا من رحلته، جَسَّد فيه رفضه للموضوعاتية المتلقية، ومن ثم رفض النظر إلى العقل باعتباره مستقبِلًا سلبيًّا كالكاميرا. وفى مقابل ذلك أَصَّل مفهوم **الموضوعية الاجتهادية** التى يقوم فيها العقل بوظيفة توليدية. وإذا كان د. المسيرى يرفض الرصد المباشر للواقع، فكيف إذًا يمكن أن نرصد هذا الواقع؟. للإجابة عن هذا السؤال ينبغى أن نقف مع إشكاليتين:

الأولى: كيف «يدرك» الإنسان الواقع المحيط به؟.

يجيب د. المسيرى بأن ذلك يتم من خلال **«الخريطة الإدراكية»**.

الثانية: كيف «ينظر» الباحث أو المتأمل إلى فكر المفكر وسلوك المجتمعات؟

يرى د. المسيرى أن ذلك يتم من خلال منظور **«النموذج المعرفى كأداة تحليلية»** أى **«النماذج التحليلية»**.

الثمرة الثانية والثمانون...

الخريطة الإدراكية: كيف يدرك العقل الواقع

لا يدرك الإنسان واقعه بشكل حسى مادى مباشر، إلا فى حالات نادرة تتسم بالبساطة، كأن تلسع يده سيجارة أو يدخل فى عينه جسم صلب. فالإنسان ليس فقط مجموعة من الخلايا والأعصاب والرغبات والدوافع المادية (الاقتصادية أو الجسمانية)، وسلوكه ليس مجرد أفعال وردود أفعال

مشروطة، تتحكم فيها قوانين الميكانيكا أو البيولوجيا. إن «العقل الإنسانى» ليس مجرد «مخ مادى»، ليس صفحة بيضاء تنطبع فيها الأحداث المادية كما يشبهه الماديون.

إن العقل الإنسانى يُدرك الواقع من خلال ما يُسقطه على هذا الواقع من أفراح وأتراح، وأشواق ومعان، ورموز وذكريات، وأطماع وأحقاد، ونوايا خَيِّرة وشريرة، وكذلك من خلال مجموعة من المفاهيم الأخلاقية والرمزية والأيديولوچية. وتعيش هذه الأمور فى عقل الإنسان (الواعى واللاواعى) ووجدانه وتشكل له «خرائط إدراكية» يتعامل بها مع الواقع الخام؛ فهذه الخرائط تستبعد وتهمش بعض التفاصيل فلا يراها، وتؤكد البعض الآخر بحيث يراها مهمة ومركزية، لهذا حينما يتصرف الإنسان فإنه لا يسلك كرد فعل للواقع المادى بشكل مباشر وإنما كرد فعل للواقع كما يدركه هو بكل تركيبيته.

ولنطرح مثالًا طريفًا يقربنا من مفهوم الخريطة الإدراكية: يُروى عن مارى أنطوانيت (ملكة فرنسا قبل الثورة) أن بعض الحراس وجدوا فلاحًا مغمى عليه من فرط الجوع، فأتوا به إليها، فأشفقت عليه وقالت له: «يا سيدى، لا يجب أن تتبع هذا الرجيم القاسى»! وفى رواية أخرى أنهم أخبروها أن الفلاح لم يجد خبزًا ليأكله مدة أسبوع، فقالت مستنكرة: «لماذا لم يأكل جاتوه؟»! لم تكن ظاهرة الفقر والجوع جزءًا من مخزون مارى أنطوانيت الإدراكى، لذا لم تستطع إدراكها، بل فسرت ما رأت بالأسباب التى تعرفها وتشكل خريطتها الإدراكية (الرجيم- الجاتوه بدلًا من الخبز)، أى أنها أدركت ما حولها من خلال خريطتها الإدراكية.

تطبيقات على الخريطة الإدراكية

* الخريطة الإدراكية ونشأة الدولة الصهيونية

أرى أن الدولة الصهيونية ليست دولة يهودية، وإنما دولة استعمارية استيطانية إحلالية تؤدى وظيفة مزدوجة: تخليص أوروبا من اليهود مع نقلهم إلى فلسطين ليشكلوا قاعدة للاستعمار الغربى، أى أن المشروع الصهيونى حَوَّل يهود أوروبا والعالم إلى أداة لتحقيق هدفه الاستراتيجى. ولما كان من الصعب أن تقنع أى إنسان بأن يتحول إلى مجرد أداة، كان لابد من تغيير خريطته الإدراكية بحيث يمكنه أن يتحرك بحماس ويحمل السلاح دفاعًا عما يتصوره ويتبناه.

ولتحقيق ذلك تحركت القيادة الصهيونية على مستويين: أولًا، أكدوا لليهود والعالم أن اليهود كتلة بشرية قومية متماسكة لها تاريخها الخاص وخصائصها الفريدة وأن لها حق مطلق فى فلسطين، ومن ثم فهم «عائدون» إلى فلسطين (وليسوا محتلين أو مستعمرين) بناء على الوعد الإلهى وليس بناء على وعد بلفور. ثانيًا، أخذ الصهاينة يتحدثون عن التوراة والتلمود، واتخذوا بعض الرموز الدينية، حتى تصور الكثيرون أن دولتهم بالفعل دولة يهودية وأن ما تقوم به من بطش ومذابح دفاع مشروع عن النفس أو عن العقيدة أو عن أرض الأجداد أو عن الهوية اليهودية للدولة، وفى هذا الإطار تصبح المقاومة الفلسطينية مسألة غير مشروعة وغير مفهومة، بل وتصبح إرهابًا !.

* المواجهة بين الواقع والخريطة الإدراكية القاصرة

عادة ما تكون الخريطة الإدراكية غير واعية، يحملها الإنسان فى عقله ويتحمس لها ويعتقد أنها أكثر الأشياء صوابًا ومنطقية؛ فالإنسان العنصرى

لا يرى إلا فضائل قومه ومساوئ الآخر. وأسوأ ما يمكن أن يحدث للإنسان هو اهتزاز ثقته فى خريطته الإدراكية، وهذا ما حدث للمستوطنين الصهاينة مؤخرًا؛ فخريطتهم الإدراكية كان محورها وأساسها أن «فلسطين أرض بلا شعب»، أو على الأقل شعب يشبه الهنود الحمر يمكن القضاء عليه، لذلك أصدر المجلس الإقليمى لمستوطنات غور الأردن الاستعمارية قبل اندلاع انتفاضة الأقصى خريطة سياحية لا تظهر عليها أى قرى أو مدن عربية. ولكن الواقع أثبت العكس، إذ اكتشف المستوطنون أن فلسطين أرض يسكنها شعب عريق يمثل جزءًا من تشكيل حضارى قديم ومركب، وهو يتزايد كمًا وكيفًا بطريقة مزعجة. لذلك اهتزت الخريطة الإدراكية تمامًا لدى المستوطنين الصهاينة وسعوا إلى تغيير الواقع بالقوة حتى يتسق مع خريطتهم الإدراكية الأسطورية، ولكن الواقع يفرض نفسه ومقاومة أصحاب الأرض تتصاعد.

والخريطة الإدراكية ليست أمرًا راسخًا إذ يمكن تغييرها. فقطاعات لا بأس بها من الجماهير الإسرائيلية بدأت تدرك عبث محاولة فرض الأسطورة الصهيونية (الخريطة الإدراكية الصهيونية) على الواقع الفلسطينى. ومن أهم الأمثلة على إمكانية تحرر الإنسان من خريطته الإدراكية القاصرة وتبنى خريطة جديدة ما حدث للمفكر اليهودى نيثان بير نباوم الذى نلخص أطواره الفكرية فيما يلى:

1- قام بتأسيس الحركة الصهيونية واشترك فى المؤتمر الصهيونى الأول، بل هو الذى قام بنحت كلمة «صهيونية» ذاتها.

2- ثم اكتشف تدريجيًا خطورة الصهيونية باعتبارها حركة ستقوض الانتماءات الحقيقية ليهود العالم، فترك الحركة الصهيونية وانضم لدعاة اليديشية (لغة يهود شرق أوروبا)، الذين كانوا يطالبون بالحفاظ

على الهوية اليهودية الشرق أوروبية والتى يمكن أن تتحقق فى وطنها روسيا وبولندا (وهذا يختلف عن نقطة الانطلاق الصهيونية التى ترى أن ثمة هوية يهودية عالمية لا بد أن تتحقق فى أرض الميعاد).

3- ثم تغيرت خريطته الإدراكية بشكل أعمق، إذ وجد أن العودة إلى اليهودية الحاخامية التقليدية هو الحل الوحيد، وأصبح بذلك من أعدى أعداء الصهيونية (فاليهودية الحاخامية قبل صهينتها كانت تُحَرِّم العودة إلى فلسطين وتعتبر السعى إلى ذلك خطيئة كبرى، إذ يعقبها إبادة اليهود كما تشير التوراة).

*** كيف نتعامل مع الخريطة الإدراكية الغربية حول الصهيونية؟**

ينبغى أن يسعى السياسيون العرب لتغيير الخريطة الإدراكية للعالم الغربى عن الصهيونية. وأعتقد أن حكم محكمة العدل الدولية فى لاهاى يمكن أن يشكل بداية لإعادة الأمور إلى نصابها، فهو يبين أن الدولة الصهيونية دولة محتلة، وقد علقت الصحافة الإسرائيلية على هذا الحكم ووصفته بأنه يرفرف كراية حمراء فوق إسرائيل، وأنه سيضفى شرعية على عمليات المقاومة. كما يجب استغلال قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة عام 1975 (والذى وسم الصهيونية بالعنصرية) فى اقناع العالم بإعادة تصنيف الدولة الصهيونية، (أى تغيير الخريطة الإدراكية التى تؤكد خصوصيتها وتفردها) والنظر إليها باعتبارها دولة منبوذة، تمامًا كدولة التمييز العنصرى التى حكمت جنوب إفريقيا من قبل.

وهذا المفهوم الذى ينبغى أن يتبناه الإعلام العربى هو أساس ما أسميه «الحوار المسلح»؛ الذى يعنى المقاومة المسلحة المستمرة التى يصاحبها إعلام قوى يحاول أن يبين حقيقة الصهاينة فى المنطقة بوصفهم جيبًا استعماريًّا استيطانيًّا إحلاليًّا يمثل الاستعمار الغربى ويخدم مصالحه.

* الخريطة الإدراكية والغزو الأمريكى للعراق

أعتقد أن قصور الخريطة الإدراكية كان وراء فشل المخابرات الأمريكية والإنجليزية بخصوص أسلحة الدمار الشامل وعلاقة الرئيس صدام حسين بتنظيم القاعدة، والتى استندت إلى أدلة ثبت زيفها فيها بعد، وما تبع ذلك من شن الحرب على العراق.

لقد كانت **«الخريطة الإدراكية الإمبريالية الأمريكية»** تنطلق من ضرورة غزو العراق (أعلن جورج بوش قبل 11 سبتمبر أن الولايات المتحدة ستغزو أفغانستان ثم العراق we will do Afghanistan first, then we will do Iraq)، والدافع وراء هذا المخطط كان تراجع الولايات المتحدة اقتصاديًّا وتعاظم قوة آسيا الاقتصادية (خاصة الصين)، فأرادت الإدارة الأمريكية أن تدعم موقفها التفاوضى فى العالم بالهيمنة على منابع البترول فى بحر قزوين والعالم العربى. كما أن برنارد لويس، المستشرق الأمريكى الصهيونى، زَيَّن لبوش مسألة غزو العراق بقوله إن القضاء على الراديكالية الإسلامية والعربية يمكن تحقيقه بغزو دولة عربية كبرى وإخضاعها تمامًا. لقد استوعب المسئولون فى المخابرات الأمريكية هذه الخريطة الإدراكية الإمبريالية وبدأوا يجمعون الأدلة على وجود أسلحة دمار من بعض أعداء نظام صدام حسين، واستبعدوا كل الأدلة التى تناقض خريطتهم الإدراكية، وقد صدقت الإدارة الأمريكية هذه الأدلة لأنها كانت تريد تصديقها.

ومن سوء حظ أصحاب قرار الحرب أنهم لم يدركوا أن الإعلام الأمريكى قام برسم **«خريطة إدراكية حياتية للمواطن الأمريكى»** أدت إلى تفريغ هذا الإنسان ومن ثم الجنود الأمريكيين من كل القيم المثالية والنضالية. وتركز هذه الخريطة الإدراكية على: 1- تحوِّيل الإنسان الأمريكى إلى كائن اقتصادى استهلاكي ذو توجه شديد نحـو اللذة وتحقيق الذات، 2- أن كل الأمور

نسبية، ولا يوجد معيار يُرجع إليه عند الحكم على الأمور مما يعنى تقويض الإيمان بأى شىء، 3- أصبح الإنسان الأمريكى غير مهتم بالسياسة الخارجية وشئون العالم، وتفرغ لأمور معاشه التى تمسه شخصيًا وترك مشاكل الدفاع والسياسة الخارجية للإدارة الأمريكية. لذلك عند إرسال مثل هذا الشخص إلى بلد خارجية، فإنه لن يقاتل بضراوة ولن يتحمل أى ألم؛ فالإنسان لا يتحمل الألم إلا من خلال إيمانه بشىء ما يتجاوز ذاته الضيقة.

كما أن صانع القرار الأمريكى لم يدرك أيضًا «**خريطة العراقيين الإدراكية**» وتُصوَرَهم مجرد حيوانات اقتصادية مادية سترحب بالمحتل. لم يدرك الأمريكيون أن قيمًا معنوية كامنة تحرك العراقيين مثل رفض الظلم والاحتلال، وإدراكهم العميق للطبيعة الاستعمارية للمشروع الأمريكى، وكذلك إيمانهم بالله الذى يملأهم ثقة بأنفسهم وبمقدرتهم على المقاومة أمام الآلة العسكرية الضخمة.

الثمرة الرابعة والثمانون...

النموذج المعرفى كأداة تحليلية: النموذج التحليلى

إن النموذج المعرفى عند د. المسيرى هو المنظار الذى ينبغى أن ينظر الباحث من خلاله إلى الواقع. فالإنسان فى واقع الأمر لا يدرك شيئًا مما حوله بشكل مباشر، وإنما من خلال نموذج معرفى يتم تكوينه تدريجيًا، حتى يصبح جزءًا من وجدانه وسليقته وإدراكه. أما الإدراك المباشر للواقع بتفاصيله المتناثرة فهو تلق سطحى للأمور (كعدسة الكاميرا) لا يؤدى إلى أى فهم حقيقى.

ونكرر هنا المثال الذى طرحناه فى مقدمة الكتاب حتى يَسْهل علينا فهم معنى النموذج المعرفى: إذا نظرنا إلى واقع المسلمين، فإن من يتخذون «فكر

المؤامرة» نموذجًا معرفيًا ينظرون من خلاله للواقع، سيرجعون حالنا المتدنى إلى تحالف قوى خارجية آثرت ألا تقوم للمسلمين قائمة. أما من يتمتعون بالقدرة على النقد الذاتى ويعتبرون أن النجاح هو محصلة مقدمات وأسباب، إن أخذنا بها أصبنا النجاح وإن أهملناها أصابنا الفشل، فهؤلاء ينظرون إلى الواقع من خلال نموذج «**الأخذ بالأسباب**» ويُحَمِّلون تقصيرنا مسئولية ما نحن فيه إلى حد بعيد.

والباحث لا يخترع النماذج التحليلية، فهى «**كامنة**» فى النصوص التى يقرؤها الإنسان أو يكتبها، وفى الظواهر الاجتماعية التى يحيا داخلها والمعايير التى يعيش وفقها. ومهمة الباحث - فى تصورى - أن يحاول «**اكتشاف**» هذه النماذج فى أدب هذا الأديب وفكر ذلك المفكر وفى سلوك أعضاء هذا المجتمع، وعلى الباحث بعد ذلك «**صياغة**» النموذج التحليلى ثم يقوم بـ«**النظر من خلاله للواقع**»، فيقوم بتفكيك الواقع (أى فك عناصره الأساسية الواحد عن الآخر) ثم إعادة تركيبه بحيث يصبح الواقع أو النص مفهومًا بشكل أكبر (عملية تأسيس).

ومما لا شك فيه أن **التفكيك** أمر ضرورى للتأمل والنقد، فهو يكشف المفاهيم الحقيقية الكامنة بعد أن يزيل الغشاوات التى يزيف بها أصحاب المصالح الحقيقة. ومهمة الناقد التفكيكى أن يكشف عناصر التحيز الكامنة فى الخرائط الإدراكية والنماذج التحليلية المهيمنة والتى تعبر عادة عن وجهة نظر السلطة القائمة. أما التأسيس فهو عملية إبداعية تركيبية تتجاوز التفكيك، فهى تتطلب الغوص فى كل الأبعاد السياسية والاقتصادية والدينية والمعرفية للظاهرة، كما تتطلب نحت نماذج تحليلية جديدة وإعادة ترتيب الوقائع وتصنيفها فى ضوئها. وبالأمثلة يتضح المعنى:

الثمرة الخامسة والثمانون...

تدريبات عملية على النماذج المعرفية

يدربنا د. المسيرى على صياغة النماذج المعرفية وعلى النظر من خلالها إلى الواقع من خلال حديثين شريفين صحيحين:

الحديث الأول: قال رسول الله ﷺ «عُذِّبت امرأة فى هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هى أطعمتها وسقتها إذ هى حبستها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض». والحديث الثانى: فهو قول رسول الله ﷺ «بينما رجل يمشى اشتد عليه العطش، فنزل بئرًا فشرب منه ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى، فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفيه ثم رقى، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له. قالوا: يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجرًا؟ فقال: فى كل ذات كبد رطبة أجر».

إذا قمنا بحصر عناصر الحديثين بأسلوب الموضوعاتية المتلقية التى تنظر إلى الأمور بسطحية، سيبدو الحديثان كما لو كانا متناقضين:

الحديث الأول	الحديث الثانى
امرأة - هرة - جوع	رجل - كلب - عطش
بطش بالحيوان وزيادة الجوع	رفق بالحيوان ورَىْ العطش
الموت للقطة، وجهنم للمرأة	الحياة للكلب، والجنة للرجل

أما إذا طلبنا فهمًا أعمق للحديثين، وأردنا أن ندرك العلاقة بينهما فينبغى أن ننظر إليهما من خلال مفهوم النموذج المعرفى. وللوصول إلى نموذج معرفى يجمع الحديثين يجب اتباع الأسلوب المنهجى لتكوين وصياغة النماذج المعرفية، ونَبسطه فيما يلى:

1- نبدأ بأن نزيل عن الموقف الذى ندرسه التفاصيل غير ذات الدلالة. فى موقفنا هذا لا يوجد ما يمكن حذفه، فرسول الله ﷺ قد أوتى جوامع الكَلِم.

2- نجمع بين التفاصيل الهامة المتشابهة (عملية ربط).

3- نستنبط من عملية الربط معنى مشترك (عملية تجريد).

2- ربط بين الحديثين	3- تجريد معنى مشترك
الرجل والمرأة	إنسان
القطة والكلب	حيوان
الجوع والعطش	شعور الكائن الحى
حياة وموت	نتيجة حتمية
البطش والرفق بالحيوان	فعل إنسانى
زيادة الجوع ورى العطش	شعور حيوانى
موت القطة وحياة الكلب	نتيجة مادية
الجنة والنار	عاقبة غيبية

4- ثم نزيد من عمليات الربط والتجريد فنضع الأحداث على هيئة :

فاعل - مفعول به - فعل - عاقبة.

5- ويمكن بعد ذلك أن نرتفع بعمليتى الربط والتجريد إلى المستوى المعرفى ورؤية الكون. ويحتاج ذلك معرفة بعض المفاهيم الأساسية الحاكمة فى الإسلام (الاستخلاف - الأمانة - موضع الإنسان فى الكون).

6- وبعد عمليات الإبقاء والاستبعاد والربط والتجريد تتكون صورة أو خريطة إدراكية تترسخ فى أذهاننا ووعينا بحيث لا نرى الواقع إلا من خلالها، ونبنى عليها النموذج المعرفى الذى نحلل فى ضوئه المواقف المشابهة (عملية إدراك وتحليل).

نستنبط من قراءتنا السابقة النموذج المعرفى الذى يدور حوله الحديثين:
«يبلور الحديثان **علاقة الإنسان بالطبيعة**، وهى علاقة استخلاف واستئمان، فالإنسان يُوجَد فى مركز الكون لأن الله كرمه وحباه عقلًا وحكمة. وقد سخر الله للإنسان الطبيعة لكنه ليس بصاحبها، فقد استخلفه فيها وحسب، وقد قَبِل الإنسان أن يحمل الأمانة، لذا لا ينبغى أن يبددها وكأنه وحده فى الكون: كائن لا متناه متأله».

*** من الكوسة والفول المدمس إلى العلاقات الأسرية**

ويضرب د. المسيرى مثلًا طريفًا على النماذج التحليلية من خلال مقارنة عقدها بين طريقة طبخ الطعام فى مصر وفى الولايات المتحدة، فقال: حينما يتناول المصرى طعامه، فهو **يتناول وجبة ساهمت آلاف السنين من التاريخ المصرى فى طهوها**. لهذا السبب، نحن لا نقدم **الكوسة** المسلوقة (والعياذ بالله) إلا للمرضى، أما الأصحاء فهم يأكلونها إما بالبشمل، أو محشية بالأرز أو اللحمة المفرومة أو كليهما، أو قد تُقدَم مطبوخة بالصلصة والسمن البلدى، وتستطيع أن تقول نفس الشىء على **الفول المدمس** الشهير، الذى يُترك على نار دافئة طوال الليل حتى ينضج ثم يضاف له بعد ذلك الزيت والملح والليمون.

على العكس من هذا، حينما يقرر **المواطن الأمريكى** تناول طعام العشاء (الوجبة الرئيسية) فزوجته عادةً ما تقدم له كمية لا بأس بها من البطاطس الحتمية المسلوقة أو المقلية، مع الهمبورجر أو مع شريحة كبيرة من اللحم المشوى أو المطبوخ، وحينما يسأم الأمريكى رتابة حياته الغذائية فهو عادةً يتناول وجبة أجنبية (صينية أو فرنسية) نتاج تاريخ بلد آخر. وبمقارنة الطريقتين نجد أن **الطريقة المصرية فى الطهو أكثر تركيبًا من الطريقة الأمريكية**، وهذه سمة تميز طعام الشعوب ذات الحضارات العريقة.

وإذا نظرنا إلى علاقة الرجل بالمرأة وبالأسرة فى المجتمعين المصرى والأمريكى لاحظنا نفس الاختلاف. فالرجل الأمريكى حينما ينظر إلى امرأة، فإنه يرى امرأة وحسب. فإذا أراد التعرف عليها فلا داعى للمؤامرات والمناورات والتلميحات. وإذا قرر الزواج منها فهو يتزوجها دون ضجيج أو صخب (ويطلقها بالبساطة نفسها). وهو عادةً ما يذكر هذا الأمر لأسرته (الأب والأم والإخوة والأخوات)، فالأعمام والأخوال وأولادهم ليسوا من الأسرة، وقد يدعوهم لحفل زفافه من باب العلم بالشيء وحسب، لأنه لا يبغى رضاهم ولا يخشى سخطهم، فعلاقته بأسرته قد انقطعت بعد بلوغه الثامنة عشرة وربما قبل ذلك السن، واقتصرت على المقابلات فى أعياد الكريسماس، ثم تظل تضمر إلى أن تقتصر على تبادل بطاقات المعايدة أو رسائل التليفون المحمول الخالية من أى محتوى إنسانى شخصى. لقد أصبت بالغثيان حينما تسلمت تقريرًا عاطفيًا عائليًا أرسله لى أحد أصدقائى يخبرنى فيه (ويخبر مائة شخص آخر) بأنه وزوجته وأولاده يرفلون فى حُلل السعادة وأنهم يخصوننى بالسلام!.

أما المصرى فإنه حينما ينظر إلى امرأة فإنه يرى امرأة ويرى معها طبقة اجتماعية وتاريخًا طويلا. فإذا قرر التعرف عليها، يجب أن يعرف خلفيتها العائلية لأن هذا سيحدد تكتيك وإستراتيجية الهجوم، وإن قرر الزواج فالزواج لا يتم على سنة الله ورسوله وحسب بل أيضًا حَسَب ما تقتضيه الطقوس الاجتماعية من شبكة ومهر ومقابلات بين الأسر للتعارف والتباهى. وهذا المصرى بعد زواجه يُبقى على علاقته بأمه وأبيه وأخيه وبأم زوجته وأبيها وأخيها. وعلى الزوج والزوجة أن يُقَسِّما وقتهما بالعدل والقسطاس فى زيارة أقارب الطرفين، والويل كل الويل لمن لا يحترم الموازين

الدولية الدقيقة. وإذا أراد المصرى أن يُطلِّق ـ لا قدر الله ـ فإنه يكتشف أن الطلاق هو أبغض الحلال عند الله، وأن المجتمع لن يتركه وشأنه قبل أو بعد الطلاق، فرسل الصلح وفاعلو الخير ـ ولله الحمد ـ كثيرون.

وكم كنت أصاب بالذعر الشديد لرؤية هؤلاء الأمريكان «المَرِنين» وهم **يودِعون أمهاتهم وآباءهم فى بيوت العجزة،** التى شُيدت لتسد حاجة نشأت فى المجتمع الأمريكى نتيجة لتفكك الأسرة الأمريكية. فعندما تبلغ سن الخامسة والخمسين فأنت لا تقطن مع ابن من أبنائك، كما لا يمكنك أن تعيش فى منزل بمفردك لأنه سيكون مكلفًا وكبيرًا على احتياجاتك، لذا تنتقل إلى أحد هذه المنازل المزودة بكل وسائل الراحة العصرية لتعيش فيه بقية أيامك الأرضية. وإذا قارنت بين **بيوت المسنين ومعسكرات الاعتقال النازية،** فستجد أن كليهما يضم بشرًا يرى المجتمع أنهم غير منتجين أو «أفواه تستهلك ولا تنتج «useless eaters»، لكن بينما يتم القضاء على المسنين فى الغرب بالتبريد (أجهزة تكييف الهواء) كان يتم إبادة نزلاء معسكرات الاعتقال النازية بالتسخين (أفران الغاز).

أما فى الشرق، حينما تهرم الأم أو الأب فإننا لا نرسلهما إلى «بيوت العجزة»، فهى غير منتشرة بعد فى مجتمعنا المتخلف. بل على المصرى أن يُبقى على علاقته بأبويه؛ يرسل إليهما النقود ويحارب ضد زوجته التى ترى أنه يبالغ بعض الشيء فى كرمه، كما تحارب هى ضده حتى تبقى على علاقتها الوثيقة مع أمها (أى حماته المصرية الشهيرة) التى تنغص عليه عيشته دائمًا. **إن الفرد المصرى لا وجود له خارج هذه الشبكة الهائلة من الطقوس الاجتماعية والقيم الدينية،** فوجوده وجود اجتماعى تاريخى بالدرجة الأولى، ووجود فردى بالدرجة الثانية.

القارىء الكريم...

بعد هذه الجولة، هل أدركت العلاقة بين أساليب الطبخ وبين العلاقات الأسرية؟ إن هناك نموذجًا معرفيًا واحدًا يهيمن فى الحالتين، نموذج يمكن تلخيصه فى كلمة واحدة «التاريخ». فالسلوك المصرى يتميز (**بالإقرار بالتاريخ**) سواء فى طريقة طهيه للطعام أو فى علاقاته الأسرية. أما السلوك الأمريكى فيهيمن عليه (**الإنكار للتاريخ**)، إنها الذاتية والفردية وحسب، إنه سعى لتحقيق الفرد المطلق Sovereign individual الذى يُشار إليه بأنه نقطة منعزلة.

الثمرة السادسة والثمانون...

النموذج المعرفى كلما ازدادت روافده ازداد اقترابًا من الحقيقة

بل ربما تغير النموذج إلى النقيض

من السمات المهمة للنموذج المعرفى أنه يساعد على تعميق الرؤية كلما ازداد تركيبية وكلما أضيفت إليه معلومات وظواهر كانت مهمَلة أو مهمَشة فى الماضى.

خذ على سبيل المثال **الإمبريالية الغربية (الاستعمار)**؛ ينظر إليها الكثيرون باعتبارها «**انحرافًا**» عن مسار الحضارة الغربية (مسارها الليبرالى الديمقراطى الإنسانى... إلخ)، وهم بذلك يستبعدون كمًا هائلًا من المعلومات الهامة. أما إذا غيَّرنا النموذج ونظرنا إلى **الإمبريالية بحُسبانها جزءًا عضويًا من الحضارة الغربية** وتعبيرًا عن شىء أساسى وجوهرى فيها، فإن كمًّا كبيرًا من المعلومات الجديدة سيدخل بسهولة ويسر فى نطاق النموذج التحليلى وسنكتشف أهميتها.

سنكتشف ـ على سبيل المثال ـ أن إبادة الشعوب الأخرى ليست مسألة انحراف، وإنما نمط عام متكرر: ملايين الهنود فى الأمريكتين ـ السكان الأصليون فى أستراليا ـ سكان الخانات التركية المجاورة لروسيا على يد الدولة القيصرية ـ إلقاء القنبلة الذرية على اليابان (دون حاجة عسكرية ماسة لذلك) ـ الفلسطينيون (الطرد والإبادة) ـ الجزائريون ـ شعب فيتنام... كما سنكتشف مثلًا أن قفزة الولايات المتحدة الصناعية فى الثلاثينيات من القرن الماضى تعود إلى حدٍّ كبير إلى العمالة الرخيصة (التى قدمها ملايين العبيد السود)، وأن مجموع ما سلبته إنجلترا من الهند إبان ثورتها الصناعية يفوق كل ما أنتجته فى تلك الفترة. هل أدركت ـ بعد تعديل النموذج المعرفى ـ بلاهة الحديث عن «التقدم الغربى» بحُسبانه نتيجة عناصر خاصة بالمجتمعات الغربية.

انظر كذلك إلى النموذج الصهيونى لتفسير ظاهرة الدياسبورا (المنفى). يشيع الصهاينة أن اليهود كانوا يعيشون فى وطنهم، ثم جاء القائد الرومانى تيتوس فحاصر القدس وهزم اليهود وهدم الهيكل، وبعدها بدأ نفى اليهود وتشتيتهم. هذه هى الرواية الصهيونية السائدة، التى يقبلها الجميع تقريبًا، وهذا النموذج يوجه أنظارنا إلى مجموعة من المعلومات ويستبعد غيرها. إن عدد اليهود بعد سقوط الهيكل (سنة 70 ميلادية) أصبح صغيرًا بالفعل، ويُرجع اليهود ذلك إلى تشتتهم القسرى. وعندما لاحظت أن الغالبية الساحقة ليهود العالم المعاصرين لم تهاجر إلى «وطنها القومى» المزعوم، طَرَحْت نموذجًا بديلا، وعدت إلى التاريخ لأقارن بين مصداقية النموذج البديل والنموذج الصهيونى. اكتشفت أنه قبل هدم الهيكل كان عدد اليهود الموجودين خارج فلسطين يفوق عدد اليهود داخلها بعدة أضعاف، فاليهود لم «يُنفوا» ولم «يُشتتوا» قسرًا وإنما انتشروا وحسب، شأنهم فى ذلك شأن كثير

من الجماعات البشرية الأخرى، وما كان هدم الهيكل سوى عنصرًا مساعدًا. أما الحرب التى خاضها تيتوس فلم تكن حربًا للرومان ضد اليهود، بل كانت حربًا للرومان ضد فريق من اليهود، إذ شارك الجيش الرومانى المحاصِر للقدس جيشٌ يهودى بقيادة «ملك اليهود» أجريبا الثانى، بل إن أخت أجريبا الثانى كانت عشيقة تيتوس وكان ينوى الزواج منها. بذلك تبنيت نموذجًا يرى **أنه عبر التاريخ آثرت الغالبية الساحقة من أعضاء الجماعات اليهودية الاستقرار فى أوطانهم خارج فلسطين، وهو النمط الذى استمر حتى الوقت الحاضر.**

الثمرة السابعة والثمانون...

النموذج المعرفى يمكن أن يتطور

لاحظت أثناء إقامتى خلال فترتين منفصلتين فى الولايات المتحدة (1963/ 1969 - 1975/ 1979) أن الجو الثقافى والأخلاقى العام يختلف قبل عام 1965 وبعده. فالولايات المتحدة فى النصف الأول من الستينيات كانت محافظة بشكل كبير، ثم بدأت حركة الجنس الحر، أو الجنس بلا ضوابط Free love movement، وصاحَبَها قدر من التفكك بدأ يتزايد بسرعة تفوق الوصف. فعلى سبيل المثال، كنا أنا وزوجتى نستضيف بعض الطالبات الأجنبيات فى منزلنا فى الأعياد، وكان علينا ـ قبل عام 1965 ـ أن نوقع على أوراق نتعهد فيها بإعادتهن إلى المدينة الجامعية قبل العاشرة مساءً. وحينما عدت فى السبعينيات، وجدت هناك بيوتًا مختلطة للطلبة والطالبات. كما أصبح الشذوذ الجنسى الذى كان «عيبًا» فى الستينيات مقبولًا تمامًا فى السبعينيات، بل أصبح الآن من قلة الحياء أن تذكر هذا الموضوع، إذ تم «تطبيعه» بحيث يصبح أمرًا طبيعيًّا تمامًا مثل الجنس العادى.

* **قال رسول الله ﷺ**

«لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى إذا دخلوا جحر ضب تبعتموهم».

حينما تركت بلدى فى الستينيات، كانت مصر تحكمها المعايير الأخلاقية، كما كان «العلم» كان محترَمًا وكانت الأبواب تُفتح حينما يعلم الناس أن الشخص الفلانى «دكتور». كما كان النظام الاشتراكى يضمن للناس الحد الأدنى من الرزق والكرامة، وكنت أخبر الأمريكيين أن مصر قد تكون بلدًا فقيرًا إلا أن الإنسان لا يمكن أن يُفصل من عمله إلا إذا ارتكب كبيرة، وأن ثمن السلع الغذائية الأساسية ثابت لا يؤثر فيه التضخم، كما أن إيجار المسكن زهيد للغاية. وكانت الدولة تجعل الثقافة فى متناول الجميع؛ فالكتب يشتريها من يريد، والموسيقى العربية والعروض المسرحية الهادفة يمكن الحصول على تذكرة لحضور حفلاتها ببضعة قروش.

حينما أذهب للولايات المتحدة الآن، فإننى لا يمكن أن أتحدث عن الأشياء نفسها. **فنقطتى المرجعية (مصر) قد تغيَّرت**، وأصبحت السوق الحرة هى الآلية الكبرى فى عالم الاقتصاد والأخلاق وأصبحت النقود هى المعيار الذى يَجُب غيره من المعايير. ولذا فالثقافة أصبحت باهظة التكاليف، كما أصبح العلم موضع سخرية وأصبح الطعام مكلفًا للغاية (حتى ساندوتش الفول الذى كان فى متناول الجميع). وحينما يجلس المواطن الآن أمام التليفزيون المصرى فإنه يقذفه بالإعلانات التى تحول زمانه الخاص إلى سوق يباع فيها كل شىء ويُشترى. أما انتشار العُرى والإباحية فى الطرقات والإعلام وكذلك انتشار الزواج العرفى فى المدارس والجامعات (النسخة الشرقية لحركة الجنس الحر) فحدث ولا حرج.

تعلمت من كل هذا أن ما يحدث فى بلد ما قد يحدث فى بلد آخر إذا ما توافرت المقدمات والظروف المشابهة، «فالمستقبل ثمرة من ثمرات الحاضر».
وفى إطار هذا التصور أصبح من الحتمى أن أنظر إلى الحالة فى مصر بحُسبانها حلقة فى سلسلة تتابع حلقاتها، وكما سرنا على خطى الغرب منذ بداية تنويره المظلم وحتى الآن، فمن المتوقع أن تستمر المسيرة (شبرًا بشبر وذراعًا بذراع).

* الغـرب مفهـوم وليـس جغـرافيـا

ينبغى أن ننظر إلى الغرب ليس باعتباره بقعة جغرافية، وإنما هو مفهوم أخذ يتطور ويأخذ أشكالًا مختلفة إلى أن أصبح كالآلة التى لا تكترث كثيرًا بالإنسان؛ تدور لتفرم الجميع حتى صاحبها. من كان يتصور فى الماضى أن ما يحدث الآن فى مصر كان يمكن أن يحدث؟. باختصار شديد، أنا لا أرى أن الشرق شرق والغرب غرب، أو أن الشرق روحى والغرب مادى، وإنما أرى أن هناك سلسلة من المفاهيم إن أمسكت بتلابيب حضارة ما سقطت هذه الحضارة فى هذه المفاهيم حتى آخر حلقة فى السلسلة (إلا إذا تصدى لها الإنسان بوعى إنسانى وأخلاقى).

الحلـوليـــة
ووحـدة الوجـود

الثمرة الثامنة والثمانون...

النزعة الجنينية والنزعة الربانية

السقوط فى الوحل أسهل كثيرًا من الصعود إلى النجوم

يُعتبر التمييز بين الإنسانى/ الربانى وبين الطبيعى/ المادى هو المحور الرئيسى فى تصورى عن العالم، وهو أيضًا الفكرة الأساسية الكامنة وراء

نموذَجَىّ الحلولية والعلمانية الشاملة. ولفهم هذين النموذجين لا بد أن نميز بين ما أسميه «النزعة الجنينية» و «النزعة الإنسانية أو الربانية».

أما **«النزعة الجنينية»** فهى نزوع لرفض كل الحدود التى تفصل بين الطبيعة والإنسان، وبين المخلوق والخالق، وتنظر إلى الإنسان باعتباره كائنًا ماديًّا غير متميز، لا خصوصية له. وهى محاولة للهرب من الواقع الإنسانى بما يفرضه من ثنائيات: خير وشر، إمكانيات النجاح والفشل، النهوض والسقوط، الحرية والحتمية، أى أنها **نزعة للهروب من تركيبية الذات الإنسانية وما يترتب عليها من أعباء ومسئوليات وتكاليف إلى عالم بسيط أحادى البُعد (الطبيعة/ المادة).**

هذا العالم الذى يهرب إليه الإنسان **يشبه الرحم**، حيث لا يفصل الجنين فاصل مادى أو معنوى عن رحم أمه، كما يشبه حياة الطفل الرضيع الذى يتصور أنه لا يزال جزءًا لا يتجزأ من أمه، وحينما يمسك بثديها يتصور أنه **قد تحكم فى العالم بأسره، وأنه قد تواصل مع العالم كله، فيشعر بالطمأنينة الكاملة، ولا توجد لديه أى رغبة للتجاوز لعالم أرحب،** ويظل الإنسان فى هذه الحالة إلى أن يتم فطامه وانفصاله عن أمه.

وقد أدرك مصمم الإعلان التليفزيونى عن سيارة BMW الذى شاهدته فى التليفزيون الفرنسى شيئًا من هذا المعنى. يبدأ الإعلان بثدى أم، ثم تظهر صورة طفل يمسك بهذا الثدى ويبدأ فى الرضاعة، ثم تعرض الكاميرا صورة رجل يجلس مستريحًا على كرسى السيارة، وكأن الرجل فى علاقته بالسيارة مثل الطفل فى علاقته بثدى أمه، إنها العودة إلى عالم ملىء بالطمأنينة وبلا مشكلات.

أما النزعة الإنسانية أو الربانية، فهى نزعة تميز الإنسان عن الطبيعة، والمخلوق عن الخالق، مما يعنى **أن العالم يتسم بقدر من الثنائية.** وتعنى أيضًا أن الإنسان (حين يلغى وحدته مع الطبيعة ومع الخالق) يصبح كائنًا حرًا

مسئولًا، يقبل عبء الهوية الإنسانية، يعيش داخل الزمان مثل الكائنات الطبيعية ولكنه يدرك أنه مختلف عنها، فهو مستخلَف من الله، يحوى داخله عنصرًا غير مادى غير طبيعى (نسميه «القَبَس الإلهى»)، عنصر يُحول الإنسان من إنسان طبيعى إلى إنسان إنسان أو إنسان ربانى.

إن هاتين النزعتين أصيلتين فى النفس البشرية، تتنازعانها بشكل دائم. وجاذبية النزعة الجنينية (فى مقابل النزعة الربانية) عالية للغاية، فهى تعمل مع قانون الجاذبية الأرضية وتعمل الثانية ضده، وكما أقول إن السقوط فى الوحل أسهل بكثير من الصعود إلى النجوم.

الثمرة التاسعة والثمانون...

الحلولية عودة إلى الرحم وإلغاء الثنائيات

إنها ثمرة النزعة الجنينية

تُعَبر النزعة الجنينية فى الإنسان (الرغبة فى العودة إلى طمأنينة الرحم وإلغاء الثنائيات والذوبان فى الكل - الطبيعة أو الإله -) عن نفسها من خلال ما أسميه مذهب «الحلولية» أو «الكمون»، الذى يرى أن العالم بناءٌ عضوى واحد خاضع لقوانين واحدة كامنة فيه. ويرى مذهب الحلولية أن كل ما فى الكون (الإله والإنسان والطبيعة) مُكَوَّن من جوهر واحد، كما أن القوة المنظمة للكون ليست منفصلة عنه وإنما كامنة (حَالّة) فيه. لذا فالعالم مكتف بذاته نشأة وتنظيمًا، أى عالم واحدى لا يعرف الثنائيات.

الثمرة التسعون...

الحلولية ووحدة الوجود

ويؤدى مذهب الحلولية إلى مفهوم وَحْدة الوجود، التى تتبدى فى صيغتين متعارضتين ظاهرًا متفقتين حقيقة:

(أ) وحدة الوجود الروحية (الحلولية الروحية): وفيها يُسمَّى الجوهر الخالق والمنظم للكون «الإله»، لكنه إله يَحِلُّ فى مخلوقاته ثم يتوحد معها ويذوب فيها تمامًا بحيث لا يصير له وجود دونها ولا يصير لها وجود دونه، أى أنه لا يبقى من الإله سوى اسمه، فهو إله متحد تمامًا بالطبيعة المادية. ومن ثم يُصبح العالم ذو بُعد واحد لا يتسم بأى ثنائية للخالق والمخلوق، (**أنت هو وهو أنت**)، فكل الأشياء تسرى فيها روح القداسة وبنفس الدرجة: الشجرة ـ الطفل ـ القمامة ـ الخير ـ الشر ـ الطاقة ـ القوة.

ومن ثم يمكن الحديث بلغة روحية عن عالم المادة وبلغة مادية عن عالم الروح. وحين يمارس المرء تجربة جسدية ممتعة فيمكنه أن يصفها بأنها تجربة روحية ! والشعر الصوفى الحلولى ملىء بالإشارات الجنسية، تلميحًا فى بعض الأحيان وتصريحًا فى أحيان أخرى.

(ب) وَحْدة الوجود المادية (الحلولية المادية): وفيها يُسمَّى الجوهر الخالق والمنظم للكون **«قوانين الطبيعة»** أو **«القوانين العلمية»** أو **«حركة التاريخ»** أو **«الحتمية التاريخية»** إلى آخر هذه المطلقات. ويتم الاستغناء تمامًا عن اسم الإله (الذى احتفظ باسمه فى وحدة الوجود الروحية). وبذلك يحل الخطاب المادى الصرف محل الخطاب الروحى، فكل الأشياء فى نهاية الأمر مادية متساوية، ويعتبر هذا الخطاب أن قوانين الطبيعة/ المادة قوانين شاملة يمكن تفسير كل الظواهر ـ ومن بينها الإنسان ـ من خلالها.

*** وحدة الوجود والصوفية**

يجد الإنسان الذى يعيش فى عالم الحواس (النزعة الجنينية) صعوبة بالغة فى التعامل مع الأمور الغيبية وفى الانطلاق نحو الربانى، ومن هنا تَعلُّقَ

بعض الصوفية بالأضرحة والأولياء والسحر، هذه الأمور التى تُمكنهم من إدراك عالم الغيب من خلال الحواس الخمس.

وكثيرًا ما نجد المنشد فى الإنشاد الصوفى أن يبدأ قصيدته بالحديث عن فتاة جميلة (ليلى أو لبنى) وكذلك بذكر الخمر:

أنا مشغولٌ بليلى	عن جميع الكونِ جُملة
فإذا ما قيلَ من ذا	قل هو الصَّبُ المُوَلَّه
أخذته الراحُ حتى	لم تُبقِّ فيه فَضْلَه
راحُ أنسٍ راحُ قدسٍ	ليست الراحُ المُضِلَّه*

ويكشف لنا البيت الرابع أن الحبيبة والخمر رموز لمعانٍ أعمق.

إن المُنشد يأخذ بيد الناس ويرقى بهم من المحسوس الجنينى الذى يعيشون فيه (الحب الحسى المباشر) إلى الله، الذى ليس كمثله شىء رغم أنه أقرب إلينا من حبل الوريد، وعادة ما يكون ذلك عبر حب الرسول ﷺ، أقرب الناس إلى الله، ولكن إن هو إلا بشر مثلنا.

والنزعة الجنينية المتمثلة فى الرغبة فى إدراك الغيب بالحواس الخمس نزعة أصيلة فى النفس الإنسانية، لذلك لم ينكرها الإسلام، بل عمل على إشباعها فى حدود لا تتعارض مع العقيدة. لذلك أخبرتنا الأحاديث القدسية أن الله ﷻ وضع الكعبة فى الأرض حتى يطوف الإنسان حولها كما تطوف الملائكة حول البيت المعمور. كما جعل الحجر الأسود ممثلًا ليمين الله فى الأرض، من أراد أن يصافحها فعليه أن يشير إليه أو يلمسه أو يُقَبِّله إن استطاع.

* الحلولية باب إلى الإيمان أو إلى الكفر والوثنية:

قد تقود الحلولية من الإيمان إلى الكفر والوثنية إذا اعتقد المرء أن الله ينزل من عليائه ويتحد بمخلوقاته، وتصبح (أنت هو وهو أنت). لكنها قد تصبح

* من شعر الإمام عبد الله بن عَلَوى الحداد الحضرمى (1044 – 1132 هـ).

بابًا للإيمان واليقين حين تجعل الإنسان يدرك أن العالم ليس شيئًا ماديًّا ميتًا لا روح فيه، بل ينبض بالحياة والقداسة ﴿... فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ...﴾ [البقرة: 115]. ثم تأخذ بيده ليتجاوز الأشياء ليصل إلى الله (الجوهر الخالق الكامن وراء الأشياء المتعددة والمفارق لها) **وبذلك تظل أنت وهو هو.**

من هذا المنظور، أرى أن **المخلوقات إن هى إلا تجليات لأسماء الله الحسنى**، أى أننا ندرك صفات الله ﷻ من خلال مخلوقاته. خَلَق المرض لنعرف اسمه الشافى، وخلق الكون اللامتناهى لنعرف اسمه الواسع، وخلق العلم والجهل لنعرف اسمه العليم، وخلق الغنى والفقر لنعرف اسمه الغنى والمغنى، وهكذا. وبذلك صار الوجود مرآة يرى المتأمل فيها أسماء الله وصفاته.

الثمرة الحادية والتسعون...

الحلولية بين اليهودية والإسلام والمسيحية

يرى التصور **الإسلامى والمسيحى** لحياة الإنسان وتاريخه أن الإله جعل **الإنسان فى الدنيا حرًّا مختارًا ذو إرادة**، لكنه فى الوقت نفسه لم يهجره كليةً ولم يتركه يغرق فى الأمور النسبية بلا مرجعية، كما أخبر الإله الإنسان أنه سيثيبه أو يعاقبه فى اليوم الآخر (خارج الزمان الإنسانى). لذلك فالإنسان حر لكنه مُكلف، فالإله أرسل إليه الكتب السماوية وطالبه باتباع القيم الأخلاقية. ومن ثم فالإنسان ليس ضائعًا يدور فى حلقات مفرغة: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا (تعيش فى التاريخ)، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا (تواجه المطلق)». هذه **دعوة للإنسان ألا تستغرقه الأشياء النسبية والأمور الواقعية**، وأن يحاول تخطيها وتجاوزها والتسامى عليها، ولكنها فى الوقت نفسه **تأكيد لحق الإنسان فى أن يعيشَ فى الحياة الدنيا حرًا ليحقق لنفسه أكبر قسطًا من**

السعادة. يقف الإنسان وقدماه مغروستان فى الأرض وعيناه شاخصتان للسماء، وهذا هو سر عظمة الإنسان ومأساته، وهذا أيضًا هو سر وجوده الإنسانى المُرَكَّب.

وقد صُفِّيَت هذه الثنائية وهذا الصراع والتوتر إلى حدٍّ كبيرٍ فى التراث اليهودى. فوحدة الوجود اليهودية (أو قل وحدة الوجود الصهيونية) جعلت الإله (المطلق) يحل فى الأمة المقدَّسة والأرض المقدَّسة (النسبى) مما جعل الإله هو الأمة والأرض (وهذا هو ثالوث وحدة الوجود: الإله والإنسان والطبيعة)، وينجم عن هذا أن يفقد المطلق سموه ووجوده كخالق متصرف، كما يفقد النسبى حدوده وكيانه كمخلوق.

ويصف بعض الحاخامات الذين بقوا داخل إطار العقيدة اليهودية وحدة الوجود بأنها عقيدة شيطانية، ويصفون الدولة الصهيونية بأنها «العجل الذهبى» الذى صنعه السامرى؛ شىء مادى أَلَّهه اليهود بدلًا من الخالق وهذه هى الوثنية بعينها. ويتفق كل من الصهاينة المتدينين والصهاينة الملاحدة فى أن الشعب اليهودى «حلت فيه القداسة»، ولكنهم يختلفون بخصوص مصدر هذه القداسة؛ فالمتدينون يرجعونها إلى حلول الخالق فى شعبه وأرضه، بينما يرى الملحدون أن اليهود شعب مقدس، خلع القداسة على نفسه.

الثمرة الثانية والتسعون...

الحلولية والفكر المادى

لما كانت الحلولية ترى أن الوجود مكتف بذاته، ولا حاجة لجوهر من خارجه ليكون مسئولًا عن خلقه وعن استمراره، فإننا نرى أن الحلولية تنظر إلى كل ظاهرة باعتبارها ظاهرة مكتفية بذاتها، تحوى داخلها ما يكفى لتفسيرها. لذلك فالفلسفة المادية فى تصورى فلسفة حلولية ترى أن الطبيعة

مكتفية بذاتها، والفلسفة النيتشوية (وأصلها الداروينى) فلسفة حلولية تمامًا، تجعل الإنسان مكتفيًا بذاته، لا يمكنه أن يستمد معياريته من خارج ذاته، لا تحده حدود أو قيود أو سدود، والسوبرمان هو قمة هذا الاتجاه. كما تُعبر الحلولية عن نفسها فى فكرة **الإنسان الاستهلاكى الباحث عن لذته وعن مصلحته**، فهو يجعل من ذاته مرجعيته النهائية والوحيدة. وكذلك يُعتبر «**الشذوذ الجنسى**» بهذا المعنى تعبيرًا متطرفًا عن الحلولية؛ إذ يستغنى الإنسان عن الجنس الآخر، وسيتطور الأمر إلى شيوع «**الاستمناء**» ليصبح الإنسان مكتفيًا بذاته تمامًا.

الثمرة الثالثة والتسعون...

الحلولية ونهاية التاريخ

تؤدى الحلولية ـ بانكارها ثنائية الوجود الإنسانى وتركيبيته ـ بالضرورة إلى **نهاية التاريخ**. إن المقصود بنهاية التاريخ فى واقع الأمر هو «نهاية الإنسان كما نعرفه، ودخوله فى الحالة الجنينية ورفضه للحالة الربانية»، إنها **سيادة الإنسان الطبيعى/ المادى واختفاء الإنسان الربانى**. إنها تعنى كذلك اختفاء الحدود الإنسانية؛ فيتجاوز الفرد حقوق الآخرين (الله - البشر). أنظر إلى تصور المستوطنين الصهاينة أن «فلسطين هى أرض بلا شعب»، وإلى نظر المستوطنين الأوائل فى أمريكا الشمالية إليها بحسبانها «أرضًا عذراء». إن كلا الفريقين ينكر تاريخ الأرض التى اغتصبها، لينكر على المواطنين الأصليين حقوقهم بل وإنسانيتهم.

إن العصر الحديث هو عصر نهاية التاريخ، فالحضارة الحديثة المرتبطة بآليات السوق وبالعرض والطلب، هى حضارة مرتبطة بآليات بسيطة لا تعرف تركيبية الإنسان وتنكر اهتمامه بما هو غير مادى، فهو إنسان ذو بُعد مادى واحد، وعقله عقل أدائى (يغرق فى التفاصيل والإجراءات، ولا يمكنه

إدراك الأنماط التاريخية والغيبية). فالسوق والمصنع بآلياتهما البسيطة يتطلبان إنسانًا طبيعيًا ماديًا بسيطًا، ليست له علاقة بالإنسان/ الإنسان المركب. وتزعم المجتمعات الاستهلاكية أنها قادرة على إشباع جميع رغبات الإنسان المادية والروحية من خلال مؤسساتها الإنتاجية والتسويقية والترفيهية، إن المجلات الإباحية بل والإعلانات التليفزيونية كلها محاولات لإنهاء التاريخ، عن طريق النهايات السعيدة التى تلغى أى تدافع أو تركيب.

وقد جَسَّد أحد الأفلام السينيمائية فكرة نهاية التاريخ بأسلوب طريف: فعشيق الزوجة فوجئ بتساهل عشيقته بل وزوجها أيضًا، فلم يحتمل الموقف وسارع لمفارقتها، فتسأله مستنكرة: «إلى أين أنت ذاهب، ما مشكلتك؟» فيقول: «مشكلتى أنك لا توجد عندك أى مشكلة! My problem is that you have no problem». إن العشيق يعنى أن عشيقته ليس عندها أى إحساس بالذنب أو بالخير والشر، كل شيء بالنسبة لها طبيعى بسيط محايد، والإنسان ليس بسيطًا ولا طبيعيًا ولا محايدًا، أى أنها بموقفها هذا أنهت ظاهرة الإنسان وأنهت التاريخ.

العلمانية الشاملة

الثمرة الرابعة والتسعون...

العلمانية الجزئية

تطالب العلمانية التى تدارسناها منذ سنوات قليلة وكان يرفضها الكثيرون بفصل الدين عن الدولة، وكانت تلزم الصمت بخصوص الحياة الخاصة وبخصوص المرجعية النهائية للقرارات السياسية والاقتصادية. أى أن هذه العلمانية تترك حيزًا واسعًا للقيم الإنسانية والأخلاقية المطلقة، بل

وللقيم الدينية ما دامت لا تتدخل فى عالم السياسة بالمعنى الفنى (ولذا أسميها العلمانية الجزئية أو العلمانية الأخلاقية أو العلمانية الإنسانية).

قد تم تعريف العلمانية بهذا المفهوم فى القرن التاسع عشر، حينما كانت الدولة كيانًا ضعيفًا هزيلًا لا تتبعه أجهزة أمنية وتربوية قوية، كما لم يكن هناك إعلام قوى يصل إلى المواطن فى منزله. ونتيجة لذلك ظلت الحياة الخاصة بمنأى عن عمليات العلمنة، وظلت تحكمها القيم الأخلاقية والدينية.

وأنا باعتبارى مدافعًا عن الإنسان والإيمان، **لا أرى أى غضاضة فى تقبل العلمانية الجزئية**، أى فصل الدين عن السياسة وربما الاقتصاد. إذ إننى بكل صراحة لا أحب أن أرى شيوخًا أو قساوسة أو فلاسفة أو أساتذة أدب إنجليزى يجلسون فى لجان تناقش طرق تحسين التصدير وميزان المدفوعات أو نوع السلاح الذى يجب علينا تزويد جيشنا به. **فمثل هذه الأمور الفنية يجب أن تُترك للفنيين، ولكن المرجعية النهائية (الاستراتيجية والمعرفية والأخلاقية) للدولة وكذلك الحياة الخاصة هى أمور لا يمكن أن تُترك للفنيين**، بل ينبغى أن تهيمن عليها القيم الدينية والأخلاقية.

الثمرة الخامسة والتسعون...

سيل العلمانية الشاملة الكاسح:

البعض كان يرفض العلمانية الجزئية والآن يتحسر عليها

ثم حدثت تطورات ضخمة فى القرن العشرين غيَّرت الصورة تمامًا. لقد تَغَوَّلت الدولة وحولت نفسها ومصلحتها إلى مرجعية نهائية تَجُبُّ كل المرجعيات (كان شعار الشرطة: الشرطة فى خدمة الشعب، تم تبدل إلى: الشرطة والشعب فى خدمة الدولة)[1]، أصبحت دولة قوية ذراعها طويلة

(1) تم استعادة الشعار السابق بعد ثورة 25 يناير 2011.

يمكنها أن تصل لكل المواطنين من خلال مؤسساتها الأمنية والتربوية والإعلامية. **وتَوَحَّش الإعلام**؛ وأصبحت مؤسساته قادرة على الوصول إلى المواطن فى أى مكان وزمان تزوده بمختلف المرجعيات وتلقنه القيم المادية كبديل للقيم الأخلاقية !. علاوة على هذا فإن ثمة تحولات أساسية كبرى (التصنيع - الهجرة إلى المدينة... إلخ) ساهمت فى **تغيير رؤية الإنسان وإشاعة النسبية والحيادية والانفصال عن القيمة**. لكل هذا لم يعد للتعريف القديم الجزئى للعلمانية أى علاقة بالواقع الجديد، ومع هذا استمر المصطلح واستمر استخدامه.

لذلك قمت بصياغة مصطلح **«العلمانية الشاملة»** لأصف وضع المجتمع العلمانى بعد التطورات التى أشرت إليها، فهى **أيديولوچية كاسحة لا يوجد فيها مجال للإنسان أو للقيم**، ومن هنا لا يمكنها أن تتصالح مع الدين أو القيم الثابتة أو الإنسان، **بل تختزل حياة الإنسان فى البعد المادى وحسب**.

وأُعرِّف **العلمانية الشاملة** بأنها ليست مجرد فصل الدين عن الدولة وعن بعض جوانب الحياة العامة وحسب، وإنما هى «**فصل القيم والغايات الدينية والأخلاقية والإنسانية عن الدولة وعن مرجعيتها النهائية وعن حياة الإنسان العامة والخاصة، مع تَطبيق القانون الطبيعى/ المادى على كل مناحى الحياة، بحيث يتم تسوية كل الظواهر الإنسانية بالظواهر الطبيعية، فتُنزَع القداسة تمامًا عن العالم ويتحول إلى مادة استعمالية، يمكن إدراكها بالحواس الخمس**».

إن من أهم أشكال العلمنة ما يسمَّى بـ«**بوحدة العلوم**» (العلوم التجريبية والعلوم الإنسانية)، التى تنفى وجود فروق جوهرية بين الظواهر الطبيعية والظواهر الإنسانية، ومن ثم فإن النماذج التحليلية التى تصلح

لدراسة إحداها تصلح لدراسة الأخرى، باعتبار أن قوانين المادة تسرى على كل الكائنات، لا تفرق بين الإنسان والطبيعة !.

ويستمر التدهور، حتى يُعَرِّف الإنسان ذاته فى ضوء احتياجاته المادية (اللى معاه قرش يسوى قرش) ويحكم على نفسه وعلى العالم بمعايير مستقاة من عالم الطبيعة/ المادة، فيختفى الإنسان الإنسان (الإنسان الربانى) ويظهر الإنسان الطبيعى، أى أن المنظومة العلمانية تبدأ بسحب المفاهيم من عالم الإنسان وتضعها فى عالم مستقل تسميه «عالم الأشياء»، ثم تسحب الإنسان نفسه من عالم الإنسان وتضعه فى عالم الأشياء هذا.

وأخيرًا أقول إن العلمانية الشاملة التى تحول العالم إلى مادة استعمالية هى الوجه الآخر للإمبريالية التى استغلت العالم ووظفته لصالح الإنسان الغربى. وكذلك فإن الصهيونية التى حولت فلسطين والفلسطينيين، بل وأعضاء الجماعات اليهودية فى العالم، إلى مادة استعمالية قابلة للتوظيف (تهجير يهود العالم من أوطانهم - تهجير الفلسطينيين خارج وطنهم) هى إحدى تبديات نموذج العلمانية الشاملة.

*** فى إطار العلمانية الشاملة تختفى المرجعية الإنسانية،**

ويستمد كل مجال من مجالات النشاط الإنسانى معياريته من نفسه

تمثل العلمانية الشاملة سلسلة من حلقات، تبدأ بعالم الاقتصاد الذى يصبح مكتفيًا بذاته مستمدًا معياريته من نفسه، وتختفى منه المرجعية الإنسانية العامة التى تعمل على مراعاة القيم والغايات الإنسانية. ثم تتوالى حلقات السلسلة فيستمد كل مجال معياريته من نفسه، ويتم الحكم عليه من منظور مدى كفاءته فى تحقيق أغراضه؛ فبعد أن أصبحت المعايير فى المجال الاقتصادى اقتصادية، تصبح المعايير فى المجال السياسى سياسية، وفى المجال العلمى علمية، وفى المجال الجمالى جمالية.

ثم تتصاعد هذه العملية إلى أن يتفسخ العالم إلى مجالات غير متجانسة، متناثرة لا يربطها رابط، بعد أن كان الأصل أن تؤدى كلها إلى غاية كبرى واحدة وهى سعادة الإنسان الربانى.

وبينما اسمى العلمانية الجزئية «المرحلة الصلبة»، إذ ما زالت هناك قيم إنسانية صلبة يُحتكم إليها، فإن العلمانية الشاملة هى «المرحلة السائلة»، ذلك لغياب أى مرجعية، من أى نوع، يُحتكم إليها.

وانطلاقًا من هذا الفهم قمت بتطبيق مفهوم العلمانية الشاملة كنموذج تحليلى على كل مناحى الحياة: الطعام - الشراب - الملابس - القوانين - المعمار - السياسة... إلخ، لأبيِّن تصاعد معدلات العلمنة.

وكما ذكرت، تبدأ سلسلة التدهور العلمانى بعالم الاقتصاد، والمثال الصارخ لذلك ما يحدث فى الولايات المتحدة وباقى الدول المنتجة للقمح، إذ تُلقِى الفائض من إنتاجها فى المحيط !! حتى لا ينخفض سعر القمح. هذا فى الوقت الذى يموت فيه الكثيرون من مواطنى دول العالم الثالث من الفقر والجوع، لقد اختفت المرجعية الإنسانية وأصبح المهم هو ألا ينخفض سعر القمح، أى صار الاقتصاد هو معيارية نفسه.

فى مجال الفن أنظر إلى حالة الفنان الفوتوغرافى اليابانى «العالمى» آراك الذى يتسم فنه بنوع من الإباحية المنفصلة عن القيمة تمامًا. حقق هذا الرجل شهرته بأن صور مراحل موت زوجته بالسرطان، لقد حَوَّل زوجته إلى مادة استعمالية ولم يُفرِّق بين الإنسان والشىء الطبيعى/ المادى. والفيلم الوثائقى الذى شاهدته عنه فى التليفزيون البريطانى يعرض منظرًا لفتاة صغيرة تريد أمها أن يقوم آراك بتصويرها عارية والفتاة ترفض لأنها لا تود أن تتجرد من ملابسها، وتحاول أمها مع الفنان أن تقنعها لأن ذلك سيجعلها مشهورة، لقد أصبحت الشهرة قيمة مطلقة ومرجعية نهائية منفصلة عن القيمة.

كذلك فإن ممارسة الرياضة فى الماضى كانت تهدف إلى تهذيب الجسد وتدريب الناس على التعاون وعلى الصراع الرقيق لتفريغ نزعاتهم العدوانية من خلال قنوات متحضرة. ولكن تدريجيًا تنفصل الرياضة عن كل هذه القيم لتصبح مرجعية ذاتها، وتصبح معايير الرياضة رياضية، ويصبح إحراز النصر وتحطيم الأرقام القياسية هو الهدف الأعلى والأسفل والوحيد. ونسمع بعد ذلك عن تفرغ اللاعبين تمامًا للرياضة، وبيعهم وشرائهم وتحولهم إلى نجوم تُستخدَم فى الإعلانات، فاقتصاديات السوق تقتحم هذا القطاع تمامًا. ونسمع بعد ذلك أن عددًا كبيرًا من الرياضيين يستخدم المخدرات لتحقيق النصر. أين كل هذا من قيم التعاون والصراع الرقيق والمرجعية الإنسانية؟.

الثمرة السادسة والتسعون...

مرة أخرى: ينبغى مناقشة فاتورة التقدم.

كيف الوقوف فى وجه السيل؟.

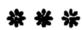
إن العلمانية الشاملة هى ذاتها «التحديث على النمط الغربى». **وعادةً ما يُعرَّف التحديث بأنه تبنى العلم والتكنولوچيا والعقل، ولكننى أضيف «المنفصلين عن القيمة والغاية»**، وذلك حتى يتسنى التحكم فى الإنسان والطبيعة تحكمًا كاملًا. فالتحديث جوهره تطبيق نموذج الطبيعة/ المادة على ظاهرة الإنسان.

وحينما كنت فى الولايات المتحدة فى أواخر الستينيات، حين بدأت العلمنة تتزايد بمعدلات لم يعهدها البشر من قبل، كنت أتصور أن أوروبا بموروثها الثقافى والتاريخى ستضع بعض الحدود على هذه العلمنة الشاملة. ولكن تدريجيًا بدأت أوروبا تلحق بركب «التقدم»، وتهاوت مقولة التراث الحضارى فى مواجهة التفكك العلمانى. وحينما أسير فى لندن وأرى المنازل

العريقة والعادات الأصيلة وأرى معدلات التفكك، أدرك أن «الأنتيكة» لا يمكن أن تحل محل المنظومات الأخلاقية والدينية كدرع ضد العلمانية !.

ومما يؤسَف له أن الكثيرين من دعاة الحداثة فى العالم العربى يرددون ما يقوله الغرب عن الحداثة الغربية دون أن يطرحوا رأيهم ورؤيتهم فى الموضوع، فيتبنون أفكار الحداثة والتقدم بحلوها ومُرِّها، بخيرها وشرها، دون تساؤل، ويصنفون كل المشكلات بحُسبانها ثمنًا معقولًا للتقدم. ولعله قد حان الوقت كى نقارن مكاسب التقدم بخسائره، ونرى كم الثمن فادح، وهل يمكن الإفلات من هذا المصير أم لا.

وهذه الحادثة الطريفة تبين مدى التبعية الإدراكية (أن نفكر من خلال نماذج الآخر): كنت مرة أشاهد التليفزيون فى إحدى الدول العربية، وكان المتحدث هو مدير شركة الطيران القومية لهذا البلد، وأتى بعدة إحصائيات عن حركة الطيران فى العالم، ثم ختمها بإحصائية عن الإنسان الحديث؛ فذكر أنه ينتقل من مكان لآخر بمعدل كذا ميل فى السنة. ثم أردف قائلًا بوقار بالغ وتقوى واضحة: «ونحن نقترب من هذا المعدل بعون الله»! وكأن اقتلاع الإنسان من مكانه وزمانه وانتقاله كالشىء من مكان لآخر هو أحد طموحاتنا وآمالنا.



الفصل الثانى: تطبيقات على المنهج

القارىء الكريم ...

لكى نطل على عالم د. المسيرى الفكرى من خلال منهجه الذى عرضناه فى الفصل السابق، نعرض فى هذا الفصل ثلاثة موضوعات رئيسية فى فكره:

1 - رسالته الدكتوراه.

2 - كتابه: الفردوس الأرضى.

3- رؤيته لإشكالية التحيز.

ثم نفرد بعد ذلك فصلًا مستقلًا للحديث عن «الموسوعة». ونختم بفصل من خارج عالم السياسة بعنوان «فى عالم الأدب والفن».

أولًا: رسالة الدكتوراه

الثمرة السابعة والتسعون...

صراعات حول الرسالة

بدأت فى كتابة رسالتى للدكتوراه عام 1967، وموضوعها:

«الأعمال النقدية لوليام وردزورث ووولت ويتمان:

دراسة فى الوجدان التاريخى والوجدان المعادى للتاريخ».

وقد اعتبرت الرسالة قضية تهمنى على المستوى الفكرى والشخصى، إذ وجدت فى ويتمان رمزًا للسيولة والعدمية واللامعيارية التى تتهدد الإنسان، وهو ما كان شاغلى الشاغل فى هذه الفترة. وقد استحسن زملائى هذا الاهتمام فأعلن بعضهم أنه لن يستمر فى كتابة أبحاث عن موضوعات عامة جافة، وأنه لن يستأنف برنامج الدراسات العليا إلا بعد أن يجد موضوعًا يهمه على المستوى الفكرى والشخصى.

* لجنة المناقشة

تحمس أستاذى البروفسير وايمر للرسالة بشكل منقطع النظير، فكان نعم المشرف ونعم الصديق. وحين انتهيت من كتابة الرسالة اختار ثلاثة أساتذة ممتحنين لمناقشتها من بينهم الأستاذ جورج، وهو حاليًا من كبار الكُتَّاب الأمريكيين. كنت أمقت الرجل، وكان - والحمد لله - يبادلنى المشاعر نفسها، كان جوهر الخلاف بيننا أنه ينظر إلى الأعمال الأدبية كنظرته للكائنات الطبيعية التى تولد وتموت تبعًا للحتمية البيولوجية، ومن ثم يرى أن الأنماط الأدبية تولد وتموت من تلقاء نفسها كذلك (كالملاحم البطولية

التى سادت فترة ثم اختفت)، وهذه النظرة تؤصل مفهوم «نهاية التاريخ».
أما أنا فأعتقد أن اختفاء أنماط أدبية معينة إنما يرجع إلى مجموعة من الأسباب الإنسانية والفكرية والتاريخية المركبة وليس لعنصر مادى واحد، وهذا هو جوهر «المذهب الإنسانى».

حذرت أستاذى البروفسير وايمر من الأستاذ جورج، وقلت له إن الهوة الفكرية التى تفصل بينى وبينه ضخمة، وبالتالى سيكون من الصعب عليه مناقشة رسالتى (فهناك مساحة كبيرة تفصل بين أنصار نهاية التاريخ وأنصار المذهب الإنسانى)، فضحك الأستاذ وايمر وقال: «أنت ديكتاتور وسلطان شرقى لا تفهم الديمقراطية الأمريكية وروح الليبرالية»، فقلت له: «أنا أفهم جيدًا حدود الديمقراطية والليبرالية؛ هناك خطوط حمراء إن عبرتها قُضى على، وقد عبرت هذه الخطوط فى رسالتى للدكتوراه: طالب من العالم الثالث يتحدى الرؤى الغربية السائدة، بل يتعامل مع الحضارة الأمريكية بطريقة أنثروبولوچية محايدة، تمامًا كما يتعامل أى أنثروبولوچى غربى مع إحدى القبائل الإفريقية». ضحك أستاذى وأصر على موقفه، فقمت بإرسال نسخة من الرسالة إلى البروفسير جورج وأخرى إلى البروفسير وليام فيليبس William Philips وثالثة إلى البروفسير ماريوس بيولى Marius Bewley (وكان من أهم المتخصصين فى الأدب الرومانسى).

وكنت قد تعرضت فى رسالتى لمسألة الشذوذ الجنسى عند ويتمان، وبيّنت أنها ليست انحرافًا شخصيًّا وإنما هى جزء من رؤيته ويتمان للكون وتوجهه الحاد نحو اللذة، كما أن العداء للتاريخ وإعلان نهايته يؤدى إلى التمركز المتطرف حول الذات، ومن ثم فإن الشذوذ الجنسى هو النتيجة المنطقية لهذا الاتجاه. هذا على عكس الفعل الجنسى بين الرجل والمرأة (وبخاصة فى إطار الأسرة) فهو فعل اجتماعى تاريخى، له نتائج إنسانية عامة

إذ يعيد المجتمع إنتاج نفسه من خلاله فيضمن استمراره وترابطه. ومن هنا تنبأت بانتشار الشذوذ الجنسى فى الولايات المتحدة مع ازدياد التمركز حول الذات وتصاعد معدلات البحث عن المنفعة الشخصية واللذة الذاتية (هذا فى أواخر الستينيات قبل أن تصبح مناقشة مثل هذه الموضوعات أمرًا مألوفًا). كما تنبأت بأن مرحلة الشذوذ ستتبعها مرحلة أكثر انغلاقًا على الذات، وهى مرحلة الاستمناء، حيث لا يدخل الإنسان فى علاقة إلا مع نفسه، ولعل انتشار الإيدز والإنترنت سيساعدان على ذلك.

أذكر هذا الموضوع لأن البروفسير ماريوس بيولى كان شاذًا جنسيًا، وكان صديقه البورتوريكى يأتى لمقابلته فى القسم، وقد مات البروفسير بيولى بصورة تشبه مرض الإيدز الذى لم يكن قد اُكتشف بعد. أما البروفسير جورج فقد كان متزوجًا، ومع ذلك أخبرت أستاذى (ساخرًا) بأن موقفه من العالم هو موقف المتمركز تمامًا حول ذاته، فهو شاذ جنسيًا من الناحية الفكرية والنفسية، رغم أنه متزوج وأنجب أطفالًا، وبالفعل دعا هذا البروفسير أعضاء أسرته عام 1972، وأخبرهم بأنه سيُطَلِّق زوجته ليعيش مع صديقه، وقد أصبح بعد ذلك من أكبر المدافعين عن الشذوذ الجنسى.

الثمرة الثامنة والتسعون...

موضوع الرسالة: الوجدان التاريخى والوجدان المعادى للتاريخ

هناك رأى سائد فى الأوساط العلمية يرى أن وردزورث (**إنجليزى أنجليكانى**) قد «**أثَّر**» فى **ويتمان** (**أمريكى بروتستانتى من طائفة الكويكر**). وكان المطلوب منى فى رسالة الدكتوراة أن أحدد هذا الأثر بأسلوب الموضوعاتية المتلقية الفوتوغرافية. ولكنى فعلت العكس تمامًا! فانطلقت فى الرسالة من رفضى **لفكرة التأثير والتأثر ومن الإيمان بالعقل التوليدى والإنسانية المشتركة**.

* **الجزء الأول من الرسالة (الأطروحـة)**

لجأت فى عرضى لوجهة نظرى إلى حيلة سماها أستاذى **خطة ديالكتيكية**، أى أنها تحوى الشيء وضده ثم تصل إلى حل يجمع بينهما. بدأت بأن اصطنعت موقف العالم الأكاديمى القح صاحب الموضوعاتية الفوتوغرافية الذى يؤمن بأهمية **تَعَقُّب علاقات التأثير والتأثر** بين الكُتَّاب وكأنه شرلوك هولمز. وبصرامة بالغة مصطنعة، بيَّنت أن وردزورث أثَّر على ويتمان فى 24 موضعًا مختلفًا، وقدمت البراهين القوية على ذلك من خلال عمودين متقابلين، توجد فى الأول مقتطفات من شعر ونقد وردزورث، وأدرجت فى الثانى مقتطفات من شعر ونقد ويتمان، تبين تأثير وردزورث عليه.

ولكننى فى خاتمة هذا الجزء أعلنت بطريقة فجائية وغير متوقعة أن هذه **حقيقة لا قيمة لها على الإطلاق**، إذ ما فائدة أن نعرف أن فلانًا قد أثَّر فى علان فى أربعة وعشرين موضعًا مختلفًا؟ وسميت هذا مجرد «معرفة» scienti وليس «حكمـة» sapientia، أى أننى ميَّزت **بين الظاهرة الطبيعية المادية البسيطة (المعرفة) والظاهرة الإنسانية المركبة (الحكمة)**، وميزت بين الحقائق والحقيقة والحق. كما بيَّنت خطورة النموذج المعلوماتى التراكمى الذى يساوى بين المعلومات والمعرفة، ثم أضفت قائلًا: «فلنبدأ إذن من حيث يجب أن نبدأ، **من عالم رؤية الكون والجذور الثقافية والتاريخية والدينية والاقتصادية للكاتبين**».

* **الجزء الثانى (الأطروحة المضادة)**

أدركت من خلال حوار استمر عدة سنوات مع الصديق كافين رايلى حول تجربتى فى الولايات المتحدة أهمية **«البُعد التاريخى»**، فاستخدمته فى رسالتى. لقد قارنت بين وردزورث وويتمان مستخدمًا «مقولة التاريخ» فى

مقابل «مقولة الطبيعة»، أى أننى استخدمت نموذجًا تحليليًا قُوامه التعارض بين الإنسان المركب صاحب الوجدان التاريخى الذى يستطيع تجاوز الطبيعة وبين الإنسان البسيط الطبيعى المعادى للتاريخ والذى يُرَد إلى ما هو دونه، أى إلى عالم الطبيعة/ المادة.

لقد أشرت إلى أن كلًّا من وردزورث وويتهان قد تم تصنيفهما على أنهما شاعران «رومانتيكيان»، واعتُبرت هذه حقيقة صلبة لا يمكن الاختلاف بشأنها، لكننى وجدت أن نقط الاختلاف بينهما جوهرية وقوية الدلالة. فالشاعر الإنجليزى (وردزورث) ينتمى إلى الكنيسة الإنجليكانية ذات التوجه الكاثوليكى رغم أنها ليست كاثوليكية (تتميز بتأكيدها على الطقوس وعلى فكرة الكنيسة كمؤسسة وسيطة بين الإنسان والإله)، بينما ينتمى الأمريكى (ويتهان) إلى جماعة الكويكرز (جماعة بروتستانتية متطرفة ترفض الطقوس وترفض أى وساطة بين الإنسان والخالق، وتؤكد على ما يُسمَّى «الصوت الداخلى»، الذى يسمعه الإنسان داخله ويتلقى منه الإلهام والمشورة، مما يسقط أى فائدة للطقوس والشعائر).

كذلك كان وردزورث يعيش فى مجتمع (إنجلترا) مر بكل المراحل التاريخية لما قبل الرأسمالية، تتداخل فيه الحداثة بالتقاليد، والعناصر المادية بالعناصر الروحية. أما ويتهان، فكان يعيش فى مجتمع استيطانى (أمريكا) ليس له تراث تاريخى، مجتمع يتجه إيقاعه العام نحو الآن وهنا، والمباشر والمحسوس والعملى، وهـذه فى تصورى أحاسيس معاديـة للتاريخ، إنه مجتمع لا يعرف إلا الشكل الرأسمالى فى التنظيم الاقتصادى وفى الرؤية للكون.

لكل هذا، فإن موقف الشاعرين من الكون مختلف تمامًا على الرغم من بعض التشابه فى التفاصيل. فوردزورث يرى أن العودة للطبيعة والامتزاج بها

(الحلولية المادية) هى نزعة معادية للتاريخ والدين والإنسان. ومن ثم، فإن العودة للطبيعة التى تظهر فى بعض أشعاره هى مجرد «صور مجازية» أو لحظات مؤقتة لا تدوم. ومن هنا فإن «شاعر الطبيعة»، كما كان يُسمَّى، لا يفقد ذاته بالذوبان فى الطبيعة، فهو يستند إلى تراث تاريخى قوى وإيمان عميق بالإنسان وبالإله الذى لا يتجلى فى الصوت الداخلى وحسب وإنما من خلال طقوس اجتماعية. وبالتالى فوردزورث فى واقع الأمر هو «شاعر الإنسان» فى لحظات حزنه وفرحه وليس شاعر الطبيعة (وهذا وصف وردزورث لنفسه).

ثم قارنت هذا بشعر ويتمان، الذى وصفته بأنه شاعر حلولى مادى يعادل بين الروح والمادة ويقرن بينهما، وهو يتغنى بالمادة والجنس والكهرباء والجاذبية الأرضية التى يرى أنها تشبه الجاذبية الجنسية. فالإنسان ليس إلا جزء لا يتجزأ من الطبيعة وعليه أن يتكيف معها ويذعن لها. وعداء ويتمان للإنسان المركب التاريخى يترجم نفسه فى محاولته الوصول إلى نهاية التاريخ وإلى اليوتوبيا التكنولوچية، لذلك فإن ويتمان يرى أن أمريكا هى الفردوس الأرضى، فهى دولة العلم والتكنولوچيا التى ستهدم التاريخ وتعلن نهايته (وذلك قبل أن يتحدث فوكوياما فى نهاية الثمانينيات عن انتصار الليبرالية التى تؤدى إلى نهاية التاريخ). بل إن التاريخ يظهر فى أشعار ويتمان وفى كتاباته النقدية كجثة هامدة وعبء ثقيل يحاول الإنسان قدر طاقته أن يتخلص منه، حتى ينطلق من نقطة الصفر (ونقطة الصفر هذه تشبه أمريكا التى رفضت التاريخ الأوروبى لتبدأ من «جديد» بلا تراث تاريخى ولا أعباء أخلاقية).

* أن تكـون خليـفة من الله فى الأرض

أم تهيم مع الحيونات فى البَرِّية... اختـر

وشعر ويتمان مفعم «بالرغبة فى العودة الدائمة إلى الطبيعة»، ليس مثل وردزورث الذى يعود إلى الطبيعة مجازًا وحسب وللحظات وحسب.

فالكثير من قصائد ويتمان تبدأ بالابتعاد التدريجى عن كل ما هو إنسانى مع الاقتراب المتزايد من الطبيعة إلى أن يلتحم بها تمامًا ليصل إلى لحظة ذوبان الذات الإنسانية فى الطبيعة المادية، وهى عادةً ما تكون لحظة قذف جنسية (مع محبوب من نفس جنسه) يُعلن فيها تحرره من عبء التاريخ ومن التدافع ومن الهوية الإنسانية، فهى لحظة نهاية التاريخ وتَحَقُّق الفردوس الأرضى.

وقد خلصت إلى أن وولت ويتمان، الذى يسمونه فى الولايات المتحدة «شاعر الديمقراطية الأمريكية»، هو فى واقع الأمر «شاعر الشمولية وموت التاريخ والإنسان».

وبالتدريج اكتشفت علاقة نهاية التاريخ بغياب الحس الخُلُقى، وأدركت أن إلغاء التاريخ فى أمريكا (الدولة الاستيطانية) يعنى فى واقع الأمر شرعية إبادة العنصر السكانى الأصلى (التاريخى)، حتى يبدأ المستوطنون واقعهم من نقطة الصفر. فالعداء للتاريخ هو فى واقع الأمر عداء للإنسان.

ويمكن تلخيص رؤيتى لجوانب الاختلاف بين الشاعرين فى اقتباسين وضعتهما فى مقدمة الرسالة، أحدهما من القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ...﴾ [البقرة: 30]، وأرى أن هذه الآية تعكس رؤية وردزورث. والاقتباس الآخر من ويتمان يعلن فيه (إنه سيذهب ويعيش مع الحيوانات فهى مكتفية بذاتها)، وأضيف الآن أن القرآن يجسد هذه الرؤية فى سورة التين ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [الآيات 4 - 5].

* الجزء الثالث (الأطروحة المركبة)

فى هذا الجزء من الرسالة اقترحت أن نعيد النظر فى مسألة التأثير والتأثر، وبيَّنت وجود أثر مادى وملموس بين الشاعرين ولكنه سطحى؛ لأن بنية

فكر وردزورث ورؤيته (خريطته الإدراكية) لم تؤثر البتة فى ويتمان، أى أن الاختلاف (الفكرى والثقافى) بينهما أهم كثيرًا من التشابه (المباشر المادى).

* الجزء الرابع والأخير (الممارسة)

كتبت هذا الجزء بشكل فكاهى ساخر إلى حدٍّ ما كما يتضح من عنوانه الإضافى: «عشرون طريقة يمكن للجنس البشرى بأسره أن يستفيد بها من رسالتى للدكتوراه»، وختمته بنفس العبارة التى خُتم بها البيان الشيوعى ولكن بعد تعديلها: «يا عمال العالم - لكل هذا - اتحدوا».

الثمرة التاسعة والتسعون...

مناقشة الرسالة

انهيت الرسالة وقدمتها لأستاذى الذى أرسل بها إلى المناقشين الثلاثة، وقابلنى بيولى وأخبرنى بأن رسالتى للدكتوراه هى أحسن رسالة قرأها فى حياته الأكاديمية، بينما قابل البروفسير فيليبس الرسالة بفتور شديد وقال باقتضاب «عمل عظيم»، أما البروفسير جورج فقد أعاد رسالتى بعد ساعتين من تسلمه لها وزعم أنه فعل ذلك بسبب وجود خطأ فى علامات الترقيم فى الصفحة الثانية ! فصُعق أستاذى وأخبرنى بأن ما قلته عن حدود الديمقراطية ـ على ما يبدو ـ أمر صحيح.

وبعد أن رفض البروفسير جورج الرسالة، اضطررت لقضاء ستة شهور كاملة لإعادة كتابتها وتنقيحها، كما استبعدت الكثير من عبارات الذم والقدح فى ويتمان وفى الحضارة الأمريكية، وإن كنت قد زدت من عيار الهجوم الفعلى ووازنت هذا ببرود أسلوبى وحياده.

ثم تقدمت بالنسخة الجديدة، وحُدِّد موعد المناقشة، وفوجئت بالأساتذة قد جاءوا ومعهم أطنان من الورق وأسئلة مكتوبة، وهذا أمر غير مألوف بعد

قبول الرسالة للمناقشة. وصُعق أستاذى للمرة الثانية (كان أستاذى يُصعق دائمًا حينما يرى الشر، كان خيِّرًا وقديسًا لدرجة تثير الفرح والأسى فى نفس الوقت)، وقررت أن أستخدم مدفعيتى الثقيلة وبكل ضراوة، وقرر أستاذى أن يأخذ صفى دون أى تحفظ، وهذا أيضًا أمر غير مألوف، فوظيفة المشرف فى مثل هذه الحالات هى إدارة الحوار وحسب.

* المبـارزة

بدأت المناقشة، فلام علىّ الممتحنون غياب بعض كبار النقاد من قائمة المراجع، فلخصت لهم أطروحات هؤلاء النقاد ووصفتها بأنها أطروحات تافهة ومن ثم فهم لا يستحقون أن يُذكروا فى رسالتى للدكتوراه؛ لأننى لن أذكر كل من هب ودب من أيام آدم إلى أيام جونسون ونيكسون.

وعرض على أحد الأساتذة بعض مقطوعات من شعر وردزورث ذات طابع حلولى مُغرق فى الحلولية، فقلت على الفور: أننى طبعًا أعرف هذه المقطوعات الحلولية المتطرفة، وأعرف أنها وُجدت ضمن أوراقه، هذه حقيقة مادية لا مراء فيها، ولكن الأهم من هذا كله أن وردزورث نفسه قام بحذْفها من قصائده، وحذْفها من دواوين شعره أعمق دلالة من وجودها فى درج مكتبه!.

كما أخبرت أساتذتى بأن رسالتى للدكتوراه هى ظاهريًا عن وردزورث وويتمان، بينما هى فى واقع الأمر عن الصراع العربى الإسرائيلى، الصراع بين مجتمع تاريخى (المجتمع العربى فى فلسطين) ومجتمع معاد للتاريخ (التجمُّع الاستيطانى الصهيونى)، وأن العودة للطبيعة هى العودة إلى صهيون، وأن العداء للتاريخ هو جوهر الصهيونية (وقد استخدمت هذا النموذج التحليلى الذى استخدمته فى الدكتوراه فى دراساتى للصهيونية فيما بعد).

*** النتيجة**

بعد انتهاء النقاش، خرجت من الغرفة حتى تتداول اللجنة. وحينما عدت، أخبرونى بأنهم وافقوا على منحى درجة الدكتوراه، ثم أداروا ظهورهم لى ولم يصافحونى كما هو مُتَّبع فى مثل هذه المناسبات، فصُعق أستاذى للمرة الخمسين. ثم أخبرنى استاذى بأنهم قالوا له فى أثناء المداولة: «إن حياتهم ستكون مختلفة بعد رسالة المسيرى»، وهذا أقصى ما يمكن أن تطمح إليه أى رسالة. ثم تساءل: «لماذا إذن عاملوك بهذه الطريقة الجافة؟» فشرحت له للمرة المائة نظرية الخطوط الحمراء التى لا يمكن للمرء عبورها، وأن هذا ما فعلته حين قدمت رؤيتى لويتمان والحضارة الغربية الحديثة، وأخبرته بأنه لولا أنه هو المشرف على رسالتى لما حصلت على الدكتوراه من أى جامعة أمريكية. وكان استاذى يتأكد بنفسه من مسألة الخطوط الحمراء هذه كلما أرسل برسالتى لتُنشر؛ إذ كان طلبه يُقابل بالرفض.

*** موقف موضوعى حقيقى**

ومع هذا يجب أن أعترف بمقدرة الممتحنين على تجاوز غيظهم منى وحنقهم علىّ، وهذا أمر أساسى فى العملية التربوية. وهذا موقف لا يمكن أن يحدث ـ للأسف ـ فى مصر، فلا بد من أن يكون الأساتذة راضين تمام الرضا عن الطالب وإلا فنصيبه هو الضياع والخراب والدمار والهلاك، وربما ما هو أكثر من ذلك.

الثمرة المائة...

الخطوط الحمراء وأوهام الحريات الأمريكية المطلقة

لم تقتصر مسألة الخطوط الحمراء التى لا يُسمح بتجاوزها فى الولايات المتحدة على ما ذكرت أثناء إعدادى ثم مناقشتى لرسالة الدكتوراه، بل لقد عاصرت الكثير من هذه المواقف أثناء وجودى هناك. أذكر من ذلك موقفًا

حدث مع أحد الأساتذة الأمريكيين؛ كان أستاذًا يساريًا فى جامعة رتجرز، وكان يتخذ موقفًا معاديًا لحرب فيتنام، ولم يكن من الممكن أن تطرده الجامعة بسبب أفكاره، فقام مجلس الولاية بتقليص ميزانية الجامعة، ثم سُربت رسالة إلى أعضاء هيئة التدريس مفادها أن تقليص الميزانية سببه هو وجود هذا الأستاذ اليسارى فى الجامعة، فبدأ الأساتذة أنفسهم بالضغط عليه حتى يترك الجامعة، فرفض فى بداية الأمر، ولكن بعد قليل أصبح الأمر لا يمكن تحمله، فاضطر الأستاذ للاستقالة.

ثانيًا: كتاب الفردوس الأرضى

﴿...وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث...﴾[الأعراف: 176].

الثمرة الأولى بعد المائة...

إرهاصات الكتــاب

حين وصلت إلى الولايات المتحدة بلد الحرية والديمقراطية عام 1963، وجدت نفسى كارهًا لما حولى؛ إذ أحسست أننى وصلت إلى «سوق كبير»، وبرغم حبى لكثير من الأمريكيين (فهم شعب طيب نشيط متفتح الذهن) فإننى وجدت أن النظام المهيمن يجهض إنسانيتهم، ويخاطب أحط ما فى الإنسان.

وحينما عدت إلى مصر وبدأت أفكارى تتحول عن الماركسية، قلت لنفسى ربما كان موقفى المتحيز ضد الولايات المتحدة متأثرًا برؤيتى الماركسية، لذا حين عدت مرة أخرى عام 1975، قررت أن أحاول النظر للمجتمع الأمريكى بعقل أكثر تفتحًا، ولكن هيهات، فقد ازددت اقتناعًا بخطورة النموذج المادى المهيمن على الولايات المتحدة، لا على الأمريكيين

كبشر وحسب، وإنما كذلك على الجنس البشرى بأسره. وقد ازدادت قناعتى على مر الأيام.

بطبيعة الحال لم أكتف بالتأمل، وقررت أن أترجم تأملاتى للظاهرة الأمريكية إلى دراسة أنقل من خلالها أفكارى للقارئ العربى، وأعرض عليه ثمرة تجربتى التى نُشرت بعد ذلك فى كتابى «**الفردوس الأرضى: دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية الحديثة**» (1979)، وتنطلق الدراسة من نفس المقولة الأساسية فى فكرى، أى **الفصل بين الإنسانى والطبيعى**. وصفت فى هذه الدراسة النزعة الاستهلاكية المهيمنة على الإنسان الأمريكى والإنسان الحديث بصفة عامة، وكيف أنها تعنى **الارتباط «بالآن وهنا»**، وأعلنت أن ذلك يلغى الماضى والمستقبل، أى **يلغى التاريخ**، لذلك فالإنسان الأمريكى يحاول أن يؤسس فردوسًا أرضيًا يمكنه التحكم فيه.

ويعالج الكتاب هذا المفهوم من خلال ثلاثة موضوعات رئيسية:

الفردوس الأرضى العلمى ونهاية التاريخ.

العلاقة الوجدانية والمعرفية بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

مشكلة المرأة والضغوط التى تتعرض لها فى المجتمع الحديث.

الثمرة الثانية بعد المائة...

الفردوس الأرضى العلمى ونهاية التاريخ

* الإنسان الطبيعى والإنسان التاريخى:

أبناء السفاح وأبناء النكاح

تحدثت فى مقدمة الكتاب عن الإنسان الطبيعى والإنسان التاريخى، ووصفت الإنسان التاريخى (صاحب النزعة الربانية) بأنه إنسان يتسم

بالثنائية، فهو يعيش فى التاريخ (الدنيا) ويبحث عن المطلق خارج التاريخ، فهو يفصل بين المطلق والنسبى، ويحلم بالفردوس خارج عالم المادة وخارج الزمان فى الحياة الأخرى.

ثم بينت أن الإنسان الطبيعى (أسير النزعة الجنينية) إنسان يرفض الحدود التاريخية والأخلاقية بل والإنسانية. وهو فى بداية الأمر إنسان روسو الحر الفرح الآمن، وروسو هو الفيلسوف الفرنسى الذى كان يتصور أن حالة الطبيعة هى حالة البراءة والفردوس والحرية الكاملة، أما حالة الحضارة فهى حالة القيود والعبودية، وله عبارة شهيرة: «وُلد الإنسان حرًا وهو الآن مكبل بالأغلال فى كل مكان»، لذلك فإنسان روسو الحر هو الذى لا تحده حدود أو قيود. ثم يتحول إلى إنسان داروين المتجهم الذى يلتهم الضعاف من البشر أو تلتهمه الذئاب من البشر الطبيعيين الماديين. ثم تحول أخيرًا إلى كلب بافلوف المسكين، القابع فى المعمل، لا يتحرك إلا بعد تلقى إشارات برانية، فهو ظاهر مادى محض، ليس له باطن إنسانى.

ويسعى القائمون على تشكيل الإنسان الطبيعى لتحقيق «الفردوس الآن وهنا» إلى إشباع كل رغبات البشر، متبعين آخر الأساليب العلمية. إن هذه الرؤية الميكانيكية البسيطة تفترض أن الإنسان كَمٌّ محض لا يختلف عن الكائنات الطبيعية الأخرى، أى أن الإنسان الحديث قد تم تدجينه وترشيده تمامًا.

*** اليوتوبيا التكنولوچية.**

لم يعد هذا «التصور الفردوسى الأرضى العلمى» قضية فلسفية تشغل فلاسفة الرأسمالية والتكنولوچيا فحسب، لكنه أصبح جزءًا من تصورات المواطنين العاديين فى الدول الصناعية فى الغرب. لقد أصبح التقدم العلمى

هدفًا فى حد ذاته (اليوتوبيا التكنولوچية) بغض النظر عن العائد المعرفى أو الإنسانى له، وبغض النظر عن مقدار البؤس أو السعادة التى يجلبها للبشر. لقد أصبحت مضاعفة الإنتاج أمرًا مرغوبًا فيه دون أى حُسبان لحاجات الإنسان الحقيقية (كما ظهرت وترسخت عبر التاريخ) ودون أى احترام للبيئة الطبيعية. أى أن هدف الإنتاج لم يعد إشباع الرغبات الإنسانية، وإنما أصبح الإنتاج هو ذاته الهدف والغاية النهائية، وهذا هو قمة الاغتراب. وتدور عجلة المصانع فى سرعة خرافية لتنتج سلعًا وأشياء لا يريدها الإنسان، لكنها فى دورانها تلوث البيئة بالأحماض والعادم الصناعى فتدمر الإنسان من الخارج، ثم تغرقه فى السلع والتفاصيل لتدمره من الداخل.

*** تساقطت الحواجز بين الأيدولوچيات،**

ولم يبق إلا الإنسان الطبيعى أسير النزعة الجنينية

قد يُقدَّر لهذه الحضارة الأمريكية، المعادية للحضارة والتاريخ، لها السيطرة على المجتمعات الرأسمالية الأخرى ذات التاريخ العريق والتراث القومى والدينى، بل إننى أعتقد أن المجتمعات الاشتراكية مهددة بهذا الغزو الحضارى الأمريكى أكثر من غيرها؛ لأنها مجتمعات قطعت صلتها بتراثها القومى والدينى وخلقت فراغًا حضاريًّا لا يمكن أن تزدهر فيه سوى القيم المادية الأمريكية، خاصةً وأن هذه المجتمعات الاشتراكية لا تزال تُقَوِّم نجاحاتها وإنجازاتها بالمعايير المادية الميكانيكية غير الإنسانية، مثل زيادة حجم الإنتاج والهبوط على القمر.

لقد أكتشفتُ أن الإنسان الطبيعى الذى يدور فى إطار مادى يتلاقى عنده كلا النظامين الرأسمالى والاشتراكى، وأن المرجعية الطبيعية المادية هى المرجعية النهائية لكليهما (نظرية التلاقى بين النظامين convergence)، والتلاقى هو توحد النماذج كلها بحيث تتبع نمطًا واحدًا وقانونًا عامًا

واحدًا، هو قانون التطور والتقدم، بحيث يُصبح العالم مُكَونًا من وحدات متجانسة، ما يحدث فى إحداها يحدث فى الأخرى. فما حدث فى العالم هو سقوط الماركيسية Marxism وظهور عبادة السوق Marketism. وعبادة السوق هذه وهيمنتها على العالم بأسره، شماله وجنوبه وشرقه وغربه هى فى واقع الأمر نقطة التلاقى التى تَحَدَّث عنها علم الإجتماع الغربى.

انطلاقًا من هذا التصور، طالَب العالم السوفييتى زخاروف Zakharov بتخطى الخلافات الأيديولوچية بين الاشتَراكية والرأسمالية وبتوحيد جهود علماء العالم لإسعاد البشر، كما لو كان علماء العالم عندهم الصيغة السحرية الفردوسية القادرة على شفاء كل الأمراض، متناسيًا أن العلم يتعامل مع عالم الطبيعة وحسب، وحينما يتعامل العلم مع الإنسان فإنه يتعامل معه باعتباره كائنًا طبيعيًا، أما الإنسان ككائن تاريخى مركب فيقع فى مجال الفلسفة والأيديولوچيا والدين.

* أوهـام الفلسفـة البراجـماتية

وقد هاجمت فى كتاب الفردوس الأرضى الفلسفة البراجماتية، وهى الفلسفة الأمريكية التى جعلت «النجاح» هو الحقيقة الوحيدة المقبولة، وهو المعيار الوحيد للحكم على كل الأشياء.

إن البراجماتية ترى أن كل شىء نسبى متغير، و«الشىء الحقيقى» ليس هو ما يتفق والقيمَ الأخلاقية والدينية كما تقول الأديان السماوية، وإنما الحقيقى هو ما ينجح. إن أى شىء ينجح فى أن يحرز مكانة خاصة به وفى أن يفرض نفسه على الواقع تصبح مكانته قائمة وثابتة (وبذلك ألغت التاريخ والتراث)، فالطبيعة تلد كل شىء ولا تتحيز لأى شىء، ولا يوجد أى شىء أحق من أى شىء آخر، إنها بحق فلسفة الطبيعة/ المادة.

إن البراجماتية هى فى الواقع فلسفة العنف ضد الإنسان. يرى الفيلسوف

البراجماتى وليام جيمس «أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يفترس أبناء نوعه»، إذ إن الإنسان قد تكيف وإلى الأبد مع حالة الحرب ولا يمكن لسنوات السلام مهما طالت أن تمحو من الوجدان الإنسانى الرغبة فى الحرب. لقد ولدنا كلنا لنحارب، والمجتمع سيصاب حتمًا بالركود والعفن دون حرب». إن الداروينيين لا يُضفون على الإنسان أى خصوصية، وإنما يعتبرونه كائنًا طبيعيًّا تنطبق عليه كل القوانين الطبيعية، شأنه فى هذا شأن أى كائن آخر دون أى تمييز خُلُقى أو تاريخى أو جمالى، إنه عالم نيتشوى داروينى يحكمه قانون الغابة؛ «**البقاء للأصلح**».

* ليس غزوًا ثقافيًّا بل غزوًا استهلاكيًّا

لقد تغير نموذجى الإدراكى تجاه ما يحدث فى الولايات المتحدة، وبدلًا من الحديث عن الحضارة الأمريكية الحديثة، أشير الآن إلى ما أسميه «**الحضارة الاستهلاكية العالمية**» التى تتسم منتجاتها الحضارية (الهامبورجر - البلوچينز - الديسكو... إلخ) بأنها بلا طعم ولا لون، ولا تنتمى لأى تشكيل حضارى، وإنما هى **حضارة معادية للحضارة، حضارة مضادة anti-culture** تحاول تقويض كل التشكيلات الحضارية الأخرى بما فى ذلك الحضارة الأمريكية نفسها. إن «**الغزو الثقافى**» ليس غزو الثقافة الغربية لنا (فهم لا يُصدِّرون لنا شكسبير وموزارت وبوشكين) وإنما غزو هذه الحضارة الاستهلاكية العالمية لكل الحضارات وتقويضها لظاهرة الإنسان.

الثمرة الثالثة بعد المائة...

العلاقة الوجدانية والمعرفية بين الولايات المتحدة وإسرائيل

إذا تأمل المرء كلًا من الولايات المتحدة والدولة الصهيونية فإنه يلاحظ التشابه والتطابق بينهما، ولعل ذلك يرجع إلى أن **كليهما يرفض التاريخ بعناد** وإصرار، أو على الأقل يحوله إلى أسطورة متناهية فى البساطة.

* جذور الوجدانين الأمريكى والصهيونى

لقد بدأ التاريخ الأمريكى حينما استقل البيوريتانيون سفنهم وهاجروا من أوروبا إلى العالم الجديد أو أرض الميعاد هربًا من المشكلات التى أثارها «التاريخ المسيحى الأوروبى». فالبيوريتانيون أو المتطهرون هم لفيف من البروتستانت المتطرفين الذين وجدوا أن من العسير عليهم البقاء داخل الكنيسة الإنجليكانية لأنها لم تبتعد بالقدر الكافى عن النمط الكاثوليكى فى العبادة بما يتميز به من طقوس وتماثيل وزخارف، فطالبوا «بتطهير» العبادة المسيحية من كل هذه العناصر الدخيلة التى لم يأت لها ذكر فى العهد القديم أو الجديد. إن «العودة إلى البساطة الأولى» كانت الهدف الأسمى للمتطهرين الذى حاولوا تشييد مدينتهم الفاضلة (أو صهيون الجديدة كما كانوا يسمونها) حسب المُثُل والقواعد التى وضعها وطبقها المسيحيون الأول، لذا يمكننا القول بأن الوجدان البيوريتانى يرفض التاريخ المسيحى كله، بل يرفض أى رؤية تاريخية على الإطلاق.

والرفض البيوريتانى الأمريكى للتاريخ الأوروبى يقابله الرفض الصهيونى الإسرائيلى لتاريخ اليهود المشتتين فى دول العالم (الدياسبورا = الشتات). لذلك فهم يطالبون بالعودة «للبساطة الأولى» أيام كان اليهود يعيشون ككيان قومى مستقل فريد لم تدخل عليه الشوائب (التاريخية) فى المجتمعات غير اليهودية. ويرى الصهاينة أن ذلك يؤدى إلى النهاية الإسرائيلية السعيدة كما تبين نبوءات العهد القديم، لذلك نجد فى الفردوس اليهودى الجديد (إسرائيل) أن كل المواطنين يحملون أسماء عبرانية لها رنين خاص.

إن أسطورة العالم الجديد الذى يتحلى بالبساطة والبراءة والذى هو أقرب إلى الفردوس الأرضى تسيطر على الوجدانين الأمريكى والصهيونى. لم يختلف فهم البيوريتان لمدينتهم الفاضلة كثيرًا عن فهم الصهاينة لإسرائيل،

فهم كانوا مقتنعين تمام الاقتناع بأنهم إنما هاجروا من أوروبا إلى العالم الجديد لينشئوا «مدينة على التل» تنظر إليها كل الأمم وتحاكى أفعالها، وبذا يعم الخير ويأتى الخلاص. ومما له دلالته وطرافته أن مؤسسى الجمهورية الأمريكية قد فكروا بعد إعلان الاستقلال فى جعل اللغة العبرية لغة الدولة الرسمية بحُسبان أن الجمهورية الوليدة هى صهيون الجديدة.

وكما هو الحال مع الإسرائيليين، نجد أن البيوريتانيين يرون فى كل شىء علامة مرسلة من الله يُستشهد بها على شىء ما، فاستخدموا هذه **«العلامات الربانية»** لتسويغ كل أعمالهم العدوانية لإبادة الهنود الحمر واحتلال لأراضى الغير. وقد استمر هذا التزاوج بين الأحلام الدينية والأحلام القومية التوسعية حتى القرن التاسع عشر، ويمكن القول بأن هذا الخطاب الدينى لم يختف تمامًا، ولعل ظهور ما يسمَّى **بالأصولية المسيحية** (التى عادت بكامل شراستها على يدىّ بوش) هو أكبر دليل على ذلك.

* عقلية الكاوبوى: من شابه أباه فما ظلم

إن **«عقلية الريادة»** تسيطر على كل من الصهاينة والأمريكيين. فالبيوريتانيون **«اكتشفوا»**! أمريكا ثم انتشروا فيها عن طريق إنشاء مستعمرات ذات طابع زراعى عسكرى. والمستوطنون الصهاينة هم الآخرون **«اكتشفوا»**! فلسطين واحتلوها بنفس الطريقة. **وعقلية الرائد عقلية عملية تفضل الفعل على الفكر، والنتائج العملية على الاعتبارات الخُلُقية**، إنها عقلية الكاوبوى الذى ينتصر لأنه يطلق مسدسه فى الوقت المناسب وقبل خصمه بجزء من الثانية، ثم يمسح فوهة مسدسه وهو يُقبِّل عشيقته حتى لا يضيع وقته فيما لا يفيد. وقمة الإنجاز هو دائمًا ذبح الخصم: «أنا أذبح (خصومى) لا كروسى يهودى أو فرنسى يهودى بل كيهـودى يهودى، هذا هو مناى» (كما يقول أحد أبطال القصص الإسرائيلية).

ولعل نقطة التشابه الأساسية بين الوجدانين الأمريكى والصهيونى الإسرائيلى هو «العنف العنصرى»، بما فيه من تناقضات: عالم جديد برىء بسيط لا يمكن أن يُشيَّد إلا عن طريق العنف والإبادة (إبادة الهنود الحمر والفلسطينيين)، الفردوس والجحيم فى آنٍ واحد !.

*** فابريكة الإنسان الجديد فى نيويورك وحيفا**

كان على المهاجرين إلى المجتمعين الأمريكى والإسرائيلى أن يطرحوا عن أنفسهم هُوياتهم القديمة ليكتسبوا هُوية قومية جديدة بمجرد وصولهم إلى نيويورك أو حيفا. واكتساب الهُوية الجديدة هو مشكلة المشكلات بالنسبة لكل المجتمعات الاستيطانية الرافضة للتاريخ وللتراث، لذلك ينبغى أن «تفبرك» هذه المجتمعات «تراثًا جديدًا» يدور حول أسطورة بسيطة يؤمن بها «الإنسان الجديد» ويجتمع حولها المهاجرون من كل صوب. فاستحدثت أمريكا شيئًا يجمع هذا الشتات، فكانت «أسطورة آدم الجديد الديمقراطى» الذى يأتى إلى الأرض أو الجنة العذراء ليقيم فيها ويستلهم كل ما فى التراث العالمى من إيجابيات وينفتح على كل الحضارات. أما الصهاينة فقد (فبركوا) «أسطورة اليهودى الخالص» المنفتح على الحضارة اليهودية الخالصة والذى يهاجر إلى أرض الميعاد اليهودية ليحارب فى جيش يهودى ويزرع فى حقل يهودى ويقرأ فى كتاب يهودى (وربما يحب على الطريقة اليهودية، ويقتل بالطريقة نفسها!).

إن بوتقة الصَّهر التى تمزج الأخلاط المتباينة من البشر فى المجتمعات الاستيطانية وهمٌ كبير، إن الكل الأمريكى المتجانس لا وجود له. فهذا الإنسان الجديد البرىء من الشر وأيضًا من التاريخ والمعرفة لم يُقَدَّر له أن يخرج من البوتقة مبتسمًا كأنه فى إعلان تليفزيونى، بل خرج بدلًا منه الصهيونى مزدوج الولاء، والأفروأمريكى حامل لواء قارته السوداء والمدفع

الرشاش، والأيرلندى الكاثوليكى الذى يرفع علم بلاده الأيرلندية ويحاول التفوُّه ببضعة حروف من لغة بلاده الأصلية وكأن كل حرف يحمل رسالة ذات مغزى عميق.

وفى صهيون الجديدة الإسرائيلية ما زال **عدم التجانس هو أخشى ما يخشاه حكام إسرائيل**. وهى ظاهرة تعبِّر عن نفسها فيما يسمى بالأمتين الإسرائيليتين: إسرائيل اليهود الشرقيين (سفارديون) وإسرائيل اليهود الغربيين (أشكيناز). وداخل كل «إسرائيل» توجد جماعات قومية صغيرة لا تزال مزدوجة الولاء وتشعر بالحنين للوطن الأم، مما يدل على أنهم لم يكتسبوا الهوية الإسرائيلية اليهودية الخالصة.

*** ولكن هناك فرق**

ومع سيطرة الفلسفة البراجماتية (فلسفة الإنجاز) على الدولتين، يظل هناك فرق جوهرى بين البراجماتية الأمريكية والبراجماتية الصهيونية. **فالبراجماتية الأمريكية** هى براجماتية غير مُثقَلة بأى أساطير، ولذا فهى براجماتية متسقة مع نفسها؛ تقف ضد التاريخ ولا تاريخ لها. أما **البراجماتية الصهيونية** فهى براجماتية منكرة للتاريخ (حق الفلسطينيين فى أرضهم)، بالرغم من أنها مثقلة بالأساطير والتواريخ المقدسة التى يَدَّعوا من خلالها أحقيتهم التاريخية فى فلسطين !.

*** درس إعلامـى**

مما مضى نخلص إلى درس إعلامى هام، إذ ينبغى أن نضع فى حُسباننا أنه **من اليسير على الشعب الأمريكى فهم العقلية الإسرائيلية** والتعاطف مع الشعب الإسرائيلى وقيمه اللاأخلاقية من عنصرية وعنف، نظرًا للتشابه بين وجدان الشعبين. وهذه النتيجة ليست دعوة لليأس، وإنما هى مجرد تَعَرُّف

على عنصر موجود بالفعل، إن لم نعترف به هَزَمَنا وأفشل خِططنا، وإن اعترفنا به ساعدنا على معرفة حدود ومدى أى حملة إعلامية نقوم بها. إن الشعب الأمريكى وقادته الذين تسيطر عليهم عقلية الرائد والكاوبوى لا يفهمون سوى منطق القوة، ولا يحسون إلا بالنتائج العملية المباشرة، لذلك فالإعلام الذى لا تسنده قوة أو وضع قائم بالفعل ما هو إلا دعوة للأخلاق الحميدة لا ينصت لها إلا ذوو النوايا الطيبة، وحتى هؤلاء سينسونها وينسوننا بعد دقائق.

الثمرة الرابعة بعد المائة...

مشكلة المرأة والضغوط التى تتعرض لها فى المجتمع الحديث

* صدق أو لا تصدق: التمركز حول الأنثى

من الموضوعات الأساسية التى تناولتها فى كتاب «الفردوس الأرضى» مشكلة المرأة فى المجتمع الحديث. حينما وصلنا إلى الولايات المتحدة عام 1963، **كانت الأمور بالنسبة للمرأة هادئة** بل خانقة، وحينما عدت إليها عام 1971 كانت الأمور قد تغيَّرت بشكل جذرى، ولم تعد الإناث يطالبن بحقوقهن وبالمساواة فحسب بل كانت هناك ثورة تجاوزت الإنسانية المشتركة للرجل والمرأة. ومن هنا أميز بين **حركة تحرير المرأة** women's liberation movement وهى حركة مشروعة، وبين حركات الـ feminism التى أترجمها بتعبير «التمركز حول الأنثى».

أُنظر إلى المنشور الثورى الصادر عن جماعة «سكم Scum»، والكلمة تعنى «نفاية» ولكنها اختصار لعبارة إنجليزية ترجمتها الحرفية هى **«جماعة التخلص من الرجال»**؛ يبدأ المنشور بتأكيد أن الحياة فى هذا المجتمع أصبحت شيئًا «يبعث على الملل الشديد، لذلك ينبغى على السيدات المسئولات

الباحثات عن المتعة أن يقلبن نظام الحكم ويلغين النظام النقدى ويُدخِلن نظام الصناعة الآلية ويقضين على جنس الذكور». ثم يستطرد المنشور العتيد قائلًا: «لقد أصبح من الممكن الآن للسيدات أن يلدن دون أى مساعدة من الذكور وأن يلدن إناثًا فقط، وينبغى البدء فى هذا على الفور». ويدعى المنشور أن جينوم الذكر إن هو إلا جينوم أنثى غير كاملة، فهو يحتوى على مجموعة غير كاملة من الكروموسومات؛ شيء أُجهض على المستوى الجينى ولكنه يسير على قدمين. ولأنه أنثى غير كاملة. يقضى الذكر حياته بحثًا عن كائن يحتوى على مجموعة كاملة من الكروموسومات (الأنثى) ليصادقها ويعيش معها ويمتزج بها، وبعد ذلك يدعى أن كل الصفات الأنثوية المتميزة هى صفاته؛ مثل القوة والاستقلال والديناميكية والقدرة على اتخاذ القرارات والموضوعية وتأكيد الذات والشجاعة والتكامل والحيوية والجِدَة وعمق الشخصية... إلخ. كما إنه يُسقط كل سمات ذكورته على المرأة مثل الغرور والسطحية والتفاهة والضعف... إلخ.

والصراع - حسبما جاء فى المنشور - ليس بين الإناث والذكور وحسب، ولكن بين «السكم»، وهن الإناث المسيطرات الآمنات الواثقات بالنفس، العنيفات المستقلات المتكبرات الباحثات عن المتعة، اللائى يعتقدن أن عندهن المقدرة على حكم العالم، نقول إنه صراع بين «السكم» وبين الإناث اللطيفات السلبيات المؤدبات الخاضعات، والخائفات اللائى لا يثقن البتة بأنفسهن، بنات آبائهن اللائى لا يمكنهن مواجهة المجهول، واللائى لا يشعرن بالاطمئنان إلا و«بابا» الكبير يقف إلى جوارهن أو باعتمادهن على رجل كبير قوى يشد من أزرهن.

وبعد تحقيق المدينة الفاضلة التى يحكمها السكم قد يتبقى بعض الرجال الذين سيقضون بقية أيامهم فى رعب يشربون المخدرات، أو يراقبون فى

سلبية وسكينة الأنثى الجديدة المسيطرة. وحيث إن الإناث رحيمات فسيزوِّدن الرجال بأجهزة إلكترونية، بحيث إذا وقع أحد الذكور صريع هوى إحدى الإناث فيمكنه مراقبة كل حركاتها وسكناتها بطريقة تشبع غرائزه ودون أن تشعر هى بذلك !.

وحتى لا يقال إن منشور سكم مجرد عبث ومزاح، انظر إلى مبادئ «سيدات نيويورك الراديكاليات»، وهى جماعة جادة تعمل جاهدة لتحرير المرأة، يقول منشور لهن: «نحن نقف إلى جوار المرأة فى كل شىء، طالما كان فى مصلحتها. نحن ضد كل الأيديولوچيات والآداب والفلسفات السابقة، فهى نتاج حضارة الذكور... إلخ».

* عقـد الزواج الشامـل

طَرَحَت حركات التمركز حول الأنثى ما يمكننا تسميته «عقد الزواج الشامل»، وهو يشبه عقد استئجار شقة أو شراء أرض؛ إذ يحاول هذا العقد المُبرم بين الرجل وزوجته تغطية جميع الجوانب القانونية وكل الاحتمالات المنطقية والرياضية التى تنشأ داخل الحياة الزوجية. وقد وُصف العقد بأنه «أسلوب جديد للحياة لمواجهة ألفى سنة من التقاليد» (ألفى سنة من التاريخ أيضًا). وهو فى واقع الأمر تعبير عن تغلغل أخلاقيات السوق فى كل مناحى الحياة، بحيث تُدار مؤسسة الزواج نفسها، آخر مأوى للإنسان، وكأنها شركة مساهمة؟!.

انظر إلى بعض بنوده لترى هل قام العقد فعلًا بتنظيم كل العلاقات:

- لكل طرف فى العقد حق كامل فى وقته وعمله وقيمه واختياراته، وإن أراد أن ينفق هذا الوقت فى كسب المال فهذا من حقه.

- من ناحية المبدأ، يجب أن نقسِّم الأعمال المنزلية إلى نصفين 50 – 50،

ولكن يمكن عقد صفقات بتراضى الطرفين، وما فى هذا العقد من شروط هو حقوق وواجبات وليس امتيازات وهبات.

- **تقسيم الأعمال**: إيقاظ الأطفال فى الصباح ـ إعداد الملابس والكتب والواجبات والنقود وأبونيهات الأتوبيس ـ تمشيط شعرهم ـ إطعامهم، يتناوب الأبوان القيام بكل هذه الواجبات كل أسبوع. **الشراء**: تقوم الزوجة بوجه عام بشراء الطعام، أما الزوج فيقوم بشراء الأشياء الخاصة.

- كل من يدعو ضيوفًا يقوم بنفسه بشراء الطعام وبالطبخ وغسل الأطباق.

والآن بعد أن أُبرم العقد، فلترفرف السعادة الزوجية على الجميع، ولتقضى على سيادة الوحدة المذكرة (التى يسميها العوام الزوج) وتدفعه للتعاون مع الوحدة المؤنثة (المسماه بالزوجة)!.

هل فعلًا قام العقد بتنظيم كل العلاقات؟ ماذا لو حدث للرجل حدث تضخم شديد فى ذاته؟ هل يُفَض العقد فورًا أم تنتظر الزوجة حتى تزول الكربة؟ وماذا يحدث لو أن الرجل بعـد أن تزوج على هذه الطريقة الليبرالية أصبح ماركسيًا أو رجعيًا ورفض المبادئ المُنَظِّمة للعقد؟ ماذا عن المواقف الزوجية المركبة اليومية مثلًا؟.

إن هذا العقد مثل الكمبيوتر، يعطيك إجابات مبتسرة ولا يمكنه أن يغطى جميع جوانب الحياة المركبة. وإذا كان العقل الإلكترونى قد قدم للأمريكان الإجابات الخاطئة بالنسبة لحروب فيتنام وأفغانستان والعراق، فإن عقد الزواج الميكانيكى سيضللهم؛ لأن المطلوب هو إصلاح نوعية الحياة نفسها فى ضوء الفوارق الحقيقية بين الذكور الإناث.

* ماذا تريد هذه السيدة؟

كنت أعرف سيدة أمريكية من رائدات حركة التمركز حول الأنثى، وقد زارتنى وأسرتى عام 1974، وأبدت رغبتها فى التعرف على رائدات حركة تحرير المرأة فى مصر. فاتصلتُ بالدكتورة سهير القلماوى - رحمها الله - فتفضلت مشكورة بدعوتنا إلى طعام الغداء. وتحدثت السيدة الأمريكية عن المساواة بين الرجل والمرأة وعن تحرير المرأة، وكانت الدكتورة سهير توافقها على ما تقول، إلى أن وصلت إلى نقطة شعرت عندها الدكتورة سهير أن الأمر لم يعد حديثًا عن تحرير المرأة وإنما عن تثويرها ضد الرجل وعزلها عنه.

التفتت إلىَّ الدكتورة سهير وقالت بالعربية: «ماذا تريد هذه السيدة؟ إن أخذنا برأيها، سيكون من المستحيل علينا أن نجمع بين الذكور والإناث مرة أخرى؟». لقد لخصت كلماتها البسيطة الرائعة الفروق الحادة بين حركة تحرير المرأة وحركة التمركز حول الأنثى، بين من يدرك الإنسانية المشتركة ومن يرفضها، بين من يرى أسبقية المجتمع على الفرد ومن يرى أن الذات الفردية هى البداية والنهاية، وأخيرًا بين من يضع الإنسان قبل الطبيعة والمادة ومن يرى أسبقية المادة على وعى الإنسان وحضارته وتوجهه الاجتماعى والأخلاقى.

* الأنثوية والصهيونية: ما أشبه هذه بتلك

إذا قارنا بين حركة التمركز حول الأنثى والحركة الصهيونية وجدنا تشابهًا كبيرًا، فكلاهما يُقسِّم العالم بطريقة إثنينية بسيطة (إناث/ ذكور - يهود/ أغيار)، ويتمركز كل عنصر حول ذاته.

وتدَّعى كلٌ من الحركتين أنها حركة ثورية، لكن برنامجهما «الثورى» لا يهدف إلى تحقيق العدل بالنسبة لليهود أو للمرأة فى أى مكان من العالم.

فالصهيونية تعادى كل من يحاول الدفاع عن حقوق اليهود الدينية والمدنية خارج إسرائيل! فهذه المحاولة تقوض الهدف الصهيونى (هجرة اليهود من بلادهم إلى إسرائيل). ونفس الشىء بالنسبة لحركة التمركز حول الأنثى؛ فالهدف ليس تحقيق مكاسب للمرأة داخل إطار اجتماعى باعتبارها أمًّا وأختًا وزوجة، وإنما الهدف هو الاستقلال التام عن الذكور.

لكل هذا نجد أن البرنامج الثورى لكلتا الحركتين لا ينطلق من الإيمان بالإنسانية المشتركة، وإنما من الإصرار على تفرد اليهود وتفرد الإناث. لذا يصبح الهدف من البرنامج الثورى هو تحسين «كفاءة الصراع» لدى اليهودى والمرأة، وهذا يبين أن النموذج الكامن وراء الحركتين، **نموذج صراعى داروينى.**

ومن أطرف مظاهر هذا النموذج، حوارى مع السيدة زعيمة حركة التمركز حول الأنثى التى سبق الإشارة إليها، إذ قالت لى مرة: إن العلاقة الجنسية فى الزواج هى مواجهة سياسية political encounter، فضحكت وقلت لها: «أنت لا تعرفين شيئًا، إما عن المواجهة السياسية أو عن العلاقة الجنسية».

ثالثًا: إشكالية التحيز

الثمرة الخامسة بعد المائة...

إحساسى بإشكالية التحيز: البذور والجذور

أَمُرُّ على الديارِ ديارِ ليلى أُقَبِّلُ ذا الجدارَ و ذا الجدارا
وما حبُّ الديار شغفنَ قلبى ولكنْ حُبُّ من سكَنَ الديارا

أذكر فى صباى أن أستاذ اللغة العربية كان يقرأ معنا المعلقات الشعرية،

التى عادةً ما تبدأ بالبكاء على الأطلال، وكان شديد السخرية منها، مما يعكس تحيزه الشديد ضد حضارته لأنه لم يكن يعرف الهدف من هذه البدايات ولا وظيفتها فى بناء القصيدة ولا مضمونها الفلسفى. كنت أدرك (بشكل غير واع) أن البكاء على الأطلال مفعم بالنبل والحزن، وهو علامة على أن الإنسان لا ينسى، لأنه لو نسى وضاعت ذاكرته لكان شيئًا بين الأشياء؛ أى أن البكاء على الأطلال هو رمز الاختلاف الجوهرى بين الإنسان والطبيعة. قد تُلحق الطبيعة الهزيمة بالإنسان، وقد تضطره للرحيل من مكان لآخر، وقد يكون وضع الإنسان فى هذا الكون مأساويًا، ولكنه مع هذا يظل معتزًا بما هو إنسانى حتى فى لحظة الهزيمة.

بدأَت مسألة التحيز المعرفى تطرح نفسها عَلَىَّ بعد انتقالى من دمنهور إلى الإسكندرية، إذ لاحظت التباين فى العادات والتقاليد (والنماذج الإدراكية) بين المدينة/ القرية المصرية من ناحية وبين المدينة الكوزموبوليتانية (المصرية اسمًا، الغربية فعلًا) من ناحية أخرى.

وقد تعمَّق فِىَّ الإحساس بالتحيز حينما بدأت أقرأ فى الأديان المقارنة وتاريخ الفن. كما تعلمت من عِلْم الأنثروبولوچيا أن هناك حضارات لا يحتوى النموذج الإدراكى المهيمن عليها إلا على لونين أو ثلاثة، لذا لا يرى أهلها إلا هذه الألوان. وتوجد حضارات لا يعرف أهلها مفهوم «الذات»، لذا إن سألت أحد أفراد هذه الحضارات عن قصة حياته فهو عادةً ما يذكر قصة حياة جده. وحين يقول طفل الإسكيمو: «انظر الثلج»، فإن كلمة «الثلج» فى لغته يتم التعبير عنها ربما بخمسين كلمة غير مترادفة، فكل كلمة تعبِّر عن شكل معين وحالة معينة للثلج.

وقد قضيت عامًا كاملًا أقرأ عن اليابان وفنونها ومؤسساتها الحضارية، مما عَمَّق فِىَّ الإحساس بالآخر وبنماذجه الحضارية التى تختلف بشكل جوهرى

عن نماذجنا وكذلك عن المؤسسات والنماذج الغربية، مما ينزع الإطلاق عن الحضارة الغربية، لتصبح تشكيلًا حضاريًا ضمن العشرات من التشكيلات الحضارية الأخرى.

وكانت التجربة الحاسمة هى انتقالى إلى الولايات المتحدة؛ فقد واجهنى فى حياتى اليومية الكثير من الأمثلة التى نبهتنى إلى أن إدراكنا للواقع ليس هو الواقع فى حد ذاته، وأن إدراك الآخر لظاهرة ما يختلف عن إدراكنا لها. وتساءلت: كيف أنظر إلى ظاهرة ما؟ هل أنظر إليها من وجهة نظر الآخر (الأمريكى) أم من وجهة نظرى أنا؟.

الثمرة السادسة بعد المائة...

التأثير المتبادل بين التحيز والخريطة الإدراكية

حين وصلتُ إلى الولايات المتحدة عام 1963، دُعيت لمشاهدة مسرحية لشكسبير، فذهبت دون أن أرتدى جاكتة أو رباط عنق. فهمس أحد الأساتذة الأمريكيين فى أذنى بأننى لا بد أن أرتديها، وأضاف: «ألا يستحق شكسبير منك ذلك؟»، فاستجبت. ولكن قبل عودتى إلى مصر فى عام 1969، ارتديت الجاكتة ورباط عنق للذهاب إلى المسرح مع بعض الأصدقاء الأمريكيين، فكنت موضع سخريتهم لأن ارتداء الجاكت كان قد أصبح موضة قديمة وعلامة من علامات التخشب والتجمد stuffiness، أدركت ساعتها أن الجاكت ليس شيئًا ماديًا يستر به الإنسان جسمه ويدفئ بدنه، وإنما هو علامة على شيء ما، لغة كاملة.

ويشير صديقى كافين رايلى فى كتابه «الغرب والعالم» إلى أن تكنولوجيا الطاقة المستندة إلى الهواء والماء كانت متقدمة للغاية فى أوروبا مع نهاية القرن الثامن عشر، وهى تكنولوجيا نظيفة، تعمل مع الطبيعة لا ضدها. ومع هذا

حينما بدأت ثورة أوروبا الصناعية تطورت تكنولوچيا الطاقة المستندة إلى الفحم ثم البترول، وانقرضت التكنولوچيا النظيفة تقريبًا. ويُرجع رايلى هذا التطور إلى التحيز الكامن فى النموذج الإدراكى الإمبريالى: بقر بطن الأرض - نهب ما فيها - استهلاك المصادر الطبيعية دون اكتراث بالنظام البيئى وبحق أجيال المستقبل فى الثروات الطبيعية.

بعد الصراع الذى ذكرته أثناء مناقشة رسالتى للدكتوراه، وكان صراعًا بين تحيزات مختلفة، رفضت دور النشر الجامعية نشر الرسالة دون إبداء الأسباب، ولم تصارحنى إلا جامعة أوهايو التى أشادت بالرسالة باعتبارها فريدة من نوعها ثم أضافت: «مع هذا فإن جامعة أوهايو قررت عدم نشرها لأن كاتبها قام بالهجوم على إحدى البقرات الأمريكية المقدَّسة (أى وولت ويتمان!)».

الثمرة السابعة بعد المائة...

التحيز الأبله: التحيز ضد الذات

أصبت بصدمة حقيقية عندما كنت أنا وزوجتى نتناول طعام العشاء مع طالبتين من إريتريا فى منزلنا، وأخذت أمزح مع إحداهما وسألتها عن نوع الرجل الذى تود الزواج به، فتغلبت على حيائها وقالت: رجل إيطالى، ولما كانت لا تعرف الإيطالية ولم تذهب قط إلى إيطاليا فقد نالت منى الحيرة، حتى اكتشفت أن هذه المنطقة من العالم قد غزتها إيطاليا، فولَّد هذا فى نفس الفتاة تحيزًا للغازى.

إن إحدى المفاهيم التى تعلمناها باعتبارها بديهية من البديهيات؛ أن مشكلة المشكلات فى التعليم المصرى هى التركيز على حفظ الدروس عن ظهر قلب (ويتمتم بعضهم بأن الحفظ يعود بجذوره إلى التعليم الدينى

وحفظ القرآن). ولكن حين وصلت إلى جامعة كولومبيا (فى الولايات المتحدة) عام 1963، فوجئت أنه كان من المطلوب منا فى دراسة الماجستير أن نحفظ عن ظهر قلب بعض قصائد الشعر الرومانتيكى. وحين سألت عن السبب قيل لى إن الحفظ يُعَد من أحسن آليات إنشاء المودة والحميمية بين الطالب والنص، كما عرفت أن النظام التعليمى فى اليابان لا يحتقر الحفظ على الإطلاق وإنما يوظِّفه. ثم تعلمنا أن فى كثير من العلوم الإنسانية، بل وفى العلوم التجريبية التطبيقية، لا بد أن يقوم الطالب بحفظ بعض النظريات والقواعد والعناصر الأساسية عن ظهر قلب. فأحسست أن رفضنا الكامل للحفظ يُعتبر تحيزًا أعمى ضد تراثنا، وتحيزًا أكثر عماءً لإحدى مقولات الفكر التقدمى الغربى التى نقلناها وحفظناها عن ظهر قلب كأنها مقولة علمية مطلقة لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها.

ومن التحيزات البلهاء الأخرى ضد الذات والتى بدأت تدخل فى حياتنا التحيز للعامية ضد الفصحى، ويظهر ذلك فى الإعلانات بالعامية ولغة بعض الصحف وغيرها من وسائل الإعلام. وما لا يعرفه هؤلاء المتحيزون أن الدول الغربية تبذل أقصى جهدها فى تمويل مشروعات بحثية تهدف إلى دفع العاميات العربية إلى الأمام لكى تنقطع صلتنا بتراثنا الفلسفى والفكرى والأدبى والاجتماعى والعلمى والدينى، ويعزلنا عن تاريخنا وماضينا الذى يجمعنا كأمة عربية وإسلامية، فتزداد هذه الأمة تمزقًا، وتتحول إلى دويلات صغيرة لا يربطها رابط. إن حلم الفصحى ليس «حلم العودة للماضى»، وإنما «حلم الانطلاق نحو غد» يمسك فيه العرب بزمام أمرهم. أما التحيز للعامية، فهو طريق الهزيمة والسوق الشرق أوسطية التى تهيمن عليها إسرائيل (القوة الأعظم بين هذه الدويلات) وهذا هو التطبيع الحقيقى لإسرائيل.

إن المتابع للصحف اليومية العربية يرى أنها تجسد فى بنيتها التحيزات

المعرفية الغربية دون أن تدرى. وإلا فبم نفسر سلوك هذه الصحيفة العربية التى صدرت وفى صفحتها الأولى خبر مثير عن قطارين اصطدما فى الهند مما أودى بحياة بضع عشرات، على حين أوردت فى صفحتها الأخيرة، صفحة الاجتماعيات والفضائح، خبرًا عن عدد الأطفال غير الشرعيين فى إنجلترا الذين بلغ عددهم ذلك العام ٪50 من كل المواليد؟. فى خبر الصفحة الأولى كان الضحايا نتيجة فشل **تكنولوچى**، وهذا هو الفشل الوحيد الذى تعترف به الحضارة الغربية، فحذونا حذوهم ووضعنا الخبر فى الصفحة الأولى. أما الخبر الثانى فهو نتيجة فشل **أخلاقى** وهذا ليس بفشل من منظور النموذج الحضارى الغربى، لذا نضعه نحن أيضًا فى صفحة الاجتماعيات، وكأننا ببغاء عقله فى أذنيه.

ومن المظاهر المؤلمة للتحيز للنموذج الحضارى الغربى ما نردده من أن فلانًا قد **اكتشف** قارة أمريكا أو أستراليا وأن فلانًا قد **اكتشف** منابع النيل، وكأن هذه المناطق تقع فى كوكب أخر ولم تكن مناطق مأهولة بسكانها الذين شيدوا فيها حضارات عريقة، لكن الغرب لا يعترف بأن مكانًا ما قد خرج إلى الوجود إلا بعد أن يدخل فى نطاق الغرب المعرفى، ونحن نكرر دعاويهم.

أما التحيز الأبله فى مجال الفنون فتراه فى **تاريخ المسرح العربى الحديث** الذى بدأ بترجمة مسرحيات مختلفة عن الفرنسية والإنجليزية، ثم ترجمة النظريات الغربية فى المسرح، حتى أصبح المسرح بالنسبة لنا هو **المسرح بالمعنى الغربى**: يجلس المتفرجون منفصلين تمامًا عن العمل الفنى فى مواجهة خشبة المسرح التى عادةً ما تغطيها ستارة، ويبدأ العرض بعد رفع الستار وينتهى بإسدالها. لقد حَرَمَنا التبنى المبكر لهذا المفهوم عن المسرح من التعرف على الأشكال المسرحية فى تراثنا، والتى يختلط فيها الأداء المسرحى بالسرد القصصى والمقطوعات الغنائية مثل صندوق الدنيا وخيال الظل والسيرة الهلالية والسير البطولية الأخرى.

وأعتقد أننا لو درسنا المسرح اليابانى لاكتشفنا عالمًا مسرحيًا مختلفًا تمامًا، فهو مسرح لا يجلس الجمهور فيه فى مواجهة الممثلين وإنما يختلطون معهم تمامًا، كما تختلط فيه الأنواع الأدبية بشكل رائع.

الثمرة الثامنة بعد المائة...

التحيز وفرض النموذج الداروينى: من الكاوبوى إلى توم آند جيرى

إن المتأمل لأفلام رعاة البقر التى طالما عشقناها فى طفولتنا وصفقنا لها، يدرك كيف تنقل لنا هذه الأفلام نموذجًا إدراكيًا إمبرياليًا عنصريًا بشعًا متحيزًا ضدنا. فبطل الفيلم هو الكاوبوى أو الرائد pioneer، الرجل الأبيض الذى يذهب إلى البرِّيَّة (أرض بلا شعب) ليفتحها ويستقر فيها ولا يحمل سوى مسدسه. وكلنا يعرف المنظر الشهير؛ حين يقف اثنان من رعاة البقر فى لحظة المواجهة التى يفوز فيها من يصل إلى مسدسه «أسرع» من الآخر. إن هذا المنظر الذى انطبع فى مُخيلتنا منذ نعومة أظفارنا، يعلمنا كل أسس الداروينية الاجتماعية: أن الصراع من أجل البقاء هو سنة الحياة، وأنه لا يُكتب البقاء إلا للأصلح، أى الأقوى أو الأسرع أو الأكثر دهاءً ومكرًا، وهى مجموعة من الصفات التى لا علاقة لها بأى منظومة قيمية، دينية كانت أو أخلاقية أو إنسانية. وحينما يظهر الهنود الأشرار، هؤلاء «الإرهابيون» (أصحاب الأرض الأصليون) الذين لا يتركون الرائد الأبيض وشأنه كى يرعى أبقاره ويبنى مزرعته (أى مستوطنته) على أرضهم وأرض أجدادهم، يضطر «المسكين» إلى حصدهم برصاصه حصدًا «دفاعًا» عن الفتاة البيضاء البريئة وعن حقوقه المطلقة!. كنا فى طفولتنا نستمتع بكل هذا دون أن ندرك أن الكاوبوى هو فى واقع الأمر الإنسان الأبيض الإمبريالى الذى نهب ديارنا وثرواتنا وأذلنا، وأنه أيضًا الرائد الصهيونى. ولم ندرك أن الهنود هم نحن،

العرب والفلسطينيون، وأن البَرِّيَّة، هى فى واقع الأمر، العالم الثالث بأسره، أرض بلا شعب. ولا تزال الملايين تشاهد أفلام الويسترن وتتبنى ما فيها من تحيزات دون وعى.

ولعل تغلغل النموذج الصراعى الداروينى فى نفوسنا يتضح فى هذه القصة الطريفة. كنت أتناول طعام العشاء مع صديقين من المتمسكين بقواعد الدين وأهداب الفضيلة. ثم حان موعد ما يُسمَّى **«المصارعة الحرة»**، وهى أمر يثير لَدَّى الغثيان بالفعل. وفوجئت بأن الصديقين يستمتعان بها يريان ويأكلان بشهية غير عادية، فسألتهما: «لو كان رسول الله ﷺ معنا، هل كان سيوافق على هذه المصارعة الحرة؟» فسارع صديقاى بالنفى قائلين: «الرسول ﷺ ما كان ليقبل هذا». سررت من إجابتهما وسألتهما عن السبب، فقالا: «المصارعان لا يرتديان مايوهات شرعية»! لقد نسى الصديقان أن المصارعة الحرة تحول الإنسان إلى كتلة من اللحم تتصارع مع كتلة أخرى من اللحم بمنتهى الشراسة، وتسود حلبة المصارعة قوانين الغابة وتخلو تمامًا من أى مفاهيم إنسانية. نسى الصديقان كل هذا لأنهما **تبنيا النموذج الصراعى الداروينى**، ولم يبق أمامهما سوى **حلم المايوه الشرعى**.

ويظهر تبنِى النموذج الإدراكى الداروينى المتحيز دون وعى فى شغفنا الزائد **بأفلام توم وچيرى**، والتى تُصنَّف فى كل البلاد العربية الإسلامية على أنها حلال وبريئة (فهى لا تحوى صورًا عارية ولا قصصًا ملتهبة ولا دعاية أيديولوچية) لهذا نترك التليفزيون مفتوحًا وأطفالنا جالسين أمامه عُزَّلًا، يلتهمون ما يرون. مع أننا لو تأملنا قليلًا لاكتشفنا أن هذه الرسوم المتحركة تجسد **نموذجًا إدراكيًا يتضمن تحيزات صراعية واضحة**، أى أنها تنقل لنا سمًا زعافًا. **فالعالم إن هو إلا غابة داروينية** ملأى بالذئاب التى تلبس ثياب القط والفأر، فهما فى حالة صراع دائم لا ينتهى، وعالمهما خالٍ تمامًا من القيم،

ونحن نحب الفأر ونكره القط لا لأنهما يمثلان الخير والشر، بل لأن الفأر ذكى ولذيذ، أما القط فغبى وثقيل الظل، أى أن القيم التى تسود العمل، هى قيم نسبية نفسية وليست أخلاقية. كما أن القط هو رمز عالم الإنسان إذ يحرس زادنا وحياتنا من الفأر الذى يسرق كل ذلك، والمطلوب منا أن نبغض الأول ونحب الثانى، نبغض الحضارة الإنسانية ونحب الانطلاقة الطبيعية/ المادية التى لا تحدها حدود أو قيود. كل هذا نُعرِّض أطفالنا له ونظن أنه برىء وحلال !.

الثمرة التاسعة بعد المائة...

كيف نحقق التقدم فى ظل التحيز؟

* لجنة التعمير الحضارى

فى أعقاب حرب أكتوبر، شكَّل الأستاذ هيكل، فى مؤسسة الأهرام، لجنة التعمير الحضارى لدراسة المشروع الحضارى العربى ومستقبله بعد الانتصار الذى حققته الأمة العربية آنئذ نتيجة لتوحُّد الجهود العسكرية والاقتصادية. وانقسم الحاضرون أمام الإشكاليات التى طرحتُها إلى جناحين: جناح يضم الدكتور زكى نجيب محمود والدكتور محمود فوزى ويشاركنى الرأى فى أهمية أن نتحفظ فى استيرادنا للأنماط الحضارية الغربية حتى نحتفظ بهويتنا، وجناح آخر يضم الأستاذ توفيق الحكيم والدكتور حسين فوزى والدكتور لويس عوض، ويرى أن النموذج الحضارى الغربى جدير بالتبنى بأكمله، وأنه لا يوجد نموذج آخر بديل، وأن على العرب أن ينسوا تراثهم وتاريخهم وأن يحذوا حذو أوروبا فى كل شىء. فالتحديث فى رأى هؤلاء هو فى واقع الأمر التغريب، أى اتباع أساليب الغرب فى التفكير والسلوك والتنمية (بحلوه ومره).

* حـوار مع توفيـق الحكـــيم

أخبرت الأستاذ توفيق الحكيم أثناء المناقشة أنه قد شكك فى بعض كتاباته فى قيمة الحضارة الغربية وقيمها، وأنه دعا إلى نهج فلسفى مستقل. تنكر الأستاذ توفيق الحكيم لكتاباته وأصر على أنه لا خلاص لنا إلا بتبنى الحضارة الغربية بحذافيرها. فأخبرته أن الحضارة الغربية تغطى آلاف السنين وعشرات الأنساق الخُلُقية والتاريخية، فأى غرب هذا الذى سنقلد؟ أهى فرنسا أم إنجلترا أم الولايات المتحدة أم إسبانيا أم روسيا؟ ثم أضفت، حتى أضمن استمرار الحوار: فلتكن إنجلترا التى نعرفها أكثر من غيرها، هنا سيطرح السؤال نفسه مرة أخرى، أى إنجلترا هذه؟ هل إنجلترا العصور الوسطى حين سادت قيم أخلاقية دينية لا تختلف كثيرًا عن قيم أى مجتمع تقليدى، أم إنجلترا عصر النهضة حين بدأت فكرة الفردية واقتصاد التجار فى الظهور، أم إنجلترا القرن الثامن عشر وعصر العقل والفلسفات الميكانيكية، أم إنجلترا القرن التاسع عشر وعصر الثورة الصناعية والانقلاب الرأسمالى الاستعمارى وقيم النفعية والعنصرية، أم إنجلترا القرن العشرين والكمبيوتر والمخدرات ووسائل الانتقال السريعة والشذوذ الجنسى وفلسفات الحرية والعبثية واللذة والعدمية؟.

ثم طرحت سؤالًا آخر أكثر جذرية: ما جاذبية مثل هذا النموذج الغربى؟ وما الذى يجعلنا نتبناه ونحن نعرف تكلفته الإنسانية العالية؟ وهل يجب أن نأخذ المخدرات مع الكمبيوتر، وفلسفات العبث والعدمية مع وسائل الانتقال السريعة؟. أصر توفيق الحكيم على أنه لا يمكن تَبَنّى جزءًا من النموذج الغربى وحسب وإنما يجب تبنيه كله. فكان ردى أن الغرب حينما دخل العصر الحديث على هذا النحو، وحينما أفرز المخدرات والعدمية، كان كالبطل المأساوى الذى يجلب على نفسه كارثة دون أن يدرى،

وأننا إذا سرنا فى نفس الطريق وارتكبنا نفس الأخطاء وانتهينا نفس النهاية فلن نكون أبطالًا ولا مأساويين، وإنما سنكون مهرجين مقلدين لا نستحق حتى العطف أو الرثاء!.

وأضفت قائلًا: **إن النمط الغربى لا يمكن تكراره إلا من خلال تبنى السلوك الإمبريالى**، وهذا بديل غير مطروح بالنسبة لنا. واستشهدت على ذلك بإحصائيتين فى منتهى الدلالة: الأولى بخصوص ما نهبته إنجلترا من الهند وأنه يفوق كل ما أنتجته إبان ثورتها الصناعية، والثانية بخصوص الرأسمالية الأمريكية وقفزتها الهائلة التى حققتها فى منتصف القرن التاسع عشر من خلال عدة عناصر من أهمها صناعة المنسوجات القطنية، والتى تعتمد على محصول القطن الرخيص الذى كان ينتجه آلاف العبيد السود الذين تمت سرقتهم من إفريقيا وأُجبروا على العيش تحت أقسى أنواع الظلم ودون حد الكفاف. **إن الإمبريالية ليست غزوة استعمارية ولا مجرد انحراف عن مسار الغرب، وإنما هى من صميم هذه الحضارة.**

ثم سألت الأستاذ توفيق الحكيم: «هذه الحضارة الغربية الحديثة لماذا لا تُصَدِّر لنا القيم النبيلة السامية مع ما تُصَدِّر من سلع وأشياء؟. **من كان يقف ضد التحديث والديمقراطية والاستنارة عبر تاريخ مصر والجزائر وسوريا؟** ألم تكن جيوش أوروبا هى التى قصفت بالمدافع الجماهير العربية التى طالبت بحريتها وحقوقها؟ أليست هذه الجماهير هى التى رفعت لواء القيم الغربية النبيلة السامية وماتت من أجلها، بينما كانت جيوش أوروبا تقف لهم بالمرصاد؟».

ثم سألت توفيق الحكيم عن الممثل الرئيسى للحضارة الغربية فى شرقنا العربى، أليست هى الدولة الصهيونية؟ دولة قامت على أرض الآخرين، ولا تستمد شرعيتها من العقل أو الاستنارة أو أى قيم نبيلة أو سامية، وإنما من

منطق القوة وشريعة الغاب. كان رد توفيق الحكيم صادمًا، فقد كان يرى **أن النموذج الصهيونى نموذج يستحق أن يُحتذى** (وكذلك كان رأى د. حسين فوزى وآخرين).

ومن ضمن قناعاتى الحالية أن **الإنسان الذى يؤمن إيمانًا أعمى بالنموذج الحضارى الغربى، عادةً ما ينتهى به الأمر بتقبل الدولة الصهيونية**. ومن حق أى فرد أن يعجب بأى نموذج، بما فى ذلك نموذج البلد الذى نَكَّل به واحتل أرضه، وأن يكون مستغرِقًا فى الإعجاب بالغازى وبالمنتصر (كما هو الحال مع معظم البشر)، **لكن ليس من حقه أن يروج لنموذج ما دون دراسة لأصوله** وأسباب نجاحه المزعوم ومدى إمكانية استمرار هذا النجاح عبر الزمان.

*** سمات متفردة شاذة للكيان الصهيونى:**

على الذين يدعوننا لتبنى النموذج الصهيونى أن يدركوا الخصوصية التى تفَرَد بها هذا الكيان وجعلته غير صالح للتكرار (كما ذكرنا مع النموذج الإمبريالى الغربى). ولنستعرض سويّاً بعضًا من السمات الشاذة لهذا الكيان:

1- لم تنشأ **الصهيونية** كحركة جماهيرية، وإنما نشأت بين بعض مثقفى الطبقة المتوسطة اليهودية فى شرقى أوروبا ووسطها ممن فشلوا فى تحقيق التقدم الاجتماعى داخل مجتمعاتهم، فأسسوا المنظمة الصهيونية التى كانت تدَّعى أنها ستجمع شتات الشعب اليهودى. إذًا نحن هنا أمام ظاهرة فريدة؛ **«قيادة سياسية تخلق منظمة، والمنظمة تخلق شعبًا»**، على حين أن العكس هو الصحيح فى كل الحركات القومية فى العالم. فالشعب هو الذى يتطلع ويطمح، فتظهر من بين صفوفه النخبة التى تقوم بتنظيم صفوفه لتحقيق هذه التطلعات.

2- والوضع نفسه ينطبق على النظام الحزبى الإسرائيلى؛ فهو النظام الحزبى الوحيد فى العالم الذى ظهر إلى الوجود قبل ظهور الجماهير التى يُعبِّر عن «مصالحها»، وقبل ظهور الوطن الذى ينتمى إليه، وقبل ظهور الدولة التى يحاول أن يستولى على مقاليد السلطة فيها! فالحزب فى إسرائيل يسبق الشعب والدولة.

3- والجيش أيضًا لا يختلف كثيرًا عن الحزب أو عن الدولة. فعصابات الإرهابيين الصهاينة بدأت مناوشاتها ضد العرب قبل ظهور التنظيمات العسكرية الصهيونية، بل قبل وصول «الشعب اليهودى» ذاته. وقد عبر أحد الشعراء الإسرائيليين عن ذلك بقوله: **إن كل الشعوب تمتلك جيشًا، ما عدا الشعب الإسرائيلى فهو جيش يمتلك شعبًا!**.

4- وأخيرًا يأتى اعتماد المؤسسات الصهيونية على **التمويل الخارجى**، فمثلًا فى كلية العلوم تجد أن كثيرًا من الأساتذة حصلوا على تعليمهم فى الخارج، بل قاموا بالبحوث فى بلادهم الأصلية ثم يقومون بنشرها فى الدولة الصهيونية. كما تجد أن المعامل يقوم بتمويلها مليونير أمريكى، أما بيت الطالبات فيموله يهود جنوب إفريقيا. كذلك فإن هناك صندوق جباية خاص بالجامعة العبرية فى الولايات المتحدة. ومن ثم فالنموذج الصهيونى نموذج **مموَّل طفيلى**، لا يمكن محاكاته أو تكراره. ولأنه يستمد عوامل حياته من خارجه، فمن المستحسن عدم محاكاته، لأنه مقضى عليه بالزوال إن زالت تلك العوامل.

وبدلًا من أن يكون موضوع الحوار فى لجنة التعمير الحضارى هو:

«كيف نحرز التقدم؟» أصبح «ما التقدم؟».

الثمرة العاشرة بعد المائة...

التيه داخلنا، فأين المفر؟

لقد نجح الإنسان الغربى الحديث فى «تدويل» نماذجه الحضارية والمعرفية من خلال **الاستعمار الغربى**، وهو ما يُعرف فى الوقت الحاضر باسم **«الغزو الثقافى»**. وبالرغم من أن لكل مجتمع رؤيتَه المتميِّزة للكون والتحيزات الناجمة عنها، فإن الكثير من شعوب العالم بدأت تتخلى عن رؤيتها وتحيزاتها النابعة من واقعها التاريخى والإنسانى والوجودى، وبدأت **تتبنى ـ عن وعى أو عن غير وعى ـ الرؤيةَ والتحيزاتِ الغربية**، وبدأت تنظر إلى نفسها من وجهة نظر الغرب.

لقد هيمن النموذج الحضارى الغربى على كل الاتجاهات الفكرية العربية (ليبرالية - ماركسية - إسلامية)، وللخروج من هذه الأزمة ينبغى إدراك أن **التحيز أمر حتمى لا يمكن الخروج منه كليةً**، وبعد ذلك ينبغى التحرك فى اتجاهين:

أولًا: التخلص من التحيز لنماذج الغير بقدر الإمكان.

ثانيًا: تبنى نموذج معرفى بديل نابع من التراث.

* أولًا: كيف الخروج من تيه التحيز الأبله؟

من أجل الإفلات من قبضة النموذج المعرفى الغربى ينبغى:

- دراسة أزمة الحضارة الغربية مع توضيح **نقائص ذلك النموذج** (نموذج معاد للإنسان ـ استحالة تطبيق المشروع المعرفى والحضارى الغربى لأنه يستند إلى الإمبريالية وسرقة المصادر الطبيعية من العالم وتوظيفها لحساب الإنسان الغربى ـ نموذج تتصاعد فيه معدلات

الاستهلاك بما يتجاوز حدود المصادر الطبيعية وما يصاحب ذلك من تلويث مميت للبيئة).

- دراسة انحرافات الحضارة الغربية (العنصرية ـ النازية ـ الإمبريالية) لا باعتبارها انحرافات، وإنما باعتبارها جزءًا من نموذج مهيمن.

- دراسة الفكر الغربى المُعارض الذى أدرك سلبيات حضارته.

- التأكيد على نسبية الحضارة الغربية، مع دراسة الظروف التاريخية والثقافية المحيطة بظهورها وبروزها.

- الانفتاح على العالم بأسره، وليس على العالم الغربى وحده.

* **ثانيًا: تبنى «النموذج البديل النابع من التراث»**، ويركز هذا النموذج على:

1 - **الانطلاق من الإنسان باعتباره كائنًا مُرَكَّبًا غير مادى** (يتميز بثنائية الإنسان والمادة).

2 - **الإيمان بالمقدرة التوليدية للعقل ورفض المفهوم التراكمى.**

3 - **طرح «علم بديل» يؤمن بأن المعرفة اجتهاد مستمر.** هذا العلم لا يهدف إلى التحكم الكامل فى الواقع عن طريق إلغاء تركيبية الإنسان والاكتفاء بالمنظور المادى الواحد. ومن ثم فإن هذا العلم الجديد لا ينبغى أن يهدف إلى الدقة المادية المطلقة ولكن إلى اليقين الكامل النابع من إشباع عُنصرىّ الإنسان (المادى والروحى).

وإذا كان الخروج من التيه وتحقيق النموذج البديل يحتاج إلى مجهودات هائلة، فإنه ليس من المستحيلات وينبغى علينا المحاولة.

* * *

الفصل الثالث: الموسوعة

قصة حياتها - موضوعاتها الأساسية

قصة حياة الموسوعة

القارئ الكريم...

تعالَ سويًا نتأمل تجربة مبهرة... إذا كانت موسوعة د. عبد الوهاب المسيرى رائعة فى محتواها وفى أسلوب معالجتها لموضوعاتها، فإن مراحل تدوينها تمثل تجربة لا تقل عطاءً عن المحتوى ذاته، لذلك فإن رحلة كتابة الموسوعة جديرة بالتأمل، فهى مترعة بالدروس والثمار.

لقد اختار د. المسيرى لهذا الفصل عنوان «**الموسوعة: تاريخها**»، واخترت أنا عنوان «**قصة حياة الموسوعة**» إذ رأيت فيها سمات الكائن الحى.

لقد بدأ المشروع بفكرة تُرجمت إلى هيئة بسيطة... ومرت فى أطوار... بل وصاحبتها المعاناة، تمامًا كالجنين... حتى صارت خلقًا آخر... وكالطفل الوليد قابلتها الصعاب بعد أن خرجت إلى الحياة.

الموسوعة: كيف نشأت الفكرة؟

من مـرحلة إلى مـرحلة، ومن طـور إلى طـور، حتى صارت خـلقًا آخـر

متى انتهيت من كتابة الموسوعة؟ أمر واضح لا لبس فيه، فقد سلَّمت (الديسكات) إلى دار الشروق فى يناير سنة 1998، واستمرت عملية التنسيق والإخراج وتصحيح البروفات ما يقرب من عام. وأما متى بدأت كتابة الموسوعة، فهذا أمر خلافى. وحسمًا لهذه القضية ينبغى أن أُفرق بين ثلاث مراحل:

1- مرحلة التكوين: بدأت دراستى الجادة للصهيونية عام 1964، كما كتبت أول كتيب عنها (بالإنجليزية) عام 1965.

2- مرحلة العمل الموسوعى: فى عام 1970 بدأت فى تأليف كتاب «نهاية التاريخ»، وفى هذه المرحلة بدأت فكرة كتابة موسوعة متكاملة عن اليهود واليهودية والصهيونية وإسرائيل تختمر فى ذهنى.

3- مرحلة كتابة الموسوعة ذاتها.

* كـيـف نَشَــأَت الفكــرة؟

عندما بدأت فى كتابة «نهاية التاريخ» وجدت أن علىَّ أن أتوقف عند كل صفحة لتعريف بعض المصطلحات والشخصيات التى أشير إليها («الكيبوتس» - «بن جوريون» - «الهستدروت» أى الاتحاد العام للنقابات فى إسرائيل...) وكانت الوقفات كثيرة نظرًا لانخفاض مستوى المعرفة بالعدو الصهيونى آنذاك حتى بين المتخصصين. لهذا، قررت أن أستمر فى

كتابة دراستى دون توقف لتعريف كل مصطلح؛ لأن ذلك يُشتت القارئ ويُضعف من تماسك النص، على أن أُلحق بالدراسة «مَسْرَدًا» أُوضِّح فيه ما غَمُض من مصطلحات وأُعَرِّف فيه بالأعلام، ولكن مشروع المَسْرَد تضخم تدريجيًّا إلى أن صار موسوعة معلوماتية من جزء واحد.

*** من طور إلى طور**

1- **البذرة**: يمكن النظر إلى فكرة «المَسْرَد» ثم «**الموسوعة المعلوماتية الصغيرة**» باعتبارها البذرة التى مرت بأطوار مختلفة حتى وصلت إلى الموسوعة التى بين أيدينا. وكان الهدف من الموسوعة المعلوماتية «توفير المعلومات للقارئ والباحث العربى حتى لا يُضَيِّعا وقتيهما وجهدهما فى البحث عن المعلومات، وحتى يتفرغا للعملية البحثية الحقيقية»، لكننى اكتشفت بعد قليل من البحث والتعمق أن عملية جمع المعلومات، مهما بلغت من كثافة وذكاء وحذق، هى عملية لا نهاية لها، ولا جدوى من ورائها، وهى لا تأتى بالمعرفة أو بالحكمة؛ لأنها تمثل وجهة نظر المصدر الذى ننقل عنه دون نقد أو تحليل.

2- **موسوعة 1975: «موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية: رؤية نقدية»**: حين أدركت عدم جدوى «الموسوعة المعلوماتية» التى تُعرِّف بالمصطلحات والأعلام على الطريقة الشائعة والمعروفة، نشأت فكرة كتابة **موسوعة تفكيكية شاملة**، تحاول تفكيك المصطلحات لتوضيح المفاهيم والتحيزات الكامنة وراءها بدلًا من الاكتفاء بتلخيصها وعرضها.

3- **الموسوعة**: كنت قد كتبت فى مقدمة موسوعة 1975 «أن هذه طبعة أولية أو ورقة عمل يمكن أن يتبناها أحد مراكز البحوث العربية كأساس لمشروع بحثى ضخم يهدف إلى إصدار الموسوعة

العربية الشاملة عن هذا الموضوع»، وأرسلت بالاقتراح لمراكز البحوث العربية المختلفة (فلم يرد أى منها لا بالنفى ولا بالإيجاب)، كما رفض مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية فى الأهرام أن يُعيِّن أحد الباحثين لتحديث موسوعة 1975 أولًا بأول وفتح ملفات لكل مدخل من مداخلها. لذا حين وصلت إلى الولايات المتحدة عام 1975، قررت أن أبدأ عملية التحديث بنفسى. وبعد جهد كبير استغرق 25 سنة خرجت **الموسوعة التأسيسية التركيبية** إلى النور عام 1999 بعنوان **«موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيرى جديد»**، والتى نشير إليها باسم **«الموسوعة»**.

الثمرة الثانية عشرة بعد المائة...

من الموضوعاتية إلى التفكيك إلى حلزون التركيب والتأسيس، وأخيرًا اكتمل الـ Jigsaw

ذكرتُ كيف تحولت فكرة عمل «مَسَرد» يُعرّف بالمصطلحات والشخصيات اليهودية إلى **«موسوعة معلوماتية صغيرة»**، ادركت بعد قليل من التأمل عدم جدواها، عندها نشأت فكرة **«موسوعة 1975»** وخرجت إلى الوجود حاملة **«رؤية نقدية»** لما تعرضه من مفاهيم. وفى عام 1985 انتهيت من عملية التحديث لموسوعة 1975 بل وبدأت طباعة ما تصورت أنه النسخة الأخيرة على الآلة الكاتبة.

فى هذه الأثناء بدأت أدرك الطبيعة التفكيكية لموسوعة 1975، وتنبهت أن التفكيك غير التأسيس، وأن ما أقوم به هو تفكيك وحسب، الأمر الذى غَيَّر من رؤيتى لكثير من الأمور. ومما لا شك فيه أن **التفكيك أمر حتمى وضرورى، فهو يكشف** المفاهيم الحقيقية الكامنة ويُزيل الغشاوات التى يزيف بها أصحاب المصالح الحقيقة، لذلك فمهمة الناقد التفكيكى أن يبين

عناصر التحيز الكامنة فى الخرائط الإدراكية والنماذج التحليلية المهيمنة، والتى تُعَبر عادة عن السلطة القائمة، إذ تولّد معرفة تخدم هذه السلطة. ولكن **التفكيك يترك الكثير من جوانب الظاهرة دون تفسير.**

وعندما أعـــدتُ النظر فى الصورة النهائية التى شَرَعتُ فى طباعتها عام 1985، **اكتشفتُ أننى لم أعد أُفكّك وحسب**، وإنما بدأت أطرح مصطلحات ومقولات تحليلية بديلة وأصوغ نماذج تفسيرية جديدة، «أكتشف» من خلالها حقائق هامة متناثرة فى بطون المراجع المختلفة قامت النماذج السائدة بتهميشها، كما بدأت أعيد تعريف بعض المصطلحات القائمة، بما يتفق وحقيقة الواقع كما أراه، لا كما صاغته المراجع والمصطلحات الصهيونية، كما قمت بسك اصطلاحات جديدة فى بعض الأحيان.

لقد اكتشفتُ أننى أقوم بعمل تركيبى تأسيسى، **فالتأسيس عملية إبداعية تركيبية تتجاوز التفكيك**، فهى تتطلب نحت نماذج مختلفة والربط بينها، كما تتطلب الغوص فى كل الأبعاد السياسية والاقتصادية والدينية والمعرفية للظاهرة، وإعادة ترتيب الوقائع وتصنيفها فى ضوء النماذج التحليلية الجديدة.

بناء على ذلك، لم تعد الموسوعة موسوعة معلوماتية تحاول لتوفير المعلومات للقارئ عن طريق ترجمتها ومراكمتها من المراجع والصحف الأجنبية والعربية (**الطور الأول**)، ولا حتى موسوعة تفكيكية تحاول أن تهدم النماذج القائمة (**الطور الثانى**)، وإنما أصبحت موسوعة تأسيسية تطرح نماذج تحليلية مترابطة ومصطلحات بديلة وبرنامجًا بحثيًّا جديدًا فى موضوعات اليهودية والصهيونية والإسرائيلية (**الطور الثالث**). ولو ظلت الموسوعة موسوعة معلوماتية؛ لأصبح حجمها ضعف الحجم الحالى (ثمانية مجلدات) ولتم إنجازها فى أقل من نصف الوقت الذى قضيته فى كتابة الموسوعة الحالية، ولو كانت موسوعة تفكيكية وحسب لنُشِرَت عام 1985.

فى هذه الفترة (1984 - 1985) تحوَّل الإسلام بالنسبة لى من مجرد عقيدة أؤمن بها إلى رؤية للكون يمكن للإنسان أن يُولِّد منها نماذج تحليلية ذات مقدرة تفسيرية عالية. كما أدركت أن الإسلام يعطى إجابات شافية عن الأسئلة النهائية.

كذلك بدأت الموضوعات الفكرية الأساسية فى حياتى والتى كانت متشابكة بالفعل تزداد تشابكًا (الصهيونية كاستعمار استيطانى وكأيديولوچية لأعضاء الجماعات اليهودية ـ الهجيلية والحلولية ونهاية التاريخ ـ الاستهلاكية ومصير الإنسان ـ التحيزات المعرفية والحاجة لمشروع حضارى مستقل ـ الحاجة إلى استخدام النماذج كأدوات تحليلية ـ اليهودية والحلولية). وتحولت الأفكار المتناثرة إلى فكر متماسك ثم أخذت شكل نموذج معرفى متكامل، جعل من العسير عَلَىَّ تناول بعض الظواهر من الناحية السياسية والبعض الآخر من الناحية المعرفية. ومن ثم أصبحت دراساتى فى الصهيونية واليهودية جزءًا من انشغالى الفكرى العام.

*** طبيعة العمل الموسوعى**

مما سبق يتضح ما تتسم به الموسوعة من الترابط الشديد، حتى إننى كثيرًا ما كنت «أكتشف» معلومات فى بطون الكتب والمراجع الصهيونية وغير الصهيونية تغير من رؤيتى وتُعَدِّل من نماذجى التحليلية وتضطرنى إلى إعادة النظر فى كل ما كتبت. فالعلاقة بين النموذج التحليلى والمعلومات علاقة «حلزونية»، فالنموذج يعيد ترتيب المعلومات وتنسيقها، والمعلومات تعيد ترتيب النماذج وتنسيقها. فأجد نفسى مضطرًا إلى إعادة كتابة الموسوعة بأسرها.

كذلك يختلف العمل الموسوعى فى طبيعته عن العمل التأليفى العادى. فحينما يكتب المؤلف كتابًا فإنه يحدد لنفسه الموضوع الذى سيكتب عنه

وحدوده، وماذا يقع داخل نطاق الكتاب وماذا يمكن استبعاده. أما الموسوعة فلها منطق مختلف فهى تشبه الـ **Jigsaw** (مجموعة من القطع الخشبية أو الورقية لا تظهر الصورة المرسومة عليها إلا بعد إتمام ترتيبها الواحدة بجوار الأخرى). فمدخل ما يولِّد إشكالية لا يمكن تجاهلها، ذلك لا بد من كتابة مدخل عنها، ولكن هذا الأخير يولِّد إشكالية أخرى، وهكذا.

كما تشبه الموسوعة بناءً ضخمًا، يكتشف البانى قرب الانتهاء منه أن هناك نوافذ وأبوابًا ناقصة وأخرى يجب تعديلها، وأنه لا بد أن يُضاف شيء هنا وشيء هناك. فمثلًا إن كتبت مدخلًا عن كلمة «يهودى»، وآخر عن «إسرائيلى»، وثالثًا عن «صهيونى»، فهذا يتطلب أن تكتب عن «عبرى» أيضًا. وكلمة «يهودى» تتطلب أن تكتب عن «يهودى أرثوذكسى» و«يهودى علمانى»، وهكذا. وأفرِّق هنا بين **الاكتمال** completeness **والكمال** perfection، فما كنت أحاول أن أصل إليه هو الاكتمال، أما الكمال فهو لله وحده، والموسوعة هى التى تقرر هل اكتملت أم لا.

ولأضرب مثالًا آخر للصعوبات المنهجية اللانهائية التى تواجه العمل الموسوعى: **أنكر تمامًا وجود ثقافة يهودية أو شعب يهودى**، كما أنكر أن تكون «يهودية» مفكر يهودى ما هى العنصر الأساسى والمحدد لفكره. ومع هذا وجدت أننى فى موسوعة عن اليهود لا بد أن أكتب عن «أعلام اليهود» للتعريف بهم ولتوضيح وجهة نظرهم، فكيف يكون مبدأ الاختيار والإبقاء والاستبعاد؟ وحلًا لهذه المشكلة، قررت أن أكتفى بالكتابة عن مشاهير الأعلام من أعضاء الجماعات اليهودية (فرويد ـ كافكا ـ ماركس ـ كيسنجر ـ تروتسكى) علىّ أن أختار بعض الشخصيات ممن هم أقل شهرة بحُسبانهم حالات ممثِلة لإشكاليات توضح وجهة نظرى.

دروس فى التغلب على الصعاب

* **البحث عن مساعَدة:** عندما تبلورَت فكرة موسوعة 1975، كتبت اقتراحًا بالمشروع وتقدمت به إلى مجلس الخبراء بمركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، فرُفض الاقتراح بحجة أنه لا توجد كوادر كافية لكتابة مثل هذه الموسوعة، فاقترحت أن تكون الموسوعة هى الوسيلة لتوليد مثل هذه الكوادر وتدريبها، ولكن المجلس لم يقتنع بوجهة نظرى واكتفى بأن يسمح لى بالاستمرار فى كتابتها من خلال الإمكانات المتاحة بالفعل للمركز (المكتبة - بعض المساعدين) دون اعتماد ميزانية خاصة.

* **تضييق الخناق:** بعد خروج الأستاذ هيكل من الأهرام قامت إدارة المركز الجديدة بتضييق الخناق عَلَىَّ وتقليص حجم الخدمات المتاحة التى كانت محدودة من البداية (ولذا كنت أقول إن الحاج حصافى المسيرى، أى والدى، هو الذى مَوَّلَ هذه الموسوعة). وقد ساعدنى على تجاوز هذه العقبة العمل التطوعى الذى قام به الكثير من طالباتى، إذ ساعدنى على إنجاز أعمال السكرتارية، وهى كثيرة فى العمل الموسوعى، ولولا هذه المساعدات لتعذر عَلَىَّ إنهاء العمل.

* **رياح التطبيع:** عندما بدأت رياح التطبيع تهب أخذ بعض الكُتّاب يتحدثون عن حرب 1973 باعتبارها الحرب الأخيرة، كما أخبرنى البعض أن موضوع اهتمامى وتخصصى (أى الصهيونية) أصبح «موضة قديمة» عفا عليها الزمن. لذلك أصبحت الموسوعة مصدر مخاوف لكبار الإداريين فى مؤسسة الأهرام، فشُكِّلت لجنة لفحص الموسوعة بنيّة

إجهاض خطوات نشرها، فأفتت اللجنة بصلاحيتها للنشر، ولا شك أن انتفاضة الأقصى الأخيرة قد وضعت حدًا لهذا الهزل.

* **الافتقار إلى البعد المعرفى:** كنت فى مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بصحيفة الأهرام محاطًا بمجموعة من الباحثين الذين لم يدركوا أهمية البعد المعرفى، إذ كان خطابهم التحليلى سياسيًا بشكل سطحى، فكانوا دائمى السخرية من تحليلاتى، مما جعلنى أشعر بالوحدة الشديدة. وفى محاولة للدفاع عن نفسى ومن باب التعويض زادت نرجسيتى بشكل واضح، إذ كنت لا أكف عن الحديث عن نفسى وعن إنجازى وأهميته. وقد تعلمت من هذا أن النرجسية ـ وهى صفة ممجوجة ـ قد تكون ضرورة نفسية فى حالة غياب المتلقى، فكل مؤلف يحتاج إلى درجة من الثقة بالنفس وإلى جمهور يستجيب لما يكتب ويعطيه قدرًا من الشرعية، فلا يمكن لأى كاتب أن يضع مؤلفاته بشكل مجرد وفى المطلق!.

* **نجت الموسوعة من المفرمة:** ولم تلق موسوعة 1975 ما تستحق (فى تصورى) من ذيوع، ربما لأنها صدرت مع الاتفاق الثانى للفصل بين القوات المصرية والإسرائيلية. وقد أخبرنى أحد الأصدقاء من أعضاء النخبة الحاكمة أن أحد البنود السرية لهذا الاتفاق كان ينص على عدم توزيع الموسوعة، فأودعت فى مخازن الأهرام وكادت أن تُحوَّل إلى ورق مفروم، ولكن اشتراها موزع كتب سعودى، وقام بتوزيعها هناك؛ لذا فوجئت بأنها معروفة فى السعودية أكثر منها فى أى مكان آخر.

* **الرشوة وتزييف الفكر:** بعد صدور موسوعة 1975 وسفرى إلى الولايات المتجدة بدأت هناك محاولات «رشوتى»، فتم ترشيحى للمشاركة فى رئاسة معهد لدراسة الصراع فى الشرق الأوسط بأى

راتب أحدده، وقد رفضت هذا العرض بعد أن اكتشفت أن شريكى فى الرئاسة صهيونى بارز يُدعى ستيفن كوهين من حزب العمل الإسرائيلى.

كما نُشرت كثير من الشائعات حولى. فعلى سبيل المثال، نشر المرحوم الأستاذ علِى حمدى الجمال مقالًا لى فى الأهرام بعد أن أضاف إليه مقدمة «من عنده» يُفهم منها أننى أؤيد قرار إعادة نشر القوات (عام 1977)، مع أن مقالى كان عن النظام الحزبى فى إسرائيل. كما نشرت جريدة الأهالى خبرًا يفيد أننى من مؤيـدى كامب ديفيد. وكانت هذه الحملة تهدف إلى إثبات أن ملف الصهيونية قد أُغلق تمامًا، وأن واحدًا من أهم المتخصصين فى هذا الموضوع يذهب إلى هذا الرأى. كان من الحتمى لهذه الحملة أن تُكشف وتُفضح، وبالفعل قامت صبرا وشاتيلا وكتابى عن الأيديولوچية الصهيونية بوضع حد لكل هذا.

إننى أؤمن بأن إسرائيل، بنية استيطانية إحلالية، وأن عنصريتها وعدوانيتها وتوسعيتها جزء لا يتجزأ من وجودها، لذلك تحولت الموسوعة فى ذهنى إلى معركة ضارية مع العنصرية والاستعمار. بل إننى كنت أؤكد دائمًا أن معركتى مع الصهيونية ليس لها علاقة كبيرة بالصراع العربى الإسرائيلى، فعدائى للصهيونية ينبع من عدائى لكل أيديولوچيات العنف والعنصرية (مثل النازية والتفرقة اللونية فى جنوب إفريقيا)، ومن ثم لو اختفت إسرائيل من على وجه الأرض أو تصالح معها كل العرب لظل عدائى للصهيونية كما هو. وكان عَلَىَّ تقرير هذه الرؤية فى دراساتى، فأنا كمثقف لا أملك سوى رؤيتى وأفكارى وكلماتى، لا يمكننى التهاون فيها. إذ لو فعلت غير ذلك، فماذا يتبقى لى ؟.

لكل هذا (أو بالرغم من هذا) واصلْتُ جهودى وسارعت بعملية «تحديث» موسوعة 1975 بمجهوداتى الخاصة، رغم كل مؤشرات «السلام الدائم» الكاذبة.

* **صارت الموسوعة تتحكم فى حياتى:** ولإنجاز الموسوعة (والتى بلغ عدد كلماتها ما يزيد على مليونين)، كان على أن **أتبع نظامًا حديديًا فى حياتى**. فأهملت الكثير من مسئولياتى العملية وضمرت حياتى الاجتماعية إلى حدٍّ كبير. كنت أستيقظ فى الصباح المبكر قبل السادسة وأبدأ فى الكتابة حتى الثانية عشرة مساءً لا أتوقف إلا لتناول وجبات الطعام أو النوم ساعة فى الظهيرة، وتستمر هذه العملية ما يزيد أحيانًا عن عشرة أيام. وحينما كنت أذهب للاصطياف كنت أملأ حقيبتين بالمراجع؛ لأن ساعات العمل فى المصيف كانت أكثر. ولم أكن أقرأ إلا ما له علاقة بموضوع بحثى: اليهود واليهودية والصهيونية. وقد زادت وتيرة العمل منذ عام 1990 حين عدت من الكويت واستقلت من الجامعة، حتى يُصبح وقتى مُكرَّسًا كلُّه للموسوعة بالرغم من عدم وجود دخل ثابت (وقد وافقتنى زوجتى وابنى وابنتى على ذلك بعد نقاش استغرق خمس دقائق).

ومما ساعدنى على الاستمرار فى كتابة الموسوعة عبر ربع قرن، أننى كنت دائمًا أتصور أننى على وشك الانتهاء منها، فكانت تظهر لى مقالات أذكر فيها أن الموسوعة ستصدر فى يناير سنة 1990 ثم نوفمبر سنة 1992 ثم أكتوبر سنة 1994 وهكذا. وأنا لم أكن أكذب على القُراء؛ لأن هذا كان تصورى بالفعل. بل أننى كنت أطبع إعلانات عن الموسوعة، وهناك إعلانات عن موسوعة من أربعة مجلدات ثم ستة ثم سبعة ثم ثمانية. ويبدو أننى كنت فى واقع الأمر أخدع نفسى، حتى يمكننى الاستمرار فى هذا المشروع الضخم.

وكما ذكرت، بدأتُ عملية التحديث فى الولايات المتحدة مستغلًا قُربى من المكتبات ومصادر المعلومات. وفى الرياض، تفرغت تمامًا للموسوعة التى بدأت تتحول إلى مؤسسة، إذ أصبح هناك مكتب للترجمة العبرية لتزويدى بأهم المقالات فى الصحف الإسرائيلية. وكانت هيئة الموسوعة تضم عددًا من العاملين بالسكرتارية (واحد فى القاهرة وآخر معى فى أى بلد أكون فيه)، وبعض المساعدين البحثيين، بعضهم فى الولايات المتحدة، ومحررين، وكاتبًا على الكمبيوتر، وماكينات تصوير، وجهازَىّ كمبيوتر وليزر. كما سبق أن كلفت عددًا من الباحثين المتخصصين أن يكتب كل واحد منهم مدخلًا أو أكثر فى حقل تخصصه.

لا يعرف الكثيرون من الأساتذة الجامعيين والباحثين أهمية وجود مساعد باحث ليجمع لهم المادة العلمية، فهم يخلطون بين هذه المهمة وبين التأليف، ولذلك يقومون بإعداد كل شىء بأنفسهم مما يستنفذ طاقتهم. ولكنى ـ والحمد لله ـ اكتشفت وظيفة مساعد الباحث هذه فى مرحلة مبكرة من حياتى؛ لأنى أفرق دائمًا بين الحقائق والحقيقة، وبالتالى بين التجميع والتأليف.

* **خشية التلاكيك الصهيونية:** نبهنى أحد الأصدقاء إلى حقوق نشر الصور، وأن الصهاينة قد يوقفون نشر الموسوعة من هذا المدخل، خاصةً بعد توقيع اتفاقية الجات واتفاقيات الملكية الفكرية. وبدأتُ رحلة طويلة للسؤال عن هذه القضية، فلم أخرج بإجابة شافية، وحيث إننى كنت أخشى مصادرة الموسوعة عدلت عن نشر الصور، على أن أنشرها فى كتب منفصلة فيما بعد.

* **المراجع:** كانت مسألة الحصول على المراجع شاقة ومكلفة، كانت مساعدتاى العاملتان فى الموسوعة فى الولايات المتحدة تقومان بالبحث

عن الكتب والمقالات التى أحتاجها ثم ترسلان بها عن طريق إحدى الحقائب الدبلوماسية خلال يوم أو يومين. وإذا كانت كمية الكتب كبيرة، كان صديق لى فى أحد خطوط الطيران يعمل على شحنها مجانًا على طائرات الشركة، مما كان يوفر لى الكثير من الوقت والمال والعناء.

* **نحيا سويًا أو نموت سويًا**: أثناء الاجتياح العراقى للكويت، اكتشفت أن كل مراجعى وأوراقى ونسخة الموسوعة الوحيدة موجودة هناك، فقررت أن أذهب إلى الكويت؛ إما أن أمكث بجوار أوراق الموسوعة ومراجعها، وإما أن أحضرها معى إلى القاهرة. وقمت بالرحلة، ومكثت فى الكويت أثناء الاجتياح زهاء ثلاثة أسابيع (لم أتوقف أثناءها عن العمل فى الموسوعة). ثم اتفقت مع مجموعة من الأصدقاء على استئجار «تريللا» (عربة نقل ضخمة) وضعت فيها كل صناديق الأوراق التى تخصنى (حوالى ثلاثين صندوقًا) وركب أصدقائى سياراتهم، ونسيت أنا سيارتى من فرط فرحتى بالأوراق، وذهبنا إلى بغداد ومنها إلى الرشيد فالعقبة فنويبع فمصر الجديدة فى القاهرة.

* **تظـهر الكـرامـات بعـد أن تتقطـع الأسبـاب**

أثناء العودة من الكويت حدث ما يشبه المعجزة؛ تعطل شكمان إحدى السيارات فى وسط الصحراء، وكان مطلوبًا إيجاد سلك لربطه لحين الوصول إلى إحدى الورش، فبدأت أسير على قدمَىَّ فى الصحراء فى اتجاه ما، فضحك رفاقى مما أفعل، فى هذه اللحظة وقعت عيناى على لفة سلك كاملة، فأخذتها وأعطيتها إياهم وواصلنا المسير!

* **السطو والنصب**: تعرضتُ لعمليات نصب كثيرة، فأنا لست مؤسسة وإنما فرد أعزل من السلاح ومن المقدرة على الردع. فحين كلفت بعض

الباحثين بكتابة مداخل لموضوعات الموسوعة كان بعضهم يكتب كلامًا معلوماتيًا غثًا وأضطر لدفع مكافآتهم كاملة. أما أفجرهم فقد قام بنقل مدخلًا عن الكنيست من موسوعة 1975 وقدمه على أنه من تأليفه، وهذه أغرب عملية سرقة فكرية فى التاريخ! وكان هناك مساعد باحث أمريكى أرسل إلىَّ من الولايات المتحدة بكلمات خطابية طنانة عن المنظمات اليهودية المعادية للصهيونية، إذ تصور أن مثل هذا الكلام سيعجب «العرب»، فأرجعتها إليه وعنفته وأخبرته أن مثل هذا الهراء لا يفيد كثيرًا، فأرسل بمادة بحثية حقيقية مع اعتذاره. كذلك تقاضى رسام ومشرف وناشر دفعات ماليه من أتعابهم ورفضوا أن يردوها بالرغم من عدم قيامهم بأى عمل.

الثمرة الرابعة عشرة بعد المائة...

*** المؤامرة اليهودية ضدى.**

كثيرًا ما يُطرح علىّ سؤال؛ هل تَعَرَّض لك «اليهود» بِشَر؟ ماذا فعل بك الصهاينة؟. نعم لقد تنوعت محاولات الصهاينة للإضرار بى:

- طلب الإسرائيليون عدم توزيع موسوعة 1975. ليست عندى وثائق تثبت ذلك، ولكن هذا ما أخبرنى به أحد كبار المسئولين، ويؤيد ذلك إهمال الموسوعة فى مخازن جريدة الأهرام فترة طويلة.

- حينما كنت أعمل مستشارًا ثقافيًا للوفد الدائم للجامعة العربية لدى هيئة الأمم المتحدة فى نيويورك فى منتصف السبعينيات، حدث أن سُرق من منزلى كل شىء، كل ما أملك من متاع الدنيا، بما فى ذلك مكتبتى الخاصة، ومسودات الكتب والمقالات التى كنت أُعدها

للنشر، وكذلك نسخة الدكتوراه الوحيدة التى كتبتها زوجتى. سببت عملية السرقة لنا الكثير من الدهشة؛ فبيتنا لم يكن يحتوى نفائس تستحق السرقة. وأخبرنا بعض الإخوة العرب، ممن تمرسوا فى هذه الأمور، أن من قام بالسرقة هم عملاء صهاينة بهدف الإرهاب النفسى وإفقاد التوازن.

- بعد وصولى إلى الرياض بعدة أشهر للتدريس فى جامعة الملك سعود (عام 1983)، بدأتُ فى تلقى سيلًا من الخطابات من «**جماعة كاخ الإرهابية**» الصهيونية التى يتزعمها مائير كاهانا، تطلب منى التوقف عن نشاطاتى المعادية للصهيونية وإلا قاموا بقتلى. وقد أرسَلَت إلىَّ الجماعة سبع رسائل على عنوانى فى القاهرة وستة أخرى على عنوانى فى الرياض، كما أرسلوا بضع رسائل إلى مدير الموسوعة. قابلت الموضوع برمته بشىء من الاستخفاف فى بادئ الأمر، ولكننى أبلغت مباحث أمن الدولة فى مصر ووزير الداخلية السعودى بالأمر. وقد ثبتت جديه هذه التهديدات بعد أن صرح مائير كاهانا بأنه هو الذى قام بإرسال الخطابات، فزودتنى الحكومة المصرية بالحراسة اللازمة، وكان من ضمنها شرطيان يجلسان أمام مدخل منزلى مما جعل البعض يتصور أننى عُيِّنت وزيرًا، وبدأت التهانى تنهال على زوجتى !.

- كَشَفَت جريدة العربى (القاهرية) فى عددها الصادر فى 11 من أكتوبر عام 1993 أنها حصلت على **وثيقة تخصنى من داخل السفارة الأمريكية بالقاهرة**. والوثيقة عبارة عن خطاب موجه من جامعة بار إيلان الإسرائيلية إلى السفير الأمريكى جاء فيه: «لقد فكرنا فى أن يقوم ماركس بإعداد بعض الأوراق التى تثبت أن هناك علاقة بين المركز الأكاديمى الإسرائيلى وبين عدد من رموز القوى السياسية فى مصر التى تعادى السلام مثل د. رفعت السعيد القيادى البارز

بحزب التجمع المصرى أو الدكتور عبد الوهاب المسيرى أو أحد رموز علماء الأزهر أو أحد رموز جماعة الإخوان المسلمين. إن تسريب معلومة كهذه سوف يثير الشكوك حول مواقفهم، وحتى لو أفرطوا فى تكذيب هذه المعلومات، فإنها بلا شك سوف تبعث الكثير من الثقة فى نفوس المتعاونين الحقيقيين معنا».

- بعد صدور الموسوعة وصفها بعض المعلقين السياسيين فى إسرائيل بأنها معادية للسامية لأنها تفرق بين العقيدة اليهودية والقومية اليهودية. وقالت الجيروساليم بوست (عدد 25/ 7/ 1999) «إن عداء الدولة المصرية تبدى فى منح جائزة معرض الكتاب الدولى لعام 1999 لموسوعة معادية للسامية من ثمانية مجلدات».
- حاول الملحق الثقافى الإسرائيلى استئجار شقة فى عمارتى من خلال وسيط، ولكننى رفضت حينما اكتشفت الأمر.

إن الأفعال والمكايد التى دُبرت ضدى لم تكن جزءًا من مخطط سرى يهودى رهيب، أو جزءًا من عداء اليهود الأزلى للأغيار، بل هى **أفعال تقوم بها كثير من الدول ضد من يعاديها**. وتاريخ المخابرات الأمريكية - على سبيل المثال - ملىء بمثل هذه الوقائع. والمهم هو أن يدرك الإنسان أن العالم ليس بريئًا كما قد يتصور، وأن يحترس حتى لا يقع فى يد من يعاديه.

الموسوعة: الموضوعات الأساسية

القارئ الكريم...

لقد ابتعد د. المسيرى فى الموسوعة تمامًا عن عمليات القدح والتشهير باليهود والصهاينة، بل إنه ابتعد أيضًا عن محاولات التعبئة والدفاع عن الحق

العربى... إلخ. وبدلًا من ذلك، قام بتفسير الظواهر اليهودية والصهيونية من خلال عمليتى تفكيك وتركيب تطلبتا الإحاطة بالظواهر اليهودية والصهيونية. وبذلك حَرَصت الموسوعة على ألا تسقط فى التعميمات الاختزالية السهلة أو فى القوالب الإدراكية واللفظية الشائعة التى تهيمن على كثير من الدراسات اليهودية والصهيونية والإسرائيلية.

وتعالج الموسوعة فى مجلداتها الثمانية (3500 صفحة، ما يزيد على مليونىّ كلمة) ثلاثة موضوعات رئيسية متداخلة:

أولًا: العلمانية الشاملة والحلولية والجماعات الوظيفية «كنماذج تحليلية» تنطبق على اليهود والصهاينة.

ثانيًا: تصحيح المفاهيم الرئيسية التى حَرَصَت الصهيونية على تأصيلها، حول اليهود واليهودية والصهيونية وإسرائيل.

ثالثًا: معالجة مفهوم «معاداة اليهود واليهودية».

أولًا: النماذج المعرفية التحليلية

نموذج الجماعات الوظيفية

أكد د. المسيرى من قبل رفضه وهمَ الموضوعاتية المتلقية ورصد الواقع بشكل سلبى، وطرح بدلًا من ذلك مفهوم «النموذج» كأداة تحليلية أساسية ننظر من خلالها إلى الواقع. وقد استخدم المسيرى فى الموسوعة ثلاثة نماذج رئيسية، النموذج الأول والثانى مترابطان وهما «الحلولية» و«العلمانية الشاملة»، وقد سبق تناولهما. أما النموذج الثالث فهو نموذج «الجماعات الوظيفية».

الثمرة الخامسة عشرة بعد المائة...

الجماعات الوظيفية: نموذج معرفى تحليلى هام

الجماعات الوظيفية هى جماعات يستجلبها المجتمع من خارجه أو يجندها من داخله (من بين الأقليات العرقية والدينية أو حتى من بعض القرى أو العائلات)، ويوكل إليها وظائف شتى لا يمكن لغالبية أعضاء المجتمع الاضطلاع بها، رغبة من المجتمع فى الحفاظ على تراحمه وقداسته.

*** أهم الجماعات الوظيفية ودورها**

1 - الجماعات الوظيفية المالية **«الجماعات الوسيطة»**. يقوم أعضاؤها بالتجارة وأعمال الربا وجَمْع الضرائب، وبنشاطات مالية أخرى مثل السمسرة والبورصة وتغيير العملة والمزادات (الأرمن فى الدولة العثمانية - اليونانيون فى مصر - الصينيون فى جنوب شرقى آسيا - اللبنانيون والهنود فى شرقى إفريقيا). ويَكِل المجتمع هذه الوظائف التى تتطلب الموضوعية والحياد والقسوة لهؤلاء المتعاقدين الوافدين الذين يتم عزلهم عن المجتمع مع الاستفادة من خبراتهم فى أداء هذه الوظائف.

2 - الجماعات الوظيفية القتالية **«المرتزقة»**. ويضطلع أعضاؤها بدور القتال، مثل المماليك والإنكشارية والساموراى والحرس السويسرى. ولكى يؤدى هذا العنصر وظيفته (قتل أعداء سيده الذى يدفع أجره) عليه ألا يمارس تجاههم أى إحساس بقدسيتهم وحرمتهم، حتى يتمكن من قتلهم بشكل آلى محايد بارد.

3 - الجماعات الوظيفية الاستيطانية. وهى جماعات بشرية تُوَطِّنها الإمبراطوريات فى مناطق نائية أو إستراتيجية بهدف تعميرها أو

التحكم فيها أو قمع سكانها. ومن أمثلتها سكان كريت واليونان الذين وُطِّنوا فى الشرق فى العصر الهيلينى (مجىء كليوباترا على رأس اليونانيين إلى مصر).

4 – الجماعات الوظيفية الحِرَفية والمِهَنية المتميِّزة التى يتطلب العمل فيها مهارات خاصة؛ مثل الطب وقطع الماس وصنع التحف والاتجار فيها. فالإنسان المتميِّز (الطبيب – الكاهن – الساحر) يتمتع برهبة وتحيط به الهالات، وإنْ أصبح إنسانًا عاديًا فلن يحتفظ بهيبته ولن يتمكن من أداء وظيفته التى تتطلب قدرًا من الانفصال عن مجتمع الأغلبية والتعالى عليه. وتلجأ بعض المدن الإيطالية إلى استجلاب قضاة غرباء لضمان حيادهم وموضوعيتهم، ويشبه ذلك استقدام حكام لمباريات كرة القدم. ولعل استمرار رجال القضاء فى إنجلترا وغيرها من الدول فى ارتداء الشعر المستعار هو محاولة من جانبهم لأن يحتفظوا بمسافة بينهم وبين المجتمع.

5– الجماعات الوظيفية ذات الأعمال المشينة، مثل نزح المجارى ودباغة الجلود والجزارة وجمع القمامة ودفن الموتى وتنفيذ أحكام الإعدام والبغاء.

فمهنة البغاء تتطلب قدرًا كبيرًا من الموضوعية والحياد والانفصال عن المجتمع حتى يتمكن الإنسان من تحويل جسد إنسان آخر إلى مجرد آلة أو أداة، وهذا أمر عسير للغاية فى إطار الترابط الاجتماعى والإيمان بقداسة الجماعة التى ينتمى إليها المرء، كما أن البغىَّ إن مارست عواطف الحب والكُره أثناء ممارستها وظيفتها فإنها تُستهلَك تمامًا. ومن ثم كان يتم استيراد البغايا فى معظم المجتمعات التقليدية من الخارج (الإثيوبيات فى معظم بلاد إفريقيا ـ اليهوديات فى روسيا القيصرية ـ اليونانيات والإيطاليات والروسيات ـ مؤخرًا ـ فى

مصر). وحين كانت البغايا يُجندن من العنصر السكانى المحلى، فإنهن عادةً ما كُنَّ يرتدين أزياء خاصة ويَقْطُنَّ فى أحياء خاصة حتى يتم الحفاظ على المسافة بينهن وبين المجتمع ككل (مثل شارع كلوت بك فى مصر وصاحبات الرايات الحمر فى مكة أيام الجاهلية). حتى أن البغايا فى السودان إن كنّ من أصل سودانى، عادةً ما يَدَّعين أنهن إثيوبيات، حتى أصبحت كلمة «إثيوبية» تعنى «بغيًا»، تمامًا كما حدث فى أوروبا حين أصبحت كلمتا «تاجر» و«مرابى» مرادفتين لكلمة «يهودى».

6 - الجماعات الوظيفية الأمنية، والتى يعمل أعضاؤها فى وظائف حساسة بسبب قربها من الحاكم وحياته الخاصة (المستشارون والحرس الملكى والأقزام والخصيان والجواسيس والطهاة). وعادة ما يكون هؤلاء الغرباء منقطعى الصلة بالقاعدة الجماهيرية، لضمان التصاقهم تمامًا بالنخبة الحاكمة وخدمتها بولاء أعمى، إذ إن بقاءهم الجسدى ذاته منوط بمدى رضا النخبة الحاكمة.

* سمات الجماعة الوظيفية

يتسم أعضاء الجماعة الوظيفية بأن علاقتهم بالمجتمع علاقة نفعية تعاقدية، إذ يُنظر إليهم باعتبارهم وسيلة لا غاية، وهم يُعَرَّفون فى ضوء الوظيفة التى يضطلعون بها لا فى ضوء إنسانيتهم المتكاملة. وعادةً يعيش أعضاء الجماعة الوظيفية على هامش المجتمع بلا ارتباط به ولا انتماء، ويقوم المجتمع فى الوقت نفسه بعزلهم عنه ليحتفظ بمتانة نسيجه المجتمعى، لذا فهم يعيشون فى جيتو خاص بهم فى حالة اغتراب.

نتيجة لذلك، يشعر أعضاء الجماعة الوظيفية بعدم الأمان، لهذا نجدهم فى كثير من الأحيان على مقربة من النخبة الحاكمة ويقومون على خدمتها

(والنخبة الحاكمة، هى التى استوردتهم فى غالب الأمر)، كذلك يقومون بالادخار ومراكمة الثروة لتُدخِل على قلوبهم شيئًا من الطمأنينة. كما إنهم عادةً ما يحلمون بوطنهم الأصلى، الذى يتحول إلى بقعة مثالية (صهيون) «يحلمون» بالعودة إليها، ولكنهم فى واقع الأمر «لا يفعلون»، وهم عادةً ما يقولون إنهم سينفقون مدخراتهم فى بلدهم الأصلى؛ حيث سيحيون حياة حقيقية تحقق ذواتهم وإنسانيتهم.

وبالمِثل ينظر أعضاء الجماعة الوظيفية للمجتمع باعتباره وسيلة، فما هو إلا مصدر للربح والنفع. لذا فإن عضو الجماعة الوظيفية يتسم بازدواجية المعايير: فهو يتعامل مع جماعته بمعيار ومع الآخر بمعيار آخر؛ فعلاقته بأعضاء جماعته قوية للغاية، إذ يعتمد على الجماعة لبقائه واستمراره، بينما تتسم علاقته بأعضاء المجتمع المُضيف بالبرود والتعاقدية والمنفعة المتبادَلة.

وتظل الجماعات الوظيفية قائمة إلى أن تظهر جماعات محلية قادرة على الاضطلاع بهذه الوظائف، فيتم الاستغناء عن هذه الجماعة وتصفيتها. وهذا ما حدث للجماعات اليهودية فى الغرب، إذ أصبحت جماعات وظيفية دون وظيفة (وهذا هو جوهر المسألة اليهودية فى تصورى)، فقامت المجتمعات الغربية بالتخلص منها بإرسالها إلى أرض الميعاد، فى إطار الدولة الوظيفية.

باختصار، يمكن القول أن تَركُّز الحياد والدنس والتعاقد فى جماعة بشرية هامشية يعنى أن بقية أعضاء المجتمع المُضيف يمكنهم التمتع بالدفء والتراحم، و خفض حدة التوتر الاجتماعى، والتمتع بطهره الأخلاقى والفعلى.

الجماعات الوظيفية فى مجتمعاتنا

* بذور إدراكى لنموذج الجماعات الوظيفية

تعود أصول نموذج الجماعة الوظيفية، شأن كثير من النماذج التحليلية، إلى تجربتى الحياتية. وقد ساهم إدراك الفرق بين التعاقد والتراحم فى تكوين هذا المفهوم (فالجماعة الوظيفية جماعة تعاقدية لا تدخل فى علاقة تراحمية مع المجتمع). وعندما لاحظت الفروق الواضحة بين البورجوازية الريفية والبورجوازية الحضرية (بورجوازية أهل القاهرة والإسكندرية) أدركت أن موقع الإنسان الطبقى وحده لا يحدد موقفه، وأن هناك عناصر أخرى (مثل الانتماء والثقافة) تشارك العناصر الاقتصادية التأثير.

كان أهل دمنهور يتباهون بأنه لا يوجد فى مجتمعهم التراحمى أى تاجر أجنبى. وعندما انتقلت إلى الإسكندرية عام 1955، كانت تهيمن عليها جماعات اليونانيين والإيطاليين وغيرهم، إلى أن كان عام 1956 (العدوان الثلاثى) فحل محلهم المصريون. وقد لاحظت ضعف الانتماء الوطنى عند أبناء الأجانب الذين زاملتهم فى جامعة الإسكندرية، فمصر بالنسبة لهم كانت مجرد مكان يستمتعون به ويرتزقون منه.

* الجماعة الوظيفية بين المد والجذر

ومما استرعى انتباهى، أن بعض الوظائف التى كانت هامشية يضطلع بها الأجانب وحدهم أصبحت وظائف محترمة تحلم بها بنات الناس الطيبين. خذ على سبيل المثال وظيفة المُضيفة الجوية؛ حتى الستينيات وبداية السبعينيات، لم يكن أحد يذكر أن أخته أو إحدى قريباته تعمل مضيفة، وكانت المضيفات يقلن دائمًا إنهن سيعملن لسنوات قليلة ثم يستقلن، وكان نفس الوضع ينطبق على

الممثلات. وقد اختلف الأمر الآن تمامًا، فقد أصبحت وظيفة المضيفة أو الممثلة هي حلم معظم بنات الطبقة المتوسطة، وسمعت أن هناك راقصات جامعيات يُعلِنَّ عن أنفسهن بهذه الصفة ويفتخرن بها. بل إن واحدة منهن تخرجت من كلية الطب! فمثل هذه المهن أصبحت مهنًا محترمة ! ـ لا يُعهد للغرباء أو للجماعات الهامشية القيام بها ـ بسبب تزايد علمنة المجتمع وحداثته.

*** المتعاقدون والمغتربون كجماعة وظيفية:**

وقد ازداد نموذج الجماعات الوظيفية تبلورًا فى فكرى أثناء إقامتى فى الرياض. إذ يُشار إلى الأجانب أمثالى من العاملين فى البلاد الخليجية **«بالمتعاقدين»** (ويُسَمَون فى ليبيا **«المغتربين»**)، وهى اصطلاحات تصف الموقف من العاملين فى هذه الأقطار بدقة. فهم موجودون فى هذه الدول لأنها فى حاجة إلى خبراتهم، وحينما يكتسب أهل البلد هذه الخبرات، فعلى المتعاقدين أن يعودوا إلى بلادهم. فالعلاقة بين البلد المضيف والمتعاقد **علاقة تعاقدية نفعية**. وكانت بعض الجهات التى يعمل فيها المتعاقدون لا تخبرهم بتجديد عقودهم أو إلغائها إلا فى آخر لحظة، من أجل ضمان كفاءة المتعاقد وولائه، كما كان يُستغنى أحيانًا عن المهنيين ذوى الخبرة الذين يتقاضون مرتبات عالية (الأساتذة الجامعيين مثلًا) ويُستبدل بهم مهنيون حديثو التخرج بهدف التوفير (فك الواحد باثنين!) كما يقال! وهذه العبارة هى **حوسلة كاملة للمتعاقد**، أى تحويله إلى وسيلة، وتحويله من كيف إلى كم.

وكأى جماعة وظيفية يعيش كثير من المتعاقدين فى عزلة ولا يشعرون بأى عاطفة نحو الوطن المضيف، علاقتهم به تنتهى مع انتهاء العقد (أخبرنى أحد الزملاء الأمريكيين أنه سيبقى فى السعودية حتى آخر قطرة بترول)، ويتحدث كثير منهم عن العودة إلى بلاده الأصلية، التى تتحول فى أذهانهم إلى أرض الميعاد، وذلك يجعلهم يتحملون وضعهم باعتباره وضعًا مؤقتًا وحسب.

ويعيش كثير من المتعاقدين فى ظروف معيشية مزرية لا يمكنه أن يرضى بها فى بلده، حتى يمكنه أن يَدَخر لينفق عن سعة بعد عودته، فذاته التى يفتقدها فى مكان عمله، لا يمكن تحقيقها إلا فى وطنه الأصلى.

وقد أحببتُ السعوديين إلى درجة كبيرة، إذ وجدت بين طلبتى وفاءً وطيبة وذكاء. وفكرت مرة فى أن أرتدى الزى السعودى حتى لا يشعر طلبتى بأن أستاذهم مختلف عنهم، فنحن كلنا عرب ومسلمون، فحذرنى صديق سعودى من ذلك، إذ سيُعَدُّ هذا شكلًا من أشكال النفاق. وحينما تعمقت فى موضوع الرداء هذا، اكتشفت أنه ليس مجرد زى محلى وإنما هو فى واقع الأمر حاجز نفسى أقامه المجتمع (بشكل واعٍ أو غير واعٍ) بينه وبين «المتعاقدين الغرباء»، ففى بعض البلاد الخليجية يزيد عدد المتعاقدين على أهل البلاد، لذا يمكن أن تذوب هُوية أهل البلد إن هم اختلطوا بالوافدين.

وقد وجدت شبهًا كبيرًا بين وضع اليهود فى الحضارة الغربية (يعيشون فى البلد ولكنهم ليسوا منه) والمتعاقدين الغرباء. ومع هذا لابد أن أذكر أن صلاة الجماعة وغيرها من الشعائر الإسلامية التى تجمع بين المتعاقدين والسعوديين نجحت فى إزالة الفوارق ولو لبضع لحظات يمارس أثناءها الجميع إنسانيتهم المشتركة، مما كان له أعمق الأثر على العلاقة بين الفريقين.

الثمرة السابعة عشرة بعد المائة...

الدولة الصهيونية كدولة وظيفية

عندما تأملت الوضع فى الدولة الصهيونية وجدت أنها تتسم بمعظم (إن لم يكن كل) سمات الجماعة الوظيفية، فأسميتها «الدولة الصهيونية الوظيفية». دولة أسسها الغرب لتضطلع بوظيفة محددة.

لقد استورد الاستعمار الغربى سكان إسرائيل من خارج المنطقة وغرسهم غرسًا فى العالم العربى، ثم عَرَّفهم وظيفتهم الاستيطانية والقتالية، فهى دولة تدين بالولاء لراعيها الإمبريالى، تدافع عن مصالحه نظير أن يدافع هو عن بقائها وأمنها ويضمن لمستوطنيها مستوىً معيشيًا مرتفعًا (علاقة تعاقدية نفعية). وتستخدم هذه الدولة الوظيفية معايير مزدوجة: أحدها لليهود والآخر للعرب، وهى دولة منعزلة عن وسطها العربى، غير متجذرة فى المنطقة، فهى فى الشرق العربى وليست منه. وحيث إن السكان الأصليين يقاومون وجودها، تحولت إلى جيتو مسلح.

والدولة الصهيونية ذات نزعة حلولية واضحة، فإسرائيل تَعُدُّ نفسها موضعًا لحلول الإله فى الأرض والشعب (فصارا مقدسين) ومن ثم صارت واحة للديمقراطية ونورًا للأمم !. لذلك فاليهود يعتبرون أنفسهم على علاقة أزلية بأرض فلسطين، أما الفلسطينيون فعلاقتهم بها هامشية.

*** أدرك اليهود دور دولتهم الوظيفية:**

حاملة طائرات، كلب حراسة، مخلب قط

لقد أدرك الصهاينة الطبيعة الوظيفية للدولة الصهيونية ولسكانها الذين تمت حوسلتهم تمامًا (أى تحويلهم إلى وسيلة ليس لها أهمية فى حد ذاتها) لصالح الغرب. وأهم وظائف الدولة الصهيونية على الإطلاق (حتى عهد قريب) هى الوظيفة القتالية (لا التجارية أو المالية)، القتال مقابل المال، أى أنها وظيفة مملوكية بالدرجة الأولى. وفيما عدا ذلك، فديباجات اعتذارية وتفاصيل فرعية.

لقد عبر هرتزل، مؤسس الصهيونية، عن مفهوم «الوظيفة المملوكية» بوضوح تام فى تعبيره المجازى الشهير حين قال: «سنقيم هناك (فى آسيا) حائطًا لحماية أوروبا، ويكون حصنًا منيعًا للحضارة الغربية فى مواجهة الهمجية».

وقد وصف البروفسير يشعياهو ليبوفيتس إسرائيل عام 1974 بأنها **«عميل للولايات المتحدة»** ووصف الإسرائيليين بأنهم **«كلاب حراسة للمصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط، ويتعلق بقاؤهم بقدرتهم على القيام بهذه المهمة»**. وقد طَوَّر الصحفى الإسرائيلى عاموس كينان هذه الصورة المجازية وجعلها أكثر حدة وإثارة، إذ وصف إسرائيل بأنها **«كلب حراسة رأسه فى واشنطن وذيله فى القدس»**، وهى كلب حراسة قوى لكنه يحتاج إلى حماية. ويُفَضِّل العرب استخدام اصطلاح **«مخلب القط»** كصورة مجازية لوصف الدولة الوظيفية. وهى صورة مجازية فَقَدت الكثير من قوتها بسبب تكرارها بشكل ممل، وإن كانت مُعبِّرة تمامًا.

وقد عَبَّرَ أحد المفكرين اليهود عن وضع إسرائيل بشكل معبر عندما قال: «لولا وجود إسرائيل كقاعدة ومنطقة نفوذ وحليف للولايات المتحدة لاضطرت الأخيرة إلى بناء عشر **حاملات طائرات إضافية**». وقال أخر: «إن الأمريكيين يدفعون لنا لأنهم يريدون أن تكون لهم دولة تابعة مجهزة بأفضل الأسلحة والجنود، ذلك أن دولتنا حاملة طائرات عليها أربعة ملايين نسمة فى موقع إستراتيجى فريد؛ قريب من الاتحاد السوفييتى وقريب من أوروبا الشرقية وقريب من حقول النفط».

الثمرة الثامنة عشرة بعد المائة...

معاداة العالم لليهود باعتبارهم جماعة وظيفية، وليس عداءً للسامية !.

يُمَكننا مفهوم «الجماعة الوظيفية» من تفسير ظاهرة «العداء لليهود» («العداء للسامية» كما تُسمَّى). فالعداء لليهود يُعتبر فى حقيقته شكلًا من أشكال العداء للأقليات والغرباء والأجانب، وهو **شعور «كامن» فى النفس البشرية** فى كل المجتمعات التى تنفر من كل ما هو غير مألوف. ومادام

المجتمع مستقرًا ولكل عضو فيه وظيفته تظل هذه المشاعر فى حالة كمون ولا «تُعبِّر عن نفسها» إلا من خلال أعمال عنف وكُرْه فردية متفرقة أو من خلال أشكال من التحايل على أعضاء الأقلية أو من خلال أعمال أدبية أو قصص أو أساطير (كمسرحية تاجر البندقية).

ولكن ثمة عناصر تؤدى إلى تَحوُّل هذه المشاعر العدائية من حالة الكمون إلى «حالة التحقق والظهور»، فتتعدد الأفعال الفردية وتصبح ظاهرة اجتماعية. وكما كان أعضاء الجماعات الوظيفية يمثلون سوطًا فى يد الحاكم، يضرب به بعض طبقات المجتمع لاستغلالها أو كبح جماحها، يصبحون كبش الفداء الذى يتم التخلص منه عند الحاجة وأمام الهجمات الشعبية.

و يُعتَبر ما حدث فى بولندا فى أواخر القرن الثامن عشر مثالًا لهذا التحول فى المشاعر من العداء الكامن إلى الهجوم الشعبى ضد اليهود كجماعة وظيفية. فقد كان يهود بولندا يمثلون أغلبية يهود العالم، ثم حدث بينهم انفجار سكانى أدَّى إلى تضاعف عددهم خمس أو ست مرات، ومن ثم زاد بروزهم العددى والاقتصادى، مع تزايد فقر قطاعات كثيرة من المجتمع. ذلك فى الوقت الذى شهد فيه المجتمع البولندى بداية ظهور طبقات محلية بديلة وأجهزة قومية تحل محل الجماعة الوظيفية الوسيطة. وفضلًا عن ذلك، كان أعضاء الجماعة اليهودية يتحدثون اليديشية ويدينون بالولاء للثقافة الألمانية، بينما كان الألمان هم الأعداء التقليديين للبولنديين. وأخيرًا فإن اليهود البولنديين لم يشاركوا بشكل فعَّال فى الحركة الوطنية البولندية التى كانت ذات تَوجُّه معاد لليهود لأسباب تاريخية مركبة (من أهمها قيامهم بوظيفة جمع الضرائب وعوائد الضياع). لكل هذا (وليس لأسباب خاصة بالجوهر اليهودى أو بأصلهم السامىّ) تفجرت معاداة اليهودية فى بولندا وروسيا بشكل حاد.

ثانيًا: الموسوعة وتصحيح المفاهيم

(اليهود - اليهودية - الصهيونية - إسرائيل)

من المفارقات المؤلمة أن الخطاب السياسى والإعلامى العربى يتبنى الكثير من المفاهيم التى تحرص الصهيونية على تأصيلها والترويج لها! وقد قام د. المسيرى فى الموسوعة بعملية تفكيك لهذه المفاهيم حول اليهود واليهودية والصهيونية وإسرائيل، وأوضح ما فيها من تحايل ومخالفة للحقيقة. ثم قام بعملية تركيب وتأسيس لوضع هذه المفاهيم فى إطارها التاريخى والاجتماعى والسياسى الصحيح.

الثمرة التاسعة عشرة بعد المائة...

«اكتشاف» اليهود من جديد

*** من هو اليهودى؟**

يتصور كثير من الباحثين فى الظواهر اليهودية والصهيونية أن مصطلحًا رئيسيًا مثل «يهودى» هو مصطلح محدد المعنى واضح الدلالة يشبه فى وضوحه وتحدده مصطلحًا مثل «مصرى»، مع أنهم فى إسرائيل ذاتها لا يزالون يحاولون الإجابة عن هذا السؤال! كما يتحدث الباحثون عن اليهود بصفتهم «الشعب اليهودى» الذى يعيش فى «المنفى»، كأن اليهود ينتمون إلى «تشكيل حضارى واحد»، وكأن لهم تاريخًا واحدًا ومصيرًا واحدًا ومستقبلًا واحدًا، وربما عِرْقًا واحدًا، وانتماءً ثقافيًا واحدًا، وهذا هو جوهر «النموذج الإدراكى والتحليلى الذى يروج له الصهاينة».

عندما أدركت الخطأ البين فى هذا المفهوم الصهيونى، بينت من خلال الدراسة المتأنية «عدم تجانس اليهود»؛ فهم ليسوا شعبًا واحدًا (شعب بلا أرض) وإنما هم أقليات، بعضها حقق الاندماج فى وطنه الذى يعيش فيه، وبعضها انصهر تمامًا، وبعضها يعانى من مشكلة ما فى مجتمعه. والجماعات التى لا تُكوِّن شعبًا واحدًا، لا يقال عنها إنها تعيش فى المنفى «مشتتة» (كما يدَّعى المصطلح الصهيونى).

ودليلنا على هذا المفهوم هو وجود أعضاء الجماعات اليهودية فى كل أنحاء العالم بكامل إرادتهم دون قسر أو إرغام، وإلا فبم نفسر أن غالبية يهود العالم لا تزال خارج إسرائيل، وأنه لا يقطن فى إسرائيل سوى حوالى ربع يهود العالم؟. بل إن يهود العالم هؤلاء قد اكتسحتهم العلمانية، وبدأت هويتهم تختفى من خلال تصاعد معدلات الاندماج والزواج المختلط. وقد شكا أحد الحاخامات فى أمريكا اللاتينية من أن اليهود منصرفون عن دور العبادة، وأن الفتيات اليهوديات لا يُقمن شعائر يوم السبت المقدس، بل يذهبن بدلًا من ذلك إلى البلاچ مع أصدقائهن من الأغيار، مرتديات مايوهات سماها الحاخام مازحًا: مايوهات ما بعد البيكنى post-bikini (على وزن ما بعد الحداثة) نظرًا لأنها أصغر من أى مايوهات شاهدها فى حياته!.

قد يكون اليهود منفيين بالمعنى الدينى، وهذا يعنى أن هذه إرادة الله، لذا نجد أن اليهودية الحاخامية تُحَرِّم العودة إلى فلسطين إلا بعد عودة الماشيح (المسيح المُخَلِّص اليهودى الذى يعود فى آخر الزمان)، ويجب الانتظار فى صبر وأناة إلى أن يأذن الله. ومحاولة الصهاينة العودة من خلال الإرادة الإنسانية ومن خلال الإمبريالية هى - من منظور دينى يهودى - بمثابة إرغام الإله وفرض الإرادة البشرية عليه، ومن يفعل ذلك يرتكب خطيئة

«التعجيل بالنهاية» (وقد أكد لى ذلك صديقى الحاخام يوسف بيخر الذى يحارب الصهيونية بكل جوارحه دفاعًا عن اليهودية).

أما المتحمسون للعقيدة اليهودية من الصهاينة (أمثال بن جوريون ورابين) فلا ينظرون إلى التوراة باعتبارها أحد كتب اليهود المقدسة بالمعنى الدينى، وإنما هى كتاب فلكلور الشعب اليهودى (شأنها شأن السيرة الهلالية وألف ليلة وليلة بالنسبة للعرب)، وبالتالى فهى ليست مُلزمة أخلاقيًا، ولا تحمل أى قداسة، وإنما هى رباط عرقى يربط أعضاء الشعب بعضهم ببعض. ومن هذا المنظور صرح بن جوريون بأن خير مفسر للتوراة هو الجيش الإسرائيلى! **فالمسألة علمانية داروينية محضة، مسألة قوة عسكرية شرسة تساند ادعاءات توراتية فلكلورية لا علاقة لها بخالق أو عقيدة.**

* مفهـوم الجمـاعـات اليـهــودية ليسوا شعبًا يهوديًا

إذا كانت اليهودية عقيدة دينية لها سمات معينة، واليهودى هو من يؤمن بها ووُلد لأم يهودية، فإن «**تعريف اليهودى**» لا يقف عند التعريف العقائدى، كما تفعل كل الأديان (المُسلم هو من يؤمن بالإسلام)، ولكن **التعريف يشترط أصلًا عِرْقيًا أيضًا**، كما تفعل العقائد البيولوجية الحتمية.

وينقسم أعضاء الجماعات اليهودية إلى ثلاثة أقسام أساسية: **اليهود الغربيون (إشكناز) واليهود الشرقيون (سفارد) ويهود البلاد الإسلامية.** إلى جانب ذلك توجد جماعات هامشية لا حصر لها، من أهمها السامريون الذين لا يؤمنون بالتلمود ولا بمعظم كتب العهد القديم، وإنما يؤمنون بأسفار موسى الخمسة فقط.

ومن ذلك نجد أن مصطلح «يهودى» مصطلح عام للغاية، وربما يظهر ذلك فى عبارة تستخدمها الإحصاءات اليهودية لتشير إلى مجموعة من الناس يُصَنفَّون على أنهم «يهود» ولكنهم ليسوا يهودًا حسب أى من التعريفات القائمة، ولذا يُشار إليهم على أنهم «يهود بشكل ما Jewish somehow».

لكل ما تقدم أسقطت من معجمى تمامًا مصطلحات «اليهود» و«الشعب اليهودى» على عمومها وإطلاقها، وأتحدث عنهم «كجماعات يهودية» ينطبق عليها ما ينطبق على غيرها من الأقليات، فى المجتمعات التى تعيش فيها.

*** مفهـوم «التاريـخ اليهـودى الواحـد»**

لعل من أهم الأفكار السائدة التى يروجها الصهاينة مفهوم «التاريخ اليهودى الواحد»، والذى يفترض وجود تاريخ يهودى مستقل عن تاريخ جميع الشعوب والأمم. وإذا افترضنا وجود تاريخ يهودى فعلًا. فما أحداث هذا التاريخ؟.

هل الثورة الصناعية، على سبيل المثال، من أحداث التاريخ اليهودى، أم أنها حدث ينتمى إلى التاريخ الغربى؟ إن الانقلاب الذى حدث فى طرق حياة يهود العالم الغربى ورؤيتهم للكون فى القرن التاسع عشر، لم يتم بصفتهم يهودًا، بل شملهم بصفتهم أقلية توجد داخل التشكيل الحضارى الغربى الذى شمل أعضاء الأغلبية وأعضاء الأقليات الأخرى. وفى المقابل، لم يتأثر يهود العالم العربى بالثورة الصناعية بالدرجة نفسها وفى التوقيت نفسه؛ لأن التشكيل الحضارى العربى كان بمنأى عنها فى بداية الأمر، لكن بعد نحو قرن من الزمان، بدأ هذا التشكيل يتأثر هو الآخر بالثورة الصناعية، أما يهود إثيوبيا، فلم يتأثروا به إلا على نحو سطحى؛ لأن المناطق التى يعيشون

فيها ظلت بمنأى عن هذه التحولات الكبرى، وبقيت ذات طابع قَبَلى حتى الوقت الحاضر. ومن ثَم يمكن القول بأن معدل تأثر اليهود بالثورة الصناعية إنما هى مسألة مرتبطة بكونهم أعضاء فى مجتمع ما، فإذا تأثر هذا المجتمع بالثورة الصناعية فإن أعضاء الجماعات اليهودية يتأثرون بها بالمقدار ذاته. ومعنى ذلك أن هناك «تواريخ» للجماعات اليهودية لا تاريخًا يهوديًّا واحدًا.

*** مفهـوم «الهُـويـة اليهـوديـة» و «الشخصـية اليهـوديـة»**

هل «يهـودية اليهـودى» مسئولة عن عبقريته... أو إجـرامه؟

إن الحديث عن «الهوية اليهودية» و«الشخصية اليهودية» هو حديث صهيونى عنصرى (معادٍ لليهود !)، كما إنه معادٍ للحقيقة؛ إذ ينزع عن اليهود إنسانيتهم ويحولهم إلى شياطين رجيمة. وقد قمنا بتفكيك هذه المفاهيم، وبيّنا أن اليهود فى أنحاء العالم ليسوا كتلة متماسكة، وأنهم فى حالة صراع، وأن لهم مصالح متضاربة، وأنهم جزء لا يتجزأ من التشكيلات الحضارية التى يعيشون فى كَنَفها، يتفاعلون معها تأثيرًا وتأثرًا؛ فمجتمع الأغلبية يقوم بتحديد سلوكهم كأقلية، بل وصياغة رؤيتهم ولغتهم وفنونهم وتراثهم نفسه.

ثم انتقلنا بعد ذلك إلى مرحلة التركيب والتأسيس وطرحنا من خلالها نموذج «الجماعات اليهودية»، بدلًا من مصطلح «اليهود» المطلق العام.

لذلك نرى أن الحديث عن «العبقرية اليهودية» فيه شطط، كما أن الحديث عن «الجريمة اليهودية» لا يقل عنه شططًا. فإن كانت يهودية اليهودى هى المسئولة عن «عبقريته»، فلِمَ لَمْ يظهر كافكا أو أينشتاين بين يهود الفلاشاه؟ وإذا كانت يهودية اليهودى مسئولة عن «إجرامه» فلِمَ لَمْ يظهر تنظيم مافيا يهودى فى اليمن (كما حدث بين يهود الولايات المتحدة فى الثلاثينيات؟).

إن دراسة المؤسسات والظواهر اليهودية يجب أن تبدأ بدراسة المجتمع الذى يعيش أعضاء الجماعات اليهودية بين ظهرانيه (النظر من الخارج) بدلًا من النظر إليهم من الداخل وكأنهم كيان سياسى وحضارى مستقل.

الثمرة العشرون بعد المائة...

«اكتشاف» حقيقة الإبادة النازية لليهود

ينبغى وضع الإبادة النازية ليهود أوروبا فى سياق الحضارة الغربية باعتبارها حضارة إبادية لا تتردد فى إزالة الآخر من طريقها (فالآخر من الناحية العرقية يشغل مكانة أدنى، لذا لا يستحق الحياة). ويؤكد ذلك وقائع الإبادة المختلفة فى التاريخ الغربى الحديث، ابتداءً من إبادة الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية (فى القرن السادس عشر) حتى فيتنام والبوسنة فى القرن العشرين.

وكان هتلر نفسه يبدى إعجابه بالمستوطنين الأمريكيين البيض وطريقة «معالجتهم» لقضية الهنود الحمر، وكان يشير إلى أوروبا الشرقية التى يبغى ابتلاعها بحسبانها «أرضًا عذراء» أو «صحراء مهجورة»، تمامًا كما يتحدث الصهاينة عن «أرض بلا شعب» وعن فلسطين بحسبانها «صحراء ومستنقعات». وقد بيَّن ألفريد روزنبرج، أحد أهم الزعماء والمنظرين النازيين، أثناء محاكمته فى نورمبرج «إن نظرية التفاوت بين الأعراق هى جزء لا يتجزأ من الفكر الغربى. وأن رؤيته العرقية بتفوق الجنس الأبيض (السوبر مان) هى نتيجة أربعمائة عام من البحوث العلمية الغربية».

لذلك فإن الإبادة لم تَطُل اليهود وحدهم، وإنما طالت العجزة والأطفال والمعوَقين والشيوعيين والغجر وأعضاء النخبة البولندية وأسرى الحرب،

بل وأحيانًا الجرحى الألمان، أى أنها جزء من موقف نازى عام، ليس موجهًا ضد اليهود وحدهم، وإنما كان موجهًا ضد الآخر (أى آخر) الذى قد يقف فى طريق النازيين.

كما كَشَفَت الموسوعة عن كثير من حقائق التعاون بين النازيين والصهاينة! مما أنقذهم من الإبادة، ولهذا قال أحد المعلقين: إذا كان هرتزل هو ماركس الصهيونية (أى مُنَظِّرها)، فإن هتلر هو لينينُها (أى من حَوَّل النظرية إلى واقع سياسى !).

وفى ضوء هذا الطرح، فإن قضية «الهولوكوست» تتحول من مجرد إثبات أو إنكار، إلى بحث فى أسباب اختفاء ستة ملايين يهودى (إن صدق الرقم). فهل اختفى مَن اختفى مِن خلال أفران الغاز أم أن هناك أسبابًا أخرى مثل تناقص عدد اليهود منذ بداية القرن الحالى من خلال الزواج المختلط والتنصر والإحجام عن الزواج والنسل؟ وماذا عن الأوبئة والمجاعات والغارات أثناء الحرب؟ وماذا عن هؤلاء الذين حصلوا على شهادات تعميد من الكنيسة حتى يمكنهم الهروب من النازى؟ كل هؤلاء اختفوا وحُذِفت أعدادهم، ولكن ليس من خلال أفران الغاز.

الثمرة الحادية والعشرون بعد المائة...

«اكتشاف» الديانة اليهودية من جديد

*** ديانـات يهـوديـة متعددة**

تحوى اليهودية داخلها منذ بداياتها تناقضات عميقة بخصوص بعض القضايا الجوهرية. فمفهوم الإله فى العهد القديم يختلف من جزء إلى جزء

ومن سِفر إلى سِفر، كذلك فإن أسفار موسى الخمسة التى تُعَدُّ أهم كتب التوراة لا توجد فيها أى إشارات للبعث أو اليوم الآخر، بينما نجد أن هناك إشارات محددة لهذه المعتقدات فى الأسفار الأخرى.

كذلك لم يتم تحديد أصول الدين اليهودى بدقة منذ البداية، ومن ثم تطورت كل جماعة يهودية على نحو مستقل عن بقية الجماعات، سواء من الناحية الثقافية أو الدينية، وأصبح لكل جماعة آراؤها التى لا تقل شرعية عما يُسمَّى بالتيار الأساسى فى اليهودية. لذا عندما تم تعريف أصول الدين اليهودى فى مرحلة متأخرة (على يد موسى بن ميمون تحت تأثير الحضارة الإسلامية) كان ذلك أمرًا عديم الجدوى لأن اللامعيارية كانت قد تأصلت كجزء أساسى من اليهودية.

لكل هذا نجد أن ثمة صراعًا عميقًا يدور بين الرؤيتين الأساسيتين فى اليهودية؛ الرؤية التوحيدية التقليدية والرؤية الحلولية المسيطرة على الفكر الصهيونى. وقد تصاعد هذا الصراع وصُفِّى بالتدريج لصالح الحلولية، حتى أن تفسيرات وشروح الحاخامات (التلمود) حلت محل الشريعة الأصلية (التوراة). ووصل هذا الاتجاه إلى ذروته فى كتب «القبَّالاه» وهى كتب الصوفية الحلولية اليهودية التى توحد بين الإله وبين الشعب اليهودى والأرض اليهودية، أى فلسطين.

والتلمود كتاب ضخم يبلغ سبعة عشرة مجلد فى ترجمته الإنجليزية، وكُتب على مدار ألف عام ويضم شروحات الحاخامات للتوراة وفتاواهم، ويتناول أدق تفاصيل الحياة بالنسبة لليهود، وقد تزايدت أهميته ومركزيته حتى أصبح يحتل مكانة تفوق مكانة التوراة.

لقد جعلت هذه الأشكال الكثيرة من اليهودية عبر التاريخ، من الصعب على الباحث أن يتحدث عن «يهودية معيارية». فنجد اليهودية القربانية القديمة التى تدور حول الهيكل وطبقة الكهنة، واليهودية الحاخامية التى نشأت بعد سقوط الهيكل، ويهودية عصر ما بعد الاستنارة (القرن الثامن عشر) حين حاول البعض إصلاح اليهودية فقاموا بعلمنتها، وقد صحب ذلك استيلاء الصهيونية على اليهودية. ثم أخيرًا ظهور اليهودية الإلحادية (يهودية عصر ما بعد الحداثة) بما تتميز به من لاهوت موت الإله، وإعلان الانتصار النهائى للحلولية والوثنية والحواس الخمس. ومع هذا، فإن كل هذه العقائد والمذاهب سُمِّيت «يهودية»، وسُمِّى أتباعها «يهودًا»!

* اليهودية من خلال النموذج التحليلى التراكمى بدلًا من النموذج العضوى

أثبتنا فيما سبق خطأ النموذج التحليلى العضوى، الذى ينظر للعقيدة اليهودية باعتبارها نسقًا واحدًا، ويرى أن اليهود يشكلون كتلة بشرية متجانسة، واستخدمتُ محله نموذجًا تراكميًا (كما رأينا). لقد انتهى الأمر بأن أصبح يهود العالم ينقسمون من الناحية الدينية فى الوقت الحاضر إلى قسمين أساسيين: يهود إثنيون (علمانيون)، وهؤلاء فقدوا كل علاقتهم بالعقيدة اليهودية والموروث الدينى، وهم يرون أن يهوديتهم تكمن فى إثنيتهم، أى فى أسلوب حياتهم وموروثهم الثقافى. ويهود متدينون، وهؤلاء يؤمنون بصيغة ما من صيغ العقيدة اليهودية، ويمثلون مذاهب عديدة غير متجانسة فقد بعضها علاقته باليهودية التقليدية التى تُسمى اليهودية الحاخامية أو الأرثوذكسية.

إن الخلافات بين هذه المذاهب من العمق بحيث إن أحد الحاخامات الأرثوذكس صرح عن حق بأن هناك يهوديتين: يهودية الإصلاحيين والمحافظين واليهودية الأرثوذكسية. وبالفعل، فلنتخيل حاخامًا أرثوذكسيًّا يعرف أن التوراة تُحرِّم الشذوذ الجنسى، ثم يسمع أن اليهودية الإصلاحية لا تبيحه وحسب، بل وتقبل عقد الزيجات بين أفراد من نفس الجنس، وأنه تم عقد زواج بين رجلين يهوديين أمام حائط المبكى !.

وإذا كان من الممكن تجاهل حالة عدم التجانس هذه قبل تأسيس الدولة الصهيونية، فبعد عام **1948** وتجميع أعضاء الجماعات اليهودية المختلفة فى فلسطين المحتلة حدثت المواجهة وتفجرت أسئلة عديدة لا تزال تبحث عن أجوبة: من هو اليهودى؟ ما اليهودية؟ ما هوية الدولة التى تسمى نفسها «يهودية»؟، هل هى دينية أم علمانية؟ وإن كانت دينية، أهى إصلاحية أم محافظة أم أرثوذكسية؟.

الثمرة الثانية والعشرون بعد المائة...

«اكتشاف» الصهيونية من جديد

* البعد المعرفى والفكرى الغربى والصهيونى

إن جوهر الفكر الغربى العلمانى الشامل فى القرن التاسع عشر هو البحث عن «مُطلق مادى» يمكن عن طريقه تفسير كل الأشياء والظواهر. هذا المطلق هو صراع الطبقات ووسائل الإنتاج عند ماركس، وهو الجنس عند فرويد، وهو مبدأ المنفعة عند بنتام وهكذا.

وهذا ما فعلته الصهيونية، فقد استعارت «مفهوم العودة» ثم حولته إلى مطلق علمانى مادى شامل يتحقق فى عالم المادة. فاليهودى ـ حسب التصور

الصهيونى ـ هو فرد فى شعب مرتبط عضويًا بأرض الوطن، يشعر دائمًا برغبة عارمة وإحساسًا غريزيًّا بضرورة العودة.

ويذهب الصهاينة إلى إن على اليهودى أن يرفض عملية الانتظار السلبى للعودة (انتظارًا لمشيئة الخالق) التى فرضها عليه الحاخامات، بل عليه أن يحمل السلاح بطريقة علمانية عصرية حديثة لتحقيق العودة الإستيطانية المسلحة، لا بد من العودة إلى فلسطين واغتصابها، فالبقاء للأصلح بقوة السلاح على الطريقة الداروينية النيتشوية، ولذا فقوة السلاح هى المعيار النهائى.

إن الخطاب الصهيونى يتسم بأنه خطاب حلولى عضوى يستبدل بالإله الأمة (الأرض والشعب) ويخلع عليها كل صفات الإله.

*** حقيقةالصهيونية كصورة من الإمبريالية الغربية... بل تزيد**

تتجلى حقيقة الحركة الصهيونية فيما يلى:

1 - إن الصهيونية ـ فى تصورى ـ ليست جزءًا من العقيدة اليهودية، وإنما هى تطبيق إمبريالى للعلمانية الشاملة.

2 - من المعروف أن مؤسسى الحركة الصهيونية كانوا ملاحدة، حتى إن الحاخام الذى جاء لعقد زواج هرتزل غادر دون أن يكمل مهمته لأنه وجد أنه لا يمكن أن يَعُدُّه يهوديًّا. كذلك كان المستوطنون الصهاينة فى الثلاثينيات يقومون بمظاهرة فى يوم كيبور (أكثر الأيام قداسة) ويسيرون أمام حائط المبكى (أكثر الأماكن قداسة) ليأكلوا ساندويتشًا من لحم الخنزير، إعلانًا عن تخلصهم من موروثهم اليهودى. بل إن «الدولة اليهودية» ذاتها كانت ستسمى «الدولة العبرية» حتى يتم الابتعاد عن كلمة «يهودية» الكريهة (فى تصور مؤسسى هذه الدولة).

3- **ينزع الصهاينة القداسة عن كل شيء ويلغون تاريخ فلسطين والفلسطينيين بل ويهود العالم، ويوظفون الجميع لتحقيق** أغراضهم.

4- ليست الصهيونية مجرد صورة من صور الإمبريالية الغربية، وإنما **هي حركة استيطانية إحلالية تمّت فى كنف الإمبريالية الغربية وتحت** مظلتها. فقد قامت هذه الإمبريالية بنقل كتلة بشرية من أوروبا وتوطينها فى فلسطين لتحل محل سكانها الأصليين. وقد اعتمد بلفور فى إنجازه للمشروع الصهيونى على إعلان رغبته فى «**تخليص أوروبا من اليهود**»، وهو بذلك يشبه هتلر، فكلاهما كان يود تحقيق هذا الهدف. ولكن على حين تخلص بلفور منهم بإرسالهم إلى مستعمرات الإمبراطورية الإنجليزية (فلسطين)، قام هتلر بالتخلص منهم بإرسالهم إلى معسكرات الاعتقال والغاز، بعد أن فشل فى التخلص منهم بالطريقة البلفورية عن طريق تهجيرهم إلى موزمبيق. ولذلك **يمكن فهم الفكر الصهيونى بشكل أعمق إن اعتبرناه جزءًا من الفكر الغربى المادى** (الداروينية ومسئولية الرجل الأبيض، وتحويل العالم كله بمن فيه من بشر إلى مادة استعمالية).

5- والصهيونية بطبيعة تكوينها **ذات ميول توسعية** (وطن اليهود القومى من النيل إلى الفرات).

6- **تعطى الصهيونية كحركة عنصرية كل الحقوق لأعضاء الكتلة** البشرية الوافدة وتنكرها على السكان الأصليين.

7- والصهيونية فى المقام الأول **حركة إبادية** تدعى أن أرض فلسطين أرض بلا شعب.

8- نجحت الصهيونية فى تمرير خطاب مراوغ؛ بحيث أرسلت الإشارات إلى يهود العالم تخبرهم بأنها حركة لتهجير لا كل اليهود وإنما بعضهم وحسب (لإبقاء الأثرياء والمندمجين فى بلادهم).

9- وقد فَرَّقْت بين ما أسميه **«الصهيونية التوطينية»** (فى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية) و**«الصهيونية الاستيطانية»** (فى أوروبا الشرقية). فالصهيونية التوطينية تغذى الحركة الصهيونية بالتبرعات والدعم السياسى ولكنها لا ترسل قط بمستوطنين (لأن يهود الغرب مندمجون فى مجتمعاتهم مستريحون تمامًا فيها)، أما الثانية فهى المصدر الأساسى والوحيد للمادة البشرية الاستيطانية. ويبدو أن معين هذه المادة البشرية الاستيطانية (فى أوروبا الشرقية) قد نضب.

10- وفى نفس الوقت **حافظت الصهيونية على عباءتها «اليهودية»**. فنْقل الكتلة البشرية أطلقت عليه «عودة اليهود» إلى أرض أجدادهم التى يرتبطون بها برباط مقدس لا تنفصم عراه رغم تغير الزمان والمكان (الحلولية اليهودية). وبعد تأصيل هذه الفكرة تتغير الديباجات: فالعودة هى عودة لإقامة حكومة العمال والفلاحين (عند مخاطبة الاشتراكيين الثوريين)، أو لإقامة دولة ديمقراطية (بالنسبة للديمقراطيين)، أو تحقيقًا للوعد الإلهى (بالنسبة للمتدينين). الديباجات وحدها تتغير، أما فعل النقل الاستعمارى الاستيطانى الإحلالى ذو العباءة اليهودية، فثابت لا يتغير.

11- إن العلاقة متوترة بين الدولة الصهيونية ويهود العالم! فالدولة الصهيونية تود توظيفهم لحسابها، وهم يخشونها، وفى نفس الوقت يودون أن تظل حياتهم فى أوطانهم مستقرة كاملة غير منقوصة. وقد

نتج عن ذلك ما سميناه «التملص اليهودى من الصهيونية»، وهو أن يعلن اليهودى ولاءه الكامل للصهيونية ودولتها، ولكن سلوكه لا يعكس هذا الولاء.

* اللوبى الصهيونى يخدم الإستراتيجية الأمريكية، وليس العكس

من الأساطير الأساسية المسيطرة على الخطاب السياسى أسطورة «أن الصهاينة، يسيطرون على صنع القرار فى الولايات المتحدة من خلال اللوبى الصهيونى»، وأن الولايات المتحدة، بالتالى، ضحية مسكينة يتلاعب بها الصهاينة اليهود.

إن الكثيرين ينسون أن الدولة الصهيونية استثمار إستراتيجى مهم بالنسبة للولايات المتحدة التى هى قوة إمبريالية عظمى ولها مصالحها التى تحاول تحقيقها وحمايتها بأى ثمن. لقد اختارت الإستراتيجية الإمبريالية المواجهة المستمرة مع العالم الإسلامى بدلًا من التصالح أو التعاون معه (وإلا لما قضت أوروبا على محمد علىّ، ولما تم وضع اتفاقية سايكس بيكو لتقسيم العالم العربى، وقد استفحل الأمر بعد تفتت الاتحاد السوفييتى وبعد أحداث 11 سبتمبر)، وهذا القرار قد يكون لا عقلانيًا من وجهة نظرنا، ولكن من قال إن القرارات الإستراتيجية العليا تكون «عقلانية»؟! لذلك فإننى أرى أن قوة اللوبى الصهيونى (أى جماعات الضغط الصهيونية التى تحاول أن تؤثر فى القرارات التى تتخذها الإدارة الأمريكية) تنبع من تبعيته للإستراتيجية الغربية وليس العكس. ومن ثم فإننى أؤمن تمامًا أن السياسة الإمبريالية للولايات المتحدة تجاه الشرق الأوسط ما كانت ستتغير بشكل جوهرى لو اختفى اللوبى الصهيونى (بل والحركة والدولة الصهيونية).

إن المدافعين عن نظرية اللوبى لا يدركون أن نجاح هرتزل لا يكمن فى أنه جند اليهود (فمعظم أعضاء الجماعات اليهودية كانوا ضده)، وإنما لأنه اكتشف الإمبريالية كآلية لتنفيذ المشروع الصهيونى. لهذا طلب من جوزيف تشامبرلين، وزير المستعمرات البريطانى، **قطعة أرض لا يقطنها الإنسان الأبيض** (لا يهم بطبيعة الحال إن كانت مأهولة بالسكان الأصليين) لتكون مكانًا لإنشاء الدولة الصهيونية.

إن قرار الولايات المتحدة بدعم إسرائيل يستند إلى حسابات دقيقة؛ فالولايات المتحدة تعطى الدولة الصهيونية ما يقرب من عشرة بلايين دولار سنويًا، لحماية المصالح الغربية الأمريكية والأمن الأمريكى. ولو اضطرت إلى أن تقوم بهذه المهمة دون اللجوء إلى وسيط، لوجدت نفسها مضطرة إلى أن تُبقى خمس حاملات طائرات فى حوض البحر الأبيض المتوسط بشكل دائم، وهذه تُكلف حوالى خمسين بليون دولار. **إن الدولة الصهيونية صفقة إستراتيجية رابحة بالنسبة للولايات المتحدة**، قاعدة عسكرية منخفضة التكاليف، الأمر الذى يحرص المتحدثون الإسرائيليون على إظهاره، ولا يملون من تكراره للحصول على المزيد من الدعم.

هذا لا يعنى بطبيعة الحال إنكار دور اللوبى الصهيونى، فهو لوبى منظم وقوى، ولكنه يتحرك فى إطار الإستراتيجية العامة السابقة، ومن ثم لا يمكن الحديث عنه بحُسبانه المُحَرِك، وإنما هو عنصر مساعد داخل إطار قد تحدد من قبل.

*** الصهيونية مصطلح فقد معناه السياسى والاجتماعى**

أصبحت كلمة صهيونية فى الخطاب الأدبى تعنى **«كلام مدع أحمق»** (الجيروساليم بوست 26 أبريل سنة 1985)، وتحمل أيضًا معنى «التباهى

بالوطنية بشكل علنى مبالغ فيه»، وتدل على «الاتصاف بالسذاجة الشديدة فى حقل السياسة» (الإيكونومست 21 من يولية سنة 1984).

وكما ذكرت، يُنظر إلى الصهاينة باعتبارهم مجموعتين من البشر: صهاينة الخارج «الصهاينة التوطينيون» الذين يدعمون بالمال ويحضرون إلى إسرائيل وكأنها مكان سياحى (فندق صهيون على حد قول أحد الكُتاب الإسرائيليين)، ويحبون أن يسمعوا الخطب الساذجة التى لا علاقة لها بالواقع والمليئة بالادعاءات الحمقاء والتباهى العلنى بالوطنية. والمجموعة الثانية هم «الصهاينة الاستيطانيين» المقيمين فى إسرائيل والذين يعرفون أن عليهم إلقاء خطب جوفاء ومبالغات لفظية لا معنى لها، حتى يجزل لهم الضيوف العطاء.

وتُستخدم الآن عبارة «أعطه صهيونية» بمعنى فلتتفوه بكلام ضخم أجوف لا يحمل أى معنى، فهو صوت بلا معنى وجسد بلا روح ودال بدون مدلول. كما نقول بالعامية المصرية: «هَجَّص»، فالمسألة «هجص فى هجص». ويمكن أن نضيف لزيادة الدلالة «والأرزاق على الله». أو فلنجعل العبارة علمانية ونقول: «والأرزاق على الولايات المتحدة ويهود المنفى».

الثمرة الثالثة والعشرون بعد المائة..

«اكتشاف «إسرائيل من جديد

*** دولة استعمارية استيطانية إحلالية، لا علاقة لها بالتوراة والتلمود**

أكدت الموسوعة أن إسرائيل ليست دولة يهودية، وأن الادعاء الصهيونى بأنها تنبع من التوراة والتلمود والتطلع اليهودى الأزلى للعودة لا أساس له

من الصحة. إن إسرائيل فى واقع الأمر دولة استعمارية استيطانية إحلالية، ولا يمكن فهم حركياتها وآلياتها إلا فى هذا الإطار. لذا لا ينبغى دراسة إسرائيل فى علاقتها بسِفْر الخروج، بل ندرسها فى إطار استيطان الإنسان الأبيض فى الأمريكتين ونظام التمييز العنصرى فى جنوب إفريقيا.

*** من شابه أباه فما ظلم**

تتميز إسرائيل بكل ما يُميز الدول الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية:

- لا يخضع المجتمع الإسرائيلى لقوانين متميزة تعبر عن الجوهر اليهودى أو التاريخ اليهودى، وإنما يخضع للقوانين التى يخضع لها معظم أعضاء الجيوب الاستيطانية، مثل الإحساس بعدم الأمن ومحاولة إنكار تاريخ السكان الأصليين والرغبة فى التخلص منهم مع الشهوة المتزايدة للتوسع والاستيلاء على أراضى الآخرين.

- يعانى الإسرائيليون من عدم التجانس وعوامل التفرقة التى تنخر فى المجتمعات الاستيطانية، ومن مظاهرها: الصراع الدينى - العلمانى، والصراع العرقى (سفارد - إشكناز - جماعات أخرى كثيرة)، والأزمة الاستيطانية (تزايد عدد العرب وثبات عدد الإسرائيليين أو تزايدهم بنسبة أقل - إحجام يهود العالم عن الهجرة).

- يخضع الإسرائيليون للمفاهيم التى يخضع لها أعضاء المجتمعات الغربية الاستهلاكية (التمركز حول الذات والتوجه الشديد نحو اللذة - التركيز على المصلحة الاقتصادية المباشرة - تراجع النزعة التقشفية والقتالية).

* إسـرائيل من خلال نموذج الحلـوليـة الماديـة

عندما طبقتُ نموذج الحلولية (وَحْدة الوجود المادية) على الصهيونية وإسرائيل، وجدت أن الحلولية اليهودية هى الإطار الذى يتحرك فيه الصهاينة العلمانيون والدينيون، فالكل يرى أن القداسة تسرى فى الشعب والأرض. (ولا يهم أن تكون القداسة ذاتية فى الشعب والأرض كما يقول العلمانيون، أو نتيجة لحلول الإله فيهما كما يقول المتدينون) فتسمية مصدر القداسة ليست أمرًا مهمًا فى المنظومات الحلولية.

ويختلف التعبير عن هذه القداسة من مذهب لآخر، فالدينيون يقولون إن روح الإله وروح يسرائيل شىء واحد، أى أن الشعـب فى قداســة الرب، وهذا لا يختلف كثيرًا عن قول العلمانى الملحد إن الشعب اليهودى هو ربه، أو عن قول موشيه ديان إن الأرض هى ربه. فالصياغات كلها تنتهى إلى شعب مقدَّس له حقوق مطلقة فى أرضه المقدَّسة.

* هكذا اتضحت الرؤية

وانطلاقًا من هذه الرؤية تبنيت نظامًا تصنيفيًّا جديدًا، فالكيبوتس (أو ما أُسَميه المزارع المسلحة) ليس مجرد تعبير عن عقلية الجيتو، وإنما هو ضرورة أمنية لكتلة بشرية استيطانية وافدة قامت بالاستيلاء على الأرض وطرد سكانها الأصليين. والهستدروت ليس مجرد اتحاد نقابات عمال وإنما مؤسسة استيطانية تهدف إلى تنظيم أعضاء الكتلة الوافدة فى مجابهة السكان الأصليين.

إن هذا التناول يحل كثير من إشكاليات الخطاب التحليلى العربى حول الصهيونية، خاصة وأن نزع فكرة اليهودية عن إسرائيل وتأكيد جوهرها

الاستعمارى الاستيطانى الإحلالى يعنى أن الصهاينة «محتلون» وليسوا «عائدين». ومن ثم فإن فلسطين هى وطن الفلسطينيين وليست أرض الميعاد، وأن رفض الفلسطينيين لهذا الجيب الاستيطانى وحربهم ضده ليس إرهابًا وإنما مقاومة وجزء من حركة التحرر الوطنى.

ثالثًا: معاداة اليهود واليهودية

الثمرة الرابعة والعشرون بعد المائة...

معاداتنا لليهود واليهودية، قرة عين الصهيونية

*** لا تضع يدك فى يد الصهيونية وأنت لا تدرى**

ينحى الخطاب التحليلى العربى حول المفاهيم الخاصة باليهود والصهيونية منحنيين متناقضين؛ فهو إما يميل إلى التعميم الشديد («الصهاينة ليسوا إلا عملاء للاستعمار» و«إسرائيل ليست إلا كذا») وإما إلى التخصيص التآمرى الشديد («اليهود مختلفون عن البشر» - «هذه طبيعة اليهود عبر الزمان والمكان»).

يتبنى الكثيرون من الكُتَّاب العرب مفهومًا يفترض أن اليهود يُكَوِّنون شعبًا واحدًا متجانسًا ذا مصالح مشتركة وأنهم يشكلون وحدة مستقلة عما حولهم، ومن ثم فإن لهم خصوصيتهم اليهودية التى تتبدى فى طعامهم وشرابهم وزيهم ولغتهم ومؤسساتهم السياسية... إلخ. إن أصحاب هذا المفهوم يتبنون نموذجًا «يعادى اليهود واليهودية»، باعتبار أن الدولة الصهيونية دولة يهودية نبعت من التوراة والتلمود (وهذا ما يحرص الفكر الصهيونى على تأصيله والترويج له)، متجاهلًا مجموعة كبيرة من التفاصيل

والمعلومات والحقائق. بل ويتجاهل المعادون لليهود واليهودية كل ما ذكرناه من حقائق حول إعادة اكتشاف المفاهيم الخاصة باليهود والصهيونية، ويكررون أنه مهما ادعى اليهودى أنه انسلخ عن اليهودية، فهو يظل فى أعماق أعماقه يهوديًّا، بل وصهيونيًّا، فمن وُلد يهوديًّا يظل يهوديًّا، ومن ثَمَّ صهيونيًّا طيلة حياته!.

هذا وقد أفرز تبنِى نموذج «العداء لليهود واليهودية» **ثلاثة مفاهيم خاطئة:**

- اليهود أصحاب قدرات خارقة.

- هناك مؤامرة يهودية قديمة للسيطرة على العالم.

- إذا أردنا فهم المؤامرة اليهودية فلنقرأ كتبهم المقدسة.

وسنناقش هذه الشِراك الصهيونية فى الثمرات التالية.

الثمرة الخامسة والعشرون بعد المائة...

كأنهم يُضمرون أحقاد شيلوك، ويملكون قدرات نبى الله سليمان عليه السلام

* ليسوا عباقرة ولا شياطين

يحمل «نموذج معاداة اليهود واليهودية»من الضرر أكثر مما يحمل من الفائدة. فأصحاب هذا النموذج يعتقدون أن عداءنا لإسرائيل يرجع إلى نزعة اليهود الشيطانية، ومن ثم ينبغى استغلال هذا النموذج فى تخويف الجماهير وتوليد العداء للعدو الصهيونى وفى تجنيدها ضده. ولكن واجهتنا حقيقة مُرَّة؛ وهى أن الناس قد يُصَدِّقون ما يرددونه! وهو أن اليهود شياطين؛ قوة

لا تُقهر (مثل جيش الدفاع الإسرائيلى)، وأنهم يحكمون العالم، وأن أياديهم الخفية موجودة حقًا فى كل مكان.

إن هذه الرؤية تحول اليهود إلى عباقرة أو شياطين. فإن كانوا شياطين، فنحن لا نملك إلا الاستعاذة منهم بالله أو الفرار أو الاستسلام. وأما إن كانوا شعبًا من العباقرة، يدهم الخفية متحكمة فى العالم بأسره، فبطبيعة الحال لا قِبَل لنا بمحاربتهم. وبذا يؤدى نموذج العداء لليهود إلى السلبية والاستسلام والهزيمة، فيخرج بعدونا من الإطار البشرى ويُسَوِّغ الهزيمة التى أُلحقت بنا مرارًا.

بذلك يخدم المعادون لليهود واليهودية الصهيونية خدمات عظيمة مجانًا! وكما قال يوئيل ماركوس فى جريدة هاآرتس (31 من ديسمبر عام 1993): «إن بروتوكولات حكماء صهيون تبدو كأن الذى كتبها ودسَّها لم يكن شخصًا معاديًا لليهود، بل كان صهيونيًّا ذكيًّا يتسم ببُعد النظر. يشير بذلك إلى أثرها فى تخويف الناس من اليهود بشكل عام، بحيث يهابون الحرب قبل دخول المعركة. لذلك كان هرتزل يتحدث عن «أصدقائنا أعداء اليهود». وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «نُصرت بالخوف مسيرة شهر»، وبدلًا من أن نستخدم الخوف كسلاح وقعنا فى شِرَاكه.

* لا بد من أنسنة اليهود حتى نفاوضهم أو نقاتلهم

نحمد الله أن جميع من يتحرك فى أرض الممارسة الحقيقية (المفاوضون والمجاهدون الفلسطينيون) يرفضون النظر لليهود بحُسبانهم شياطين؛ لأنهم لو وقعوا فى هذا الفخ لأصبح التفاوض مستحيلًا (إلا من منظور الاستسلام بطبيعة الحال) ولأصبح الجهاد أكثر استحالة. إن المفاوضين

والمجاهدين يقومون بأنسنة اليهود، أى تحويلهم إلى بشر خاضعين لعوامل الزمان والمكان. هذا على عكس بعض أعضاء النخبة الحاكمة العربية الذين يؤمنون فى قرارة أنفسهم بأن «اليهود» قوة عظمى تمسك بمقاليد الأمور، وأنه لا بد من «التفاهم» معهم، إذ لا قِبَلَ لنا بهم.

ويتصور البعض أن «أنسنة اليهود» تعنى «تبرئة ساحتهم والتعاطف معهم» وهذا خلل ما بعده خلل. أما بخصوص تبرءة ساحتهم، فهذا يفترض أن الصراع عبارة عن مرافعات، وأننا يجب أن نحاكم الصهاينة لا أن نقاتلهم، وهو أمر أبعد ما يكون عن الحقيقة. وأما فكرة التعاطف مع اليهود فيدحضها فهم ما جاء فى الذكر الحكيم ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء 104].

ولعل ما قاله مارك توين عن اليهود يلخص رأيى بدقة بالغة: «اليهود بشر، ولا يمكننى أن أقول ما هو أسوأ من ذلك عنهم!». فالاستعمار والعنصرية والاستغلال والشر ظواهر إنسانية، بمعنى أنها كلها نابعة من صميم وجودنا الإنسانى، لذا يمكن رصدها وفهم وتفسير معظم جوانبها. والفهم والتفسير يختلفان عن التعاطف والتقبل، وهما ضروريان للتعامل مع الواقع وتغييره.

الثمرة السادسة والعشرون بعد المائة..

نظرية المؤامرة اليهودية

يؤدى تبنى نموذج «العداء لليهود واليهودية» إلى ما يُعرف بـ«نظرية المؤامرة اليهودية». وهذا النموذج يضع اليهود، كل اليهود، فى سلة واحدة،

ويعتبر كل الظواهر اليهودية والصهيونية والإسرائيلية شيئًا واحدًا، باعتبار «الجميع يهود والسلام». ثم ينظر النموذج إلى اليهود باعتبارهم شخصيات مخربة هدامة دائمًا وأبدًا، تتآمر بطبيعتها ضد كل ما هو خَيِّر ونبيل، وأنهم مسئولون عن كل الشرور. ويرى هذا النموذج أن سلوك اليهود يُعبر عن مخطط جبار وضعه العقل اليهودى لتخريب الأخلاق وإفساد النفوس، حتى تزداد كل شعوب العالم ضعفًا ووهنًا بينما يزدادون قوة وبأسًا، وذلك بهدف السيطرة على العالم. والعالم كله - حسب هذا التصور - ليس إلا رقعة شطرنج، وكل البشر ليسوا إلا أحجارًا عليها يحركها اليهود بكل بساطة لإنجاز مخططهم، فهم أصحاب قوة خارقة لا تضاهيها قوة. والتاريخ اليهودى بأسره (من وجهة نظر أصحاب هذا النموذج) ليس إلا تعبيرًا عن هذه المؤامرة التى لا تتغير.

وقد تلقف التآمريون فضيحة مونيكا لوينسكى فأشاروا إلى أنها يهودية، ومن ثم فهى بلا شك جزء من هذا المخطط. وكأن كلينتون ليس رجلًا منفلت العيار مثل الملايين غيره، متناسين أن إحدى أفراد سكرتاريته امرأة يهودية أخرى حاولت قدر وسعها أن تبعد هذه الفتاة اللعوب وتَصْرفها عن هذا الرجل المنفلت، لتحمى مؤسسة الرئاسة الأمريكية منها ومن نزواته!.

ونلخص تصور التآمريين فى أن الصهيونية ليست ظاهرة مرتبطة بحركيات التاريخ والفكر الغربى، وإنما هى مجرد تعبير عن هذا الشر الأزلى الكامن فى النفس اليهودية.

*** مُخطط وليس مؤامرة**

اليهود بشر، ولا يمكننى أن أقول عنهم ما هو أسوأ من ذلك!

يخلط البعض بين المؤامرة والمُخطط. فالمخطط هو خطة أو إستراتيجية

تُعبِّر عن مصالح دولة ما أو مجموعة من الدول، يمكن فهمه والتصدى له بمخطط مضاد. وبذلك يكون أصحاب المخطط المعادى لنا بشر، ونحن بشر، والحرب بيننا سجال، إلى أن ينصر الله من ينصره.

أما المؤامرة فخطة سرية وضعها فى الظلام بضعة أفراد دوافعهم خسيسة شريرة، يحاولون قدر طاقتهم الحفاظ عليها طى الكتمان ويقومون على تنفيذها. والمؤامرة لا تتبع مسارًا مفهومًا وليس لها قوانين تحكمها. ويتصور أصحاب نموذج المؤامرة أن المؤامرة التى تحاك ضدهم موجودة فى وثيقة بعينها، تتضمن كلَّ أو معظمَ البنود. وبدلًا من فهم الواقع وتحليله وتفكيكه وإعادة بنائه لنفهم ما يُحاك لنتصدى له، تصبح مهمتنا هى ضرورة البحث عن مثل هذه الوثائق ودراستها بعناية.

و لا يعنى إنكار «المؤامرة» بأى حال إنكار أن أصحاب «المخطط» يبذلون قصارى جهدهم لكى ينفذوه بأى طريقة (أخلاقية أو غير أخلاقية) متاحة. لذا كثيرًا ما نجدهم يلجئون إلى المؤامرات، التى أدت إلى تقسيم العالم العربى واستعمار فلسطين، وكذلك مؤامرات أخرى أقل ضخامة مثل محاولات الاغتيال السياسى والتجسس وتقديم رِشا لبعض أعضاء النخب الثقافية والسياسية، وتحريك الأقليات بهدف إثارة القلاقل. وقد اعترف الإسرائيليون أنه كان لديهم 2000 عميل فى لبنان، ويقال إن عدد عملائهم أثناء الانتفاضة الفلسطينية كان مائة ألف).

* لِمَ أرفض نموذج المؤامرة؟

ينطوى نموذج المؤامرة على دعوة إلى عدم الجهاد؛ لأنه نموذج يؤدى إلى الشلل التام. كنت فى إحدى الندوات أعرض وجهة نظرى، فقام أحدهم

وصرخ فى بصوت عالٍ: «إن حربنا مع اليهود إلى يوم قيام الساعة». قالها بحماسة شديدة جعلت الجمهور كله يصفق له بحماسة أشد، فقلت لهم: إن هذا القول يعنى أن قيام دولة إسرائيل جزء من مخطط إلهى، وأن انتصاراتها علينا «أمر مكتوب»، علينا تَقَبله إلى أن تحين الساعة !.

ويدلل التآمريون على وجود المؤامرة اليهودية بأن النبوءات الصهيونية قد تحققت كلها، ويشيرون بذلك إلى مذكرات هرتزل حين تنبأ بتأسيس الدولة الصهيونية فى غضون خمسين عامًا. ولكن هل قام أحدهم بحساب عدد النبوءات التى أطلقها هرتزل بثقة لكنها خابت؟. ما قولهم فى نبوءته بخصوص ألمانيا القوية التى ستأخذ اليهود تحت جناحيها، وتساعدهم فى مشروعهم الصهيونى؟. وما قول التآمريون عن نبوءات الصهاينة بتدفق يهود العالم على الوطن القومى اليهودى حيث يتم صهرهم فى بوتقة الصهر الصهيونية ليخرج منها العبرانى الجديد؟ ألا تُعَد أزمة الهجرة وأزمة الهوية التى يعانى منها الكيان الصهيونى دليلين ناصعين على فشل النبوءات الصهيونية.

إن رفض نموذج المؤامرة يعنى عدم تقبل الواقع السطحى مع رفض المقولات اللفظية الشائعة، كما يعنى عدم تقبل ادعاءات الصهاينة عن أنفسهم، بل ينبغى إخضاعَها للنقد والبحث والتمحيص، والنظر إليها بحُسبانها ظواهر تاريخية إنسانية يمكن التعامل معها إن حربًا أو سلمًا. فاليهود جماعات يهودية تتغيَّر بتغيُّر الزمان والمكان، والصهيونية حركة سياسية نشأت فى القرن التاسع عشر فى أحضان الإمبريالية الغربية التى وضعتها موضع التنفيذ، ولولا دعمها لأصبحت الصهيونية شعارات حالمة، يطلقها مجموعة من صغار مثقفى يهود شرقى أوروبا ووسطها. نفعل كل ذلك دون

إغفال الادعاءات التوراتية والتلمودية باعتبارها شعارات تعبوية وتبريرية مهمة، تُطرَح أمام الرأى العام العالمى (أى الغربى) لتجنيده وراء الإمبريالية ومشروعها الصهيونى.

الثمرة السابعة والعشرون بعد المائة...

داء النصوصية، الكتب المقدسة وسلوك اليهود

يحاول المؤمنون بنموذج العداء لليهود واليهودية (التآمريون) تفسير سلوك اليهود فى ضوء ما جاء فى العهد القديم والكتب المقدسة اليهودية الأخرى (التلمود ـ كتب القبَّالاه ـ وبعض «الجهابذة» يضمون لذلك بروتوكولات حكماء صهيون بحُسبانه كتابًا مقدسًا باطنيًّا عند اليهود! وهو فى واقع الأمر وثيقة مزيفة تنسب لليهود كل شرور العالم، ولكنها فى الوقت نفسه تنسب لهم قوة عجائبية وكأنهم آلهة أو أنصاف آلهه تسيطر على العالم).

ويتوهم التآمريون أن سلوك اليهودى تعبير مباشر عما تحويه كتبه المقدسة التى يعتبرها مخطط يهودى قديم. وبذلك على من يريد أن يفهم اليهود والصهيونية ويتصدى لهما ألا يُضَيِّع وقته فى قراءة الواقع وتفاصيله، وإنما عليه أن يذهب إلى كتبهم المقدسة التى سيجد فى نصوصها تفسيرًا لكل شىء!. وأطلق على الفرار من فهم الواقع واللجوء إلى النصوص اصطلاح (داء النصوصية).

لا يتنبه هذا المفهوم القاصر إلى أن علاقة الإنسان بالكتب المقدسة التى يؤمن بها علاقة مركبة إلى أقصى حد، كما أن أسلوب تفسيرها يمثل عاملًا حيويًّا فى تحديد هذه العلاقة؛ فيمكن أن يكون التفسير حرفيًّا مغلقًا ويمكن أن يكون مجازيًّا منفتحًا، لذلك فإن تفسير الصهاينة لنص ما يختلف عن

تفسير اليهود الإصلاحيين له. وأخيرًا لا يدرك هؤلاء التآمريون أن غالبية اليهود فى العصر الحديث لا تؤمن بهذه الكتب أساسًا ولا تقرؤها!، وقد قال أحد كبار المفكرين الدينيين اليهود أن عينيه لم تقعا على التلمود إلا فى عيد ميلاده الستين، حينما أهداه أحدهم نسخة كاملة منه !.

وقد استشرى مرض النصوصية وانتقل من اقتباس الكتب المقدسة إلى اقتباس أى تصريح صهيونى وتصديقه والإشارة إليه كجزء من المخطط القديم، دون دراسة أو تأمل. فعلى سبيل المثال، حينما صرح أحد الصهاينة عام 1983 أنه سيتم توطين مليون يهودى فى الضفة الغربية قبل نهاية القرن الحالى، ارتجف الكثيرون واقتبسوا هذا القول بموضوعاتية متلقية بلهاء، دون أن يسألوا أنفسهم سؤالًا بديهيًّا: من أين سيأتى هذا الصهيونى بكل هؤلاء المستوطنين؟.

*** كيف النجاة من داء النصوصية؟**

والصواب أن نخضع مقولات الصهاينة وتصرفاتهم للتمحيص والتحليل؛ فلا نهون ولا نُهَوِّل ولا نكتفى بالتلقى السلبى والرصد الآلى. فإذا نظرنا إلى تصريح «المليون مستوطن» وجدنا أن مثل هذا التصريح يُطلق حتى يمكن لإسرائيل الحصول على المزيد من بلايين الدولارات من الولايات المتحدة. كما أن كثيرًا من المهاجرين «اليهود» ليسوا يهودًا !، بل مواطنين غير يهود أرادوا أن يجدوا طريقة للخروج من الاتحاد السوفييتى (أخبرنى أحد الأصدقاء الفلسطينيين أنه رأى بنفسه وفدًا من المهاجرين «اليهود» السوفييت فى زيارة لحائط المبكى، وحينما سمعوا الأذان انسلخ ثلاثة أو أربعة أفراد من صفوفهم وذهبوا إلى المسجد لأداء الصلاة!).

كذلك ينبغى - كما ذكرت قبلًا - التخلص من فكر المؤامرة، والنظر إلى الصهيونية باعتبارها ظاهرة تاريخية إنسانية يمكن التعامل معها إن حربًا أو سلمًا.

الثمرة الثامنة والعشرون بعد المائة...

نظرية المؤامرة اليهودية والخطاب الإسلامى

لا يحتاج الأمر لتأمل عميق حتى ندرك أن نموذج المؤامرة يسيطر على الخطاب الإسلامى المناهض لإسرائيل، ويتبنى هذا الخطاب وجود «استمرارية» بين يهود الماضى والحاضر والمستقبل، وهذا هو جوهر ما تروج له الصهيونية!.

* حوار مع الخطاب الإسلامى التقليدى

كنت أجلس مع بعض صناع القرار فى العالم العربى (من ذَوى الاتجاهات الإسلامية)، وتطرق الحديث إلى يهود المدينة وخيبر «وتآمرهم»، وكيف أن نفس التآمر اليهودى مستمر. فسألتهم: هل كان أولئك اليهود يعرفون التلمود بما يحوى من عداء للأغيار؟ ثم أضفت سؤالًا عن موقف يهود العالم آنذاك من يهود المدينة، وهل كانوا يعترفون بهم يهودًا وكانوا على صلة بهم ويؤازرونهم أو لا؟ ثم أثرت قضية: هل مصطلح «يهودى» فى القرآن يشير إلى يهود المدينة، أم إلى يهود العالم المعاصرين للبعثة المحمدية، أم إلى يهود العالم فى الماضى والحاضر والمستقبل؟ أى أننى أثرت تساؤلات بخصوص «الاستمرارية» التى يفترضونها.

ثم أشرت إلى أن الحضارة الإسلامية عَامَلت أعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم «أهل الذمة»، فلم يشهد تاريخنا عمليات هجوم أو إبادة أو

طرد لليهود، بل إن أعدادًا كبيرة منهم دخلت الإسلام وحَسُنَ إسلامها وانصهرت فى مجتمعات المسلمين. وينبغى تذكر أن عمليات الطرد التى تمت فى بداية الحكم الإسلامى كانت نتيجة لخرق المواثيق مع المسلمين، وكانت تهدف إلى تأمين قلب الأمة الإسلامية. كذلك كان عقاب الطرد لجماعة بدوية عقابًا مقبولًا لدى الجميع، إذ يتبعه ببساطة إعادة التوطين فى منطقة أخرى.

وأخيرًا ذكرتهم بمفهوم «الفطرة» الإسلامى الذى يعنى أن الإنسان يولد على الفطرة، ومن ثَمَّ فمفهوم «الهُوية» كنتاج للوراثة غير معروف فى الإسلام، وحينما يتبناه التآمريون فإنهم يتبعون مفهومًا غير إسلامى. لذلك ـ من منظور إسلامى ـ لا ينبغى أن يؤخذ يهود هذه الأيام بجريرة يهود الماضى، فالخطيئة ـ مثل الاستقامة ـ لا تُوَرَّث. لهذا نجد أن الخطاب القرآنى لا يتحدث عن اليهود فى عموميتهم، وإنما دائمًا يخصص مجموعة منهم («ومن أهل الكتاب...»).

فوجئت بأحد الحاضرين يخبرنى أن ما أقوله مقنع للغاية، ثم رجانى ألا أذكره خارج هذه الجلسة! فضحكت وقلت: «أنت إذن تفضل الحكمة البراجماتية (الفهم الشائع) على الحكمة الإلهية». وانفض المجلس!.

*** اجتهادات**

تساءلت أثناء الحوار: هل المسلم مُلزم بالتعريف الإسلامى لليهودى (من أهل الكتاب ويؤمن بكتاب مقدس، ومن ثَمَّ يؤمن بالله وباليوم الآخر)، أم بالتعريف اليهودى (من يؤمن باليهودية وولد لأم يهودية)؟ والسؤال طبعًا خطابى، فالمسلم ملزم بالتعريف الإسلامى وحده، ومن ثَم فالغالبية الساحقة ليهود العالم لا ينطبق عليها التعريف الإسلامى لليهود!.

ثم زدت فطرحت اجتهادى الأَوَّلى (والذى وافقنى عليه كثير من الفقهاء) وهو أن مصطلحًا مثل «يهودى» يشير إلى شخص تتوافر فيه بعض السمات التى إن توافرت فى أى شخص (ملحدًا كان أو بوذيًّا) فإنه يصبح يهوديًّا (باعتبار أن لفظة «يهودى» بهذا المعنى لا تختلف فى استعمالها عن لفظة «فرعون»، والتى لا تعنى «حاكم مصر»، وإنما أى شخص تتوافر فيه سمات «الفرعنة»). وعلى كلٍّ، فهذا اجتهاد أوَّلى أطرحه كتساؤل على الفقهاء، حتى يُفتح باب الاجتهاد بخصوص هذه القضية. فالفقه الإسلامى - نظرًا لاستقرار وضع اليهود (كأهل كتاب داخل المجتمع الإسلامى)، ونظرًا لعدم أهميتهم، ونظرًا لعدم توافر المعرفة الكافية بتطور اليهودية واليهود - لم يتعمق فى الموضوع بما فيه الكفاية. والفقهاء كانوا على حق فى ذلك، فكل مجتمع يحاول أن يجيب على الأسئلة الحية التى تهمه. لكن الوضع اختلف تمامًا الآن، فإشكالية اليهود أصبحت إشكالية مركزية.

الثمرة التاسعة والعشرون بعد المائة...

البعد الدينى فى الصراع العربى الإسرائيلى

يَعيب عَلَيَّ البعض أننى برؤيتى هذه أخرج بالصهيونية من إطار الصراع الدينى الثابت، وأدخل بها فى إطار الصراع السياسى المتغير، ومن ثم فإن الدافع الدينى للحرب ضد العدو يتم تحييده بهذه الطريقة.

وأرد على هؤلاء بقولى: من قال إن الجهاد الدينى لا يكون إلا ضد اليهود، واليهود وحدهم، واليهود دون سواهم؟! ألا يجب الجهاد ضد من اغتصب الأرض وطرد الأهل مهما كانت ملته وديانته، يهوديًّا كان، أو مسيحيًّا، أو ملحدًا، أو حتى مسلمًا؟ ألا يجب الجهاد ضد نظام عالمى جديد

يريد أن يمسك العالم بقبضة حديدية ويفرض إرادته الغاشمة؟ أليس من الواجب أن نعرف عدونا: نعرف هُويتَه وسماته الخاصة والقوانين المتحكمة فى حركته، دون أن نخلد إلى الصيغ العامة التى لا تُغنى ولا تُسمن من جوع فى الصراع اليومى، والتى تريحنا نفسيًّا دون أن تُحَسِّن أداءَنا الجهادى؟.

إننا نحارب ضد الصهاينة **لا لأننا نكره اليهود**، فديننا السمح لم يأمرنا بكره أحد (وعلى أى حال عادة ما أؤكد أن الدولة الصهيونية ليست دولة يهودية، وإنما هى دولة استيطانية إحلالية) كما أن الجهاد الذى ينطلق من الكُرْه يمكن أن يُوَلِّد الفتن والتعصب الذى يفكك نسيج الأمة. كذلك فالجهاد يجب ألا يستند إلى العاطفة وإنما إلى شىء أكثر ثباتًا ووضوحًا وهو **الرغبة الايمانية فى إقامة العدل فى الأرض. فالقيمة القطب فى الإسلام هى العدل**. وقد جاء فى الحديث الشريف «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**»، قالوا «ننصره مظلومًا يا رسول الله، ولكن كيف ننصره ظالمًا؟»، قال «**بأن ترده عن الظلم الذى هو فيه**». هذا فى تصورى هو البعد الدينى للجهاد.

الثمرة الثلاثون بعد المائة...

حتى لا ننسى... فضيحة لافون

قبل أن نترك موضوع اكتشاف اليهود واليهودية والصهيونية، وحتى لا ننسى، ينبغى أن نُعَرِّف الأجيال الجديدة بأسوء المهام المشبوهة التى قام بها الصهاينة سرًا فى مصر، تلك التى أصبحت معروفة باسم فضيحة لافون.

ففى سنة 1955، قام 13 يهوديًّا مصريًّا ـ بناء على تعليمات من إسرائيل ـ بوضع متفجرات فى مكتبة المركز الإعلامى الأمريكى فى القاهرة، وفى منشآت أخرى مملوكة لأمريكا وبريطانيا فى القاهرة والإسكندرية. كان الهدف من

هذه الأعمال هو إيجاد حالة من التوتر فى علاقات مصر مع هاتين الدولتين، وكما أوضح يورى أفنيرى فى كتابه إسرائيل دون صهاينة: «كان المقصود من هذا التوتر تمكين العناصر الاستعمارية الرجعية فى البرلمان البريطانى من منع إبرام اتفاقية تنص على الجلاء من قواعد السويس، وكذلك دعم موقف معارضوا تسليح مصر فى الولايات المتحدة». ولكن قبل كل شىء كان الهدف من العملية التخريبية هو إضعاف مظهر نظام الحكم الثورى الجديد فى مصر وإظهار افتقاره إلى الاستقرار أمام العالم.

وقد أُلقى القبض على جميع الصهاينة المشتركين فى المؤامرة. وكان طبيعيًا أن يتكرر فى أعقاب محاكمتهم نفس الاتهامين المعتادين عن معاداة العرب للسامية وعن المكايد التى يدبرونها للأبرياء. وتدور الأيام وتقوم الدولة الصهيونية بالاعتراف بتورطها، بل وتمنح رتبة ميجور فى الجيش الإسرائيلى لاسم الدكتور مرزوق (أحد زعماء الشبكة) بعد أن أعدمته السلطات المصرية. كما أُطلق عليه هو وزميله صمويل عزار اسم شهيدى القاهرة.

* * *

حصاد الموسوعة

الثمرة الحادية والثلاثون بعد المائة...

الحصاد

القارئ الكريم...

يمكن أن نُعرِّف الموسوعة بأنها دراسة لحالة محدَّدة، هى: اليهود واليهودية والصهيونية وإسرائيل فى ظل الحضارة الغربية، وهى دراسة تاريخية اجتماعية مقارنة تُرَكز على العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية بين أعضاء الجماعات اليهودية من جهة وأعضاء المجتمعات المختلفة من جهة أخرى، كما تركز على الأبعاد المعرفية لهذه العلاقات.

لكن هذه الدراسة، رغم أنها دراسة حالة، إلا أنها تعرض نماذج تحليلية مركبة ذات مقدرة تفسيرية تتجاوز الحالة موضع الدراسة. فهذه النماذج تتوجه لقضايا عامة مثل: علاقة الأقلية (بخاصةً أعضاء الجماعات الوظيفية) بالأغلبية، وعلاقة الأقليات بالدولة القومية المركزية، وطبيعة الحضارة الغربية الحديثة، وعلاقة الإنسان بالطبيعة، وعلاقة الحلولية بالتوحيد، وعلاقة الفكر بالمادة، وعلاقة الذات بالموضوع.

وأول هذه النماذج هو نموذج الجماعات الوظيفية، حيث درسنا من خلاله الجماعات اليهودية فى إطار عِلم اجتماع الأقليات والجماعات التجارية الهامشية والجماعات العرقية. وهنا **يظهر اليهودى باعتباره عضو أقلية أو جماعة وظيفية، يحدث له ما يحدث لكل أعضاء الأقليات والجماعات الوظيفية الأخرى.**

أما النموذج الثانى فهو نموذج العلمانية الشاملة، وهو نموذج أكثر اتساعًا من نموذج الجماعات الوظيفية، إذ لا يضع اليهود فى سياق الأقليات وحسب وإنما فى سياق التشكيل الحضارى الإمبريالى الغربى، وهو التشكيل الذى هيمن على العالم بأسره. وهنا **يظهر اليهودى باعتباره الإنسان الغربى الحديث**، وما يحدث له (من اندماج ودمج وتدجين وتوظيف وتنميط وعلمنة وإبادة) هو ما يحدث للملايين من البشر فى العصر الحديث. وهو إنسان يعيش فى عصر أزمة الحداثة (ما بعد الحداثة).

أما النموذج الثالث فهو نموذج الحلولية الواحدية مقابل نموذج التوحيد والتجاوز إلى ما هو إلهى، وقد بَيَّن د. المسيرى أن الصراع بين النموذجين يشكل التوتر الأساسى فى اليهودية (وفى كل الأديان). **فهو تعبير عن تناقض إنسانى أساسى يُميز إنسانيتنا المشتركة**، يأخذ شكل النزعة الجنينية (بما فيها من رغبة فى فقدان الهُوية والالتحام بالكل والتخلى عن الوعى وعن المسئولية الخُلُقية) فى مقابل النزعة الإنسانية والربانية (وهى أن يؤكد الإنسان هُويته الإنسانية المستقلة عن الطبيعة، ومن ثَم يتحمل المسئولية الخُلُقية عن هذا الوضع).

وبعد هذه النظرة «لليهودى» من خلال مفهوم النماذج، نوجز ما طَرَحَته الموسوعة عن «الصهيونية» من خلال نفس النماذج. **«فالصهيونية»**

ـ فى تصور د. المسيرى ـ ليست مجرد تعبير عن المؤامرة اليهودية، أو حتى «السياسة» الغربية الإمبريالية (كما توحى النظرة السياسية السطحية)، بل هى أمر أكثر تركيبًا، فهى أولًا شكل من أشكال الحلولية، إذ يصبح اليهود مرجعية ذاتهم. وهى ثانيًا شكل من أشكال العلمانية الشاملة (أى فصل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية عن الحياة)، إذ هى تنزع القداسة عن كل الأشياء، عن كل من اليهود والعرب وعن أرض فلسطين، فيصبح الجميع مادة استعمالية. وهى، فى نهاية الأمر، بتوجهها العِرْقى وشراستها الداروينية، تعبير عن التشكيل الإمبريالى، ولكنها تعبير خاص للغاية؛ إذ إن الدولة الصهيونية ليست جزءًا لا يتجزأ من الإمبريالية، وإنما هى دولة وظيفية أُسِّست لخدمة مصالح الغرب، ولذا فالعلاقة بينها وبين الغرب علاقة نفعية تعاقدية، ومن هنا نجد أن الغرب يؤيدها بكل قوة فى الوقت الحالى.

وهنا تطرح الموسوعة تساؤلًا: ماذا لو أصبحت إسرائيل عبئًا على النظام الإمبريالى الغربى؟ هل التزامه بها التزام أخلاقى مبدئى كما يدَّعى، أم هو نفعى عملى، كما هو دأب الغرب وديدنه؟ ويجيب د. المسيرى بأن الدولة الصهيونية لو أصبحت استثمارًا إستراتيجيًا مكلفًا للغرب، فإن موقفه منها سيتغير بطبيعة الحال.

فى ضوء ما سبق، ينظر د. المسيرى إلى الإسرائيليين والصهاينة واليهود على أنهم بشر يمكن الحوار معهم على مائدة المفاوضات، كما يمكن الحوار المسلح معهم فى أرض المعركة، فيولون الأدبار، كما فعلوا فى جنوب لبنان.

ويمكن القول بأن الموسوعة ككل هى عمل كتبه مؤلف يشعر بأن الحداثة (فى إطار العقلانية واللاعقلانية المادية والعلمانية الشاملة) قد أَدخلَت الجنس البشرى بأسره فى طريق مسدود. ولذلك يطرح أسئلة معرفية (كلية ونهائية):

- ماذا يحدث للإنسان فى عالم بدون إله؟

- وماذا يحدث للإنسان فى عالم نسبى لا توجد فيه ثوابت ولا مطلقات ولا قيم عالمية؟

- وماذا يحدث للإنسان فى عالم توجد فيه حقائق بلا حقيقة ولا حق؟

- وما مصير الإنسان فى عالم انفصل فيه العلم عن القيمة وعن الغائية الإنسانية؟

- أليس اليهودى مثلًا صارخًا لما يحدث للإنسان فى عصر الحداثة؟ هذا اليهودى تم اقتلاعه عن وطنه وتهجيره إلى إسرائيل تحت مظلة الإمبريالية الغربية باعتباره مادة استعمالية، وتم تحويله إلى شخصية داروينية شرسة حتى يتسنى توظيفه فى خدمتها، وتمت إبادته فى ألمانيا النازية بطريقة منهجية، وتم دمجه فى الحضارة الاستهلاكية حتى لم يبق من ماضيه وهويته سوى القشور، وبذلك تم قمعه وترشيده من الداخل والخارج.

ومن هنا، فإن الموسوعة تطالب بالبحث عن حداثة جديدة بدلًا من الحداثة الغربية (المرتبطة بالإمبريالية والاستهلاكية) والتى انتهت إلى إعلان موت الإنسان والطبيعة بعد أن أعلنت موت الإله.

الثمرة الثانية والثلاثون بعد المائة...

إهداء الموسوعة

إلى أبى سعيد، رحمه الله، وكل من صمد، وكل من سيصمد بإذن الله.

تعرفت على الأستاذ خالد الحسن، أحد مؤسسى منظمة فتح وزعمائها،

ووجدت نفسى فى حضرة إنسان مفكر، القضية الفلسطينية بالنسبة له ليست مجرد قضية وطنية أو حتى قومية، وإنما قضية مرتبطة برؤية للكون ورغبة فى تطوير مشروع حضارى مستقل. وحينما حل به مرضه الأخير، احتفظ بثباته وصموده ومقدرته الفكرية وقدرته على الدعابة حتى آخر لحظة. وبعد أسابيع، رحل عنا تاركًا ما ترك من فراغ. وقد عقدت حفلًا لتأبينه بعد رحيله عنا بعام، حضره كثير من رموز مصر الفكرية والسياسية من الحكومة والمعارضة. وقد أهديت إليه الموسوعة فى هذه الكلمات:

«كان يومًا عابقًا برائحة التاريخ والأزلية».

حَلَمْت أننى أسير فى حقول المشمش، رائحته الطيبة تمسنى مسًا، ونُـوَّراته البيضاء تحوم من حولى كفراشات نورانية. وحينما استيقظت كان الفرح يسرى فى كيانى.

وفى الصباح أخبرنى صديق أننا سنذهب إلى عزاء شهيد فلسطينى، حصده الرصاص وهو يحاول أن يعبر السلك الشائك ليعود للأرض. كان منزل الشهيد على قمة تل من تلال عمّان، والطريق المؤدى له محاط بأشجار المشمش - رأيت نُوَّاراته البيضاء وشممت رائحتها. وحينما دخلت المنزل لم أسمع بكاء، ولم أر علامة من علامات الحزن، بل وجدتهم يوزعون الحلوى ويتقبلون التهانى ويقولون: «إن شاء الله فى البلاد». وكان الجميع يتحدث عن الفداء والتضحية.

جاء مجلسى إلى جوار عجوز من أتباع الشيخ عز الدين القسام (رحمه الله)، قال: «كنا نعلم تمام العلم أن أسلحتنا العثمانية عتيقة، وأننا كلما اشتبكنا مع الصهاينة والإنجليز فإنهم يحصدوننا برصاصهم، كما فعلوا مع ابننا

الشهيد. ومع هذا كنا ننزل كل ليلة من قرانا كى ننازلهم». فسألته: «لِمَ؟» صمت العجوز قليلًا ثم تحرك كأنه جبل قديم من جبال فلسطين، وقال: **«حتى لا ننسى الأرض والبلاد.. حتى لا ينسى أحد الوطن».**

وفى المساء زرت أبا سعيد، خالد الحسن. كان فى مرضه الأخير، ولكنه كعادته كان متماسكًا لا يتحدث إلا عن الصمود، وعن الوطن السليب، وعن العودة إلى الأرض، إلى البلاد. وكانت معى أولى نسخ هذه الموسوعة فأعطيتها له، فأمسك أحد المجلدات وابتسم.

حين خرجت من المستشفى تساءلت: **«هل تموت الفروسية بموت الفارس؟ هل تموت البطولة باستشهاد البطل؟ وهل يختفى الصمود إن رحل بعض الصامدين؟»** ثم تذكرت كلمات العجوز فى فرح الشهيد. حينئذٍ عرفت الإجابة، فسرى الفرح فى كيانى.

إلى أبى سعيد، رحمه الله،

وكل من صمد،

وكل من سيصمد بإذن الله».

* نمـوذج آخـر من الصـامديـن

كانت تربطنى بالرئيس على عزت بيجوفيتش، رئيس البوسنة، رابطة فكرية عميقة. فقد قرأت كتابه الإسلام بين الشرق والغرب، وأدركت أننى أمام عمل فكرى متكامل من الطراز الأول، فهو يقدم تحليلًا عميقًا للحضارة الغربية. وحين حضر إلى القاهرة عام 1995 عقدت على شرفه حفلًا حضره بعض المثقفين المصريين وأجاب عن أسئلتهم بطريقة تبين مدى اتساع ثقافته.

ولكنه قال إنه ترك الثقافة منذ مدة طويلة؛ لأنه أصبح مشغولًا بأمور أخرى سياسية مباشرة، مثل توفير السلاح للمجاهدين البوسنيين الذين يحاولون إثبات أن التهام أهل البوسنة ليس بالأمر السهل ولا يمكن أن يتم فى عدة أيام (كما كان يتصور الصرب وأوربا من خلفهم، التى كانت على أتم استعداد لأن تقيم مأتمًا لإحياء ذكرى البوسنيين بعد إبادتهم !). وعند هذه اللحظة بكى على عزت بيجوفيتش، ومسح الدموع من عينيه واستمر فى الحديث مبتسمًا.

الثمرة الثالثة والثلاثون بعد المائة...

فكر د. المسيرى فى ميزان المفكرين والنقاد

* لستُ حاسوبيًا

للأسف الشديد قام كثير من النقاد لفترة طويلة بحصر دراساتى المختلفة داخل إطار المعلومات الضيق، وظل الشكل الأساسى لمناقشة كل ما أكتب هو **البُعد السياسى المعلوماتى، مع إهمال البُعد الفلسفى المعرفى**. على سبيل المثال، بعد مرور 15 عامًا من نشر كتابى «نهاية التاريخ» نشر **فرانسيس فوكوياما** (الموظف بوزارة الخارجية الأمريكية من أصل يابانى) كتابًا بنفس العنوان عام 1988، وقام بعض المفكرين بمناقشة كتابه، ولم يذكر أحد منهم كتابى بالخير أو بالشر، ولم يقارن أى منهم بين رؤيتى للتاريخ ورؤية فوكوياما، فالتصنيف فى عالمنا العربى يرصد ويصنف من الخارج دون أن يصل إلى الوحدة الداخلية للموضوع، وقد صُنِّف كتابى على أنه كتاب عن «الصهيونية» (كتاب سياسى) أما كتاب فوكوياما فعن «التاريخ» (فهو تاريخ)، أما المفاهيم الكامنة وراء الفكر فيتم تجاهلها. كذلك فإن الهزيمة

الداخلية فى الفكر العربى تجعل من الغرب المرجعية الوحيدة ومصدر المعرفة الأوحد، ولذا لم يتصور أحد أن كتابى ربما يكون قد طرح أفكار فوكوياما قبله بعدة سنوات.

حاولت أن أدعو النقاد إلى رؤية ما أكتب فى إطار معرفى تحليلى يتجاوز الإطار المعلوماتى التراكمى، ولذا أُعطى عنوانًا فرعيًا لمعظّم كُتبى (الأيديولوچية الصهيونية: دراسة حالة فى علم اجتماع المعرفة ـ الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية: دراسة فى الإدراك والكرامة، وأخيرًا هجرة اليهود السوفييت: منهج فى الرصد وتحليل المعلومات).

وقد كتبتُ فى مقدمة الكتاب الأخير: «أرجو ألا يقال: هذا كتاب جيد لأنه اعتمد على آخر المراجع والدراسات ويحوى معلومات قيمة وحقائق كثيرة عن هجرة اليهود السوفييت»، أو يقال «هذا كتاب سيئ لأنه لم يعتمد على آخر المراجع والدراسات ولا يضم كل المعلومات والحقائق أو حتى معظمها»، فالحاسوب، هذه الآلة المادية الصماء، هو الذى يضم كل المعلومات والحقائق أو معظمها، ولكنه مع هذا عاجز تمامًا عن ربطها أو تفسيرها أو صياغة نماذج تفسيرية ومتتاليات احتمالية، فعقل الإنسان وحده هو القادر على ذلك. ونحن قد كتبنا هذه الدراسة آملين ألا نقدم الحقائق والمعلومات وحسب، وإنما لنطرح بالدرجة الأولى منهجًا فى رصد الواقع وطريقة فى التفكير، إذ إن ما يهم ليس كَمُّ الحقائق الذى يُحشد، وإنما طريقة النظر فيها وتحليلها». ورغم هذا التحذير قام كثير من الكُتَّاب بمدح وتقريظ هذا الكُتاب بسبب ما يحوى من «معلومات قيمة». فالآلة الإعلامية قادرة على فرم الكاتب وإعادة إنتاجه داخل النموذج المعلوماتى وكأنه مجرد كومبيوتر ممتاز، لا إنسان يحلل ويفسر.

وبالمثل، فقد تمت قراءة كتاب «الفردوس الأرضى» بطريقة سياسية محضة، مع أنه كتاب يتعامل مع الأبعاد المعرفية والحضارية للواقع الأمريكى.

*** من المفكرين من أدرك البعد المعرفى والمنهجى فى فكرى**

فى المدخل الذى كتبه فريدريك معتوق فى الموسوعة الفلسفية العربية عن علم اجتماع المعرفة عند العرب، اشاد بكتابى «الأيديولوچية الصهيونية» واعتبره جهدًا فكريًا وطرحًا لقضايا فلسفية تتجاوز موضوع اليهود واليهودية والصهيونية.

نشرت باربرا هارلو كتابًا باللغة الإنجليزية عن شعر المقاومة فى العالم، وأشادت فيه برؤيتى لجماليات شعر المقاومة الفلسطينية والإشكالية الفلسفية الكامنة فيه.

كما قدمت د. فريال غزول (الأستاذة بالجامعة الأمريكية) عرضًا متميِّزًا لكتابى «الانتفاضة الفلسطينية والأزمة». وتعاملت مع الكتاب بوصفه دراسة فى النماذج المعرفية، ووصفت الكتاب بأنه «عمل كلاسيكى جديد «يمزج بين السياسة الثورية وتحليل الخطاب.

وفى معجم دليل الناقد الأدبى (للدكتور ميجان الرويلى وسعد البازعى) أفرد المؤلفان صفحة للحديث عن المحاولة التى أقوم بها للتحليل من خلال نماذج معرفية سواء فى دراسة الصهيونية كجزء من الحضارة الغربية أو دراسة حركة التمركز حول الأنثى كتعبير عن نموذج الحلولية.

أما بالنسبة لكتبى التى صدرت فى النصف الثانى من التسعينيات (أسرار العقل الصهيونى - الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ - اليد الخفية)

فقد كَتَب عنها كثير من المعلقين السياسيين بطريقة معرفية، وتناولوا الجوانب الحضارية والفلسفية المختلفة التى تطرحها هذه الكتب، ولعل كتابات الأستاذ سلامة أحمد سلامة من أهم ما كُتب عن مؤلفاتى بهذا المنظور.

*** كيف استقبل المفكرون الموسوعة؟**

ثم صدرت الموسوعة، لقد فاق التلقى الإعلامى كل توقعاتى. كنت أتصور أنها ستُعرف كأداة بحثية خلال عامين أو ثلاثة. ولكن ما حدث أننى خلال شهر واحد وجدت نفسى محط اهتمام الإعلام المحلى والدولى، وهذا الاهتمام الإعلامى لم يكن أمرًا مألوفًا لدى، فتوقفت - لأول مرة فى حياتى - عن التفكير والتأمل والقراءة والكتابة؛ لأن الجهد الذى كنت أبذله فى الإجابة عن الأسئلة والظهور فى البرامج كان يستنفد كل طاقتى، ووجدت أن الاهتمام الإعلامى أصبح يهدد حياتى الفكرية بالخطر، ولذا تبنيت شعارًا طريفًا أطرحه على الإعلاميين حين قررت الاختفاء والعودة إلى عالمى الهادئ: «أنا أفكر إذن أنا غير موجود»، بمعنى أننى حينما أستغرق فى حياة الفكر، فلن أكون موجودًا لأجيب عن أسئلة الصحفيين.

وكان الأستاذ هيكل من أوائل من تلقوا نسخة من الموسوعة، وعندما أدلى برأيه فيها قال: «إن مؤلف موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية أعطى أحلى سنوات عمره حاملًا عبأً علميًا وبحثيًا وتنظيميًا وماليًا اقتص ضرائبه من شبابه ومن صحته ومن اهتماماته الثقافية المتنوعة». «والموسوعة عمل أظنه نادرًا فى نوعه وفريدًا. وهو عمل أقبل عليه وتحمل مسئوليته صديقنا العزيز والمقتدر الدكتور عبد الوهاب المسيرى الذى وضعنا جميعًا أمام جهد معرفى وسياسى بالغ الأهمية جليل الأثر يستحق أن نقف معه بكل الاهتمام وبكل الاحترام».

وأفرد الأستاذ عادل حسين نصف صفحة من مقاله الأسبوعى فى جريدة الشعب (26 من مارس عام 1999) للموسوعة، جاء فيه: «فموسوعة عبد الوهاب المسيرى إذا كانت فى جانب منها تقوم على جبل أشم من المعلومات المدققة، فإن الجانب الآخر الأهم هو قدراته التنظيرية الجبارة، فهذه القدرات هى التى أعطت موسوعته مغزاها المعرفى المتميز». «إن عبد الوهاب بفضل الله صاحب عقلية نقادة قادرة على النفاذ إلى أعماق ما يقرأ، وقادرة على كشف الزيف والتناقضات فيما يقرأ داخل المراجع الغربية واليهودية، وقادرة بالتالى على تحليل المعلومات المنشورة، وإعادة تفسيرها وتركيبها على نحو يجعلنا أقدر على فهم اليهود، وعلى فهم واقعهم الحالى، وما جرى لهم فى التاريخ. وقد ابتكر فى ذلك مفاهيم نظرية جديدة، وسك لها مصطلحات ملائمة، ويُعَدُّ هذا إضافة مُقدَّرة للفكر العربى والعالمى فى المجالات المختلفة للعلوم الإنسانية والاجتماعية». «إن الموسوعة سلاح معرفى إستراتيجى بَتَّار فى مواجهتنا مع إسرائيل، ومع الحلف الصهيونى الأمريكى، فالشرط الأول لهزيمة العدو، هو أن تعرفه حق المعرفة».

وقد تناول عادل حسين فى المقال نفسه كتاب إشكالية التحيز وعَدَّه «من أهم المؤلفات التى صدرت فى الأعوام الأخيرة (على مستوى العالم)، وهو حافز للإبداع العربى فى مواجهة المقلدين لنظريات الغرب دون وعى أو بصيرة».

ثم توالت بعد ذلك الدراسات والمقالات عن الموسوعة، فقيل عنها:

(أهم إصدار ثقافى فى النصف الثانى من القرن العشرين)

جمال الغيطانى فى الأخبار، وصلاح منتصر فى الأهرام.

(نستطيع أن نقول - دون مبالغة - بَدَأَت مرحلة ما بعد الموسوعة)

أحمد رجب فى الأخبار، ووجيه أبو ذكرى فى الوفد، وأحمد ثابت فى السياسة الدولية، وعبد العال الباقورى فى العربى (القاهرية).

(رجل فى مؤسسة ومؤسسة فى رجل)

د. أنيس صايغ فى السفير (لبنان).

* * *

الفصل الرابع: فى عالم الأدب والفن

حياتى فى الجامعة

قليلون من الناس من يعرف أن د. المسيرى كان أستاذًا للأدب الإنجليزى ومتخصصًا فى النظرية النقدية والشعر الإنجليزى فى القرن التاسع عشر، ويرجع ذلك إلى أن معظم مؤلفاته تدور حول الحضارة الغربية واليهودية والصهيونية.

الثمرة الرابعة والثلاثون بعد المائة...

فى كلية البنات

* الـدور التربوى للأستـاذ الجـامعى

ينبغى ألا يقتصر دور الأستاذ الجامعى على العملية التعليمية، لذلك كنت أساهم بالإضافة للتدريس فى النشاط الطلابى، فكنت أصحب الطالبات فى رحلات إلى الإسماعيلية والقناطر الخيرية، كما كنا نقوم بجولات فى متاحف

القاهرة المختلفة. وكنت أعرض على الطالبات أفلامًا عن موضوعات مختلفة (تاريخ المعمار فى إنجلترا ـ حياة الشعراء ـ أفلام عن الروايات الإنجليزية الشهيرة) كنا نستعيرها من المعهد البريطانى.

ومن المقررات الأثيرة لدى مقرر الحضارة، وكنت أُدرِّس فيه الحضارة الغربية بكل مظاهرها المتشابكة. وكنت أضيف إلى ذلك محاضرات عن طُرُز الأثاث المختلفة، وأبين علاقتها بفنون عصرها سواء الموسيقى أو الأدب. كما كنت أُدرِّس لهن بعض المدارس الفنية الحديثة. وكنت أقول لهن مازحًا إن الهدف من هذا المقرر هو إعدادهن للزواج، وتحسين موازين القوى لصالحهن، إذ بوسعهن إرهاب الزوج فكريًّا عن طريق إظهار أن معرفتهن بالعصر الحديث (أفكاره ـ فنونه ـ موسيقاه) تفوق معرفته. وكنت أخبر الطالبات أن جميعهن سينجحن فى هذا المقرر إن شاركن فى المناقشات التى تتلو كل محاضرة. ولا أنسى البتة تلك الطالبة التى جاءتنى فى نهاية العام لتخبرنى أن هذا المقرر قد غير حياتها، فقبل هذا المقرر كانت الحياة بالنسبة لها بوتاجاز وثلاجة 16 قدمًا... إلخ، أما الآن فقد دخلت الموسيقى والألوان حياتها !.

وكنت بطبيعة الحال أحضر حفلات الطالبات وأشارك فيها. أذكر مرة أن طالبة قامت بتقليدى، فتصوَّرت منظرًا كاملًا فى منزلى: أنا أجلس إلى مكتبى أقرأ أحد الكتب، فتجىء زوجتى تخبرنى أن هناك صابون غسيل فى الجمعية، وعلىَّ أن أسرع لشراء بعض منه، فأقف فى منتهى الهدوء وأخبرها بأنه لا داعى لذلك على الإطلاق؛ لأننا بعد أن نغسل الملابس ستتسخ مرة أخرى. وكان تعليق زوجتى أن هذه الفتاة تتسم بخيال واسع، فقد استشفت جوهر شخصيتى وحولته إلى منظر واقعى، برغم أن ذلك لم يحدث قط!.

وكنت أرعى بشكل خاص الطالبات اللائى يأتين من الريف، فقد كنت أجد نفسى متحيزًا لهن ربما بسبب خلفيتنا المشتركة، وأيضًا بسبب تعاطفى معهن إذ قُذف بهن فى القاهرة التى لا ترحم (كما قُذف بى من قبل فى الإسكندرية الكوزموبوليتانية).

الأدب: حبى الأول والقديم

الثمرة الخامسة والثلاثون بعد المائة...

مفهوم الأدب العظيم:

*** الأدب العظيم يُعَبِّر عن تركيبية الإنسان**

بعد أن رفضت مفهوم الإنسان الطبيعى وتبنيت مفهوم الإنسان الربانى، انعكس هذا الموقف على نظرتى إلى الأدب. أصبحت أرى أن هناك الأدب الذى يُعَبر عن فكر اختزالى كسول لا يكد ولا يتعب كى يحيط بتركيبية الواقع وتعدد مستوياته، بل يقنع بإدراك هذا الواقع على المستوى المادى فقط، لذلك يتبنى منهجًا واحدًا لإدراك كل الظواهر، سواء الإنسانية أو المادية، وكأن العالم (الطبيعة والإنسان) كيان أُحادى مُكون من ذرات وأرقام كما يتصور الماديون السُذَّج والعلماء البسطاء!.

هذا على عكس الأدب العظيم الذى يتسم برفض هذه الاختزالية، لذا يُقَدم صورة للنفس البشرية باعتبارها كيانًا مركبًا، يستعصى على التفسيرات المادية البسيطة، ولا يمكن أن ينضوى تحت القوانين العلمية الرتيبة. فالعالم بالنسبة للأديب العظيم لا يمكن أن يُختزل فى بُعد مادى واحد، أو أن يسقط فى صورة مجازية واحدة ساذجة.

الثمرة السادسة والثلاثون بعد المائة...

د. المسيرى: أديب عظيم وناقد عظيم

قارئى الكريم...

من إنتاج د. المسيرى فى النقد الأدبى اخترت لك دراسة من أهم الدراسات التى كتبها، وهى مقال بعنوان «**مواعظ قصصية عن الضرورة والحرية**». وتعكس الدراسة كيف طبق د. المسيرى مفهوم النماذج ـ الذى طبقه على عالم السياسة ـ فى عالم الأدب.

ويَعقد المقال مقارنة بين «**حكاية الفرانكلين**» (قصة عن قصيدة حكايات كانتربرى لتشوسر) وبين مسرحية برخت: «**الاستثناء والقاعدة**». وحكاية الفرانكلين (صغار ملاك الأراضى) تدور فى العصور الوسطى وترمز إلى العالم وهو لا يزال على عتبات الحداثة والعلمنة، وتبين أن العالم بعد أن يسقط فى الحتمية يمكنه أن ينهض مرة أخرى ليؤكد إمكانية التجاوز والتراحم ورفض الحتمية. أما مسرحية الاستثناء والقاعدة والتى تدور فى العصر الحديث فهى قمة الحداثة والعلمانية الشاملة وهيمنة التعاقد والحتمية.

وقد كتب د. المسيرى هذا المقال عام 1965 أثناء وجوده فى الولايات المتحدة، وأعاد كتابته بالعربية عام 1982، ثم أعاد كتابته ونشره بالإنجليزية عام 1996 فى المجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية. وقد استغرقت كتابة هذا المقال ومراجعته وإعادة كتابته ما يزيد على ثلاثين عامًا، أى أنه استغرق وقتًا أطول مما استغرقته الموسوعة!.

* حكاية الفرانكلين

تبدأ الحكاية بالفارس «**أرفيراجوس**» وهو يودع زوجته الحبيبة «**دوريجين**» قبيل ذهابه فى رحلة طويلة. وبعد رحيله يأتى الشاب «**أوريليوس**» ليُعبِّر لها عن

حبه ورغبته فيها. وفى لحظة يأس تَعِده بأن تمنحه نفسها إن هو أزال صخور البحر الكريهة التى تهدد حياة زوجها. فيذهب أوريليوس إلى فرنسا ليقابل «ساحرًا عظيمًا» (والسحر هو سَلَف العلْم، ويجسد مفاهيم الغزو والقوة والتحكم)، وعندما يعرف الساحر أنه سيحصل على أتعابه كاملة يرجع إلى جداوله الفلكية، ومن خلال الحسابات والمعادلات تحدث المعجزة وتزول صخور البحر الكريهة (من خلال عملية خداع بصرى). حينئذٍ يخر أوريليوس عند أقدام سيده الساحر ويذهب إلى دوريجين ليمتلكها كما أراد، وكما وعدت.

عند هذه النقطة فى القصة الشعرية، تفقد كل الشخصيات حريتها بشكل أو بآخر، وتدخل دائرة التعاقد التى لا فكاك منها. فدوريجين ملتزمة بوعدها لأوريليوس، وأوريليوس مَدين للساحر بدين ثقيل، والساحر يطلب نقوده. وهنا تفكر دوريجين فى الانتحار (قمة الحتمية وإلغاء الذات).

ولكن «قصة الفرانكلين» تؤمن بعالم آخر وتؤكد مفاهيمه، فـ«الحب» هو الذى يجمع بين الفارس أرفيراجوس وزوجته دوريجين، ومن خلاله يحدث التحول فى القصة. يبدأ الحل بأن تصارح دوريجين زوجها بالأمر كله، فيطلب منها أن تفى بالوعد الذى قطعته على نفسها، ليس خضوعًا لقوانين التعاقد ولكن التزامًا بالقوانين الأسمى؛ فعلى حد قوله: «إن الصدق هو أسمى الأشياء التى يمكن للإنسان الحفاظ عليها». عندئذ تنفتح الدائرة المغلقة، وتنتصر القوانين الداخلية للحب الإنسانى على الضرورة الخارجية العمياء، وتختار كل الشخصيات «الحرية». فالسخاء الإنسانى الذى أظهره أرفيراجوس يثير إعجاب أوريليوس، فيتخذ قراره بأن يعيد دوريجين إلى زوجها وحسب. ويذهب أوريليوس إلى الساحر ليُحَدِّثه عن تلك الحرية الجديدة التى تنبع من الالتزام الداخلى بالقانون الإنسانى الذى يتجاوز كل

الحتميات، فيغمر الساحرَ الإعجابُ بهذا الموقف، ويتعرف هو الآخر على الحرية التى تميز الوجود الإنسانى الحق: حرية الانصياع للقانون الإنسانى الداخلى، وليس قانون الضرورة الخارجى، لذا يقرر الساحر أن يحذو حذو هذا الفعل النبيل ويتنازل لأوريليوس عن الدَّيْن. وهكذا ننتقل من عالم التعاقد والصراع البرانى إلى عالم الحب والتراحم الجوانى.

* مسرحية برخت الاستثناء والقاعدة

تقع أحداث المسرحية فى العصر الحديث، وموضوعها التعاقد والتنافس الاقتصادى، وتدور حول تاجر يود أن يَعْبر الصحراء ليصل إلى آبار النفط قبل غيره كى يستغلها.

تتحرك معظم شخصيات المسرحية فى إطار مفهوم «الإنسان بوصفه فردًا منعزلًا عن غيره من بنى البشر»، لا يدفعه ولا يحركه سوى المصلحة الاقتصادية. ويتبدى هذا بشكل واضح فى شخصية التاجر الذى يحوسل الآخرين (يحولهم إلى وسيلة) ويوظفهم لحسابه؛ فهو يستأجر مرشدًا ليدله على الطريق، ثم يفصله لارتفاع أجره، ويستأجر بعد ذلك حمَّالًا لحمل أمتعته. والتاجر باعتباره إنسانًا اقتصاديًّا ماديًّا لا يمكنه الدخول فى أى علاقات إنسانية مع من يستأجرهم، فكل علاقاته تعاقدية نفعية صرفة.

ويربط التاجر فى لحظات نشوته الداروينية النيتشوية بين استغلاله «لأخيه» الإنسان، واغتصابه «لأمه» الطبيعة، فينشد:

«لِمَ تمنحنى الأرض نفطها؟

ولِمَ يحمل الحمال متاعى؟

كى نحصل على النفط لا بد أن نتصارع مع الأرض ومع الحمال».

ويقوم التاجر بتصويب مسدسه إلى ظهر الحمال، ويضطره إلى عبور النهر. ومرة أخرى يُصعِّد التاجر أغنيته النيتشوية الداروينية:

«هكذا يمكن للإنسان أن يهيمن على الصحراء وعلى النهر المندفع،

هكذا يهيمن الإنسان على الإنسان.

النفط، النفط الذى نحتاج إليه، هو الجائزة».

إن الموضوع الأساسى الكامن فى المسرحية هو «**استعباد الإنسان والطبيعة**». فالتاجر على سبيل المثال، يعلم جيدًا أنه يتحرك فى عالم ليس فيه أى قيم أخلاقية، وتقطنه ذوات نهمة لا حسر لها، ولهذا يصبح من الغباء ألا يأخذ الإنسان حذره دائمًا، لذلك يقول: «فى عالم عارٍ تمامًا من الثقة، لا يمكن للمرء أن يخلد إلى النوم».

عند هذه النقطة من المسرحية **تكتمل دائرة الصراع؛ فالتاجر ـ بعد أن هزم المرشد والحمَّال والصحراء والنهر ـ يهزم نفسه أيضًا**، ويصبح هو الآخر مجرد أداة من أدوات الإنتاج، غارقة فى دوامة الحركة العمياء الخالية من أى أهداف أخلاقية أو نفسية.

ففى أثناء عبور الصحراء ينفد ماء الشرب من التاجر، فيمد إليه الحمّال يده بزجاجة الماء التى تخصه، فيُرديه هذا قتيلًا بالرصاص! ظنًّا منه أن الزجاجة كانت قطعة حجرينوى الحمال قتله بها غدرًا. **إن خطيئة الحمّال الكبرى أنه حاول كسر دائرة الحتمية الاقتصادية والتعاقد المادى وسلك سلوكًا إنسانيًّا فطريًّا، فالتزم بقانون التراحم الإنسانى الجوانى ولم ينْصَعْ لقانون التعاقد الآلى البرانى.**

وقد دافع قاضى المحكمة التى حاكمت التاجر لقتله الحمال عن موقف القاتل! بقوله: «إن دوافع الحمال فى تقديم زجاجة الماء للتاجر لم تكن دوافع اقتصادية محضة، وبما أن فعل لا يخدم مصالح الإنسان الاقتصادية الأنانية فهو «استثناء» فى عالم الحتمية الاقتصادية، حيث لا يوجد مكان فى هذا العالم للسلوك الفردى الإنسانى أو للاختيارات الحرة. وحتى لو افترضنا أن الحمال كان فى الواقع يعطى زجاجة الماء للتاجر، فإن الأخير حينما أرداه قتيلًا كان فى موقف «الدفاع عن النفس»؛ لأنه لم يكن هناك مبرر لأن يفترض أن الشىء الذى فى يد الحمال هو زجاجة ماء وليس حجرًا، إذ إنه - انطلاقًا من التصور السائد للطبيعة البشرية فى عالم التعاقد والتقاتل - لم يكن عند هذا الرجل أى دوافع لإعطائه ماء».

إن عالم «قصة الفرانكلين» التراحمى يقف على طرف النقيض من عالم «الاستثناء والقاعدة التعاقدى». إن الدراسة تجسد نموذجين معرفيين إدراكيين (الأول متمركز حول الإنسان، والآخر متمركز حول الشىء) يقفان على طرف النقيض (أى أنها دراسة فى الصراع القديم بين الإنسان والطبيعة/ المادة).

الثمرة السابعة والثلاثون بعد المائة...

تناقضات المفكرين

*** كيف يتبنى الأديب أفكارًا سطحية، بينما يكون أدبه فى غاية العمق؟!**

لم أقابل نجيب محفوظ سوى مرة واحدة فى الإسكندرية عام 1969، وكان أيامها اشتراكيًا، بل ماديًا جدليًا، وعجبت لأقصى حد من فجاجة آرائه السياسية وسطحيتها، فهذا الروائى العظيم الذى وصف خبايا النفس

البشرية فى ثلاثيته وغيرها من الروايات، يتحدث عن الكهرباء والتخطيط بحُسبانهما حلاً وحيدًا وناجعًا لكل مشكلات البشر!. وكان توفيق الحكيم حاضرًا الجلسة، وتحدث هو الآخر بإعجاب ووله عن العلم، دون أى تحفظات أو مخاوف، وكأنه أحد مفكرى القرن التاسع عشر، الذين لم يعايشوا الجوانب المظلمة للتصنيع والتحديث والعلم.

وقابلت الشاعر الكبير المرحوم أمل دنقل عدة مرات، وكان يرفض أن يُحَيينى كلما تقابلنا بالرغم من أننى لم أسئ إليه قط، بل ولم أكن أعرفه. وذات مرة فوجئت به يحيينى بحرارة بالغة، وقال إنه كان يظن أنى عميل أمريكى لأننى تعلمت فى الولايات المتحدة، أما وقد شاركت فى مظاهرات الطلبة عام 1971، وقمت وزوجتى بتوقيع البيان الذى كتبه الدكتور فؤاد زكريا مؤيدًا للطلبة ومطالبًا بإنهاء حالة اللاحرب واللاسلم، فقد انتفت عنى صفة العمالة. وقد تعجبت للغاية من سطحية هذا الموقف، فلا التعليم فى الولايات المتحدة يجعل من المرء عميلًا، ولا الاشتراك فى مظاهرات الطلبة ينفى عنه هذه الصفة!

قد تكون آراء الأديب الفلسفية سطحية، فى حين نجد أدبه فى غاية العمق. ذلك لأن الأديب حينما يتفلسف فهو يتفلسف بعقله وحسب ومن خلال ما حصَّل بشكلٍ واعٍ من أفكار، أما حينما يُبدع فهو يبدع من خلال كيانه كله ومن خلال ما مر به من تجارب لعله لم يفهمها عقليًّا، لكنه أدركها واستوعبها بشكل مباشر وكلى.

* تناقضات خفيفة الظل

من الأدباء الذين أعرفهم حق المعرفة الأستاذ أحمد بهجت، الذى يقطن فى عمارتى، وهو ساكن متميز يكتب مقالات يُشهِّر فيها بى بصفتى صاحب

العمارة، ولكنها مقالات خفيفة الظل، تجعلنى أقبل ما فيها من حقائق مقلوبة تمامًا. فقد كتب أن صاحب العمارة (أى شخصى الضعيف) يكره العصافير، ولم يذكر أن ساكن شقة 9 فى الدور الرابع (أى شخصه القوى) يقوم بإطعامها فى شرفته وينجم عن ذلك أن فضلاتها تتساقط على الجميع، وأن السكان الذين يسكنون تحته (وأنا ضمنهم) يجأرون بالشكوى. ولم يذكر أحمد بهجت فى مقالاته شيئًا عن القطط التى كان يربيها ويضع لها الطعام على سلم العمارة وتضع هى فضلاتها عليه، أو عن كلبه سلطان (وهو أسد فى هيئة كلب) الذى كان يولِّد الرعب فى قلوب الجميع.

وأخيرًا نقف مع خبث بعض المفكرين الأمريكيين: فى أوائل الستينيات بدأت تظهر تقليعة شراء المخطوطات الأصلية للأعمال الأدبية والفكرية، وكانت تُدفع فيها مبالغ خرافية. لذلك لجأ بعض المشاهير إلى كتابة مخطوطات «أصلية»! لأعمالهم بأثر رجعى (أى بعد صدورها)، وبيعت هذه المخطوطات لمكتبات الجامعات المتلهفة على الحصول على الأعمال الفريدة.

الثمرة الثامنة والثلاثون بعد المائة...

دراسات فى اللغة: المجاز ولغة الأدب

*** المجاز أسلوب ضرورى للتعبير وليس زخرفة ولا حقائق علمية أو غيبية**

تتعامل لغة الأدب مع الإنسان فى أفراحه وأتراحه، لذلك فهى تستخدم «المجاز» لتتمكن من الإفصاح عن المفارقات والتعبير عن الشىء وعكسه فى ذات الوقت، ولتتمكن من التعامل مع المحدود واللامحدود، والمتناهى واللامتناهى، وما يُقاس وما يستعصى على القياس. لذلك فإن اللغة المجازية ليست زخرفة كما يتصور البعض؛ فالمجاز هو طريقة للتعبير عن إدراك

مركب تعجز اللغة البسيطة عن التعبير عنه. واللغة الأدبية المجازية تنفر من لغة الرياضيات والقوانين الهندسية التى لا تتحمل الإبهام، فهى لغة بسيطة تهدف إلى وصف الأشكال الهندسية وحركة الكواكب وعلاقة الأرقام والذرات، وكل ما هو محسوس ويُقاس.

إن استخدام المجاز هو مؤشر على وجود المجهول فى حياة الإنسان (الذى يشير إليه المتدينون على أنه الغيب)، وعلى أن العقل البشرى محدود، وهو أيضًا مؤشر على أن هذا العقل مُبدع فعال يتطلع إلى استشراف هذا المجهول وإلى إنشاء علاقة معه.

*** القرآن الكريم والمجاز**

نبهتنى هذه الثمرة من ثمار فكر د. المسيرى إلى مايسببه الاختلاف بين لغة المجاز الأدبية العميقة وبين لغة العلم المباشرة البسيطة من مشاكل لدى الكثيرين. **فالعلماء الماديين الملاحدة** ينظرون إلى ما فى الكتب السماوية من مجاز باعتباره طرح علمى! ويخرجون من هذه النظرة بأن القرآن الكريم «**ملئ بالأخطاء العلمية**».ولعل من أهم الأمثلة على ذلك آيات خلق الإنسان؛ فالماديون يعتبرون أن هذه الآيات تتبنى مفهوم الخلق الخاص بينما أثبت العلم مفهوم الخلق التطورى، وقد كانت هذه القضية ـ بالتحديد ـ سببًا فى إلحاد الملايين من البشر عبر العالم.

وفى المقابل؛ نجد **الفكر السلفى** ينظر إلى بعض ما فى القرآن الكريم من مجاز باعتباره «**حقائق علمية**» ينبغى تبنيها، بل ويُخَطِّئون بها الحقائق العلمية الثابتة كدوران الأرض حول الشمس. وأيضًا ينظر هؤلاء إلى مجازات أخرى فى القرآن باعتبارها «حقائق غيبية» ينبغى الإيمان بها وتصديقها؛ ومثال ذلك قول الحق ﷻ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه: 5]، ويفهمون منه أن

الله ﷻ يجلس على العرش كما يجلس البشر! ولتوضيح ذلك يقومون بالجلوس على كراسيهم، ويقولون: هكذا!!.

ما أحوج من ينظر فى القرآن الكريم (علماء ماديين أودينيين) إلى إدراك هذه الثمرة فى فكر د.المسيرى، والانتباه إلى أن المجاز اللغوى أسلوب للتعبير، وليس زخرفة ولا حقائق علمية أو غيبية.

* جمال حمدان والمجاز

كان إدراك جمال حمدان للواقع مُرَكَّبًا وفريدًا؛ فكان كثيرًا ما يلجأ إلى المجاز. ففى وصفه لتوزيع اليهود فى العالم يقول: ليس صحيحًا أن تحت كل «حجر» فى العالم يهوديًّا، كما يدعى الكثيرون. بذلك يرفض جمال حمدان صورة الحجر المجازية ويقترح صورة أخرى مشتقة منها، لكنها مع هذا تقف على طرف النقيض! فيقول: «الأصح أن نقول إن توزيع اليهود العالمى توزيع رَشَاش متطاير فى معظمه، يتحول أحيانًا إلى تراب رمزى بحت»، وهكذا يتحول الحجر الصَلب (بما يحمله من معانى القوة) إلى «رَشَاش متطاير» ثم إلى «تراب».

أُنظر أيضًا إلى هذه الصورة المجازية التى تشى بولائه العربى على حساب جذوره «المصرية الفرعونية». فمصر الفرعونية (كما يبيِّن جمال حمدان) مكدسة فى المتحف أو معلقة كالحفريات على سفوح الهضبتين، أما فى الوادى فقد انقرضت كما انقرضت من قبل تماسيح النيل من النهر. بهذا ينتهى جمال حمدان إلى أن الحضارة الفرعونية قد ماتت فى مجموعها، ويهدم ادعاءات دعاة الفرعونية (وغيرها من دعاوى الوطنيات التاريخية الضيقة كالفينيقية والآشورية)الذين يهدفون إلى نفى القومية العربية ونسخ العروبة

والإسلام باسم الوطنية المغلقة. ويُجمل حمدان الأمر فيقول: «**نحن نحب الجد ونتذكره، أما الأب فنحن ننتمى إليه**».

*** أنا والحضـارة المـادية والمجـاز**

هذا وقد عرضت تاريخ تطور الأفكار فى الحضارة الغربية الحديثة من خلال الصور المجازية؛ فبينت أن هذه الحضارة تسيطر عليها صورتان مجازيتان أساسيتان: **الآلية** (العالم كآلة) والتى سادت حتى أواخر القرن الثامن عشر، ثم **العضوية** (العالم كنبات أو حيوان) والتى سيطرت حتى منتصف القرن العشرين. ثم هيمَنَت ما بعد الحداثة، فظهرت مجموعة من الصور المجازية التى تبين أن العالم لا مركز له، أى أن الوجود بلا حقيقة.

الثمرة التاسعة والثلاثون بعد المائة...

دراسات فى اللغة: علاقة الدَّال بالمدلول

يستند الوجود الإنسانى بأسره إلى «اللغة» كوسيلة للتواصل بين البشر وللاحتفاظ بثمرة تعاملهم مع الطبيعة ومع بعضهم البعض، وكذلك لنقل هذه الخبرات للأجيال التالية حتى لا يبدأ كل جيل من نقطة الصفر.

وبالرغم من إنه من البديهى أن يُشير الدالّ (الاسم الذى نطلقه على الشىء) إلى المدلول (الشىء المُسمَّى) ويعبر عنه بالدقة المطلوبة، فإن بعض دارسى اللغة يرفضون وجود علاقة بين الدال والمدلول! ويعتبرون أن ذلك يدل على وجود معنى للأشياء يسبق اللغة، وهذا ما يرفضونه تمامًا. فوجود مفاهيم مثل الإنسانية المشتركة والصواب والخطأ، يؤكد أن ثمة عناصر ثابتة ومفاهيم مطلقة فى العالم تهرب من قبضة النسبية والحركة والتغير، ويعتبرون أن ذلك سقوط فى الميتافيزيقا ـ على حد قولهم ـ وهو ما لا يقبله الفكر المادى.

* الـدال والمـدلول والتقـدم فى الحضارة الغربية الحديثة

لقد جعلت الحضارة الغربية الحديثة من «التقدم» الدائم والمستمر إلى ما لا نهاية الغاية النهائية والهدف الذى يمنح العالم تماسكه. لكن هذا التقدم المادى ليس له هدف إنسانى محدد، لذا فهو مجرد حركة بلا هدف ولا غاية. وإذا كان التقدم لا بد أن يتجه نحو شيء ما يحدده الإنسان فقد أصبحت كلمة «التقدم» دالاً بلا مدلول.

* الـدال والمـدلول والنظـام العالمى الجديد

ويظهر انفصال الدَّال عن المدلول فى مصطلحات الاستعمار العالمى الجديد. فهذا الاستعمار يسمى نفسه فى الوقت الحاضر «النظام العالمى الجديد»، وهو يدَّعى أنه لا يغزو الشعوب أو ينهبها، وإنما يعقد معها «اتفاقيات اقتصادية» عادلة، وأنه لا يتحرك إلا فى إطار الشرعية الدولية من خلال هيئة الأمم المتحدة، ويدافع بحرارة عن حقوق الإنسان.

ولكن هذا النظام العالمى الجديد هو فى واقع الأمر امتداد للنظام الاستعمارى القديم؛ فهو يقوم بنهب الشعوب من خلال الاتفاقيات «العادلة»! وإن عارضته بعض الحكومات الوطنية فإنه يستصدر قرارات من الأمم المتحدة «لتأديبها» باسم القانون الدولى، وهو دائماً يدافع عن «حقوق الإنسان» بطريقة انتقائية تخدم مصالحه.

وتصل العبثية إلى قمتها فى صناعة السلاح، فقد أنتج العالم المتقدم أسلحة تكفى «لتدمير الكرة الأرضية مرات عديدة»، وهى عبارة لا دلالة لها على الإطلاق إذ لا يمكن تدمير الكرة الأرضية أكثر من مرة، كما أسلفت القول. وأهم صناعة «إنتاجية» فى العالم الآن هى صناعة السلاح، أى أن أهم

أشكال الإنتاج هو «إنتاج آلات الدمار لكل إنتاج»، وهى عبارة لا دلالة لها أيضًا.

لقد أصبح «الإنسان» نفسه دالًا بغير مدلول فى الحضارة الغربية الحديثة. فدعاة ما بعد الحداثة يرون أن كل الأمور نسبية متغيرة، وأنه لا توجد ثوابت، لذلك يبذلون قُصارى جهدهم فى إثبات أن علاقة الدالِّ بالمدلول علاقة اعتباطية وغير موجودة أساسًا. فمثلًا، حينما أقول «قطة» فهذه الكلمة لا علاقة لها بالحيوان الصغير ذى الفراء الذى يسير على أربع والمعروف بهذا الاسم !، إن هذا الموقف يُجسد سِمة جوهرية فى الحضارة الغربية الحديثة، فهى حضارة دوال دون مدلولات (أسماء لا تنطبق على المُسَمَّيات).

لقد بدأت هذه الحضارة بتأكيد مركزية الإنسان، وأنه العنصر الأهم فى النظام الطبيعى، بشرط أن ننظر إليه باعتباره إنسانًا طبيعيًا/ ماديًا (جزء لا يتجزأ من الطبيعة/ المادة) أى أنه إنسان فقد تركيبيته وحريته ومقدرته على التجاوز (فقد ما يميزه كإنسان). فهو قد يكون إنسانًا اقتصاديًا يُعَرَّف فى ضوء آليات البيع والشراء وحواسه الخمس، أو إنسانًا جسمانيًا أو جسديًا يُعَرَّف فى ضوء غرائزه واحتياجاته الجسدية والجنسية ويُرد إلى أجهزته التناسلية والهضمية والعصبية. وهو فى جميع الأحوال جزء من سلسلة الوجود الطبيعية؛ كائن طبيعى من الداخل ومن الخارج، أى أن الإنسان فقد ما يميزه كإنسان وأصبحت كلمة «إنسان» دالاً دون مدلول، أى أنه فَقَدَ إنسانيته.

لكل هذا يمكن القول إن الحضارة الغربية دخلت فى مرحلة السيولة الشاملة، وأنها قنعت بأن تدور حول مجموعة من الدَّوال والمصطلحات التى ليس لها معنى محدد، فهى حضارة اختفت فيها كل المرجعيات والثوابت، ولم تبق فيها سوى أشياء متناثرة هى مرجعية ذاتها.

قصص الأطفال

الثمرة الأربعون بعد المائة...

بذور وجذور الاهتمام بأدب الأطفال

* طفولتى وشبابى

إلى جانب اهتمامى بالأدب ودراسته، فإن لى اهتمام خاص بأدب الأطفال. وهو اهتمام له مصادر متعددة، ربما أولها قصص المربيات، خصوصًا قصص خالة ستيتة التى أخبرونى أننى كنت أرفض النوم إلا بعد أن تحكى لى قصة من قصصها الشعبية الخرافية الجميلة (الشاطر حسن - ست الحُسن والجمال - عقلة الإصبع... إلخ). وكم كنت أستمتع بقصص صندوق الدنيا والأراجوز. كما استمعت إلى بعض رواة السيرة الهلالية فى طفولتى، وكنت أرى المشاجرات بين المستمعين بخصوص مصير أبى زيد، وكان الراوى يغيِّر الأحداث ويضيف إليها بعض الأحداث المعاصرة.

فى الولايات المتحدة كنت أقرأ كتب الأطفال، خاصةً كتب د. سوس، وهو كاتب عبقرى يحطم حدود المألوف (المادى) ويُطوِّع الأشياء والكلمات لإرادته، وفى الوقت ذاته يتعامل مع ثوابت النفس البشرية. وقد تعلمت من أستاذى ديفيد وايمر أن الروائى عندما يرسم شخصية ما، فإنه يضعها فى مواقف مختلفة ثم يتركها تتصرف حسبما تمليه سماتُها وأبعادها.

* إللى يخاف من العفريت يطلع له

كنت فى طفولتى أخاف العفاريت، وهو أمر طبيعى فى دمنهور. ولكن الأمر غير المألوف أننى كنت أخلّق عفاريت جديدة، فأصفها وصفًا دقيقًا

وأعطيها أسماء مخيفة لأخيف بها الأطفال الآخرين، والمشكلة أن هذه العفاريت بعد قليل كانت تنفصل عنى تمامًا وتصبح كيانًا مستقلًا له صفات محددة، فتتصرف بحرية شديدة، وتظهر لى أنا فيصيبنى الرعب أكثر من بقية الأطفال !.

ومن الطريف، أننى لم أتغلب على خوفى من العفاريت والأشباح إلا فى سن متأخرة من حياتى (بعد الأربعين !). كنت أجلس مع نفسى وأناقش المسألة بشكل علمى عقلانى هادئ، ولكن هيهات، فمع دخول الليل يبدأ خوفى وهلعى، فإن كنت بمفردى فى شقة كنت أضىء كل الحجرات وأذهب إلى دورة المياه فى حذر شديد. ولم أشف من هذا الهلع إلا عام 1987 حين تركتنى زوجتى فى المملكة العربية السعودية لأعيش بمفردى لأول مرة فى حياتى، المهم فى كل هذا أن عالم العفاريت شجعنى على إعمال خيالى وعلى رؤية الواقع بحُسبانه عالمًا قابلًا لإعادة التشكيل.

* زيارة لعالـم الأطفـال

وأنا أحب عالم الأطفال كثيرًا وأحب أن أدخله معهم، فهو عالم ملىء بالجمال والدهشة والبراءة، عالم يمكن أن يحقق فيه الإنسان إنسانيته، ويمكن أن يُحَلِّق فى سمائه ويسير على أرضه. وكنت أُنشىء علاقة قوية مع أطفالى عند سن الرابعة تقريبًا، حين يصبح الحديث والحوار معهم ممكنًا.

فى هذه الأيام على سبيل المثال، أستيقظ فى الصباح ويأتى حفيدى قبل الذهاب إلى المدرسة لنقضى سويًا مدة نصف ساعة، نَلج فيها عالمنا الخاص. فهناك على سبيل المثال شخصيات خيالية مثل «جوستى» وهو شبح صغير يذهب معه إلى المدرسة ويمكن لنديم أن يُسقط عليه كل مشاعره، فكثيرًا

ما يُعبِّر جوستى عن رغبته فى عدم الذهاب إلى المدرسة، وأحيانًا، فى أيام الامتحانات، يقتلونه فى المدرسة، ولكن بالقوى السحرية يمكنني استرجاعه إلى الحياة، ليبدأ مرةً أخرى رحلة الأفراح والأحزان. وهناك الفيل الأصفر والكلب الأحمر والقط الأخضر والطائر الملون والجمل ظريف، وما يرتبط بهم من أحداث. كما نلعب يوميًّا تقريبًا لعبة طورتها لتشجعه على التفكر، فأقول له اذكر خمسة أشياء جميلة، ثم اذكر خمسة أشياء حزينة، وأخيرًا اذكر خمسة أشياء محايدة. بل إننا نحاول أن نرسم سويًا أحيانًا، وقد أنتجنا سويًا بعض روائع الفن المصرى الحديث!. وفى عطلة نهاية الأسبوع قد نشاهد بعض الأفلام سويًا، كما وعدته أن أحول إحدى قصص الأطفال إلى مسرحية حية يقوم بتمثيلها هو وجِدَته. إن عالم الأطفال عالم جميل رائع، كم أحبه، وأحب أن أدخله وأعيش فيه بكل جوارحى.

*** أدب الأطفال... الملجأ من وحشية أدب الحداثة**

يمكن أن أصف نفسى بأن البراءة تسحرنى؛ كل ما هو برىء يملك عَلَىَّ شغاف قلبى، وما زلت أعشق الوجوه البريئة، خاصةً تلك التى بها مسحة من الحزن. لذلك فإن من الموضوعات الأثيرة لدىَّ فى دراستى للأدب موضوع الانتقال من البراءة إلى الخبرة والمعاناة ثم العودة إلى البراءة الأولى.

إن أدب الأطفال عظيم، فرغم عدم خُلُوه من الصراع ورغم وجود قدر من الشر فيه، فلا يزال على علاقة بما هو عظيم ونبيل فى الإنسان (شأنه فى هذا شأن السيرة الهلالية والقصص الخرافية التى أحببتها) لذا وجدت فيه ملجأ من الأدب الحداثى وما بعد الحداثى؛ هذا الأدب التفكيكى المعادِ للإنسان، الذى تتواتر فيه مواضيع الاغتراب والانتحار والشذوذ.

وأُحب أفلام الأطفال وأشاهدها المرة تلو المرة، ومن أحبها إلى قلبى فيلم مارى بوبينز، الذى يقدم لنا عالمًا طفوليًا بريئًا مركبًا لا يخلو من الصراع. وينتهى الفيلم بالكبار يُطَيِّرون طائرة من الورق بعد أن ينتصر عالم الطفولة والبراءة والتراحم على عالم البيع والشراء والتعاقد.

*** دعنى أشاهد ألعاب أطفالك، أقُل لك كيف سيكونون**

كانت تنشئة طفلاى نور ثم ياسر (الهدية التى حبانى الله بها) موضع اهتمامى، خاصةً وأنهم قضوا جزءًا كبيرًا من طفولتهم فى الولايات المتحدة، حيث تهيمن أفلام الكرتون الأمريكية المليئة بالعنف والكراهية.

كنت فى طريقى مرة لشراء لعبة لنور، دُب صغير teddy bear، وفجأة اكتشفت أننى سأشترى لها أحد رموز الحضارة الغربية؛ فالدب حيوان لا نعرفه ولا يوجد فى بيئتنا، ومن ثم فالعلاقة معه والتعلق به يُولِّد إحساسًا بالاغتراب لدى الطفل العربى.

ثم ظهرت باربى العروس ذات الجاذبية الجنسية، الشقراء التى ليس لها من سمات الطفولة شىء. وباربى هذه لها منزل فاخر وملابس كثيرة وبوى فريند وأصدقاء كثيرون، ويدور الكل فى الفضاء المادى الاستهلاكى الذى يدور فيه الإنسان الأمريكى. وإذا كان الدب teddy bear رمزًا للحضارة الغربية فى عصر التحديث ومرحلة التقشف، فباربى هى رمز لهذه الحضارة فى عصر الحداثة وما بعد الحداثة والسيولة الفلسفية، حضارة الهامبورجر والجينز والـ T.Shirt. ورغم أنها حضارة لا جذور لها، نشأت أساسًا فى الولايات المتحدة، فإنها لا تُعبِّر عن الهوية الأمريكية أو الغربية وإنما هى تعبير عن رؤية متطرفة فى المادية، تهدف إلى تحطيم الهوية والخصوصية وفى نهاية

الأمر تحطيم الإنسانية المُرَكبة، إذ تجعل من الإنسان كائنًا استهلاكيًا دوافعه اقتصادية وجنسية وحسب.

وقد اكتسحت باربى فى طريقها كل العرائس الأخرى بما فى ذلك العرائس الأمريكية المحلية مثل رجادى آن Raggadey Ann ورجادى آندى Raggadey Andy، وهى تشبه العرائس التى تُصنع فى الريف المصرى من القطن. حينما حدث ذلك، عرفت أن هناك مؤامرة ضد أطفال العالم (بما فى ذلك أطفال الولايات المتحدة) تهدف إلى تحويلهم إلى شخصيات استهلاكية لا هوية لها، وإلى إفقادهم طفولتهم وبراءتهم.

أما بالنسبة لياسر، فبوصفه ولدًا كان من المفروض أن أشترى له أدوات الحرب والفتك والكراهية والدمار، فرفضت ذلك كله تمامًا.

إن سوق اللِعَب فى الولايات المتحدة قد تضخم بصورة هائلة. لقد غزت اقتصاديات السوق حياة الأطفال تمامًا، وقد أدى التليفزيون دورًا كبيرًا فى ذلك. وللمزيد من الربح ظهرت اللعب ذات «المجموعات» التى يحاول الطفل أن يقتنيها كلها حتى تكتمل المجموعة، وقد أدت هذه «المصيبة» إلى أن أصبح الطفل يحاول «اقتناء» اللعبة لا «اللعب» بها.

***إن لم تشغل نفسك بالحق شغلتك بالباطل**

كان لا بد من أن أملأ الفراغ الذى خلقتُه فى حياة أولادى نتيجةً لخوفى عليهم من اقتصاديات السوق ولرفضى للعب الأمريكية. من هنا بدأت فى تأليف القصص التى تنقل للطفل نماذج معرفية حضارية أكثر إنسانية، وبدأت فى نسج عالم أسطورى معاصر متكامل لطفلىَّ، فأنا أُؤمن أن الذكريات والأساطير المشتركة بين الأزواج وأعضاء الأسرة والأصدقاء من

أهم العناصر التى توطد الصلة بينهم، وتزودهم بعالم خاص بهم يتحركون داخله، ويدركون العالم من خلاله، فيزدادون ارتباطًا ومحبة. وقد وجدت أنه من خلال هذا «العالم الخاص» الذى نسجته، يمكننى تفعيل مفهوم الهوية والخصوصية، وهو مفهوم نتحدث عنه كثيرًا دون أن نتحرك لتطبيقه.

*** الجمل ظريف... نجم عالمنا الأسطورى**

كان العالم الأسطورى القديم/ الجديد الذى شكلته يدور حول ثلاث شخصيات: نور (ابنتى) وياسر (ابنى) وانضم إليهما نديم (حفيدى). وهناك أيضًا الديك حسن، الذى يُؤَذن فنرجع من عالم الخيال إلى عالم الواقع. لكن الشخصية الأساسية هو الجمل ظريف، وهو جمل إنسانى، أخ لأولادى، ود. هدى هى أمه (أما أنا، صاحبه، فليس لى مجال فى عالمه!).

وظريف جمل/ إنسان غير مدرك لجمليته (إن صح التعبير)، تمامًا مثل جمل المدينة المنورة الذى عرفته فى طفولتى، والذى سمعت قصته من المسحراتى محمد الأعور، والذى فر من الجزار الذى كان يريد ذبحه ولجأ إلى الرسول ﷺ وطلب منه الأمان وأن يحميه من الجزار ففعل، أى أنه فر من عالم الحيوان إلى عالم الإنسان لعدم إدراكه الفارق بينهما.

ولا شك أن جمالًا أخرى قد استقرت فى وجدانى ومخيلتى وتركت فِىَّ أعمق الأثر، ومن خلالها ظهر الجمل ظريف إلى الوجود. ومنها الجمل الذهبى البَارِك فى فاترينة محل مصوغات الجمل المجاور لمحل والدى فى دمنهور، والجمال الكثيرة التى كنت ألقاها فى شوارع دمنهور وفى السوق، وجمل المحمل (حينما كانت مصر ترسل بالكسوة للكعبة) الذى كان يمر فى شوارع دمنهور، مزيّن بقماش ملون وبعض المرايات ويجلس على سنامه رجل

يدق على طبلتين كبيرتين فيصدران صوتًا كله هيبة ووقار. وفى عام 1972 قام صديقى الفنان رحمى، فنان العرائس، بصنع جمل خشبى حتى يمكننا أن نقوم بتمثيل القصص أثناء سردها. وبذلك، حاولت أن أخلّق لأطفالى عالمهم المستقل، حتى يمكنهم التحرك والتنفس فيه خارج عالم الألعاب الداروينية والاستهلاكية.

الثمرة الحادية والأربعون بعد المائة...

رحلتى مع قصص الأطفال

* المرحلة الأولى: عصرنة القَصص الأسطورى

نور والذئب الشهير بالمكار

حين دخلت عالم كتابة قصص الأطفال، كنت فى بداية الأمر آخذ القصص التقليدية وأحور فيها بطريقة جوهرية، بحيث أُدخلها العصر الحديث دون أن أفقدها أسطوريتها، **فالأساطير لا يزال لها جمالها الذى لا يُضاهى**.

وأولى القصص كانت قصة «ذات الرداء الأحمر»، فكنت أحكى لنور القصة الأسطورية التقليدية، ثم أحكى لها نفس القصة بعد تحديثها. وفى القصة الجديدة، تطلب والدة نور (ذات الرداء الأحمر) منها أن تأخذ سلة الطعام لجدتها، فركبت دراجتها (بدأت أزاوج بين عالم الأسطورة والعالم الحديث)، وحين يقابلها الذئب ويسألها إلى أين هى ذاهبة تخبره بكل شجاعة بأنها فى طريقها إلى جدتها، فيفرح لأنه سيذهب قبلها ليبتلع الجدة ثم يبتلع نور بعدها، ولكن نور تعرف طريقًا جديدًا فتسلكه وتصل قبله.

إنَّ نور تتحرك فى عالم جديد، على عكس الذئب الذى لا يزال يعيش فى عالم الأسطورة التقليدية ويتحرك داخل نطاقها ولا يدرك التطورات التى تحدث من حوله. ويذهب الذئب إلى بيت الجدة متنكرًا ويطرق الباب فيجد فى انتظاره علقة ساخنة، إذ تنهال الجدة ونور عليه بالضرب، فيصرخ من الألم ويعبِّر عن دهشته واستنكاره، يعترض بأنه حسب القصة القديمة لا بد أن يصل قبل ذات الرداء الأحمر لا بعدها، ويظل فى حيرة من أمره لا يفهم شيئًا. وكنت أحيانًا أقص القصة نفسها بطريقة كوميدية؛ إذ ينكمش الذئب ليصبح ذئبًا صغيرًا ومن ثم تصبح ذات الرداء الأحمر بالنسبة له عملاقًا، وحينما نصل إلى لحظة المواجهة بين الذئب والفتاة يكتشف صغر حجمه فيولى الأدبار.

*** المرحلة الثانية: سبيكة من أساطير متعددة**

سندريللا وزينب هانم خاتون

ثم انتقلت بعد ذلك إلى مرحلة مزج القصص المعروفة. فكنت أبدأ القصة بذات الرداء الأحمر التى تطلب منها أمها أن تذهب ببعض الطعام إلى الجدة، فتوافق وتستأذن أمها فى أن تأخذ معها أخاها ياسرًا، ويركبان دراجتيهما وينطلقان إلى منزل الجدة. وفى الطريق يقابلان سندريللا، التى تحكى لهما قصتها وكيف أنها اضطرت إلى أن تجرى عند منتصف الليل، وليس معها سوى فردة حذاء واحدة، فيخبرانها بأنها يمكنها أن تركب خلف نور على دراجتها، ويذهب ثلاثتهم إلى بيت الجدة لانتظار الذئب المكار. وكنت أضيف أحيانًا قصة سنو وايت التى تحكى لهم عن زوجة الملك التى تقل عنها فى الجمال والمرآة التى تقول الصدق، فيدعونها للانضمام لهم، فتفعل. ويمكن أن تنتهى القصة بأن يتم ضرب الذئب وحضور الأمير ومعه فردة الحذاء الأخرى ولكنه لا يقيسه على قدم سندريللا، بل يخبرها أنه يريد الزواج منها

لأنها مثقفة وواسعة الخيال وأنه أُعجب بحديثها للغاية. ويذهب الأمير معهم إلى زوجة الملك الشريرة ليلوموها على ما فعلت، فتبكى وتندم على خطئها ويعقدون زفاف سنو وايت والأمير فى نهاية القصة/ القصص. وكنا نغيِّر فى النهايات حسبما يروق لنا، فعملية القص خاضعة لنا تمامًا، وبذلك نرفض الموضوعاتية المتلقية ونؤكد مفهوم العقل التوليدى.

* القصة تأديب وتهذيب وإصلاح

البحث عن الآيس كريم

وأحيانًا كنت أستخدم القصص لمعاقبة طفلىّ على ذنب اقترفاه. عدت مرة من عملى وأنا مرهق للغاية، فأصرا على أن أحكى لهما حكاية، فقررت أن أنتقم. وبدأت الحكاية بياسر ونور (والجمل ظريف) فى سيارة فى طريقهم إلى مدينة الآيس كريم، وبعد أن سافروا عدة كيلو مترات فى طريق طويل مُترِب شاهدوا عن بُعد أبواب المدينة التى كانت جميلة شاهقة منيرة، وحينما وصلوا طرقوا البوابة عدة مرات ولم تُفتح إلا بعد جهد جهيد. ولكن بعد أن فُتحت البوابة وجدوا بابًا آخر مغلقًا وبجواره صندوق عليه لافتة تقول: «مفتاح الباب»، ففتحوا الصندوق ليجدوا خريطة صغيرة ترشدهم إلى طريقة الوصول إلى المفتاح على بُعد 100 متر. فتوجهوا حسب الخريطة وحفروا فى الأرض وحصلوا على المفتاح وفتحوا الباب. ولكنهم بدلًا من أن يجدوا الآيس كريم الموعود..... وتستمر القصة على هذا المنوال حتى تطلب منى نور وياسر (وظريف) إنهاء الحكاية، ولكنى كنت أتمادى فى صنوف «العذاب القصصى»، وأخيرًا استجيب لطلبهم، وأنهيت القصة وقد وجدوا أنفسهم فى أَسِرَّتِهم، فحمدوا الله وأخلدوا للنوم.

* **الجمل ظريف يفضح مزاعم الصهيونية !**

كتبت قصة طريفة ترمز للصهيونية بطلها الجمل ظريف (الممثل للصهاينة فى أنحاء العالم، فى هذه القصة فقط) الذى يحن فجأة للحياة فى الصحراء (أرض الميعاد) ويريد أن يعيش فيها. ويتنقل ظريف فى المنزل يردد قصائد شعرية عن الصحراء والعيش فيها، فيحاول الأطفال أن يثنوه عن عزمه ولكنه يصر. فيركب الثلاث المترو ويصلون إلى ميدان التحرير، ويظن الجمل ظريف أن هذه هى الصحراء، وتتهلل أساريره ويبدأ فى إلقاء قصائده العصماء، فيضحك الأطفال ويخبرونه أنهم لا بد أن يركبوا أتوبيسًا آخر ليصلوا إلى أطراف الجيزة. وبعد قليل يصلون إلى الهرم، ويجد ظريف بعض الجمال، ويبدأ مرة أخرى فى إلقاء قصائده الصحراوية، فتضحك الجمال منه وتخبره بأن الصحراء على بُعد عدة كيلو مترات من الهرم، وأنهم موظفون فى وزارة السياحة، يحبون الوظيفة الميرى ولا يذهبون قط إلى الصحراء. ولكن الجمل ظريفًا يركب رأسه ويصر على الذهاب إلى الصحراء، فيسير الأطفال معه عدة كيلومترات أخرى، وحينما يصلون إلى الصحراء يشعرون بالتعب. وحينما تبدأ الشمس فى الغروب يدخل الخوف على قلب ظريف ويطلب العودة إلى المنزل، فيضحك الأطفال، ويُلَوحون لسيارة كانت فى طريقها إلى الأهرامات ويركبون جميعًا ومن هناك يعودون إلى المنزل.

* **كنا نحيا مشكلات عالمنا القصصى**

وكثيرًا ما كنت أحاول أن أجعل عالم القصص جزءًا من حياة طفلىّ. ذات مرة كنا فى الفيوم، وقام أحد الفلاحين بإعطائهما كتكوتين جميلين، فرحا بهما كثيرًا. وكنت أعرف أن نسبة الموت عالية بين الكتاكيت، لذا اقترحت تحويل الكتكوتين إلى شخصيتين فى قصة تُسمَّى «أحزان الإنسان» ويُسمَّى

الكتكوت الأول «الحزن الأبدى» ويُسمَّى الثانى «الحزن الأزلى» (تحسبًا للنهاية الحزينة ولجعلها أخف وطأة)، ولكن طفلىّ اعترضا. وبالفعل مات أحد الكتكوتين، بسرعة وبقى معنا الكتكوت الثانى، وحينما امتدت حياته بضعة أيام سماه الأطفال «هرقل» فحذرتهم مما قد يحدث له. وبالفعل مات هرقل بعد عدة أيام مخلفًا لنا الأحزان، وبكى ياسر ونور كثيرًا بسبب موته.

الثمرة الثانية والأربعون بعد المائة...

المنهج الفكرى وأدواته: من السياسة إلى قصص الأطفال

وحينما أنظر لقصص الأطفال التى كتبتُها، أجد أنها تُعبِّر عن نفس الأفكار والرؤى التى توجد فى أعمالى الأخرى (بما فى ذلك الموسوعة بطبيعة الحال).

فابتداءً، هناك فكرة النماذج المعرفية، التى أَعُدُّها الأداة الأساسية فى عمليتى الإدراك والتحليل. فثمة نموذج معرفى أساسى كامن وراء كل القصص، وهو نفس النموذج الكامن وراء الموسوعة؛ من رفضٍ للموضوعاتية المتلقية والنصوصية البلهاء والمعلوماتية الفجة والسببية الصلبة (مثل الذئب الشهير بالمكار الذى سقط فى الموقف المعلوماتى النصوصى دون تحليل أو تفسير أو إدراك لما يطرأ على الواقع من تغيرات) إلى إيمانٍ بالعقل التوليدى الذى يفكر ويبدع. وهناك كذلك السببية الفضفاضة والنماذج المفتوحة (النهايات المتغيرة للقصص)، والحيز الإنسانى (المختلف عن الحيز الطبيعى/ المادى) الذى يتحرك فيه الإنسان ويحقق فيه إنسانيته، فيؤكد إرادته وحريته ومقدرته على الاختيار.

ولم يكن مفهوم الطبيعة البشرية السائد فى قصصى بسيطًا ولا اختزاليًا؛

فهناك شر داخلنا وشر خارجنا، وخير داخلنا وخير خارجنا، وهناك عالم الفوضى وعالم النظام والقانون. وتظهر التركيبية فى اختلاط الخير بالشر والداخل بالخارج والفوضى بالنظام دون إلغاء للمقاييس التى نحتكم إليها، **فيعرف الأطفال العالم بطريقة مركبة تؤهلهم للتعامل مع العالم الحقيقى.**

الثمرة الثالثة والأربعون بعد المائة...

حكايات هذا الزمان: مجموعة قصصية خيالية واقعية

بدأت كتابة قصص الأطفال عام 1970، وعرضت إحداها على أحد الناشرين عام 1974، فأفتى حضرته بأنها «غير علمية» و«خيالية غير واقعية» و«نحن نريد قصصًا واقعية تعلم الأطفال الارتباط بالواقع». وعندما نَشَرت دار الشروق الموسوعة، طلبت المسئولة عن قسم الأطفال أن تَطَّلع على القصص التى ألفتها، فأعجبت بها لأنها **خيالية واقعية، وتعلم الأطفال الانطلاق وعدم التقيد بحدود الواقع**، أى أنها قبلت نشر القصص لنفس الأسباب التى رفضها من أجلها ناشر آخر عام 1974. ثم بدأت دار الشروق فى نشر القصص فى سلسلة بعنوان «**حكايات هذا الزمان**».

وقد حالفنى الحظ، إذ حصلت عام 1999 على **الجائزة الأولى للتأليف للأطفال** ضمن جوائز سوزان مبارك للطفل. وقد سعدت كثيرًا بهذه الجائزة، لا لأنها تشجعنى على الاستمرار فى الكتابة للطفل وحسب، وإنما لأنها أيضا **تخرجنى من الجيتو الصهيونى**، وتنبه قرائى إلى أن هناك **فكرًا** وراء ما **أكتب** وليس مجرد حشد للمعلومات. ثم حصلت على عدة جوائز (**بعضها جوائز دولية**) خصوصا على ديوان من الشعر الحر للأطفال بعنوان: **أغنيات إلى الأشياء الجميلة**. ويتناول الديوان مراحل الحياة المختلفة من الطفولة حتى الموت.

الفنون الجميلة

بخلاف الاهتمامات المتعددة التى مارسها د. المسيرى فى حياته والتى كان لها بذور فى طفولته وصباه أنبتت ثم أثمرت، فإن تجربته مع الفنون الجميلة مختلفة تمامًا ومثيرة للغاية.

الثمرة الرابعة والأربعون بعد المائة...

لحظة الاستنارة والإشراق

*** شعرت فجأة بالعالم من حولى وهو يفيض بالألوان، بل وسمعت أصواتها!**

كان اهتمامى بالفنون الجميلة اهتمامًا هامشيًا إلى حدٍّ كبير، ولم تكن لها بذور تُذكر فى حياتى المبكرة. ثم مررت بتجربة فجائية وعميقة فى متحف الجوجنهايم فى نيويورك؛ إذ **شعرت فجأة بالعالم من حولى وهو يفيض بالألوان، بل وسمعت أصواتها** ! حتى إننى أصبت بدوار لم أفق منه إلا والحرس يساعدوننى، إذ كنت على وشك السقوط. ومما يثير دهشتى أن الاهتمام بالتشكيل اللونى والمعمارى أصبح منذ تلك اللحظة جزءًا من رؤيتى للعالم.

ولولا أننى كنت آنذاك مشغولًا فى رسالتى للدكتوراه ثم فى الدراسات الصهيونية، لربما غيَّرت تخصصى وأصبحت ناقدًا فنيًا. ومن المفارقات أن الموسوعة التى أحكمت قبضتها علىّ، ومنعتنى من التخصص فى الفنون التشكيلية ساهمت بشكل غير مباشر فى زيادة شغفى بهذه الفنون، إذ كنت أشعر أحيانًا أثناء كتابتها أننى أعيش فى عالم رمادى مكون من كلمات

وحروف، والحروف فى نهاية الأمر أشياء مجردة متناثرة لا معنى لها، فنشأت لدى حاجة للألوان والأشكال ذات المعنى. وكثيرًا ما كنت أترك الموسوعة لأمُر على قاعات الفنون لأشاهد اللوحات والتماثيل. كما كنت أقوم بإدخال بعض التغييرات على منزلى كى أستخدم يَدىَّ أو أستخدم جزءًا من وجدانى الذى تعطل بسبب انشغالى بعالم الكلمات والحروف.

الثمرة الخامسة والأربعون بعد المائة...

إن الله جميل يحب الجمال

﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل 8].

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾[الحجر 16].

*** الجَمال مطلوب لذاته، كما أن الوظيفة مطلوبة لذاتها**

أدركت من خلال دراستى للشعر الرومانتيكى أن «الجمال يعنى التجاوز»، فإدراك الجمال يعنى أن الإنسان لا يعيش داخل المادة وحسب، وإنما يعيش داخلها ويتجاوزها إلى ما وراءها فى نفس الوقت. لذلك فأنا أربط بين الجَمال والإيمان بالله، أما الإنسان المادى فهو محصور داخل المادة لا يمكنه تجاوزها إلى ما وراءها.

لذلك عندما يصنع الإنسان الكرسى ليجلس عليه ويريح جسده، فإنه يصنع كرسيًا لا يقف عند الوظيفة المادية، بل يتسم بالجمال ومُحلًّى بزخارف ليست لها قيمة مادية محددة، ولا «نفع» مادى مباشر، ولكنها تُعبِّر عن شىء ما داخل الإنسان يتجاوز سطح المادة. أما الأكتفاء بالوظيفة (المتجردة من

الجمال والخصوصية) فيفترض أن الإنسان كائن طبيعى مادى؛ مجموعة من الوظائف البيولوجية والاحتياجات الاقتصادية إن أشبعت انتهت القضية.

وهناك قصة شهيرة فى عِلْم الأنثروبولوجيا عن امرأة من قبائل الإسكيمو ضَلَّت عن أسرتها أثناء إحدى العواصف، وحينما عثروا عليها بعد عام، كانت قد حاكت لنفسها جلبابًا ليدفئها، ولكنه فى الوقت نفسه كان موشىً بالزخارف. فبالرغم من أن البقاء المادى كان بالنسبة لها ضرورة ملحة، فإن هذه المرأة «البدائية» لم تتخيل هذا البقاء بلا زخارف. والشىء نفسه نجده فى الأوانى الفخارية التى صنعها الإنسان فى أقصى حالاته البدائية، فهى دائمًا ليست مجرد أوانٍ تؤدى وظيفة، وإنما أعمال فنية تُشبع النزعة الجمالية والحضارية فى الإنسان.

*** الحداثة تتنكر للجَمال**

ولكن يبدو أن الاقتصار على الوظيفة المادية هو إحدى سمات العصر، فالإنسان الحديث إنسان وظيفى يعيش فى بيت وظيفى لا انتماء له ولا خصوصية ولا جمال فيه، كل ما فيه نافع وظيفيًا. هذا الإنسان يلبس فى كل أنحاء العالم ملابسًا لا شخصية لها (التى شيرت والجينز) ويأكل الهامبورجر الذى لا طعم له ولا لون ولا رائحة، ويسمع الموسيقى التى يقال عنها «شبابية» والتى لا تختلف عن الموسيقى التى يسمعها أى شاب آخر فى أى مكان آخر. وبدلًا من أن يعيش الإنسان فى لحظة صفاء روحية أزلية تحمل بصمات حضارته وجذوره وشخصيته وتميزه عمن سواه، فإنه يعيش فى بقعة رمادية مادية منعدمة الطعم والشخصية!.

الثمرة السادسة والأربعون بعد المائة...

الفن الإسلامى

*** يجمع «العقيدة» و«الجمال» و«الوظيفة».**

حين زرت جناح الفن الإسلامى فى متحف المتروبوليتان ذُهلت مما رأيت من جمال وتقوى، وبدأت بعض قناعاتى عن التقدم والتخلف تهتز. كل هذا جعلنى أتنبه إلى عظمة الحضارة الإسلامية التى كانت قد شُحبت فى وجدانى بسبب تخصصى الأكاديمى ورؤيتى الفلسفية (الغربية المادية).

ثم استرعى انتباهى الفروق الواضحة بين فنون العصور الوسطى الغربية والفن الإسلامى. فالفن المسيحى بما يتميز به من تماثيل العذراء والطفل وأيقونات كلها جميلة رائعة، فهو تجسيد واضح للحلولية ووحدة الوجود (إذ يحل المقدس فى هذه التماثيل وهذه الأيقونات) وتجسيد للامتزاج الكامل للمقدس مع الزمنى. أما الفن الإسلامى، فقد لاحظت فيه أن المقدَّس والزمنى يتداخلان بشكل فيه تناسق وتركيب ولكنهما لا يلتحمان أبدًا، فبدأت أشعر أن الحكم على الفن الإسلامى والفنون العربية والذات العربية بمقاييس غربية تدَّعى أنها عالمية أمر ممجوج وخائب.

لذلك عند عودتنا من الولايات المتحدة أخذت أتأمل المعمار الإسلامى خاصةً فى منطقة الكُربة فى مصر الجديدة حيث كانت سُكنانا، وكانت واجهات وأبواب العمارات القديمة الجميلة تسحرنى (وربما كانت تذكرنى بمبنى البلدية فى دمنهور). وقد أعجبنى فى مصر الجديدة تداخل الطراز الإسلامى مع الطرز الغربية وبخاصة الآرنوفو.

وقد ظهر طراز الآرنوفو Art Nouveau (أى الفن الجديد) بين عامى

1890 - 1910م كجزء من ثورة الإنسان الغربى الرومانسية ضد مجتمع الصناعة والآلة الذى كان ينظر إلى كل شىء فى إطار المنفعة المادية. لذلك تميز هذا الطراز بمحاكاة خطوط الطبيعة، فنجد أن خطوط الآرنوفو طويلة متعرجة متموجة، تأخذ عادة شكل زهور وبراعم وأجنحة وخمائل عنب وأشياء أخرى من الطبيعة. ويحاول معمار الآرنوفو المزج بين الزخرفة والبنية المعمارية والمواد الأخرى المستخدمة مثل الحديد والزجاج والسيراميك.

وكنت أقوم بزيارات أسبوعية أنا وأولادى إلى الآثار الإسلامية خصوصًا المساجد (وكنت أتردد بالذات على مسجدىّ السلطان حسن وابن طولون، وقد ألقيت بعض المحاضرات عن هذين المسجدين)، كما كنا نزور كثيرًا من البيوت المملوكية (بيت السنارى - بيت الكرادلية... إلخ).

* الجَمال مدخل إلى الإسلام

وقد عرفت فيما بعد أن كثيرًا من الأجانب قد دخلوا الإسلام عن طريق الفنون الإسلامية. فالفنان بيجار، راقص الباليه الفرنسى المعروف، اعتنق الإسلام بعد دراسة السجاد والرسومات المركبة داخله. كما أن روچيه جارودى كان له اهتمام خاص بالمعمار الإسلامى. ولعل هذا ينبه الداعين للإسلام إلى أهمية الفن الإسلامى والإسلام الحضارى، إذ إن معظمهم للأسف لا يعرف إلا الجانب العقلى فى الإسلام، وهم لا يعرفونه بطريقة فلسفية عميقة وإنما بطريقة تراكمية سريعة، فهم لا يدركون أن المنطق الفلسفى هو الوحيد الذى يمكن للإنسان أن يحاور من خلاله الآخر، باستخدام مقولات متقابلة، وليس من خلال نصوص نؤمن بها نحن ولا يؤمن بها هو.

الثمرة السابعة والأربعون بعد المائة...

وقفة مع القُبح: وبضدها تتميز الأشياء

* الطـراز الدولـى

ابتداء من أواخر خمسينيات القرن العشرين، بدأ ينتشر فى مصر طراز معمارى عملى نفعى فى غاية القبح، فى حالة خصومة شديدة مع الجمال والخصوصية، يتكون من حوائط تُزخرف أحيانًا بطريقة قبيحة (خطوط هندسية أو دوائر لا تتبع أى نسق) وألوان فاقعة لا تتبع أى منطق فكرى أو جمالى، وهو ما يعرف «بالطراز الدولى» (أى الخالى من أى خصوصية). وكانت بداية الكارثة حين بُنيت وحدات مصيف المعمورة بالإسكندرية على هذا الطراز، وحيث إن هذا المصيف كان أحد مراكز تجمع النخبة الحاكمة آنذاك (تمامًا كما هو الحال مع مارينا الآن)، فقد أصبح هذا الطراز هو حلم الناس، وأُسست عمارات مدينة نصر كلها بهذا الشكل القبيح، وكذا كثير من عمارات القاهرة، ومعظم العمارات فى الأقاليم، وقد أَسميتُ هذا الطراز «طراز المعمورة».

* علمانية المبانى

لما كانت العلمنة الشاملة هى تحويل العالم إلى مادة استعمالية لا قداسة لها، فإن الطراز الذى يُسمَّى «دوليًا» يحقق علمنة المبانى. فهو يهدف إلى تأسيس مبانٍ عملية خالية من الزخارف والهوية، مكونة من حوائط نمطية (يمكن أن تبنى من الألواح الأسمنتية المجهزة سابقًا pre-fab)، و يأخذ كل مبنى شكل وحدات صغيرة متكررة تشبه الصناديق المتراكمة الواحد فوق الآخر، حتى تتحول إلى صندوق كبير هو العمارة السكنية، ثم توضع الصناديق الكبيرة

الواحدة بجوار الأخرى لتصبح حيًا أو صندوقًا ضخمًا يتسع لعدد كبير من الناس، ثم توضع الصناديق الضخمة الواحد بجوار الآخر لتصبح صندوقًا مهولًا يتسع لعدد هائل من الناس، ثم يُطلق على هذا اسم مدينة أو ضاحية... إلخ. وهذا النوع من المعمار يصلح لسكنى أى شخص أو عائلة طالما أنه تم تحديد أحلامها وتوقعاتها وسلوكها مسبقًا وبشكل كمى.

* علمانية الأثاث

وقد صاحب شيوع «طراز المعمورة» المعمارى القبيح طراز للأثاث (لا يقل عنه قبحًا) سُمى «المودرن»، وهو مجموع من الأخشاب التى تُطلى عادةً باللاكيه أو تُغطى بالفورمايكا ولها أرجل طويلة قبيحة. وثم تَعَايَش الطراز «المودرن» مع الطراز «الستيل» المبالَغ فيه (وارد دمياط وغيرها) وهو أثاث مُحَلًّى بالنقوش المخيفة التى تُسمَّى «الأويمة»، والتى كلما ازدادت ضخامتها ازدادت قيمة (أى ثمن) الأثاث، مما حوَّل بيوت المصريين إلى ما يشبه محلات الموبيليا؛ فهى تفتقد إلى الروح والخصوصية والذوق، ولا تبين أى شيء سوى ثراء صاحبها المادى. وهذا الأثاث هو صورة مشوهة من الأثاث الأوروبى الحقيقى (لذا كان الأجانب يسمونه طراز «لوى فاروك»، نسبة إلى الملك فاروق بدلًا من «لوى سيز» نسبة إلى لويس السادس عشر مثلًا)، ثم سُمى بعد الثورة «طراز الجمهورية»!.

* علمانية الفن التجريدى التجريبى

يشعر معظم الناس أن الفن الحديث بارد إلى حدٍّ ما. ولعل هذا يعود إلى أن الفنانين الحداثيين لا يهمهم التواصل مع المتلقى، لذا أصبحوا مبدعين لأعمال خاصة بهم ويستخدمون لغة فنية منغلقة على ذاتها، وهم تجربون أى شيء بلا أى مفاهيم إنسانية أو أخلاقية.

ولعل هذا الانفلات التجريدى التجريبى يظهر فى تلك اللوحة المصنوعة من الزجاج (الموجودة فى متحف الفن الحديث) والتى تهشمت فى أثناء نقلها، فأعلن الفنان أنها وهى مهشمة أجمل منها وهى سليمة، ويجب أن تظل على حالها، كما لو كان كلام الفنان مقدسًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!. ويوجد فى المتحف نفسه مجموعة من بلاطات القنالتكس عددها 36 وعنوان اللوحة هو «36 بلاطة». وقد وُضعت البلاطات على أرضية المتحف بحيث يمكن للمتفرجين أن يسيروا عليها (وينصحهم حارس الصالة بذلك). وقد رسم بولاك مجموعة من اللوحات الضخمة عبارة عن مساحات سوداء لا أكثر ولا أقل، سماها «مرثية للجمهورية الإسبانية»، ولكنه اعترف فيما بعد أن اختياره للاسم كان عشوائيًا، وأنه لا علاقة له باللوحات. وحدث أن أخذ بعض رواد المتحف فى التأمل بعمق فى سجادة كانت تأخذ شكل مخروط، وأخذوا يبدون إعجابهم الشديد بهذا العمل الفنى الرائع، إلى أن حضر أحد عمال النظافة فى المتحف وحمل السجادة ثم فرشها على الأرض مع بقية السجاجيد الأخرى، فلم تكن سوى سجادة عادية مطوية.

وقد وصل التجريب إلى حد أن أحد الشبان فى هولندا قرر أن يقف على قاعدة تمثال ويعلن نفسه عملًا فنيًا (ويطلب من الدولة أن تدفع له راتبًا لتمويل وظيفته هذه).

ويصل هذا التيار إلى قمته (أو حضيضه) فيما يُسمَّى «شعر الصدفة». ويتم «تأليف» هذا النوع من «القصائد» بأن يبحث «الشاعر» عن عبارات ولافتات فى شارع أو عدة شوارع ويضعها جنبًا إلى جنب على نفس الصفحة، فتصبح بقدرة قادر «قصيدة»، لا من خلال الجهد الإبداعى الإنسانى، وإنما

من خلال المصادفة والتراكم العشوائى. وقد حضر إلى الجامعة الأمريكية شاعر فرنسى حداثى وعرض علينا «ديوان» شعره، وكانت كل صفحة من صفحات «الديوان» مُقسَّمة إلى ما يقرب من عشرة أقسام، وكل قسم فيه بيت شعر واحد بحيث يمكن للقارئ أن «يُرَكِّب» القصائد التى تعجبه بالطريقة التى تعجبه، دون عناء كبير !.

الثمرة الثامنة والأربعون بعد المائة...

الفنان التشكيلى عبد الوهاب المسيرى

*** فى البداية، لبست ثوبًا غير ثوبى**

كنت أنا وزوجتى قد أسسنا منزلنا بعد عودتنا من الولايات المتحدة المرة الأولى (عام 1969) على الطراز الفرنسى. كان هناك إبداع ولا شك فى تصميم الشقة، ولكنه إبداع ينبع من تشكيل حضارى مغاير، ويُعبِّر عن نموذج حضارى لا ننتمى إليه، ويُعبِّر عن خصوصية الآخر لا خصوصيتنا.

*** ليس كل ما يشتهيه المرء يدركه**

وفى عام 1974، بدأت فى بناء العمارة التى أسكن فيها الآن. واقترحت على المهندس المعمارى أن يرسم الواجهة على الطراز العربى السائد فى مصر الجديدة، فسخر المهندس من تأملاتى؛ لأن مع تكاليف هذا الطراز المرتفعة لن تأخذ لجنة تحديد القيمة الإيجارية هذا فى حُسبانها.

وحينما عدت من الولايات المتحدة للمرة الثانية عام 1979، كان قد تم بناء عمارتى، وكانت قبيحة بشكل لا يمكن للعقل تصوره. كنت أرتجف من الغيظ حينما أدخل العمارة، ففى المدخل استخدم المهندس مادة الجرانوليت

بحوائط سوداء وسقف برتقالى، وواجهة العمارة شيء «مودرن» يبعث على الاشمئزاز. كنت أقول فى نفسى هذه عمارة تليق بأحد كبار التجار أو صغارهم، ولكنها لا تليق بأستاذ شعر مثلى. وكان بها عدد مخيف من «الكمرات» المتدلية من السقف المنخفض تشبه المقاصل، كنت أحصى خمسًا منها وأنا فى طريقى إلى غرفة نومى، وحينما أجلس فى الصالة أحصى خمسًا أخرى. إلى جانب أن معظم النوافذ كانت مصنوعة من الكريتال (أى الحديد) وهى مادة مزعجة من الناحية الجمالية وغير عملية بالمرة، إذ إن فتح شباك يتطلب مقدرة عضلية فائقة، كما كان غير محكم ويسمح بمرور الهواء والتراب.

*** ثم حدثت الثورة**

لم يعد من الممكن أمام كل هذا القبح تَحَمُّل العمارة أو الشقة بوضعهما القائم آنذاك. وقررتُ وأسرتى إعادة صياغتهما بدءًا من مدخل العمارة مرورًا بالسلم وانتهاءً بالشقة التى نقطن فيها. وقد تم بدأت عملية إعادة الصياغة باجتماعات مكثفة نعقدها يوميًا تقريبًا (كمجموعة عمل) نتفاهم فيها حول الخطوط العامة.

كان محور إعادة الصياغة هو ترجمة أفكارى الفلسفية أو الجمالية المجردة إلى معمار داخلى يتميز بالطراز الإسلامى.

*** تأملات فى الشقة السكنية المصرية**

شاركتنى مجموعة العمل رأيى بأن الشقة المصرية قد قُسمت بطريقة تصلح لاستقبال الضيوف، ومن ثم توجد مساحة استقبال خارجية ضخمة مفتوحة (وقد أصبحت هذه هى آخر صيحة)، وغرفتا نوم صغيرتان

ملحقتان بها، وكأن الإنسان يبنى بيته للضيوف لا ليكون مأوى خاصًا له يعيش ويتحرك فيه. وانطلاقًا من إدراكنا هذا، وافقنا على إلغاء فكرة غرفة الصالون، فهى مساحة معطلة تؤدى إلى انكماش المساحة المتاحة للمعيشة، وبطبيعة الحال كان هناك كره داخلى متأصل للصالون المذهب بالذات. ووافقنا جميعًا على إلغاء المساحة المفتوحة المهجورة وأصبحت مكانًا للمعيشة اليومية. كما وجدنا (بالتجربة) أن غرفة الطعام هى أقل الغرف استخدامًا، ومن ثم قررنا أن يصغُر حجمها وأن توضع فى مكان غير مهم فى الشقة. أى أننا وسَّعنا وركزنا على رقعة الحياة الخاصة فى الشقة.

* الماضى المتحفى والماضى الحى

رغم حب مجموعة العمل للقديم واعتباره محاولة لاستعادة التاريخ والزمان الإنسانى وكذلك محاولة لاستعادة القداسة والعودة عن علمنة المبانى، إلا أننا رفضنا فكرة تحويل المنزل إلى متحف، فأنا أؤمن بالفرق بين ما أُسميه الماضى المتحفى والماضى الحى. فالماضى المتحفى (مثل ماضى مصر الفرعونى) جميل ولا شك، ولا بد أن نحافظ على بقاياه وندرسها، من أجل جماله فى ذاته ومن أجل الذاكرة التاريخية للإنسانية جمعاء. ولكن بعد الفتح الإسلامى تغيرت الأنساق الرمزية واللغوية والدينية والحضارية بحيث صار امتداد هذا الماضى الفرعونى فى حياتنا منعدمًا تقريبًا، وإن وُجد امتداد له فهو فى بعض التفاصيل (مثل بعض الكلمات، وأسماء بعض القرى والمدن، وبعض العادات الشعبية مثل أكل الملانة والفسيخ فى شم النسيم) التى لا تغير بشكل جوهرى من رؤيتنا العربية الإسلامية للكون، وهى الرؤية الممتدة من الماضى إلى الحاضر، تعيش فينا وتشكل أساس خريطتنا المعرفية أو نماذجنا الإدراكية. لذا اخترنا الطراز العربى أساسًا لإعادة تحديث منزلنا، وإن كانت هناك بعض القطع الفرعونية فيه.

*** نعم للمحاكاة... لا للتقليد**

ونحن لم نلجأ إلى تقليد الماضى وإنما إلى محاكاته، وثمة فرق بين التقليد والمحاكاة. فالتقليد هو أن تحاول أن تنقل شيئًا بحذافيره (وهذا ما يفعله بعض دعاة التغريب ممن يحاولون أن ينقلوا الحضارة الغربية كما هى، والمفارقة أنهم لا يختلفون كثيرًا عن بعض السلفيين ممن يحاولون نقل «الماضي المجيد «بحذافيره). أما المحاكاة فهى أن تحاول أن تصل إلى جوهر الشىء وتولِّد منه ما يتناسب ووضعنا الحديث، لذلك كنا نزور البيوت المملوكية القديمة ونتدارس ما فيها ونحاكيها من خلال ترجمة فلسفتها المعمارية الداخلية والخارجية إلى طراز حديث.

*** تجديد الخطـاب الإسـلامى (فى المعمـار)**

وقد وجدنا أنه لا بد من تطوير طراز عربى إسلامى حديث يحاكى القديم ولا يقلده، يلائمنا ويريحنا ولا يسقط فى قبضة تقليد القديم أو الغربى. هذا الطراز لا بد أن يكون منفتحًا قادرًا على استيعاب الأساليب الأخرى، شرقية كانت أم غربية، وقد أسميته «الأسلوب الاستيعابى». ومن هنا رغم أن معظم أثاث بيتى من الطراز العربى، فإن غرفة المائدة من الطراز الإنجليزى الذى يقال له «إدواردى». وقد اخترنا هذه الغرفة (التى وجدتها ملقاة أمام إحدى محلات الأثاث القديم فى حى السيدة عائشة، واشتريتها ببضعة جنيهات) لجمالها ولأنها يمكن من خلال خطوطها المستقيمة أن تندمج ببساطة مع الطراز العربى الإسلامى.

ومن مظاهر هذا الأسلوب الاستيعابى أن أبواب الغرف ليست متماثلة ولا نمطية، فكل باب له شخصيته، ومختلف عن الأبواب الأخرى (لا ندرى

سر إصرار الكثيرين على أن تكون كل الشبابيك والأبواب متماثلة، سوى أنهم خضعوا للتنميط الذى تفرضه الصناعة الحديثة وفكرة خط التجميع).

*** د. المسيـرى والفنون التشكيلية الأخرى**

ويظهر اهتمامى بالفنون التشكيلية فى اهتمامى بالأزياء، فكثيرًا ما أقرأ أخبارها وأتتبع ما تجود به قريحة مصممى الأزياء من أفكار مخيفة تدل على أن همهم هو اللعب الذى يعبر عن ما بعد الحداثة فى الغرب وليس الإبداع. وقد صممت لنفسى قميصًا يتفق مع أوضاعنا البيئية والثقافية، فالقميص لا رقبة له (ما فائدة الرقبة فى بلادنا سوى إننا نضطر لغسلها وكيها؟) وهو قميص مفتوح الصدر مثل الجلابية وبه جيبان كبيران أسفل القميص وجيب صغير فى نصف الأعلى.

وعند عودتى من الولايات المتحدة إلى قاهرة الانفتاح عام 1979، أُصبتُ بصدمة حضارية حقيقية عَبَّرت عن نفسها فى الاهتمام الحاد بالأشياء القديمة والرغبة شبه المَرَضِّية فى اقتنائها، فاقتنيت أشياءً قديمة لا يربطها رابط (مكواة - طربوش - خوذة جندى ألمانى نازى فى العلمين... إلخ). وقرأت كتابًا فى سوسيولوجيا الأنتيكة (علم اجتماع القديم) عرفت منه أن جامعى الأشياء القديمة هم عادة أُناس مشغولون بالتاريخ والزمان والتفرد. فالشىء القديم، على عكس السلعة، لا يتكرر ولا يوجد على نطاق جماهيرى، بل هو يؤكد الخصوصية والتفرد.

*** د. المسيـرى والطبيعـة**

ولم يكن حب الطبيعة إحدى صفاتى، ففى أثناء إقامتى فى الولايات المتحدة وإجازاتى فى أوروبا، كنت لا أزور إلا المتاحف والمعالم الأثرية.

ولعل هذا يعود إلى اهتمامى المتطرف بالإنسان وبالحضارة باعتبار أنها من صنع الإنسان. وقد دعم من هذا الموقف فهمى لتراثى الإسلامى. فالحضارة العربية هى أساسًا حضارة مدن (وليس حضارة بدو رُحل كما يروج البعض) فهى قد بدأت فى مكة والمدينة ثم توالت المدن (دمشق - بغداد - القاهرة... إلخ) بعد ذلك.

وقد جاء فى الذكر الحكيم ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: 72]. فالإنسان هو المركز، والطبيعة هى الهامش. كما كنت أردد قول سقراط: «أنا محب للمدينة، وساكنو المدن هم أساتذتى، وليس الصخور والشجر». كما كنت استشهد لطالباتى بقول الدكتور جونسون لصديقه الذى بدأ يُعجب بالطبيعة فى فرنسا «إن النباتات إن هى إلا النباتات، سواء فى هذا البلد أو ذاك. لهذا لننظر لنرى كيف يختلف أهل هذه البلاد عمن تركناهم خلفنا». وقد كان كل هذا تعبيرًا عن التمركز حول الإنسان (الهيومانية).

ولكنى لاحظت مؤخرًا أننى بدأت أهتم بالحدائق، ولعل اهتمامى هذا هو تعبير عن إيمانى بثنائية الوجود الإنسانى (الجسد والروح - الخير والشر... إلخ)، فالحديقة هى النقطة التى تتقاطع فيها الطبيعة مع الإنسان، فهى ليست بشىء طبيعى/ مادى، ولا هى بعمل فنى، بل هى ثمرة التوازن بين الإنسان والطبيعة والتفاعل بينهما.

***

حصاد رحلة المسيرى الفكرية

القارئ الكريم...

وصلنا إلى نهاية الرحلة، وما قطفت لك من الثمر ليس بأشهى مما تركت، فكثيرًا ما كنت أقف أمام فكرة أو حكاية مترددًا بين إثباتها وتركها، ولكنها ضرورة الاختصار والتبسيط.

ولا شك عندى أن الكثيرين من القراء (بعد أن ذاقوا حلاوة هذه الثمار) سيبحثون عن أصل «رحلتى الفكرية» ليعيشوا الرحلة بتفاصيلها ويستمتعوا بها، وأن البعض الآخر سيعاود قطف الثمار أكثر من مرة.

وتبقى ثمرتان:

فى الأولى نجد أن د. المسيرى بعد أن أَخضع التاريخ وحياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإنسانية بل والعاطفية لِمِبضَع «النماذج»، فإنه استدار إلى «ذاته» ليخضعها لنفس المبضع، ليصل إلى أعماقها وخباياها. وقد وجدتُ أن ما يطرحه د. المسيرى فى تأمله لذاته يتمشى تمامًا مع مفاهيم دينية استقرت فى نفسه، لذلك استلهمت لأفكار هذه الثمرة عناوين من آيات كتاب الله وأحاديث رسوله ﷺ.

وفى الثمرة الأخيرة، أُهدى إلى د. المسيرى قصة أهداها فى ختام «رحلتى الفكرية» إلى د. جمال حمدان وإلى كل مفكر يبتغى الكمال.

الثمرة التاسعة والأربعون بعد المائة...

رجل أُمَّة: رجل يعيش فكرة

تأملات فى ذاتى

فى ختام رحلتى الفكرية أرى أنه لا تزال فى جعبتى بضع كلمات أقولها عن ذاتى، أَنظر فيها وأحاول أن أوضح كيف أراها، أى أن ذاتى تصبح موضوع تأملى ورؤيتى بشكل مباشر ومُرَكَّز.*

* ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[الحجر 28 - 29].

حينما أتأمل حياتى ككل أجد أن أهم ما فيها هو اكتشافى أن الحياة الإنسانية مُرَكبة ومفعمة بالأسرار والثنائيات والتنوع، وليست بسيطة أو سطحية أو أحادية، وأن الإنسان كائن فريد فى العالم الطبيعى/ المادى (جسد من طين ونفخة من روح الله) ولعل رفض الواحدية وإدراك ثنائية الإنسان والطبيعة/ المادة هو مدخلى لفهم العالم من حولى ولفهم الآخرين، ولفهم ذاتى.

وقد جعلنى ذلك أرفض تقديس كل ما هو غير إنسانى، فأرفض عبادة الطبيعة أو عبادة التكنولوجيا، أو عبادة العقل أو عبادة العاطفة أو عبادة المثالية الخالصة أو عبادة الروحية الخالصة. بل إننى أرى أن هذه الموجودات كلها مكونات متكاملة متناقضة، وأن هذا الكائن الفريد؛ الإنسان الإنسان،

يقع فى نقطة تقاطع/ تلاقى كل هذه العناصر. وكما يعنى هذا التقاطع/ التلاقى تركيبية الإنسان، فإنه يعنى كذلك أن الإنسان كائن تحده الحدود، فالمثالية تضع حدودًا على المادية، والجسد على الروح، والدنيا على الآخرة، والسياسى والمعرفى والتاريخى على المطلق والثابت والمقدس، والعكس، وبذلك لا يفقد الإنسان ذاته الإنسانية فى بعد واحد من هذه الأبعاد.

* ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ... ﴾ [القصص: 77].

وتتبدى ثنائية الإنسان من ناحية فى عدم إنكارى الدنيا (الوجود المادى) وضرورة فهمها والتمتع بها، فهى المجال الذى يحقق فيه الإنسان حريته ويحقق إمكاناته. كما تتبدى الثنائية من ناحية أخرى فى محاولتى ـ قدر استطاعتى ـ ألا أُستوعب فى الدنيا تمامًا، وألا أذوب فى اللذة والاستهلاكية، فهما يدمران حدود الإنسان.

وفى كتاب الفردوس الأرضى ناقشت رغبة الإنسان الأمريكى العارمة فى أن يحقق الفردوس الآن وهنا، فينكر التاريخ والماضى، وينكر المستقبل، ويعيش فى اللحظة وحسب، وينكر ما وراء حدود المادة (أى ينكر الكثير من عناصر التقاطع والتلاقى والتركيب)، فينقلب الفردوس إلى جحيم؛ لأن الإنسان كائنٌ مركب لا يمكنه أن يعيش إلا داخل حياة مركبة، لا هى بالمادية الدنيوية ولا بالروحية الأخروية.

* ﴿ ...وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: 21].

كما تظهر ثنائية الإنسان فى ميلى نحو التنظير والتأمل وانجذابى نحو عالم الفكر، على أن يظل التنظير منفتحًا على الحياة. قد أقوم بنحت النماذج

الإدراكية وأرى تفاصيل الواقع من خلالها، ولكنى أحاول قدر استطاعتى أن يظل النموذج منفتحًا على الواقع، حتى يمكن للواقع أن يثريه ويعدله، بل وقد يغيره (ومن هنا تظهر العلاقة الحلزونية بينهما).

* ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: 162].

إن مشروعى الفكرى (الذى يدور حول ثنائية: الإنسان ـ الطبيعة) لم يكن قط مشروعًا خاصًا للشهرة أو اللذة أو تحقيق الذات على حساب الآخرين، وإنما هو مشروع له بُعد إنسانى عام اكتسب التوجه الربانى بعد إنتقالى إلى رحابة الإيمان. وقد تَبدّى هذا التوجه فى كل مراحل مشروعى الحضارى الفكرى، سواءٌ حين كتبت عن الصهيونية أو عن الأدب أو قصص الأطفال، أو حتى حين غيَّرت معمار منزلى وأثاثه !.

* ﴿... فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ... ﴾ [الأعراف:145].

ولا شك أنه توجد فى شخصيتى نزعات إمبريالية! تتضح فى أننى عبر حياتى كان لى دائمًا هدف/ مشروع أكبر من مقدرتى، ولا أعرف كامل أبعاده إلا بعد أن أدخله. ولعل هذه إستراتيجية نفسية غير واعية لأخدع نفسى حتى لا أجبن عن القيام بالمشروع (فهل فى مقدور إنسان أن يبدأ مشروعًا لا ينتهى إلا بعد أكثر من ربع قرن، ويكلفه من الأموال ما لا يملك عندما يبدأ مشروعه؟!).

كما تتضح نفس النزعة الإمبريالية فى أننى أقوم دائمًا بترتيب تفاصيل حياتى وتنظيم وقتى بشكل صارم فى إطار هذا المشروع. وتتضح كذلك فى مقدرتى على تجاهل الظروف المحيطة وأحيانًا تجاهل الآخرين (مثل عدم حضور جنازات وعدم زيارة المرضى)، بل عندى مقدرة على توظيف

الآخرين (وتوظيف ذاتى)، ليس لمصلحتى الشخصية، بل من أجل إنجاز مشروع فكرى أتصور أنه سيكون فيه الخير للجميع.

ومع هذا يجب أن أذكر الجانب الآخر، وهو أننى مدرك لهذه النزعة الإمبريالية، بل أمقتها. وثقتى بنفسى هى التى مكنتنى من التغلب على الذئاب الثلاثة التى نهشتنى، فهى ثقة بالإنسان وبمقدرته على تجاوز ذاته وعلى الإصلاح والتحول وعلى معرفة حدوده، لذلك فهى ثقة لا يتتج عنها غرور وخُيَلاء، وإنما اعتزاز بالإنسان وقدراته، مع تفاؤل دائم بخصوص المستقبل. وتُوَّلد هذه الحالة العقلية والنفسية فى نفسى مقدرة على المزيد من العمل من أجل إقامة العدل فى الأرض وخلق مجتمع يليق بنا كبشر.

وأحرص دائمًا فى مؤلفاتى أن أُعطى كل ذى حقٍ حقه حتى لا أنسب لنفسى شيئًا لم أقم به. كما أحاول قدر استطاعتى أن أعوض من يتعاون معى عما بذله من جهد بشكل أو بآخر (بخلاف ما قد أدفعه له من أجر زهيد). فإن كان طالبًا فى الدراسات العليا مثلًا أحاول أن أناقشه فى رسالته وأوفر له بعض المراجع وأشجعه. وقد أسَمَّت إحدى طالباتى هذه النزعة بـ«الهندسة الإنسانية» أو «الشَبَكة الإنسانية»؛ وتعنى بها أننى أُكَوِّن شبكة من العلاقات الإنسانية أُمَثل أنا مركزها، الجميع يخدم فيها الجميع بطريقة تراحمية مبتكرة بحيث يحقق جميع الأطراف من خلالها المكاسب المباشرة (التى تفوق أحيانًا ما تحققه العلاقات التعاقدية) ولا يشعر أفرادها بالوحدة واليُتم الكونى.

* لأن يهدى الله بك إمرء واحـد،

خيـر لك من الدنـيا وما فيـها. صدق رسول الله ﷺ.

حرصت على أن أبذل جهدًا كبيرًا فى محاولة العثور على المواهب الشابة وتشجيعها، فهم فى مجتمع غرق تماما فى تفاصيل الحياة اليومية واستوعبه

الإيقاع السريع المجنون، وبدأت النمطية تهيمن عليه. فى هذا المجتمع، يمكن أن تولد عقول مبدعة ولكنها تضيع فى الزحام ولا تتعرف على نفسها، بل وتفقد الثقة تمامًا فى ذاتها إن لم يرعها أحد، خاصة مع غياب أى مؤسسات بحثية فعالة ترعاهم وتُنمى قدراتهم. وقد لاحظت أن كثيرًا من طالباتى الذكيات ليس عندهن أى ثقة فى أنفسهن (والمفارقة أن الغبيات منهن كن على عكس ذلك تمامًا إذ يتمتعن بثقة بالغة بأنفسهن!)، لذا أصبح من أهم وظائفى أن أكتشف الذكيات المتواريات.

ولعل تجربتى الإيجابية مع أساتذتى عبر حياتى هى التى وَلَّدت هذا الجانب فى شخصيتى، فلولاهم لما دخلت عالم الفكر والإبداع، ولما أنتجت ما أنتجت. لذلك حينما عدت من الولايات المتحدة بدأت فى تكوين حلقات من الشباب نجتمع بشكل دورى، فنتحاور ونتسامر وننمو فكريًّا ونأتنس الواحد منا بالآخر. وقد تطورت هذه الاجتماعات إلى أن أصبحت ندوة شهرية، كانت تضم فى البداية بعض الشباب ذوى التوجه الإسلامى، وكان الهدف منها هو تطوير خطاب إسلامى جديد، ثم تطورت الندوة ليصبح هدفها تطوير خطاب تحليلى جديد وتعميق الإحساس بالمنهج.

* ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ [الرحمن: 8].

لم يدفعنى مشروعى المعرفى (خاصةً إبان كتابة الموسوعة) على ضخامته لأن أهمل حياتى العائلية والاجتماعية. فقد رتبت لأولادى حياتهم، كما أن زوجتى التى شاركتنى «الهوس أو الجنون المقدس» لم تفقد حياتها فى مشروعى، بل ساهمت فى مشروعى كزوجة وكأستاذة جامعية، واستمرت فى حياتها الجامعية وصداقاتها. ورغم إهمالى بعض جوانب حياتى الاجتماعية فإننى نجحت فى جوانب أخرى كثيرة، فلم أتوقف عن رؤية أصدقائى

وأقاربى، ولم أتوقف عن التمتع بكثير من جوانب الحياة الدنيا. باختصار شديد: لم أتحول إلى راهب ينكر عالم الجسد والطبيعة، رغم أن مشروعى المعرفى تملَّك علىَّ ذاتى وجوانحى.

وبرغم انغلاقى النسبى على ذاتى (وهو أمر أرى أنه ضرورى أحيانًا ليحمى الإنسان نفسه مما هو شائع ومألوف، وليقى نفسه شر التفاصيل والتفاهات ولغو الحديث والأحداث اليومية) فإننى لم أتقوقع قط، بل ظللت منفتحًا على كل ما حولى، أتفاعل معه وأتعلم منه. قد لا أقبل ما أرى، ولكنى أخضعه دائمًا للتحليل، وأستبطن ما أرى أنه خير، وبعد مدة طويلة (بعد أن يكتمل النموذج الجديد) أبدأ فى التحول (ألم أنتقل من ضيق المادية إلى رحابة الإيمان عبر ربع قرن؟!).

* ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران: 200].

وكثيرًا ما تهاجمنى لحظات يفقد الكون فيها معناه، وتصبح الأمور سخيفة ونسبية، وأبدأ فى الشعور بالرغبة فى تحطيم ذاتى وتحطيم من حولى. حدث لى هذا عند توقيع اتفاقية كامب ديفيد. كما حدث ذلك عام 1979 خلال وجودى فى الولايات المتحدة، وكنت أقوم ساعتها بجولة فى الكونجرس لأحدثهم عن علاقة إسرائيل بجنوب إفريقيا، وفجأة بدأت أشعر بسخافة ما أفعله وأتساءل عن جدواه، وكنت أسأل مرافقتى: لِمَ لا أتوقف عن كل هذا؟ بل وأسأل نفسى، لماذا سأعود إلى مصر، وأنا عندى عروض مغرية لوظائف عديدة؟! أمكث فى أمريكا، بلد اللاتاريخ والآن وهنا، فأعيش فى اللحظة ولا أفكر لا فى الماضى ولا فى المستقبل، فأفقد وعيى وأهنأ بما تدركه

حواسى الخمس، بحُسبانه البداية والنهاية.. أليست هذه ألذ طريقة للانتحار يعرفها المرء؟!.

كانت مثل هذه اللحظات تهاجمنى، ولكنى - **بفضل الله وبسبب إيمانى به وبالإنسان - أعود إلى عالم الوعى والحدود والمقدرة على التجاوز فأستمر.** فأعاود الذهاب إلى الكونجرس، على سبيل المثال، أقابل بعض أعضائه لأحدثهم عن تحيز الإعلام الأمريكى ومن ثَمَّ حرصه على عدم كشف العلاقة بين جيبين استيطانيين عنصريين (إسرائيل وجنوب أفرقيا)، أُخرج الأدلة من حقيبتى وأعطيها إياهم، علَّ الله أن ينير أبصارهم وأن تتحول الحقيقة إلى عدل. ثم أعود بعد ذلك إلى مصر، لأُدرِّس فى كلية البنات ولأكتب الموسوعة، ولأعقد ندوة شهرية أتفاعل من خلالها مع الشباب، و...

الثمرة الخمسون بعد المائة...

* ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن :60].

القارئ الكريم...

ينهى د. المسيرى رحلته الفكرية، **بقصة فنان مدينة كوورو**، يهديها للدكتور جمال حمدان، كما يهديها «لكل فنان ومفكر يتفانى فى عمله ويُستوعَب فيه حتى ينسى تمامًا الزمان والمكان والطبيعة/ المادة، ليُبدع عملًا فنيًا جميلًا، خامته مستقاة من الطبيعة، ولكنه فى تناسقه وتركيبيته وجماله يقف شاهدًا على قوة النفس البشرية ومقدرتها على التجاوز»، والقصة من كتاب هنرى ديفيد ثورو وولدن.

وأنا بدورى أُهـدى نفس القصـة للدكـتور عبد الوهـاب المسيـرى ﴿...هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا...﴾ [يوسف: 65] علها تُعبر عن امتناننا بمشاركته هذه الرحلة الفكرية فى دروسها ومُتعتها. وإذا كان فنان مدينة كوورو «نمط عام ونموذج معرفى» فإن د. المسيرى خير من ينطبق عليه هذا النموذج.

* ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن :60].

«كان هناك فنان يعيش فى مدينة كوورو، دائب المحاولة للوصول إلى الكمال. وذات مرة أراد أن يصنع عصا بديعة، فقال لنفسه: سيكون عملى كاملًا من جميع النواحى، حتى لو استلزم الأمر ألا أفعل شيئًا آخر فى حياتى.

ذهب الفنان فى التو إلى غابة باحثًا عن قطعة مناسبة من الخشب ليصنع منها العصا، وبينما كان يبحث فى صبر واهتمام، ويستبعد قطعة الخشب تلو الأخرى، بدأ أصدقاؤه تدريجيًا فى التناقص، إذ نال منهم الهرَم وقُضُوا، بل أضحت مدينة كوورو أطلالًا عتيقة. أما هو، فلم يتقدم به العمر لحظة واحدة، فوفاؤه لغايته وإصراره وتقواه السامية أضفت عليه، دون علمه، شبابًا أزليًا. ولأنه لم يهادن الزمن، ابتعد الزمان عن طريقه.

وأخيرًا يجد الفنان العصا المناسبة من جميع النواحى،، فجلس على أحد أطلال المدينة لينزع لحاءها. وقبل أن يعطيها الشكل المناسب، كانت أسرة كاندهار الحاكمة قد بلغت نهايتها، فكتب اسم آخر أعضائها على الرمل بطرف العصا، ثم استأنف عمله !. وقبل أن يضع الحلقة المعدنية (فى طرف العصا لوقايتها)، وقبل أن يُزيِّن رأسها بالأحجار الثمينة كانت آلاف السنين قد مرت. وكان الإله براهما قد استيقظ وأخلد إلى النوم عدة مرات.

وحينما وضع الفنان اللمسة الأخيرة على العصا، اعترته الدهشة إذ تمددت العصا بغتة أمام ناظريه لتصبح أجمل المخلوقات طُرًا. لقد صنع نَسَقًا جديدًا بصنعه هذه العصا، عالمًا نِسَبُه كاملة وجميلة. وفى سعيه لبلوغ الكمال زالت مدن وأُسر قديمة، ولكن حلت محلها مدن وأُسَر أكثر جلالًا. وفى هذه اللحظة أدرك الفنان أن مرور الوقت فى السابق بالنسبة له ولعمله كان مجرد وهم، وأنه لم يمر من الوقت إلا القليل.

كانت مادة عمله نقية صافية، وكان فنه نقيًا صافيًا،

فكيف كان يمكن للنتيجة ألا تكون رائعة؟».

والله تعالى أعلى وأعلم.

نسأل الله لك يا سيدى

الفردوس الأعلى من الجنة

وجعلنا إخوانًا على سرر متقابلين.

آمين

يُعد الدكتور عبد الوهاب المسيرى واحداً من قلائل يسعون بدأب للبحث فى جذور الشخصية المصرية وتأسيس هوية تنبع من خصوصيتها وتراثها. وهو يمثل نموذجاً فريداً للمفكر الذى يؤمن بمسئوليته تجاه مشروعه ومجتمعه ووطنه، وبضرورة التفاعل الحيوى فى هذا المنحنى التاريخى المضطرب الذى يعترى العالم.

ويسعى هذا الكتاب لتتبع رحلة المسيرى الحياتية والفكرية، راصداً أهم محطاته وإنجازاته، ليقدمها للأجيال الجديدة، مشاعل هادية على الطريق، فى مرحلة مصيرية من مراحل أمتنا العربية، وفى عصر يسميه المسيرى "عصر اغتراب الإنسان وخيانة القيم".

ونحن إذ نقدم الكتاب فى طبعته هذه، إنما نفعل ذلك تقديراً وعرفاناً لهذا المفكر الكبير الذى رحل عن دنيانا، لكن لا تزال مشاعل علمه باقية تضىء أمامنا الطريق.

تصميم الغلاف : أحمد عاطف



